

هوبرتس هوفمان



قانون التسامح

دليل للساعين إلى تحسين أوضاع العالم

وللمتشائمين والمؤمنين الثابتين والمفكرين الأحرار

ترجمة د. عادل خوري

برلين

2015

نصير
أحمد ياسين



الكتاب: قانون التسامح
المؤلف: هوبرتس هوفمان

الطبعة الأولى : 2015

رقم الإيداع: 20682/2014

الترقيم الدولي: 3-201-319-977-978

Hubertus Hoffmann, *Codes der Toleranz*
Eine Anleitung für Weltverbesserer und Pessimisten, streng
Gläubige und freie Geister

الغلاف: محمد السيد

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

email: info@alarabipublishing.com.eg

www.alarabipublishing.com.eg

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

بطاقة فهرسة

هوفمان، هوبرتس
قانون التسامح شرائع السماحة: دليل للساعين الى تحسين أوضاع العالم وللمتشانمن
والمؤمنين الثابتين والمفكرين الأحرار - القاهرة: العربي للنشر والتوزيع ، 2014

- ص: سم.

تملك 9789773192013

1 - الدين والدولة 2 - الإسلام والنساجسة

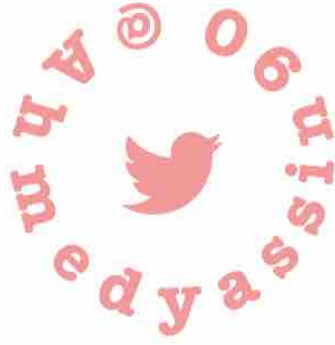
205

أ - العنوان

إهداء

هذا الكتاب مُهدى إلى كيارا (مولودة عام 2002) وتلمان (مولود عام 1990) وإلى جميع أولادنا الكثيرين الأحباء في كرتنا الأرضية الصغيرة المشتركة ضمن كونٍ غير متناه. جميعهم بحاجة إلى مستقبل مليء بالسلام وبالتسامح بين البشر والاحترام بيننا، نحن السبعة مليارات من البشر المتنوعين. فنحن الوالدين لنسجَ إلى تحقيق عالم جديد 0/3 مليء بالودِّ القلبي والالتفات الأخويِّ نحو الآخرين وحبِّ البشر.

دعونا نوقف المتطرفين بعدد كبير من أفعالنا الصغيرة الصالحة.



نصوير

أحمد ياسين

نوينر

@Ahmedyassin90

مقدّمة

حرب وحشية؛ هذا هو الوصف الأدق لذلك الصراع القائم خلال العام 2014 بين السنة والشيعة في كل من العراق وسوريا، حيث ينضوي السنة تحت لواء "الدولة الإسلامية" (داعش). وهم يستهدفون التخلص من أصحاب المعتقدات الأخرى ويقتلون باسم الدين، ويجبرون المسيحيين على اعتناق الإسلام، ويحرقون كنائسهم، وكذلك يهدمون ويحرقون مساجد الشيعة. في أيّ عالم نعيش اليوم - وفي أيّ عالم نريد أن نعيش غدًا مع أولادنا؟ 193 بلدًا تزيد تقاربًا وتحوّل معًا إلى "قرية شاملة". مع أننا نشعر بالمسافات كأنّها تتقلّص، إذ إنّنا اليوم نتبادل بواسطة الإنترنت الأخبار بسرعة بعض الثواني، ونسافر إلى بلاد غريبة، ومع ذلك لا نزال بشرًا يختلفون في إيمانهم وثقافتهم، وغرباء بعضنا عن بعض إلى حدّ بعيد. نعيش في أوطاننا متجاورين حتى لو مختلفين. فالعولمة النشيطة أرست قواعدنا وحازت على تقدّمها في مجال الاقتصاد والمال والمواصلات. أمّا عولمة العلاقات بين البشر على أساس ازدياد في السماحة والاحترام والحب، فعلينا في القرن الحادي والعشرين أن نقوم بتحقيقها. فإننا بذلك، فقط، يمكننا نحن الذين بلغ عددا سبعة مليارات نسمة - بغضّ النظر عن كلّ الجذور الوطنية والثقافية والدينية - أن نعيش معًا في هذه الكرة سعداء وننعم بسلام أوسع. فلا يكون الواحد منّا مهتمًا بنفسه فقط، بل نحيا كلّنا معًا. نحن في عالمنا الضيق المتنوع بحاجة ماسة إلى أنسنة العولمة، وإلى أخلاقيات عالميّة مُعاشة، وإلى شرائع السماحة.

هذا الكتاب نداءً موجّه إلى القارئ وقبل كلّ شيء إلى الأكثرية الصامتة، يدعو إلى تعزيز أوسع للسماحة والاحترام تجاه أديان وأقليات إثنيّة وأعراق مختلفة. وذلك بمبادرات صغيرة وشجاعة نبيلة. هذا تحريض على توسيع المشاعر القلبية والإحساس الإنسانيّ ومحبة الناس في قريتنا العالميّة. وفي الوقت عينه يرفض التحليل كلّ أنواع التطرف الدينيّ أو السياسيّ.

كلّ واحد منّا يمكنه أن يضيف قطعة في تركيب السماحة. في جميع أجزاء الأرض والثقافات والاتجاهات الدينية، نجد أمثالا صغيرة وكبيرة ممتازة، تدلّنا كيف يمكننا أن نحسّن عيشنا المشترك. وقد بدأت في هذا الكتاب أجمع المئة الأولى منها وأعرضها عليكم، هي الأمثال المثاليّة للسماحة. كلّها تبين أنّ السماحة تمكن ممارستها. فبفضل عدّة آلاف نشاط على الصعيد المحليّ والوطنيّ والدولي نستطيع أن نعزّز معًا المحبة والسلام ونقيم سدًا أمام الشرّ. فلنقتدّ بهذه المثلّ الصالحة.

القسم الأول من الكتاب يحلّل ثمار التسامح الذهبيّة في الأديان العالميّة الكبيرة، خصوصًا في الإسلام. فنصف الكتاب يعرض تعاليم القرآن والنبّي محمّد تجاه أتباع الأديان الأخرى، والقطع العشر للسماحة في الإسلام.

إنّ هذا الدين يخبره الكثيرون اليوم كدعوة إلى التعسّف، لذلك تمّ الاهتمام به اهتمامًا أوسع من الأديان الأخرى. يلحق بعد ذلك وصف مقتضب لتطوّر أخلاقيّات عالميّة وأبحاث في النسبيّة الأخلاقيّة، وفي حدود السماحة وفي علم النفس والسماحة. في المقطع الأخير تشير ستون من شرائع السماحة إلى الطريق الذي يمكّننا من أن ننشئ معًا عالمًا أفضل. هي قواعد عمليّة لكلّ واحد منّا، وللقيادة الدينيّين، وللوالدين والمربيّين والمدارس، ولوسائل الإعلام والصحفيّين، ولأصحاب الأمر السياسيّين، ولحقل الرياضة البدنيّة والثقافة. ممارستها تستطيع أن تحسّن تحسنيًا فعّالًا تعايش مختلف الأديان والأقليّات والأعراق، وتقيم سدًّا أمام المتشدّدين.

شرائع السماحة هي جوابنا الإنسانيّ كمواطنين عالميّين ضدّ دعاة البغض. لا يجدر بنا أن نشكو من وجود المتشدّدين الذين يثيرون البغيضة ضدّ أتباع الأديان الأخرى والأقليّات والأعراق الأخرى، كما جرى ذلك في كلّ زمان وفي جميع أنحاء العالم. علينا أن نخجل من أننا بسبب ركوننا إلى الصمت نفسح لهم في المجال الحرّ لتوسيع مجال الشرّ.

المصالحة مع الأقليّات الإثنيّة هي عامل إضافيّ مهمّ لسماحة فعّالة، كما يعبر عنه هذا الكتاب. ونحن نختبر أهمّيّتها بالنسبة إلى السلام الداخليّ في هذا العام في قضيّة القرم وأوكرانيا، وكذلك في سوريا وجمهورية أفريقيا الوسطى ومالي والعراق. هنا تقف المصالحة الصغيرة بين الإنسان والإنسان في نقطة الوسط.

إنّ البحث عن قطع التسامح الذهبيّة يقودنا إلى بلاد كثيرة متنوّعة الثقافة، مثل أفغانستان وما يعاني من أوجه القتال، وجبال القبائل الباكستانيّة، والعراق الممزّق، والأرض المقدّسة الراضحة تحت ألوان النزاع من البحر المتوسّط إلى دولة الأردن، وعالم التعدّد في الهند، وأفريقيا الجنوبيّة التي نعمت بالمصالحة، والبرازيل اللطيف، والبلقان الذي وجد الآن السلام، والفاتيكان وبولونيا الكاثوليكيّة. إنّ وزير التربية العالية والعلوم في اتّحاد الإمارات العربيّة، الشيخ نهيان مبارك النهيان، رفع في 10 مارس/ آذار 2008 الانطلاقة لمبادرتنا هذه بدعوته لي لإلقاء حديث عن "الشرائع الإنسانيّة للسماحة والاحترام" أمام 1800 امرأة - منهنّ جين فوندا - في إطار "الندوة حول مهمّة النساء كقيادة شاملة"، في جامعته في دبي¹.

¹ إنّ الحديث في إطار العشاء الذي ألقاه الدكتور هوبرتس هوفمان في مركز جُميرة للندوات في دبي، وعنوانه "الشرائع الإنسانيّة للسماحة والاحترام"، يمكن الوصول إليه في www.codesoftolerance.com تحت عنوان "إسلام". عن ندوة جامعة زيد، راجع معلومات في

www.zu.ac.ae/leadership2008/hotffman.

وافق الدلاي لاما على حديث حول السماحة في البوذية. وقد ساهم أيضًا كثيرون بإدلاء آرائهم، منهم الإمام وكبير المُفتين وآية الله والغورو، والكرادلة، والأساقفة، والأمراء العرب، والعلماء والسياسيون الملتزمون من أنحاء العالم. والعالم الشهير في حقل الإسلاميات، البروفسور الدكتور عادل تيودور خوري هو مؤلف عدد كبير من الكتب وواضع ترجمة للنص القرآني نلجأ إليها هنا. وقد طالع للتصحيح القسم الواسع حول الإسلام. وصديقاى رئيس الأساقفة البروفسور الدكتور ألفونس نُسُول من أبولة في سيلازيا العليا ببولونيا، والمنسنيور أرتفين غِبُور، نَبَّها إلى عرض شرائع التسامح المسيحية، وطالعا الفصل الذي يبحث في موضوع المسيحية والسماحة. والمؤرخ اليهودي الذي يعيش في القدس أوفر فالدمان قدّم اقتراحات عن تثبيت السماحة في الدين اليهودي. وإن يُوخن كتر من فريق شرائع السماحة في منظمتي "شبكة الأمان العالمية" قد ساند الأبحاث مساندة قوية بصفتها مدير الأبحاث. والإعلامي هُنيغ - هوبرتس بارون فون شتئين، والمختص بالعلوم السياسية كريستوفر وود، ساهما بتقديم أفكار ثمينة. لهم جميعًا وللقارئة المصححة في دار النشر الألمانية إيفا لانغ أقدم شكري الحارّ لاقتراحاتهم ومشاركتهم في العمل.

والشكر لمؤسسة نوابر الهولندية (www.noaber.com) على مساندها الموجود لهذا المشروع الشامل حول "العوامل اللينة لإحلال السلام، ضمن مؤسستي "شبكة الأمان العالمية، التي تنشر سياسة خارجية جديدة، لبقه ونشيطة، بعنوان عالم رقم 3. مع استراتيجيّة مزدوجة مستندة إلى السلطة والتصالح مع شرائع السماحة.

(www.worldsecuritynetwork.com - www.codesoftolerance.com)

في أثناء أحاديثنا الكثيرة تناقشنا مرارًا وتساءلنا: هل يسود المتطرفون القلائل عالمنا، لأنّ الأكثرية صامته تميل بنظرها؟ أيّ القيم الأخلاقية علينا أن نبلغها لأولادها، وكيف يمكننا أن نورثهم عالمًا أفضل تزداد فيه السماحة والاحترام والمحبة؟ هل من الممكن أن نجد قاعدة مشتركة بأخلاقيات عالمية، بين المسيحيين والمسلمين، والهندوسيين والبوذيين واليهود؟ كيف يمكننا أن نتجنب اصطدام الأديان والثقافات المختلفة؟ كيف نقوم بالمصالحة والانضمام مع الأقليات؟ ما على المواطن الفرد أن يفعل - وكيف؟

إن نحن نظرنا بدقة، وجدنا "شرائع السماحة" في جميع الأديان العالمية والثقافات المختلفة في الأرض. لكننا نسينا هذه الحجارة الثمينة الكامنة في الثقافة العالمية. فقد دُحرت إلى الورا بضحيج المتطرفين. إنّنا نجدتها في الإسلام، والمسيحية، واليهودية، والهندوسية والبودية، تلك المطالبة بالاحترام وأيضًا بالمحبة تجاه الإنسان خليفة الله، وبحماية كرامته الباطنة التي لا

تنهدر. فقد سبق البابا يوحنا بولس الثاني وأعلن في خطبة له: "إن أقصر طريق للإنسان إلى الله، هو الإنسان الآخر"².

بواسطة حركة جذرية يجدر بنا الآن أن نعمل بشجاعة ووضوح على إقامة نظام سماحة عالمية أفضل. وبذلك أن نتخطى أيضًا النسيئة الأخلاقية والموقف الحيادي، ونغادر فراغ عدم الاكتراث، ونتغلب على سمّ البغض ونكسب بالمقابل لهذا المشروع أصدقاءنا وجيراننا ومؤيدين مشهورين، وسياسيين أيضًا.

ولا هم إن كان الواحد منا من يحاول تحسين أوضاع العالم أو متشائمًا أو كان مسيحيًا مؤمنًا أو مسلمًا أو من المفكرين الأحرار. فإننا إن نحن اجتهدنا بخطوات صغيرة في تحسين وضع عالمنا، عند ذلك فقط نستطيع أن نحرز تغييرات ونُدحر الأقلية المتشددة.

لا ننتظر مبادرة الأمم المتحدة أو أصحاب السياسة عندنا. بل لنبدأ نحن كمواطنين.

لنتبين لأولادنا أنه من الممكن إرساء عالم أفضل. وذلك بنشاطنا نحن.

لنتعلم من الأديان العالمية القواعد الذهبية للسماحة.

لنفتح في كتاب السماحة فصلًا جديدًا شخصيًا يزيد من الاحترام وحبّ البشر في قريتنا العالمية.

لنحتلّ العالم بالمحبة والاحترام وبقدر أكبر من السماحة ونستعيده من قبضة المتشددين.

الآن الدعوة موجهة إليك، أيها القارئ العزيز. ساهم في المشروع، وضع أنت أيضًا قطعتك في فسيفساء عالم السماحة.

مارس أنت أيضًا شرائع السماحة، وروّج أنت لها.

فلنقم كلنا معًا عالمًا أفضل رقم 3/. من أجل أولادنا ومن أجل أنفسنا.

أرجو منكم أن ترسلوا إليّ أفكاركم وآراءكم وأمثالكم إلى العنوان الإلكتروني: info@codesoftolerance.com. أفضل التعليقات سوف تُنشر على الموقع التالي: www.codesoftolerance.com وفي Facebook، بعنوان "شرائع السماحة". ساندوا بذلك حملتنا من أجل سماحة أوسع.

الدكتور هوبرتس هوفمان

برلين في شهر يونيو/ حزيران 2014

². ورد ذلك على ظهر الكتاب: Krzysztof Zyzik / Krzysztof Ogiola (Hsg) : Erzbischof Alfons Nossol, Freude an Versöhnung. Deutsch-Polnische Bruchenschläge, EOS Verlag, Sankt Ottilien 2013.

تهديد

عندما ينظر الله من السماء إلى أرضنا، تلك السيّارة الزرقاء، يرى بهمّ ماذا صارت إليه حال خلّاتقه وكيف يُساء استخدام اسمه الخيّر وتعاليم حكّمته. أين ضاع احترام الناس الآخرين؟

القتل باسم الله؟

إنّ الحادي عشر من شهر سبتمبر/ أيلول عام 2001 معروف عند الناس في العالم كلّه كمثّل للقتل "باسم الله". الحادي عشر من أيلول أضحى الواقعة الكبرى في تاريخ الغارات الإرهابيّة، وبذلك أصبحت «القاعدة» أشهر منظمة إرهابيّة. ولكن لم يجد القتل "باسم الله" عند ذلك نهاية جرائمه.

في صيف عام 2014: أدى اضطهاد المتشددّين الإسلاميين السنة وإرهابيي الدولة الإسلاميّة (داعش) للمسيحيين إلى إجبار قرابة مائة ألف رجل وامرأة وطفل إلى الهرب نجاهاً بحياتهم في غضون أسابيع قليلة، ليكون هذا إعلاناً عن انتهاء 1600 عام من التسامح والتعايش السلمي في العراق. ولم يكن استسلام العسكريين الشيعة ليحميهم من مصير الإعدام الوحشي. وخلال أغسطس الماضي، ذكر الأب أثناسيوس توما داود، مطران الكنيسة الأرثوذكسية في سوريا أن استيلاء "داعش" على مدينة قراقوش العراقية، والتي تحتضن أكبر تجمع لمسيحيي العراق، قد مثل نقطة فاصلة في مصير المسيحيين ببلدهم. ووجه نداء قال فيه: "إنها الآن حرب تطهير عرقي وديني. يقتلون أهلنا باسم الرب، ويحثون الجميع على قتل المسيحيين وبيشرونهم بالجنة مقابل ذلك: تلك هي رسالتهم. لقد أحرقوا الكنائس؛ وأحرقوا الكتب والمجلدات العتيقة. دمروا الصلبان ومثال مريم العذراء. وأقاموا في كنائسنا وحولها غلى مساجد"³.

3. سام جونز وكوين بوكوت - "زعماء دينيون يقولون أن اضطهاد داعش لمسيحيي العراق تحول إلى إبادة جماعية" - الجارديان، 9 أغسطس 2014

في 24 مارس/ آذار عام 2014 توّسّلت أمُّ أحدَ المهاجمين الطالبان في فندق سيرنا في قَابُل بأفغانستان قاتلة: "أرجوك اقتلني أنا، لا أولادي". أحد عمّال الفندق شاهد مذهولاً، كيف قَتَلَ الإرهابي، الذي كان يقاتل في سبيل "إمارة إسلامية" بأفغانستان، طفلين وعمرهما من أربع إلى ست سنوات ورضيعاً، رمياً بالرصاص أولاً، ثمَّ الأمَّ والوالد سردار أحمد، مراسل مركز الإعلام فرانس برس. كانت الأسرة قبل ذلك بقليل قد احتفلت بعيد النوروز الفارسيّ في الفندق الذي يميل إليه الأجانب. وكان دافع المهاجمين الثأر؛ لكون الضحايا أجنب.

وقبل ذلك بسنة في وسط مدينة لندن: بريطانيان أصلهما من نيجيريا كانا قد ارتدّا من المسيحية إلى الإسلام، يقطعان رأس الجنديّ الشاب لي يرغباي ويخطفان بذلك والد طفل في الثانية من عمره. كان عضواً في الجيش البريطانيّ، وهذا كان سبب الحكم عليه بالإعدام. وقَبِل المجرمان أن يَصُورا والدم عالق بأيديهما. وكان تبريرهما لإراقة الدم الهمجية أن "جنوداً بريطانيّين يقتلون كلَّ يوم مسلمين".

أثناء السباق الشعبيّ الشهير في بوسطن فجّر تامرلان وصُخّر تسرنايف، وهما أخوان من أصل شاشايّ أفاريّ، قنبلتين من صنعهما. فمات في 15 أبريل/ نيسان 2013 ثلاثة متفجّجين، وجُرح 264 آخرون. والمجرمان كانا قد دفعتهما إلى التطرّف الدعاية الإسلامية المتعصّبة وحملتهما على ارتكاب الجريمة.

في 29 أبريل/ نيسان 2013، ثمانية متطرّفين من الطالبان الباكستانيّين، كانوا قد تنكّروا مرتدين ثياب جنود، أوقفوا في القرية الصغيرة «حربان نالا» على بُعد 340 كيلومتراً شمالي العاصمة إسلام آباد، حافظتين اثنتين، فاخترتا 16 من الركّاب الشيعيّين وقتلوهم رمياً بالرصاص، لأنّهم في نظرهم "كفّار".

في 21 يونيو/ حزيران 2013 هجم ثلاثة طالبان على مدرسة شيعية في بيشاور، عاصمة المقاطعة الشمالية الغربية، فقتلوا فيها 14 شخصاً وجرحوا 23. كلَّ سنة يُعدّم أكثر من 300 مسلم شيعي على يد متطرّفين سنّيّين في باكستان وحده. ويموت كثيرون من أهل الشيعة في العراق بسبب انفجارات مختلفة، وذلك لأنّهم يؤمنون إيماناً مختلفاً شيئاً ما بالله ذاته.

في يوم 14 مارس/ آذار 2012، طالب مفتي العربية السعودية الكبير، الشيخ عبد العزيز آل الشيخ بدون رحمة: "أنه من الضروريّ هدم جميع الكنائس في الجزيرة العربية"⁴.

⁴. نشرت هذه الفتوى في الصحيفة الألمانية Badische Zeitung، بتاريخ 17 مارس/ آذار 2012.

متطرّفون مسلمون في نيجيريا أحرقوا في عامي 2012 و2013، في ذلك البلد الذي له طابع مسيحي وإسلامي معاً، كنائس عديدة لأتباع يسوع المسيح وقتلوا مواطنين مسيحيين. في سوريا لا يزال إسلاميون متطرّفون يرغمون سكّان القرى المسيحيين على الارتداد عن دينهم وإلا يلحقهم التهجير.

في 23 يونيو/ حزيران 2013 قام متمردون مسلمون متطرّفون أمام جماعة مهلّلة بقطع رأس الكاهن السرياني الكاثوليكيّ فرانسيس مُراد بالسكّين، وكان مؤمناً مسيحياً وموالياً للرئيس بشّار الأسد. وصوّرت عمليّة الإعدام بواسطة هاتف محمول، ممّا برهن على ضياع كلّ شعور إنسانيّ. وبعد عمليّتهم نهب القتلة دير الفرنسيّسكان في الغسّانيّة.

وفقاً لتقرير من مجموعة الأساقفة الكاثوليك والكنيسة البروتستانتية في ألمانيا، لسنة 2013، الدين المسيحيّ هو الدين الأكثر تعرّضاً للإجفاف في العالم. في 130 بلداً يتحمّل المسيحيّون الكبت والاضطهاد السياسيّ. في 117 بلداً من أعضاء الأمم المتّحدة، وهي 193 بلداً، يتحمّل المسلمون المصاعب بسبب إيمانهم. يتبعهم في ذلك اليهود (75 بلداً)، والهندوسيون (27 بلداً) والبوذيّون (16 بلداً). إنّ الحرّية الدينيّة مركّزة بثبات في وثيقة الأمم المتّحدة. وقد صرّح جميع أعضاء الأمم المتّحدة التزامهم بهذا الهدف. ولكنّ هناك عدداً من التضييقات ووسائل الكبت الإداريّة والسياسيّة التي لا تزال تتجاهل الحرّية الدينيّة في أكثرية الدول في العالم⁵.

حتّى البوذيّون المشهورون بروحهم السلميّة شوّها سمعتهم بأعمال العنف. ففي «مياغار» الذي أكثرية سكّانه بوذيّون، أوقعوا بالأقلية المسلمة في مقاطعة «روهغيا». فسقط في المذابح عام 2013 مئات من القتلى، وأكثر من مئة ألف لحقهم التهجير. وكان قائدهم المجاهد الخطيب الداعي إلى البغض والراهب البوذيّ آئين فيراتو (فريق 969). واتّهم المسلمون بأنهم يهدمون "العرق والدين" في مياغار، وذلك ليبرئ ارتكاب عمليّة القتل⁶.

حتّى في بلاد الغرب يوجد بعض الإرهابيين القلائل الذين يتعدّون بعنف على الأقليات الأجنبية. الفرق أنّهم لا يبرّون إجرامهم بالادّعاء أنّه مطلب من الله ومن دينهم. بل يضربون ويقتلون مدفوعين ببغض الغرباء. هم عدميّون متحجّرون في إيديولوجيّتهم وآحاد عنصرّيون،

⁵. نُشر نصّ التقرير في برلين 2013.

⁶. راجع: Karl-Ludwig Günsche, Blutige Unruhen : Buddhisten-Mönch terrorisiert .Burmas Muslime, in : Der Spiegel 21 April 2013.

لا يؤمنون بأي قيم إنسانية، بل فقط بالعنف الصرف. ويجدون ما يساند موقفهم في الفرق اليمينية المتطرفة في كل أوروبا.

إليك مثلاً على ذلك: منذ السادس من مايو/ أيار عام 2013 تُساق الألمانية «بياته تشابه» البالغة الآن 38 سنة إلى المحكمة العليا في مونخن، لتحاكم على اشتراكها في أعمال قتل وعلى كونها عضوة في جماعة إرهابية مستترة.

هناك إلى جانبها متهمون بمساعدة ومعاونة الجماعة. لقد ارتكب ثلاثة من هذه الجماعة اليمينية المتطرفة الإرهابية بألمانيا في السنوات بين 2000 و2006 جرائم قتل لتسعة تجار أجانب في ألمانيا. وذلك عن لذة بالقتل وبغض للغرباء. فقد فجروا النار عام 2004 في شارع تجاريّ معظم محلاته تركية بكونونيا، قبلاً مليئة بالمسامير جرحت 22 من المارة. وهؤلاء اليمينيون المتطرفون يقللون من فظاعة ما ارتكبه النازيون في عهدهم، ويشتمون الضحايا بلعبة من اختراعهم، تعرض ابتياع معسكرات سجن بدل الشوارع والبيوت - هذه من نوع لعبة الموت.

هل فقد عالمنا ضوابطه؟ كيف نستطيع أن نصدّ هؤلاء الإرهابيين ونحصر المتشدّدين؟ أين يفتح مجال للسماحة والاحترام؟ للمحبة والسلام في قريتنا العالمية؟

ما هي القواعد التي خلّفها لنا حكماء وأنبياء الأديان السالفة منذ آلاف السنين في سبيلنا لكي نحيا معاً في قريتنا الشاملة بالمحبة والاحترام؟ ما هي المبادئ والقواعد والأسس ومناهج السماحة، وما هي التصرفات المثالية التي يمكنها أن تنشّط الاحترام تجاه الأديان الأخرى والأقليات والشعوب الإثنية؟

ماذا تبشّر الديانات العالمية بالنسبة إلى السماحة تجاه من يعتنق تفكيراً مختلفاً؟

ماذا يسعني أنا أن أساهم في سبيل عالم متناغم؟

نداء من أجل سماحة نعيشها

لو حصرنا قاطني المسكونة السبعة مليارات في قرية شاملة تعدّ مئة شخص فقط، لكان يعيش فيها 61 من آسيا، و15 من أفريقيا، و13 من الأمريكتين الشماليّة والجنوبيّة، و11 من أوروبا. وكان فيها 52 امرأة و48 رجلاً، 20 منهم فقط بيض و80 من لون آخر. وبالنظر إلى دينهم يكون منهم 34 مسيحياً، و23 مسلماً، و13 هندوسياً، و7 بوذيّين، و11 منتمين إلى

أديان أخرى صغيرة، منهم (0,2 بالمئة من اليهود) و10 لا دين لهم، واثنان ملحدان لا يؤمنان بالله. فنحن إذن لسنا قرية متناغمة، بل قرية عالمية متنوّعة دينياً.

في قريتنا العالمية هذه، جميع الناس مترابطون بعضهم مع بعض بشكل متزايد. فلا يستطيع أحدٌ منا أن يتجنّب الآخر. إنّ الحاسوب ووسائل النقل الحديثة تربط ثقافات مختلفة بثوانٍ. فنحن عالم مترابط وخاضع للجراح، لنا مسار مشترك ومسؤولية شاملة. فعلينا الآن كأفراد أن ننمو معاً ونتغلّب على الفوارق.

عندما ندخل إلى طائرة، نختبر هذا العالم المصغّر حسياً. عالم صغير نتجوّل فيه في آلة، في موضع من الأرض، ولقاء يوميّ للقرية الشاملة عشرة كيلومترات فوق سطح الأرض.

נסافر إلى بلاد غريبة، ونرى أوجهًا مختلفة ومدناً وعادات، ونسمع أفكارًا أخرى ونختبر التنوع في أرضنا. ونعمل بنوع متزايد مع أناس ينتمون إلى ثقافات أخرى. حتّى مدارسنا وجامعاتنا تصير أكثر تنوعًا دوليًا وأغزر لونًا.

هذا هو تنوع معاش ومُختبر.

قريتنا العالمية قد يشعر المرء فيها أحياناً أنّه ضائع، وحيد وغير مطمئن. إذ تبدو له غريبة بشكل متزايد. فالأحداث والتغيّرات تنمو بسرعة كبيرة، برغم أن المألوف ثابت بدرجة كبيرة إلا أن الجزم بالأشياء يتضاءل. أيعني هذا أننا تحت حمل كبير؟

في الوقت عينه نشعر أنّنا جميعاً نحتاج من الآخرين الذين يشعرون بأنّنا غرباء أن يعاملونا باحترام وسماحة. كلّنا نودّ أن نكون موضع محبة واعتبار واحترام. لا أحدٌ منا يرغب، بسبب لون جلدته وانتمائه لدولته أو دينه، في أن يُظلم أو حتّى أن يُهاجم.

نحن نطالب بالاحترام والسماحة من غرباء يشعرون هم بجانبهم تجاهنا، أنّنا غرباء. فبالمقابل علينا أن نعامل كلّ غريب باحترام وسماحة.

إنّ «جون لِنون» عبّر عن رغبتنا البشريّة العميقة في عالم متناغم بواسطة أنشودته "تصوّر" بكلماتها ولحنها: هذا حُلْمٌ يحنّ إلى الحبّ وإلى "أن يكون العالم واحداً". ثمّ إنّ سمفونية بيتهوفن التاسعة، وقطعة «هنديمت» الموسيقية "عالم التناغم" تعبّران عن شوقنا العميق إلى عالم بشريّ مشترك يسود فيه السلام، وذلك بهزّات إحساسهما الموسيقية.

المؤلف الفرنسي «أنطوان دي سانت إكزوبيري» دعا في كتابه الشهير "الأمير الصغير" في وسط الحرب العالمية الثانية إلى ممارسة معاملة إنسانية متزايدة: "لا يرى الإنسان جيداً إلا بواسطة قلبه. الأمر الأكثر أهمية لا تراه الأعين. وتبقى في حياتك كلها مسؤولاً عما جعلته مألوفاً عندك".

كل يوم تنهال علينا كالقنابل أخبار التلفزيون والعناوين والصور في الجرائد والإنترنت، عن أهوال من البغض والاصطدام والحرب والعنف والإرهاب. فيصوّر العالم فيها كجحيم معاصرة بدون رحمة ومحبة واحترام وتسامح تجاه الآخرين. ولكن السماحة والاحترام هما شرط أساسي لتعايش سلمي في عالمنا الشامل الذي نلتقي فيه لقاء يزداد انضماماً.

إن التسامح، كما يؤكد بحقُّ رئيس الأساقفة ألفونس نُسول وعلماء آخرون، لا يستقيم وضعه بمجرد التعاضّي الصرف. بل يجب أن يوسّع في اتجاه احترام فاعل ومحبة أخوية. هذه عناصر لينة حاسمة لإقرار السلام في القرية الشاملة في القرن الحادي والعشرين. وذلك في عالم يسود فيه التسلّط مع القدرة على إفناء الذات بالسلح النوويّ، ويجلب فيه كثيرون من خطباء البغض.

مفهوم السماحة متموِّج يحتوي على معانٍ عدّة، منها الصبر والانفتاح وغياب الأحكام المسبقة، والرحابة وسعة الصدر والإنسانية.

أوجب علينا أن نحدّد أولاً معنى السماحة؟ إنّي أرى مع «كارل بوبر» الذي أشار إلى ذلك عام 1974، أنّ الشوق الأكاديمي إلى تحديد المفاهيم كثيرٌ ما لا يقود شوطاً أبعد، وأننا نحتاج عموماً إلى تحاليل وأفكار سهلة الفهم.

عندي أنّ ممارسة السماحة العمليّة التي لها أهميّة جازمة في واقع حياة البشر، هي مفهوم واسع وتعبّر في الوقت نفسه عن موقف في الحياة إيجابيّ. ففيها تقدير وبهجة تجاه التنوّع كأمرٍ يكثرُ غنى الحياة الشخصية، واحترام إيمان الآخر وثقافته وكرامته، وانفتاح على العالم. فهي ليست هامة، بل تحتوي أيضاً على تدخّل فاعل ضدّ التنحية وبغض الغريب ومهرّجي الإغواء المتعسّف. هي إذن محبة للبشر إيجابية ناشطة رغم كلّ الفوارق، ومواجهتك أنت الغريب بتحيّة مهمّة إيجابية فرحة: سلام الله، سلام، السلام عليكم، التعبير عن الاستقبال الحسن وتحيّة القلب.

فعلينا أن نحمي باجتهاد أسس السلام الحساسة هذه كما نحمي ماء الشرب والهواء للتنفّس. علينا أن نحصر الداعين إلى البغض والعنف تجاه الأديان الأخرى والأقليات الإثنية وأن نعزّز بذلك قدرة المحبّة.

ولكن: نحن لا نفعل شيئاً من أجل ذلك.

نحن نفضّل أن نخرج للتبصّع أو أن نجلس براحة أمام التلفزيون، بدل أن نناضل في سبيل عالم يسوده التناغم والمحبة. نحن نصمت وننام ونتقاعس. البعض ممّا صاروا إلى ذلك متشائمين حول مصير العالم، أو هم مفكّرون أحرار أو فقط ماديّون بدون مسؤوليّة. لا نريد أن نتدخّل ويلجمنّا الخوف. نحن برجوازيّة شاملة وكميّة كسالى غير فاعلة.

بتخلّفنا عن المبادرة نقلب الأرض رأساً على عقب وندع المتشدّدين الناشطين القلائل يقبضون على السلطة.

بذلك يسود الشرّ القليل العدد، ولو كنّا نحن نكوّن الأکثرية السائدة.

العالم نصيينا عقلياً ومادياً. ولكن دعاة البغض والإرهابيين يقتفون أعمالهم الباهرة ويجتاحون بذلك صفحات الصحافة وآلات تصوير التلفزيون.

نريد نشر السلام بشكل أوسع. أمّا هم فينشرون الصراع والبغض والعنف وأيضاً الحرب. نصنع الخير، ولكن لا تأبه بنا وسائل الإعلام. هم يرتكبون أفعال الشرّ والجميع ينشرون أخبارهم، تكراراً وعلى مدى العالم الواسع.

من "نحن"، ومن "هم"؟

"نحن": هذه الكلمة قد تدلّ على مسلم مؤمن في باكستان، أو على يهوديّ في القدس، أو على مسيحيّ ملتزم في برلين.

و"هم": هم أيضاً مسلمون ويهود ومسيحيّون، لكنهم نسوا دعوة أديانهم إلى السماحة. أو هم عدّميّون متشائمون. في أكثر الأحيان لا يعرف هؤلاء المتطرفون إلا القليل عن دينهم، فيسردون الآيات الكفاحيّة القليلة جدّاً من كتبهم المقدّسة ويتنكّرون لواجب السلام وحبّ الناس الذي دعا إليه أنبيأؤهم. البعض منهم يريدون إنشاء دولة الله في الأرض، وذلك حتّى ضدّ إرادة الآخرين.

على مدى التاريخ قامت بشكل متكرّر محاولات لخلق توافق بين سلطة الدولة والدين، وفهم الدولة كمطلب لكتاب مقدّس. عفا النسيان حروب التسلّط في أوروبا المسيحيّة. اليوم يسعى إلى هذا الهدف الطالبان في أفغانستان والإسلاميّون المتشدّدون كالقاعدة أو الإخوان المسلمين. الغرب وأيضاً مصر وتونس وباكستان وأندونيسيا قرّروا الفصل بين الدولة والدين. وأمّا فكرة دولة دينية متجانسة، فتناقض مع تعاليم القرآن وكون الله رحيماً. وهو وحده من يملك إدانة

الإنسان بعد نهاية حياته. هذا ما يقول به المؤمنون من مسلمين ومسيحيين ويهود. فمن يؤمن بعمق وحرارة، يحترم المؤمنين المختلفين عنه، لأنَّ الإيمان برغم جميع أوجه الاختلاف موجّه إلى كائن أسمى، ولأنَّ الله خلق الإنسان على صورته.

إنَّ إنشاء دولة ديكتاتورية موجّهة إلى غط بشريّ واحد على الأرض تناقض أيضًا الشريعة القديمة، شريعة الله في خلقه: أي التنوع في الحياة، كما يتّضح في سبعة مليارات من البشر على اختلافهم. أو في مئات ألوف الزهور والحيوانات التي تستوطن الأرض.

يصف العلماء ذلك بأنّه "تنوع بيولوجي". متحف علم الطبيعة في برلين يصف في عرضه هذا التنوع والكثرة في أشكال الحياة، بأنّهما لا حدّ لهما، وأنّهما "سرّ الطبيعة": فإنّ الحياة بحثت دومًا عن طرق جديدة. فإنّ الله وضع في كلّ خليفة إشارة وراثية، وأيضًا التحوّل إلى تركيبات جديدة في شرائح الحياة على الكروموزومات. لدينا نحن البشر 23 كروموزومًا مزدوجًا. فالسائل المنوي يحتوي فقط على تركيبة واحدة من الكروموزومات، تدعى ميلوز. كلّ خلية جنسيّة مفردة تختلف عن سواها بالنسبة إلى المعطيات الوراثية، إذ إنّ ميلوز يمكنها أن تنتج تركيبات عديدة. هذه التركيبات هي مخزن تعدّد الأنواع وقدرة التحوّل بالنسبة إلى أوضاع البيئة. ففي التناسل الجنسي لا يتمّ مجرد إنتاج حياة شبيهة بالوالدين. بل ينتج هناك تنوع. فبتمازج الحيوان المنوي والبويضة تحصل خلية تنجم تركيبة كروموزوماتها بالمنصفة من كلّ طرف من الوالدين. على هذا النحو يؤمّن مزج دائم للمعطيات الوراثية ويصير التعدّد ممكنًا.

المعنى الأصيل للحياة هو إنتاج التعدّد والفرديّة. فمن يؤمن بالله وخلقته للحياة، يتّضح له أنّ الله خلق التنوع ويريده. فهو يعبر عن إرادة الله، وهو جزء من الخليفة.

إنّ الله خلق التنوع ويريده. فهو يعبر عن إرادة الله، وهو جزء من الخليفة. هو يفوق مستوى البشر. هو الحياة وجهاز الحياة. فمن أراد أن يحصر التنوع في وحدة، ينتصب ضدّ نظام الله في العالم. والإنسان الذي يصرّ على التوافق الكامل ويطارد المؤمنين المختلفين عنه، والأجناس الأخرى والأقليات، يرتكب خطيئة ضدّ مخطّط الله العظيم هذا عن الحياة على الأرض. أمّا السماحة والاحترام تجاه الآخر فهما بالعكس يطابقان تمجيد الله في خلقه المتنوع.

هذا يؤكّده أيضًا القرآن الكريم. ففي سورة المائدة (5: 48) يؤيد الله هذا التنوع في فكر البشر وعملهم: "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" (48). فهذه السورة تؤكّد

مشيئة الله في الاختلاف في الإيمان وفي تدبّر الحقيقة السلمي، كما جاء بها الأنبياء للناس. فالحساب عن حياة مَرُضِيَّة لله هي عنده، لا عند البشر. فعند ذلك فقط وبسلطته يقوم الحساب.

هناك تياران كبيران إضافيان لهما أثر في الجهد لإقامة نظام عالمي عادل. أولاً: العولمة التي فيها يتشابك عالمنا تشابكاً ويزداد توثقاً بواسطة وسائل الاتصال والثقافة والاقتصاد. ثانياً: مكافحة التغرّب عند اكتشافه والاجتهاد لإحلال عالم موحد يجب حسب قرار بعض المتطرفين، أن تتسلط عليه تماماً إيديولوجيا معيّنة. هناك في هذا المجال نزاع بين نظرة إلى العالم مفتوحة وتعددية ومتسامحة، وبين فكرة نظام للعالم سيادي توناليتاري، يمكن أن تستأثر معه بالسلطة على الجميع في البلد، ديانة أو عشيرة أو حزب سياسي أو جماعة في الشعب معيّنة، تأمر الآخرين بما يجب عليهم أن يفكروا فيه. إن القضية تدور حول احترام التنوع الذي أراه الله وحرية الفرد، أو حول دكتاتورية تتسلط على آحاد بشرية خاضعة لنظام موحد. أي حول الحرية أو الخضوع، وحول شجاعتنا الشخصية اليومية "في سبيل الحرية" (عن فرانتس لودفغ أمير شناوفنبرج)⁷.

إن الأمر بالسماحة يعني التعايش السلمي مع الأديان والأجناس والأقليات الإثنية برغم جميع الاختلافات. فلا يضطر أحد شخصاً آخر إلى اتباع دينه أو اتخاذ أسلوبه في الحياة. نظام السماحة هذا الحرّ المنفتح يجب أن نحامي عنه بنشاط ضدّ قوات عدم التسامح. إن الفيلسوف الألماني «إيمانويل كنت» قد سبق ونبه في مؤلفه الشهير "في السلام الأبدي": "إن السلام ليس وضعاً طبيعياً، بل يجب أن يُكتسب".

ثمّ هناك الإقبال على الآخر والتصالح مع الخصوم القدامى. وقد عبّر الفيلسوف الأميركي إيرك هوفر عن ذلك يوماً بقوله: "يتمّ ربحه، عندما يحوّل العدو المغلوب إلى صديق".

إنّ البصيرة بأننا في سبيل السلام نحتاج إلى سماحة فعّالة وتصالح هي أمر مسلمّ به، ولكنها لا تطبّق بحزم في السياسة العملية. فلا تزال عوامل اكتساب السلام السلسلة المهمة تُدفع في جميع البلاد إلى التهميش بواسطة الوسائل العسكرية القاسية. نحن نصرّف مئات من المليارات في سبيل الأمان الداخلي والخارجي، ولكن كم نصرّف من المليارات لتعزيز السماحة والاحترام والتصالح؟

⁷. هذا عنوان محاضراته التي حرّضت عليها في 21 شباط 1990 ونالت الاهتمام الكبير، في ندوة "الاتحاد لأجل ألمانيا" بمناسبة أول انتخابات حرّة لمجلس الشعب في ألمانيا الشرقية، في مدينة نوردهاوزن في تورنغن. لأول مرة بعد سنة 1945 جاء في ختام الندوة النشيد الوطني الألماني.

بدون سياسة فاعلة في سبيل السلام والتصالح لا يتحقق السلام. موعد النجاح مرهون بسياسة مزدوجة مثابرة مستندة إلى تصميم جيّد، سياسة تركز على القوّة والدبلوماسية، وتمتّز بطلب التصالح. فعلى هذين العمودين معاً فقط يستند السلام العالميّ بطريقة دائمة وأكيدة. إنّ نفس البشر، وألم المكبوتين وكرامتهم المجروحة، هذه كلّها تذهب منسيّة في سياسة تعتمد على التسلّط، سياسة باردة أحاديّة. هذه السياسة لا تستطيع أن تصل إلى القلب فاعل السلام في داخل الإنسان. لا يمكن أن يتحقّق السلام إلّا إذا تمكّنا من إحباط مقدّرات ودعاية الشرّ بنوع فعّال وفي الوقت عينه من التوصل بواسطة مخطّط مزدوج جديد تحت عنوان "العالم رقم 0/3" إلى نشر السماحة في العالم كلّه. نحن بحاجة إلى الاثنين: إلى الصقر الحامي وإلى الحمامة حاملة رسالة السلام.

النبيّ محمّد داعية السماحة

ليس من موضوع يستقطب انتباه البشر ويحرّك مشاعرهم مثل أفعال القتل "باسم الله". صيّد الإسلام - خصوصاً في العالم الغربيّ - سيئ. يعدّه الناس خاليّاً من السماحة، متصلّباً تجاه أفكار غربيّة وعدائيّاً تجاه المسيحيّين واليهود والنساء المتحرّرات. هل يهدّد الإسلام التعدّد وأسلوب حياة متسامحاً؟ تتنازع فرق مختلفة في العالم الإسلاميّ حول الحقّ بتفسير القرآن. من منها هي على حقّ؟ نصف هذا الكتاب يحلّل الجذور الذهبيّة للسماحة في القرآن الكريم والحديث الشريف الذي ينقل إلينا الأخبار المكتوبة عن حياة النبيّ محمّد.

من يريد أن يفهم جيّداً هذا الدين، عليه أن يرجع إلى نشأة الإسلام في القرنين السادس والسابع، وإلى النبيّ محمّد داعية التعليم الجديد وإلى تصرّفه تجاه المسيحيّين واليهود والنساء.

إنّ البحث الموسّع يجلب لكثيرين من القرّاء معارف مفاجئة: فبخلاف الكثير من الأحكام المسبّقة لم يكن النبيّ محمّد رجل السيف، بل رجل الكلمة وداعية التناغم والتعايش السلمي. قبل 1400 سنة أراد أن يخلق للقبائل المتنازعة في مدينة مكّة وفي الجزيرة العربيّة بفضل عودتهم إلى الله الأوحيد نظام سلام متناغم أفضل، (نظام الدين والحلم)⁸.

⁸ وردت كلمة الحلم في عدد من آيات القرآن تدلّ على صفة إنسان (مثلاً في 9: 114؛ 11: 75؛ 37: 101)، أو خصوصاً على صفة الله (مثلاً في 2: 225 و235؛ 13: 155؛ 5: 101؛ 17: 44؛ 33: 51؛ 35: 41).

كان النبي يريد أن يدفع عنهم القوى السلبية، قوى الشر والعنف التي كانت سائدة في الجاهلية قبل بعثة محمد. لم يكن مقاتلاً مهاجماً كالمتشددين المعاصرين، بل كان صانع سلام، واضطُرَّ بعد هجرته من مكة وبسبب تعديت أعدائه على المدينة إلى استخدام السيف وإلى الدفاع عن نفسه. أمّا القواعد التي أقرها للجهاد في سبيل الله، فتزد في القسم الأول، الفصل الخامس.

في هذا الكتاب نبحت لاحقاً بتفصيل في ما كان النبي يريده، وكيف سيء بعض المتشددين إلى تعليمه الصحيح. ونعرض كيف كانت علاقته باليهود والمسيحيين، ونورد الآيات التي تدعو إلى السماحة والاحترام تجاه اليهود والمسيحيين. وكيف أنقذ ملك مسيحي أكثر من مئة من المسلمين الأوائل من الاضطهاد في عام 615، وكيف أضحي حامياً لهم. ونذكر المعاهدات الأربع عشرة في السماحة والتعايش التي عقدها النبي وخلفاؤه مع المسيحيين واليهود. ولماذا وعدهم باحترام حريتهم الدينية (القسم الأول في أجزاء الفصل الرابع).

قاد الله محمداً في مكة إلى امرأة فريدة شديدة الأثر، غرقت اليوم شخصيتها المستقلة في النسيان، وكان تصرفها يناقض دحر المرأة من الحياة العامة على يد الطالبان والوهابيين والسلفيين والإخوان المسلمين. من كانت هذه المرأة، خديجة بنت خويلد، زوجة محمد الأولى؟ هذه التاجر الغنية المستقلة ساندت زوجها وأيدت المسلمين الأوائل. يجد القارئ المزيد عن "أم الإسلام" وعن حقوق المرأة، في الفصل العاشر، وعنوانه: النبي محمد في قوله: "وأنا خيركم لأهلي".

بخلاف ما كان منتظراً عندما فتح النبي مكة عام 630، لم يحكم على أعدائه بالقتل، بل عفا عنهم ولم يؤسس في مدينتهم دولة دينية إسلامية. تقرأون الأسباب في الفصل السادس وعنوانه، فتح مكة: مثال حق للمصالحة وللتفريق بين الدولة والدين.

ويلاقي القارئ أن الرحمة هي أهم قاعدة لتصرف المسلم الحقيقي، ولماذا تسود على صفحات القرآن الكريم.

وسنحلل أوضاع عصر الإسلام الذهبي في القرن التاسع، عندما أضحي الإسلام أول السلطات العالمية، إذ كان منفتحاً على العالم متعطشاً للعلم ومتسامحاً تجاه المسيحيين واليهود (الفصل السابع).

ويعرض هذا الكتاب مجموعة القطع الذهبية العشر حول السماحة في الإسلام، مُقابل خُطب البغض من أفواه أقلية متطرفة (الفصل التاسع)، ويقدم لائحة بأبطال السماحة في العالم الإسلامي (الفصل الثامن).

هناك حاجة ماسة لنهضة إسلامية منفتحة على التنوّع. عليها أن تنعش تعاليم النبي محمّد
القديمة الحقّة عن الرفق والاحترام والكرامة، وتردّ وتغلب قوّات التعسّف والقتل.

لتكُن عودة إلى جذور الله الرحيم كنقطة ثابتة للمؤمن المسلم، إلى تحرير من البغض
الهدّام عدوّ الإنسان. وحتىّ الشقاق بين السُنّة والشيعة يحتاج إلى هذا الشفاء بفضل إسلام يرتكز
على رحمة الله. المسلم الحقيقيّ يرفض القوى السلبية كما كانت في الجاهليّة ويناضل على مثال
النبيّ في سبيل عالم يسوده الدين السمح ومجتمع يقوم على الحِلْم.

في العالم الإسلاميّ نسي الكثيرون الكثيرون من رجال السياسة والمواطنين ذوي النفوذ مقولات
القرآن الحقيقيّة وأفعال النبيّ. من يدافع عن النبيّ الحقيقيّ المسلم؟ من يتجرأ أن يقف في وجه
المتشدّدين المجلبّين القلائل، الذين يسيئون إلى القرآن ويقلبون أقواله حتّى إلى عكسها
ويتجاهلون إنذاره بممارسة السماحة والاحترام والتروّي ورحمة الله. هذا الموقف أهو مجرد
كسل أم جنّ برجوازيّ.

هناك قلة ضئيلة من المسلمين الذين يزيد عددهم على مليار ونصف، يدافعون عن النبيّ ضدّ
جحود الإرهاب. لا تقوم المشكلة على المتطرّفين القلائل، بل على ركود السياسيّين والنُخب
والجماهير الغفيرة.

إنّ الصمت المدوّي هو عدوّ السماحة الأكبر، والعون الصامت للشّرّ.

كلنا بحاجة إلى نظرة ناشطة وشرائع حول السماحة

لقد ساد تسلط المتشدددين في المسيحية أيضًا على مدى زمن طويل. هناك لم ينجح التغلب على الفكر والعمل الجاهلين إلا في زمن متأخر وبعد عناء ساد في القرون الماضية.

يجدر بنا، نحن المسيحيين، أن نتذكر أنّ ديننا على ما يبدو لم يؤيد قضية السماحة إلا منذ 200 سنة تأييدًا أشدّ وتدرجيًا، حيال اليهود والمسلمين والكنائس المسيحية الأخرى. روما تجرّدت فقط في المجمع الفاتيكاني الثاني (من سنة 1962 إلى 1965) من حمل الماضي، وتوجّهت إلى المسيحيين البروتستانتين واليهود والمسلمين كإخوة. وكان أن اكتشفت قدرة المحبة من جديد في القرن العشرين. فكانت نواة تعليم يسوع المسيح مدّة ألف وثمان مئة عام رازحة تحت حمل كومة من التعاليم الخاطئة وكانت السماحة مرفوضة. فمحاكم التفتيش والحملات الصليبية المروية واضطهاد اليهود والوثنيين والساحرات وأتباع قناعات مسيحية مخالفة، كلّ هذا كان إشارات سير للإيمان الضالّ على مدى طويل.

نحن جميعًا، مسلمين ومسيحيين ويهودًا، إخوة وأخوات بالإيمان بالله الواحد.

إنّ فكرة قتل مدنيين لأسباب سياسية تناقض تعاليم النبيّ محمد. هي إبطال للإيمان، كما كانت الحروب الصليبية، وإحراق الساحرات في القرون الوسطى.

نحن اليوم بحاجة إلى تيار نشيط من قبل المسؤولين في العالم، إلى جهاد يقوم به المسلمون والمسيحيون واليهود والهندوسيون والبوذيون ليدافعوا عن القيم الأساسية الشاملة ويدحروا الشرّ، ويزرعوا، قبل كلّ شيء، المحبة وحب السلام في نفوس أولادنا وقلوبهم، بدل البغض..

نحن بحاجة إلى رؤية شاملة وإلى روح.

نحن بحاجة إلى قيم أخلاقية مقبولة في العالم كلّها، إلى شرائع السماحة ووقائع مثالية، وإلى نشرها المتواصل.

نحن جميعًا نعرّز بنشاط ازدياد السماحة. علينا أن نعيش على مقتضى "شرائع السماحة" وأن نسعى في نشرها.

نحن جميعًا، مسلمين ومسيحيين ويهودًا، هندوسيين وبوذيين، مؤمنين وأتباع دين مختلف، وحتى غير المؤمنين، علينا أن نسعى بمساهمتنا الصغيرة في تحسين أوضاع العالم. في حقبة العولمة لا تجوز تنحية المواقف الإنسانية، والقبول بطمسها في بعض البلدان.

هذا الكتاب يريد أن يهزّ القارئ، ويقدم له بواسطة شرائع السماحة معارض وتوجيهات ودعوة إلى إعمال الفكر.

لدينا قدرة ولدينا تأثير ولدينا قدر كبير من النشاط الخلاق. فلنستخدمها. فإنّ علينا أن نتغلب على كسلنا وتقاعسنا. هذا ندين به لأولادنا.

فأدعو نخبة المسؤولين في دول الأرض - وهي 193 دولة - أن يفوا أخيراً بمسؤوليتهم الشخصية في سبيل ظفر السماحة والاحترام.

فلنقيم عالمًا أفضل، عالم التناغم والاحترام من أجل أولادنا.

فنحن النخبة لا خيار لنا، بل علينا واجب يحملنا على أن نكون فاعلين نشطاء.

إن لم نقوم نحن بهذا الواجب، فمن يقوم به؟

القسم الأول

الثمار الذهبية للسماحة والاحترام

في الأديان العالمية الكبرى

الفصل الأول

هل الإسلام بعيدٌ عن السماحة؟

1. دعاة البغض والعنف

إنّ ضحايا المسلمين المتطرّفين الذين يبرّون جرائمهم بسور من القرآن الكريم والانتماء إلى فرائض الله، أكثرهم مسلمون. هناك في أفغانستان وفي باكستان وفي العراق عشرات الألوف من الجنود والشرطة يقومون بخدمتهم. ومؤمنون كثيرون في المساجد، رجالاً وأيضاً نساءً وأطفالاً. بين الضحايا تجد بنوع يثير الانتباه كثيرين من أهل الشيعة ومنتمين إلى أقليات إثنية وخصوصاً سياسيين. فالمتطرّفون من السنّة يحتقرون أهل الشيعة ويعتبرونهم منشقين. فموضوع السماحة والاحترام في الإسلام يخصّ في بادئ الأمر العالم الإسلامي نفسه بروحه وتوقه إلى الكرامة والعدل في عالم سريع التبدّل. فالتطرّف المبرّر من جهة غلاة الإسلام هو المعضلة الرئيسيّة في العالم الإسلامي. لذلك فإنّ الاشتغال العميق في محتوى القرآن الكريم ومثال النبيّ محمّد هو شرط ضروريّ للبحث عن نظام إسلاميّ للدولة جديد وأكثر عدالة. وعن شروط كرامة الإنسان والحرية.

منذ أكثر من ثلاثين سنة يُعدّ الأميركيون الهدف المفضّل للضربات. فهم في رأي المتطرّفين دولة عالمية تكبت، في نظرهم، المسلمين وتساند العدو الأكبر إسرائيل. فمنذ السنوات الثمانين من القرن العشرين قتل إرهابيون مسلمون أكثر من ثلاثة آلاف أميركيّ. بدأ الأمر عام 1983 في

بيروت بحملة قنابل على الجنود الأميركيين هناك. وفي عام 1985 وقع هجوم على الطائرة الأميركية المدنية TWA 847 وعلى الباخرة أكيلي لآورو. ثم في عام 1993 الهجوم الأول على المركز التجاري العالمي، حُرِّص عليه الشيخ الضرير عُمر عبد الرحمن، كما أخفقت عند ذلك محاولة السلام في مقديشو عاصمة الصومال. تبع ذلك الهجوم على بروج خُبر في المملكة العربية السعودية. ثم تراكمت دوامة العنف بعدد من هجمات القاعدة بقيادة أسامة بن لادن على السفارات الأميركية في نيروبي ودار السلام عام 1998، وستين بعد ذلك كان الهجوم على المدرعة الحربية الأميركية USS Cole في عدن. وكانت القمة الهجومين على المركز التجاري العالمي ومبنى الدفاع العسكري (البتاجون) وسقوط طائرة الخطوط المتحدة رقم 93 في 11 سبتمبر/ أيلول 2001، وقد راح ضحيتها أكثر من ثلاثة ألف شخص. وعام 2002 قُتل في كراتشي «دانيال بيرل» أحد محرري جريدة الـ وول ستريت الأميركية. وعام 2009 قُتل ضابط مسلم في الجيش الأمريكي في حصن هود من أعمال تكساس 13 جندياً أمريكياً رمياً بالرصاص.

وفي أوروبا أيضاً، قتل إرهابيون مسلمون، باسم الله، أبرياء عَزَلًا: ففي 11 مارس/ آذار 2004 أشعل إرهابيون مراكشيون في أربعة قطارات في جوار مدريد في إسبانيا أربع قنابل وقتلوا 191 إسبانياً. وفي صباح اليوم السابع من يوليو/ تموز 2005 قام أربعة منتحرين يحملون على ظهورهم جعبات مفخخة بتفجير أنفسهم في ثلاثة قطارات سفلية في لندن وشاحنة ركاب مزدوجة وقتلوا 50 من المسافرين العزل وجرحوا 700 شخصاً، بعضهم أصيبوا بجراح بالغة. وفي مايو/ أيار 2013 قُطع رأس الجندي البريطاني «لي رغبى» على يد إرهابيين اثنين في لندن.

ولحسن الحظ تمكنت حتى الآن السلطات الأميركية عن طريق المصادفة من إحباط 54 هجومًا إرهابيًا مصممًا، 13 منها في الولايات المتحدة. ونفقات هذا كله باهظة: 791 ملياراً أنفقتها الولايات المتحدة وحدها حتى مارس/ آذار 2013 لحفظ الأمان الوطني.

إن معظم المجرمين يبررون أفعالهم بأنها توافق القرآن والنبي محمد، بل أكثر من ذلك، بأنها ملزمة. فيعلنون الجهاد المقدس ضد الكفار. طيارو الموت في 11 سبتمبر/ أيلول 2001 اعتبروا ضرباتهم "كعمل في سبيل الله"، وفي الوقت عينه كثر من أميركا لمساندتها إسرائيل ولإنزال جنود أميركيين في نطاق المملكة العربية السعودية، إذ إن هذا البلد هو لب الإسلام بأقدس مواضعه في مكة والمدينة، وهو في الوقت عينه وطن زعيمهم أسامة بن لادن. ففي الرسالة التي تشرح الدواعي، والتي وجدتها الشرطة الأميركية في حوائج المهاجم الرئيسي محمد

عطا، كتب هذا إلى معاونيه: "هذه هي الساعة التي فيها سوف نلاقي الله ونصلي إلى الله. فمتى دخلتم إلى الطائرة فصلّوا إلى الله، لأننا نفعل هذا في سبيله. فأهلاً بالموت باسم الله!".

هل يريد الله قتل مواطنين، قادتهم المصادفة إلى التواجد في برج بنويويورك، أو في طائرة فوق واشنطن العاصمة، أو في قطار في مدريد، أو في قطار سفلي في لندن؟

أي إله هو من هذا النوع؟ أي إله يتصوره الإرهابيون؟ أهو إله قاسٍ يرشد أرواح منتحرين ومجرمين؟ أهو حقاً الله من يكرّمونه؟ أم هم يسخرون من الله ويكرّمون عدوّ الله، أي الشيطان؟

أيكون الله على هذا الشكل؟ أيكون الإسلام من هذا النمط؟ هل هو دين القتل بدلاً من أن يكون دين السلام والسماحة والرحمة؟

إنّ هذه الهجومات الإرهابية لها مفعول آخر سلبيّ جدّاً. هي تشوّه صورة الإسلام النبيل وتعرض للخطر مسلمين أبرياء في العالم كلّه. الآن تواجههم موجة من عدم الثقة والخوف، والبغض والعنف أيضاً. فإثما يزداد عدد الأميركيين والأوروبيين الذين يظنون أنّ الإسلام دين ميّال إلى العنف. فالإسلام في نظرهم يختلط بأعمال العنف والكبت في مزيج سيئ. ويختبرون الإرهابيين كأنهم يمثّلون ديناً مليئاً بالأخطار يقوم بحرب إبادة ضدّ المسيحيين واليهود. أسامة بن لادن ومحمّد عطا والمتطرفون يزرعون جرائمهم في العالم كلّه وينشرون بذلك في ملايين من الأحوال احتقار القرآن والمسلمين.

يعرض مثلاً «بولس وليامس» في إبداء رأيه حول كتاب روبرت سبانسر: "أسطورة السماحة الإسلامية - كيف تعامل الشريعة الإسلامية غير المسلمين": "هذا الكتاب تصحيح ضروريّ للآراء السائدة لدى الأكاديميين من أمثال «كارين أرمسترونج» وأبي الفضل، من أنّ الإسلام دين السلام. بل هو يظهر الكبت الكامل لحقوق الإنسان في المجتمعات الإسلامية والمضمون الحقيقيّ للجهاد كصراع ضدّ كلّ غير المؤمنين، وأهوال أحوال الذميين المسيحيين واليهود في الشريعة الإسلامية"⁹.

فيما يجب السماح للانتقاد الموضوعي للمساوي السياسية في بلدان إسلامية وفقاً لمبادئ حرية الرأي والصحافة، ولانتقاد المسيحية وحكوماتها أيضاً، نرى بعض المتطرفين في الغرب يهاجمون هم أيضاً النبيّ محمّد ويشتمون القرآن الكريم.

⁹. راجع دار Amherst New York 2005.

وهكذا يُورجح المتطرّفون من الجهتين بعضهم بعضًا.

إنّ الأکثرية الساحقة، وقد تُعدّ 99 بالمئة من جميع المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوسيين والبوذيين، ترفض الهجوم الانتحاري والقتل والعنف ضدّ أتباع دين آخر وضدّ الأقليات، وتطالب بالتزام الاحترام والسماحة والسلام. إنهم يريدون السلام والمحبة والسماحة في قرانا ومدننا.

علينا الآن أن نعزّز في جميع البلاد الحوار بين الأديان والثقافات، حوارًا منفتحًا عالميًا، وأن نقيم نوعًا من شورى حکماء عالميّة، وأن ننمي بعزم، بألاف كثيرة من المبادرات، المحبة والسلام في كرتنا الأرضيّة، كحركة جذور خصبة. هذا واحد من الأجوبة الممكنة حيال جنون المتطرّفين الجناة وآلات دعايتهم لارتكاب القتل.

علينا أن نكتشف ونعرض ثمار التسامح الذهبية في أدياننا، وقبل كلّ شيء، في الإسلام.

ماذا أراد النبيّ محمّد حقًّا، ذاك الذي يستند إليه أسامة بن لادن والإرهابيون أتباعه وسواهم من المتطرّفين؟

هؤلاء المتشدّدون يخضعون بشكل شديد لنفوذ تفاسير ثلاثة للإسلام: الوهابية السعودية، والسلفية الدولية والإخوان المسلمين، الذين أضحوا الفريق الأكبر تأثيرًا في العالم العربيّ. من هم هؤلاء؟ وكيف يفسّرون القرآن؟

في المملكة العربية السعودية دعا عام 1731 محمّد بن عبد الوهاب إلى اتّباع تعليمه وهو يعتبره التعليم الأكثر نقاء في الإسلام. وتحالف عام 1744 مع عائلة ابن سعود المالكة، التي أسّست عام 1932 المملكة العربية السعودية. فالوهابية هي منذ ذلك الوقت دين آل سعود الرسميّ وبذلك خادم الحرامين مكة والمدينة. إنّ هذا التفسير الضيق القاسي للعقيدة الإسلامية كان موجّهًا بطريقة واضحة ضدّ الحضارة الغربية الحديثة ومغلّفًا بألوان التحريم. ودام لمدة سنين كثيرة منع التلفزيون والراديو والموسيقى. وحتى اليوم لا يحلّ للنساء أن يقُدْنَ السيارة أو أن يظهرن وحدهن في الخارج أمام رجال غرباء. وشرب الكحول ممنوع، كما تُمنع رموز أديان أخرى كالصليب أو الكتاب المقدّس. هناك شرطة خاصّة تسهر على اتّباع العادات المرعية.

ولكنّ مجتمع المملكة العربية السعودية هو نفسه مائل إلى التحوّل. فكثيرون من الشباب لا يريدون من بعد الخضوع لمقرّرات نابعة من القرون الوسطى. وهناك أمراء ذوو نفوذ طردوا الشرطة الدينية من أبراج مكاتبهم الفخمة. المحرّرة السعودية في منظّمتي "شبكة الأمان

العالمية"، ندين البيرير تشكو من أن الوهابيين يحرمون نساء البلد من حقوقهن. بهذا يعطلون مسيرة البلد. تجد أقوالها الجريئة في يوتيوب.

إن مفتي تركيا الكبير القديم شكّا إليّ في حديث أن تمويل بناء مساجد من قبل المملكة العربية السعودية، مثلاً في البوسنة، يدفع بالمسلمين هناك إلى التشدد. فقد يفقدون رويداً موقفهم المتسامح السابق تجاه الأديان الأخرى والأقليات.

هناك اتجاه آخر متصلّب في الشؤون الدينية، هم السلفيون الذين حصلوا بمناسبة الانتخابات الحرة الأولى في مصر في مطلع عام 2012 على مساندة 27 بالمئة من الناخبين. هم يريدون أن يعيشوا على طريقة الإسلام القديم في القرن السابع، أتقياء بدون تمييز. من هنا رفضهم لكل أمر عصريّ. صحيح أن من يختار لشعبه هذا النهج الضيق، يستحق احترامنا. ولكن من أراد أن يرغم كل الآخرين على اتّخاذ هذا النمط من العيش، يتحوّل إلى دكتاتور ديني. عندما ناقش شباناً من السلفيين، وهم يُعرفون من قبعتهم المنسوجة ولحاهم الطويلة ولباسهم الطويل الأبيض، ألاحظ أن أكثرهم لا يعرفون إلا شيئاً قليلاً عن حياة النبي محمّد الحقيقية، ويسردون فقط بعض آيات من القرآن. ويفهمونها كأمر موجه ضد الآخرين وكإعلان قتال ضد الآخرين جميعاً، أكان هؤلاء من أهل الشيعة أم مسيحيين أم يهوداً، لا كدعوة إيجابية مرتاحة إلى السلام ورحمة الله.

عقب انهيار حكم حسني مبارك بعد حقبة طويلة في مصر، ظفر الإخوان المسلمون في أول انتخابات حرة في آخر عام 2011، وبقدر قليل في انتخابات الرئاسة عام 2012. فأضحى البلد المركزي المهم على ضفاف النيل كموضع اختبار لممارسة سماحة الإسلام السياسيّة. فكان على الرئيس محمّد مرسي والإخوان المسلمين أن يبرهنوا في البلد بالواقع العمليّ بأيّ قدر من الاحترام والإنصاف يعاملون المسيحيين الأقباط - وعددهم 10 بالمئة - ومن يختلف عنهم بالفكر. وكيف تحمي الحكومة الجديدة حقوق الأقليات واستقلالية المحاكم والصحافة. وهل الديمقراطية عندهم مجرد وسيلة لاستلام الحكم كما فعل النازيون في ألمانيا، أم هو هدف الإخوان المسلمين للمجتمع؟ هل هي قشر أم لبّ. في مراسيمه بتاريخ نوفمبر/ تشرين الثاني 2012، التي ختمها مرسي نفسه بإمضائه الشخصي، أعطى مرسي لنفسه سلطات غير شرعية ونزع في الوقت نفسه سلطة القضاة المستقلين. فأظهر بذلك للأسف تهالك الإخوان المسلمين على السلطة وفهماً ناقصاً للقواعد الأساسية للديموقراطية وحقوق الإنسان. هذا الانقلاب البارد في الداخل يذكّر باستلاب النازيين للسلطة بواسطة أنظمة خاصّة بزمان الضرورة، عام 1933، قادت تدريجياً إلى تعطيل مراكز سلطة أخرى وإلى كبت جميع من يخالفهم بالفكر.

كانت مصر شكلياً وفي صفتها الخارجية ديمقراطية انتخابية، أما فعلاً فتحوّلت في الداخل تدريجياً إلى دكتاتورية. فقد كان وللأسف يسود في ذهن وقلب الإخوان المسلمين تفكير توتالتاري وإرادة ضئيلة للقيام بالحوار الحقيقي والتفاهم الضروري. هذا الفكر الضيق طبع سياسة مرسي الفاشلة، فجعل ملايين من البشر ينهضون ضده، ودفع أخيراً قيادة الجيش إلى عزله في 3 تمّوز 2013، وفقاً لمبادئ الحقّ الدوليّ بمقاومة الدكتاتوريين في حالة الضرورة في الدولة. فمحمّد مرسي قد أخفق بسبب قلّة سماحته، وتفكيره الضيق الذي لم تلقَ فيه أفكاراً أخرى واحترام الأقليات المكانية الكافية.

إنّ الإخوان المسلمين بعد إخفاقهم في مصر يمكنهم وعليهم أن يتعلّموا الكثير من تصرف النبيّ محمّد، الذي كان رجل الضمّ والانخراط، لا رجل التنحية. مأساتهم أنّهم نسوا النبيّ الصحيح وتعليمه عن ممارسة الحِلْم. هم ينكرون وجود التعدّدية في القرآن ولا ينتقون منه سوى بعض النواهي القليلة. بهذا ارتكبوا،

على مثال الوهابيين والسلفيين، الخطأ الفكريّ الأساسيّ المستشري لدى جميع سياسيّ الأديان، الذين يختارون دوماً بعض التعاليم وخصوصاً بعض النواهي من كتبهم المقدّسة ويمارسونها كأنّها مُلزّمة على وجه الإطلاق. فيؤيّدون جزءاً متطرّفاً من التعليم، لا التعليم بكامله. بهذه النظرة الجزئية يضيّقون ويشوّهون الصورة الكاملة والتعليم الكامل. المتشدّدون في التضييق يسقطون في فخ التنخّي الناتج من المغالاة في الإيمان. فيتحوّل موقف مؤسسيّ أديانهم السموح إلى سبّابة مهذّدة. ينقصهم بهذا التعايش الودود وخصوصاً الرحمة. فيصدر من الإيمان الكفر والشعوذة. ومن المحبّة البغض، ومن السلام العنف.

انهدار الإيمان هذا نعرفه من ألفي سنة من تاريخ البشرية. ونجده في جميع الأديان ومناطق الأرض والحقب الكثيرة. سنأتي في هذا الكتاب على أمثلة لذلك في المسيحية واليهودية، كيف أنّ هذين الدينين بواسطة التضييق المتنوع شوّها وقُلبت تعاليمهما الحقّة رأساً على عقب.

إنّ المأساة الرباعية لدى المتطرّفين هي أنّهم يريدون أن يكونوا مؤمنين بقدر خاص، ولكنهم كالأصم لا يسمعون التعليم الجميل الحقيقيّ: فيضعون أنفسهم خارج نطاق الإيمان ويصيرون بذلك كفّاراً، يهاجمون عن عجرفة الإيمان الحقيقيّ. فلا يعودون يخدمون الله، بل أنفسهم الصغيرة.

إنّ الوصية الرئيسية عن رحمة الله، واختيار النبيّ محمّد لتاجرة مستقلة متحرّرة في مكّة، خديجة بنت خويلد، أمّ الإسلام، وازدهار دينهم الذهبيّ في الأندلس وبغداد، في جوّ من السماحة

والشراكة مع مسيحيين ومسلمين، ذلك من زمن بعيد، هذا لا يخطر لهم بال ولا يحرك قلوبهم وأذهانهم. بهذا يكون اتساع فهمهم للدين عند أكثر المتطرفين من الإخوان المسلمين قصير المدى، ينزع من الإسلام الصحيح لُبّه.

فمن ينتقي فقط ستّ مقولات قاسية من 6236 آية من القرآن ويعلن أنها ملزمة على وجه الإطلاق، لا يستطيع أن يتطلع على الجمال الحقيقي لهذا الكتاب ولا على رسالة الله. فمن يحصر تعليمه القاسي على ستّ آيات تقريباً من القرآن، يُنكر 99.9 بالمئة من آيات الكتاب الكريم. فيتجاهل الجزء الأوسع بكثير في تعليم الدعوة. فهو لا يبشّر بتعليم القرآن، بل ببعض آيات من القرآن: هذا فرق شاسع. لأنّ الحكم الفصل يرجع إلى النصّ كلّه وإلى مشيئة الله بكاملها. فمن يقدّم دلائل ضيقة الفكر، يستهين بالنبّي وبذلك بإرادة الله الرحيم، بواسطة التلاعب بجميع آيات القرآن وبجهلها. النظرة الكاملة إلى القرآن والسنة هي وحدها تمكّن من الحصول على إيمان حقيقي. هذا فقط هو الإسلام. فقط دراسة الأمور المتعلقة بالنبّي يمكنها أن تبين للمسلم كيف يمكن للمرء أن يتصرّف كمؤمن بأفضل شكل وبنوع صحيح.

إنّ تاريخ الإخوان المسلمين ليس هو للأسف عنوان السماحة والاحترام، بل هو تاريخ فهم للإسلام مائل إلى التقوى قديم وضيق الأفق. إنّ هذا التضييق الفكريّ كان ردّة فعل ضدّ الحداثة الغربيّة والاستعمار، ولكن لم يكن شرّاً للإسلام الحقيقيّ ولحياة النبيّ الكريم. فمفهومهم للإسلام مصبوغ برّدّة الفعل وبالتزام السياسة. بذلك كان اتّجاه سيرهم منذ البدء غير مستقيم، أي العمل ضدّ شيء، لا العمل في سبيل شيء. لم تكن نقطة التوجّه الثابتة تعليم النبيّ، بل التنحي من الغرب. لم يكن سعيهم منفتحاً، عالميّ الآفاق ومتّجهاً نحو المستقبل، بل سلبياً في المبدأ. لا ينشط الحرية، بل يخضع للسلطة. لا يسعى وراء التقدّم، بل يقبع في مكانه. لا يحبذّ التعدّد، بل التماثل العامّ.

بذلك يقف الإخوان المسلمون في نطاق تراث بشريّ قديم منذ آلاف السنين، تراث الدعاة المتطرفين في جميع الأديان والإيديولوجيات التوتاليتاريّة. هذه تفسّر الإيمان الحقيقيّ فقط كلائحة محظورات. فيكون أنّ من يحرم عدداً أكبر من الأمور يكون أقرب إلى الله. ومن يتصرّف وفقاً للنواهي الخارجيّة يكون هو المؤمن الحقيقيّ. ومن لا يشترك في هذا العمل، يُطرّد وفي النهاية يفتنى. فيصير الله سياسياً ملكاً خاصاً محتكراً. فيوصف كأنّه مؤدّب، إله الثأر، إله المحبّة والرحمة. بهذا يصطّف الإخوان المسلمون إلى تراث تيارات متشدّدة أخرى كما يرد في الدين المسيحيّ واليهوديّ، وإيديولوجيات توتاليتاريّة. ففكرهم هو عبارة عن فكرة أساسيّة سياسيّة رجعيّة.

نشأت جماعة الإخوان المسلمين عام 1928 كفرق مسلم متشدّد يرفض تحديث المجتمع المصريّ على شكل المجتمعات الغربيّة. مؤسسها حسن البنا فسّر الإسلام قبل كلّ شيء كأمر بالحدّ من جميع العناصر الجديدة، وطالب بالعودة إلى الزمن الإسلاميّ المثاليّ بواسطة الرجوع عن الحداثة. كان تحليله الدينيّ ضيقاً ومحصوراً، بل في آخر الأمر مخطئاً في تنحية طابع الإسلام الواسع. فجاء الأمر بإغلاق قاعات الرقص ومنع الرقص، وبالحدّ من حرّية النساء وفقاً لأوامر صارمة.

والمصريّ سيّد قطب شدّد هذا المبدأ بشكل أوسع وطالب بملاحقة السلطات الغربيّة والإسلاميّة أيضاً، على أنّها كافرة. لهذا الغرض يكون حتّى الإرهاب حلالاً، إذ إنّ أشكال السلطة هذه هي نفسها في تصرّفها تقوم بأعمال الإرهاب.

إنّ الإخوان المسلمين اليوم يضمّون في صدرهم نفسين: نظريّة مؤسسيهم في التضييق المتشدّد وموقفاً عملياً كالذي يمارس مثلاً بنجاح في تركيا أو أندونيسيا. أم هذا مجرد وسيلة للوصول عن طريق الانتخابات إلى السلطة؟ أيكون هذا حيلة، لا اقتناعاً صحيحاً؟ إن المتشدّدين والعمليين في صفوف الإخوان المسلمين لا يزالون يتناقشون حول الاتجاه الصحيح. هذا الاتجاه لا ينمو إلاّ بفضل تحليل عميق للدين الحقيقيّ والموافقة على التحدّد والسماحة في الإسلام. هذا هو موضوع هذا الكتاب.

البغض والعنف يثيران ردّة فعل مماثلة من الطرف الآخر. إنّ صور الحادي عشر من سبتمبر/أيلول في أميركا، والقنابل في قطار مدريد، والضربة على القطار السفليّ في لندن، وهدم تمثال بوذا في أفغانستان على يد الطالبان، وتفجير القنابل على مدنيّين في العراق أو باكستان أو أفغانستان، كلّ هذا يدلّ على التأهّب للعنف من قبل المتطرّفين الذين يحتجّون بانتائمهم إلى القرآن والنبيّ. زد على ذلك كبت النساء.

إنّ المتطرّفين في الغرب يفهمون الإسلام كما يفهمه أمثالهم من الجهة الإسلاميّة، كدين قتال ضدّ الآخرين. فيتخذون الصورة المشوّهة المتشدّدة المنتشرة لدى الإسلاميين. فهم أيضاً لا يعرفون الإسلام الحقيقيّ الرحيم الداعي إلى السلام. هناك متطرّفون غربيّون يهاجمون الإسلام بحجّة "ردّ الاجتياح الإسلاميّ" عن عالمهم. البغض يولّد البغض. والإكثار من البغض يجلب الإكثار منه، هذا هو لولب عدم التسامح الذي علينا أن نقاومه، لكي تتمكّن قريتنا العالميّة من العيش بسلام.

أحد هؤلاء المتشددين ومقاومي الإسلاميين في الغرب هو الهولندي «غيرت ويلدر» من "حزب الحرية". ففي رسالة بتاريخ 8 أغسطس/ آب 2007 إلى الصحيفة الهولندية "دي فولكسكرانت"، وصف النبي كمتطرف، وطالب بمنع قبول المسلمين في هولندا، زاعماً أن القرآن "يهيب بالمسلمين في سور مختلفة أن يكتبوا اليهود والمسيحيين وغير المسلمين وغير المؤمنين، ويضطهدوهم ويقتلوهم، وأن يضرّوا النساء ويتعدّوا عليهم وأن يقيموا بقوة العنف دولة إسلامية عالمية".

في إحصاء أجري عام 2008 صرّح 56 بالمئة من الهولنديين أن أكبر خطأ في التاريخ هو إدخال مثل هذا العدد من المسلمين إلى البلد. 57 بالمئة يعتبرون الإسلام أكبر تهديد في الوقت الراهن. أحد أسباب ذلك هو قتل منتج الأفلام الهولندي «تيو فان غوغ» في 2 نوفمبر/ تشرين الثاني 2004 على يد محمد بويرية. فأدى ذلك إلى هزة حتى أعماق القناعات في هذا البلد الذي كان حتى ذلك الوقت متسامحاً جداً. فإن «تيو فان غوغ» كان في فيلمه "الخضوع" الذي ألفه مع ناقدة الإسلام «أيان هرسلي علي»، قد تحدّث عن أكثر من أربع نساء تكلمن عن خبرتهنّ لأفعال اغتصاب.

إن ناقدة الإسلام الإيطالية، «أوريانا فلانثي» تنكر وجود إسلام معتدل. فإنّ عنف الإسلاميين ليس هو في نظرها إساءة استعمال هذا الدين، بل ينتج بالأحرى مباشرة من القرآن.

«تري جونز» هو واحد من آلاف "المبشرين" في أميركا الذين يعيّنون أنفسهم لهذه المهمة، طمعاً في ربح المال عن طريق توك البشر إلى الله. ففي أميركا كلّ واحد يمكنه أن يسمّي نفسه "محرّماً" أو حتى "أسقفًا"، لأنّ هذه الألقاب لا تخضع لحماية الدولة. فلا يلزم المدّعي أن يكون قد درس اللاهوت وأن يفهم شيئاً من الكتب المقدّسة. فيضحى الله هكذا تجارة في أيدي بعض التجار ودعاة البغض. هذا ما يرد في الدستور. فإنّه منذ إنشاء الولايات المتّحدة قام مئة آلاف مضطهدين دينياً يبحثون عن حرية الدين في بلد الله الجديد المبارك. فكلّ واحد يمكنه أن يؤسس "كنيسة" ويجمع فيها المال لنفسه أو لله. هي أحياناً أقبية خشب دينية في أحياء متداعية. بعض هؤلاء المبشرين المحترفين المشهورين يجمعون ملايين من المال ويطيرون في طائرات خاصة من حفلة بيع وجمع باسم الله إلى الأخرى في أميركا بلد الموعد أو يبشرون في التلفزيون. كنائس كثيرة من هذا النوع تباع لقب "الدكتور"، إذ هذا يزيد المريح، كلّ هذا بإذن من الدستور الأميركي. يمثل هذا يمكن الرقي من ماسح الأحذية إلى "الأسقف"، ذلك أيضاً بدون دراسة ولا علم بالكتاب المقدّس.

فكرة التجارة هذه استعملها أيضًا مدير الفندق القديم جونس. فسافر عام 1982 أولًا إلى كولونيا بألمانيا، وجمع حوله ألف مؤيد من بسطاء الإيمان. فكّر أنّه من الممكن بواسطة الإيمان بالله أن يكسب المرء عيشًا هنيئًا، فكان يبيع في "محلّ ليزا جونس" قطع أثاث مستعملة. صندوق الجماعة كان فارغًا، عندما صُرف من عمله عام 2008. يقول مؤلر، أحد أعضاء الجماعة: "كان ينقص في الصندوق مبلغ بخمسة أرقام، فطالبنا به جونس بعد ذلك وحصلنا عليه". وإنّ الموظف أندرو شافر، المسؤول عن شؤون الفرقة، يذكر أنّ الرئيس المتسلط جونس على رأس جماعته كان لا يقبل أيّ انتقاد. وكان جونس يحمل أيضًا لقب دكتور مزيفًا، فحكّم عليه من قبل المحكمة الرسميّة في كولونيا لاستعماله اللقب عن غير حقّ.

في فبراير/ شباط 2008 عاد مع أسلوبه الدينيّ التجاريّ إلى فلوردا. فبحث عن موضوع يحرك بنوع خطر مشاعر الأميركيين ويملاً الصندوق، فاستخدم الإسلام المتشدّد وضربات الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول المثيرة. فأسس في غانسفيل بفلوردا "مركز الحمامة العامليّ". هناك ألف كتابًا عنوانه "الإسلام من الشيطان". وفي أغسطس/ آب 2009 دخل ولدان مدرستهما لابسين قميصًا طُبع عليه عنوان هذا الكتاب. فصرّفا إلى منزلهما، لأنّ ذلك يخالف نظام المدرسة بالنسبة إلى الملابس. لم يكن جونس يبشّر بالمصالحة المسيحيّة، بل يركز بالبغض التام للإسلام. هذا جلب له، وللأسف، في أميركا المعادية مالاً من قِبَل المتعصّبين الآخرين.

في مارس/ آذار 2011 أشعل رجل أمام عيني «تري جونس» النار وأحرق مصحفًا من القرآن. وكان القرآن قبل ذلك في محاكمة هزليّة قد حُكّم عليه بأنّه "مذنب". فكان أن سبّب تحقير القرآن الكريم هذا هزة في العالم الإسلاميّ، وذلك عن حقّ.

فاجتمع من جرّاء ذلك 3 آلاف مسلم أمام المسجد الأزرق في مزارى شريف في شمالي أفغانستان. كانت المظاهرة ضدّ إحراق القرآن في اليوم السابق سلميّة، ولكن تغلغل الآن بعض المتطرفين في الجماعة وهيجوا الحجاج ضدّ كلّ ما هو غربيّ. هذا ما ذكر لي في يوليو/ تمّوز 2013 لدى زيارة للمسجد الأزرق السيّد عبد الشوم أنصاري. هو الممثل لهذا الجامع الذي تكرّم فيه منذ 1500 سنة ذخائر من الإمام عليّ صهر النبيّ محمّد. في بادئ الأمر أُحرق علّم أميركيّ أمام المسجد. ثمّ اندلع تطواف الاحتجاج إلى المدينة وإلى أمام مبنى الأمم المتّحدة غير الآمن جيّدًا. لم تكن الشرطة على أهبة لردّ ذلك، فأطلقت النار في الهواء، ولكنها لم تتمكن من إيقاف سير الجماعة المتراصة. فاقترحم رجال السيّاح، وأشعلوا النار وأطلقوا الرصاص على الحرس الذي فوجئ عند ذلك. فانسَل المتطرفون إلى داخل مبنى الأمم المتّحدة وقتلوا أربعة حراس من نيبال وثلاثة أشخاص آخرين: واحدًا من رومانيا، وآخر من السويد وأخرى من

النزويج. قال لي أنصاري، وهو ينتمي إلى أوجه جماعة دينية في البلد وهو عضو في شوري المسجد الأزرق: "نحن نسَمي هؤلاء الفعلة مجرمين، أساءوا استعمال مسجدنا لأغراض سياسية. إن قتل المدنيتين هو دومًا خطأ، الإسلام يعني السلام".

هكذا جرّ البعض من فلوردا في النهاية إلى قتل سبعة أشخاص في أفغانستان. إن مدير بعثة الأمم المتحدة في أفغانستان، «استفان دي مستورا» قال إن الرجل الذي يحمل مسؤولية أعمال العنف هذه، هو القسيس من فلوردا الذي أحرق القرآن. إن قائد القوات المتحدة إيساف الجنرال «داور بترايوس»، الذي كنتُ قد زرته بضعة أسابيع قبل جرائم القتل في مزارى شريف، كان قد حذر في سبتمبر/أيلول 2010 من إحراق القرآن. فكان أول ضحايا «ترى جونس» غير مسلمين، بل مسيحيين. إلى ذلك عشرة مسلمين، ماتوا في أثناء احتجاجات في كنداها في جنوبي أفغانستان. جونس هو خاطئٌ ذميمٌ ضدّ وصايا الله وداعية إلى البغض. ولكنه أيضًا نتيجة انفعال تجاه هجوم الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001، والميل إلى التشدد في عاملنا بفعل الإسلاميين القتل. يجدر بالولايات المتحدة الأميركية أن تعاقب بصرامة أشدّ الدعاية المثيرة للعنف وأن لا تسمح بكلّ شتيمة موجهة ضدّ الأديان كأنها نابعة من حرية الرأي وفقًا للقانون. فقد كانت المحكمة العليا قد سبقت فحدّدت عام 1987 أنه يجب في حال استعمال الدعاية السياسية التعريف بالموثدين¹⁰. مثل هذه الوسائل يجدر استعمالها ضدّ مهيجي البغض.

في النزويج في 22 يوليو/تموز 2011، تصرف تصرفًا أكثر تشددًا وبعْدًا عن الله الإلهائي اليميني «أندرس برينغ برايفك». فقد أشعل قبل الظهر في أوسلو قنبلة في سيارة، وقتل ثمانية أشخاص. ثمّ انتقل إلى الجزيرة الصغيرة أوتويا وأوهم المسؤولين في مخيم العطلة التابع لمؤسسة الشباب الديموقراطية الاجتماعية أنه شرطي. فلما اجتمع الشبان والشابات حوله أطلق النار عليهم وقتل منهم 69 شخصًا.

كانت أسبابه لارتكاب هذا القتل الجماعي بغضه العميق جدًّا للأجانب وللإسلام الذي كان هو يرغب أن يحمي أوروبا منه على أنه محررها. قبل ارتكابه الجريمة كان قد نشر في الإنترنت مجموعة نصوص معادية للإسلام تقع في 2500 صفحة، وأرسلها إلى ألف شخص. كان عنوانها: "2083: إعلان استقلال لأوروبا". حذر فيها من تهديد أوروبا على يد مؤيدي التعدد

¹⁰. راجع: Foreign Agent Registration Act of 1935 in U.S. 465.

الثقافي والماركسيين الثقافيين، ومن نشوء أوروبا عربيّة. وأكثر من خمسين مرّة يسرد كمنشئ الفكرة «روبرت سبانسر» الذي كان قد أسس المنظمتين التاليتين: "مراقبة الجهاد" و"أوقف اجتياح الإسلام لأميركا". فكان يريد كفارس جديد من فرسان الهيكل ومجاهد مسيحيّ وشهيد، أن ينقذ أوروبا من الإسلام. فالنخب المؤيِّدة لتعدّد الثقافات، وكان يعدّ منهم الديموقراطيين الاجتماعيين والحركات النسائيّة، يجب أن تُغلَّب في أوروبا، والإسلام يجب طرده من القارة. ويسمّي «برايفك» كتمثال له تصريح واضع القنابل الأميركي «تد كاشنسكي»، الذي بين 1978 و1993 أرسل 16 رسالة مشحونة بقنبلة، وقتل بذلك ثلاثة من مستلمي الرسائل وجرح 23 آخرين.

في ألمانيا، كانت هناك جماعة إرهابيّة يمينيّة متطرّفة اسمها "النازيّة الخفيّة". جماعة "تسفيكاو" مؤلّفة من ثلاثة أعضاء، قتل أعضاؤها بين عام 2000 و2006 تسعة تجار أجنبيّ. ففجّروا عام 2004 في شارع من كولونيا، أكثر سكّانه أتراك، قنبلة محشوّة بالمسامير، جرحت 22 ماراً. وكان الدافع عندهم لذلك بغض الأجنبيّ مرفقاً بلدّة القتل. فكان أنّ جرائم النازيين في المملكة الثالثة نزع عنها هولها من قبل هؤلاء الإرهابيين، وسُخر من ضحايا بواسطة لعبة نازيّة من صنعهم، من الممكن معها شراء ساحات سجن بدلاً من شوارع وبيوت.

إنّ دُعاة البغض في العالم الإسلاميّ والمسيحيّ يثيرون بعضهم بعضاً. ويريدون أن يجروا أتباعهم ومؤيديهم بقلة عددهم إلى ارتكاب حرب. هم قليلو العدد جدّاً ولكنهم يوجّهون الانتباه إلى أنفسهم. والأكثرية صامة محتارة في أمرها.

هل علينا أن نترك أرضنا لهؤلاء المتعصّبين أمثال عطا وابن لادن، وجونس وبراييفك؟ هؤلاء الذين هم رسل الموت، والعنف ضدّ الأولاد والأبرياء؟ الذين هم أقلّ البشر إنسانيّة؟

إنّ الفيلسوف الأميركيّ «إيرك هوفر» أشار إلى أنّ الإيمان المطلق كالسلطة المطلقة يمكنه أن يُغوي الناس، كما أنّ البغض الجامح يمكنه أن يضيف على حياة فارغة معنى وقيمة.

فلنقاوم دعاة البغض في الغرب والشرق بحزم وصراحة. إنّنا بذلك فقط نستطيع أن نطفئ النار المنبثقة من عدم التسامح.

إنّ المسلمين يتعرّضون في العالم كلّه بسبب بعض المتطرّفين القلائل للتنحية والاحتقار والشتيمة. فشرف المسلمين يلطّخه هؤلاء الإرهابيون الإسلاميون، كما يلطّخ قتل الجماعات على يد المتطرّف «أدولف هتلر» شرف الألمان مدى طويل جدّاً.

هناك مسلمون يقتلون قبل كل شيء مسلمين آخرين لأسباب سياسية ودينية، ولاسيما أتباع الشيعة لأنهم لا ينتمون إلى وجهة الإيمان السنيّ عينه. مسلمون هم أكثر المتألمين من عدم وجود السماحة. فالسماحة والاحترام عاملان جوهريان لحفظ السلام في العالم الإسلاميّ. لذلك يجب على جميع المسلمين أن يفهموا فهمًا أفضل موقف قرآنهم ونيهم الكريم. هي قضية إنقاذ العيش المشترك في العالم الإسلاميّ.

ما هي إذن أهمّ محتويات مواظ النبيّ محمّد بالنسبة إلى المسيحيّين واليهود وغير المؤمنين وجماعات أخرى؟

ماذا يوجد عن ذلك في القرآن؟ وما موقف الإسلام من الاحترام والسماحة؟

2. رسول الله: يتيم يبحث عن التناغم والاستنارة

من يرغب في أن يعرف شيئًا عن التعاليم الأساسية للإسلام، يجدر به أن يبدأ بقراءة الكتب الممتازة لـ «كارمن أرمسترونغ» و«عادل تيودور خوري».

إنّ التي كانت قبلاً راهبة كاثوليكية واعتنقت الإسلام ألّفت تحاليل لامعة منها: "محمّد مؤسس دين وشخصية سياسية"، أو "تاريخ مختصر في الإسلام"، أو "تاريخ الله". فحيث يضيع كثيرون من المؤلّفين في التفاصيل، تعرض هي نظرة من العلوّ لهذا الدين العالميّ مملوءة من معطيات كثيرة شقيقة. فتستطيع بذلك أن تضمّ أجزاء الصورة وتعطينا نظرة شاملة على النبيّ وأهدافه. فأينما التقينا للاشتراك في الندوات، أكان ذلك في دبي أو باكستان، كنت أندهش لجهدها الكبير في سبيل الحقيقة. هي تشرح ما هو الإسلام الحقيقيّ.

في كتابها بعنوان: "محمّد - نبيّ عصرنا"، تقول: "حياته كانت دعوة لا تتعب ضدّ الشراهة والظلم والكبرياء. لم يحاول محمّد أن يكره آخرين على القبول بإيمان دينيّ صارم، بل أن يغيّر قلوب وأذهان البشر. فسُمّي روح عصره "الجاهليّة التي ساقّت إلى العنف والإرهاب"¹¹.

1-2. الحقبة المكيّة

كانت حياة النبيّ في مرحلتها الأولى عسيرة، رافقتها مدّة أربعين عامًا أشكال الحرمان والفشل والنكبات. لم يكن أميرًا غنيًا من المشرق، بل مواطنًا عاديًا في الجزيرة العربيّة. وُلد

¹¹. راجع: Karen Armstrong : Muhammad – Prophet of Our Time, London 2006, p. 19.

محمد نحو عام 570 في مكة مدينة التجارة المهمة، التي كانت فيها، وهي على تقاطع طرق القوافل الكبيرة من سوريا وإلى اليمن، الكعبة كمركز روحي. في ذلك المقدس، وهو بناء مربع أسود، كان العرب يكرمون آلهتهم المختلفة، والله إلههم الأكبر. كانت القوافل تُقبل من مدن بعيدة في سوريا وتصل ما بين عالم البيزنطيين المسيحيين، والمستوطنات اليهودية والحبشة المسيحية وبين الكعبة محطة الحج في مكة. فكانت عبادة الآلهة المختلفة وتجارة الحج والقوافل قد ألفت في مكة شبكة متلاحمة، كانت مكة محطة ومركز تجارة ومحلة مركزية للأديان القديمة.

كان عبد الله والد محمد ينتمي إلى عشيرة الهاشميين، وهي فريق من قبيلة قريش السائدة في مكة. واليوم تنتمي إليها العائلة المالكة في الأردن. مات عبد الله ولم يزل محمد طفلاً. ثم فقد الولد أيضاً أمه آمنة وهو في السادسة من عمره. فنما اليتيم أولاً عند جدّه، وبعد ذلك عند عمّه أبي طالب.

كانت حياته عند انطلاقتها صعبة وقاسية ووحيدة. فبدأ وفقاً لنظام العشيرة الصارم كشخص جانبي حيادي، إذ كان تنقصه حماية أب قوي. من هذا المنطلق الخاص، نمت عنده نظرة جديدة للأمور في مكة وطلب للعدالة. ففي مدة دامت تقريباً 40 سنة اضطر إلى أن يناضل للحصول على التقدير والاحترام والمحبة والإيمان والثبات الاقتصادي. في كثير من الأحيان كان نصيبه معلّقاً بخيط دقيق. هذا ما جعله يكون متواضعاً ومؤمناً بالله.

كان يتوق إلى حماية الله والتناغم والسلام. وبخلاف المتشددين العصريين المائلين إلى العنف لم ينم عنده حقد ولا عنف، بل سلام باطن في الثقة بالله. لم يجره اندفاعه في شبيبته إلى الحنق والتخريب، بل إلى التبشير بقناعاته. لم يكن متجبراً، بل رقيقاً ومتفهماً.

كان محمد يدعو إلى مراعاة الآخرين، مما كان يفتقده مراراً كثيرة. كان لا يثق بالقدرات الخبيثة في داخل البشر. فأثرت سنو شبابه بدون عش يحميه بموقفه الناقد حيال الناس وأفعالهم، وقادته إلى بحث متأني عن الله، وعن السلام والتناغم. هذا ما يقال عنه باللغة العربية الجلم. أي عالم مطبوع على طول الأناة والصبر، والمرح وثبات الجأش، والحكمة وضبط النفس، ومساندة الأناجس والرفق والجودة¹². مختصر الكلام أن الإسلام أساساً متسامح ينادي بالتخلي عن البطش والعنف.

¹². هكذا مفهوم الجلم عند: Reza Shah Kazemi, The Spirit of Tolerance in Islam, London 2012, p.

بعكس الإسلاميين والإرهابيين المائلين إلى العنف، لم يدعُ محمد إلى البغض بل إلى الاحترام المتبادل، لا إلى تحسين أوضاع العالم بدكتاتورية البشر التوتاليتارية، بل بالتوجه الروحي إلى الله. المتجبرون الذين يكتبون الإنسان كان هو يرفضهم بحزم، وكذلك استعمال العنف. بعد ذلك عندما كان في المدينة وهاجمه أعداؤه استعمال السلاح، للدفاع عن النفس.

ليس هناك فرقٌ أوسع من الفرق بين أمثال بن لادن والإرهابيين الآخرين الميَّالين إلى العنف، والنبي محمد عندما كان يعيش في مكة.

وفقاً لإيمان المسلمين هو الله الذي اختاره نبياً. لماذا هذا الرجل، لا أحد الإرهابيين؟ لأن الله يريد ذلك، ويختار رجلاً يدعو إلى التوافق والسلام.

كان هدفه حياة مرضية لله، وبذلك استقرار السلام في نفس الإنسان وبين البشر والعائلات التي كانت في مكة تتنازع دوماً للحصول على منافع ضئيلة. كانت المدينة يهزها التنازع على مكاسب مادية.

من حاد عن تعليم محمد عن الله، لم يُقَطَّع رأسه، بل كان عقابه عند الله في اليوم الأخير. لم يكن محمد يعتبر نفسه ممثلاً لله على الأرض أو يدًا طويلة لله، بل مجرد نبي في سياق تراث التوراة والكتاب المقدس. كان مبشراً ونذيراً، لا قائداً سياسياً مستبدًا.

وكان يقول إنَّ معاملة الناس الذين خلقهم الله على اختلاف كثرتهم يجب أن تكون مطبوعة قبل كل شيء على الاحترام. في الأحوال الاستثنائية على وجه الإطلاق كان يجوز استعمال السلاح للدفاع عن النفس، فيكون معه أنَّ الاتفاق على السلام له دوماً الأولوية. إنَّ الإسلام يتيح اللجوء إلى السلاح، ولكن فقط طالما يدوم الهجوم المباشر من قبل الخصوم. فليس هناك جهاد مستمر بلا حدود.

كان محمد عمره 25 سنة، عندما حصل على وظيفة قائد القوافل لدى الأرملة التاجرة الغنية خديجة بنت خويلد، ممَّا غير نهج حياته.

كان ذلك مرحلة البلوغ إلى دعوة الإسلام. فكان العامل امرأة أرملة ذات سلطة، هي رئيسته. كان عمرها 40 سنة، وكانت متحررة، تقود منذ أعوام التجارة التي ورثتها من والدها. هذا حدث عام 595، لا عام 2013. كان ذلك في زمن كان الرجال يسودون على التجارة والمجتمع. فهذه المرأة الاستثنائية عرضت على موظفها محمد عن طريق وسيط أن يتقدم إليها بطلب الزواج. كان ذلك بعد أن نجح في قيادة القوافل إلى سوريا، وحسن المعاملة تجاه الخدام

الآخرين. وافق محمد على هذا الاقتراح. كان الزواج منها يعني بالنسبة إلى محمد رُقيًا اجتماعيًا كبيرًا في صفوف النخبة في مكة، وسندًا مهمًا لشخصيته، وأمانًا وتفردًا لبحثه عن الله. إن القرآن يذكر ذلك في سورة الصّحى 93: 6 و8: "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (6) ... وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (8)".

غذته خديجة وحمته وسمحت له أن يشتغل في ما يخص الله. فصارت بهذا عمودًا للإسلام الناشئ. فكما سترى في فصل لاحق (رقم 10) عن علاقة النبي محمد بالنساء، تطوّرت شراكة بين هذه المرأة الملازمة القويّة جدًّا ومحمد الرجل الشاب المائل إلى التفكير، إلى زواج حبّ قائم على التساوي في الحقوق، لا على إخضاع المرأة للرجل. يمكن نعت ذلك بالتوازن والتساوي في الحقوق في ميدان العمل، هذا في القرن السابع. صارت خديجة بذلك عونًا نسائيًا على نشوء الإسلام. فأبو بكر التحق كعضوٍ ثانٍ بالدين الجديد. فصار هذا التاجر أول صحابة النبي وبعد وفاة محمد أول خليفة على جميع المسلمين.

فإن كان محمد عن طريق امرأة متحرّرة وتاجرة غنيّة قد وجد سبيله إلى الإسلام، فلماذا، وفقًا لمفاهيم بعض المتشدّدين، على النساء اليوم أن لا يقمن بعملٍ في المجتمع ولا يذهبن إلى المدرسة ولا يُعترف لهنّ بحقوق متساوية - كما كانت حال أول نساء النبي؟ وذلك باسم النبي والقرآن.

كان محمد لا يُعمل الفكر فقط بشؤون التجارة، بل كان اهتمامه يزداد في البحث عن معنى الحياة وعن الله. هذا ما هيأ له زواجه بامرأة غنيّة مستقلة. كان يفكر بإلحاح في الحياة والبشر، ويختلي للتأمل في مغارة حراء في جبل النور. قوافله إلى سوريا كانت قد هيأت له الاتصال بيهود ونصارى مؤمنين. فازداد ترفّعه عن مكة المرتكزة على نفسها والموجهة نحو التجارة الصرف وعن سكاّنها النهمين سنة عن سنة.

ولمّا بلغ عمره أربعين سنة حصل له اختبار دعوته. فأنزل إليه الله وفقًا لإيمان المسلمين سنة 610 آيات القرآن كوحى شفهيّ. كان أمر الله بواسطة الملاك جبريل واضحًا: "قم فأندز، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر" (المُدثر 74: 2-5). وتفرض سورة العلق 96: 8: "إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (8)". وفي 96: 5 أن الله "عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)"، وفي 96: 3: حمدٌ لله: "اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)".

بهذا جاء التوضيح بأن مهمة النبي ليست موجهة ضدّ الدينين الموحّدين لدى اليهود والنصارى، بل فقط ضدّ عبادة الأوثان في مكة والآلهة العديدة في الجزيرة العربيّة وضدّ الشّرك.

هذا حاجز قاطع في المهمة التي جاء بها الملاك وفي القرآن: لا تحارب أبداً المؤمنين بالله المسيحيين واليهود. فإنهم لا يكرمون الأوثان ويحمدون الله. كل آيات القرآن، وسنة النبي والأحاديث يجب أن تُفهم في هذا الاتجاه. فمن يفسر القرآن كدعوة غير مميزة إلى محاربة المسيحيين واليهود ويشدد على وجود ما يفصل عنهم، فهذا قد أساء فقط رسالة الملاك.

إن لب المهمة التي جاء بها الملاك لم يكن إنشاء نظام سياسي جديد في دولة إسلامية على الأرض، بل توجيه الإيمان إلى الله الواحد. فالأمر يدور حول الله وحده، لا حول السلطة على البشر. المهتم القاطع في الأمر هو الاستعداد الباطن عند الناس. فالإيمان هو أمر بشري في أعماق الأعماق، أمر باطن لا يوجد له مقياس. عليه أن يكون متصلاً بالقلب. فمن ينصب العنف والبغض أو السياسة في وسط الإسلام لم يفهم هذا التعليم. فإنه "لا إكراه في الدين" (كما جاء في سورة البقرة 2: 256)، ولا أحد يحق له أن يُجلبه، بل فقط أن ينادي به ويمشي أمام الآخرين كمثال في الأعمال الصالحة. في هذا يكمن نداء آخر إسلامي فائق العمق لممارسة الاحترام، لاسيما مقابل أتباع إيمان آخر. لم يكن النبي يبغى إنشاء دولة دينية متسلطة ولا دكتاتورية الإسلام على يد الناس، بل فقط الإقناع بالكلام.

فكل المحاولات لرد الدعوة الإسلامية إلى شأن دنيوي متشدد، عليها أن تُعمل الفكرة في هذا التوجه الواضح. فإن المهمة الأولى لكل المسلمين تُحرّم من مُرامها والإيمان يضيع اتجاهه، عندما يضحى العالم، لا الله تعالى، مركز التفكير. بتعبير آخر: عندما يصير الإيمان سياسة وعندما تقوم المصالح السياسية والمناقشات وتصارع القوى المختلفة بدفن الإيمان الحق تحت تلة رمل دنيوية. عند ذلك يزداد دوماً ضعف التوجيه إلى الله، ولا يعود هو المضمون، بل السلطة الدنيوية. فيتعد المقتدرون خطوة خطوة عن الدين ويجلبون الخوف على الناس ذوي الإحساس المرهف.

فيوظفون الشيطان في الداخل، الشيطان المدمّر، شيطان التسلّط والعنف. وتُدحر رويداً رويداً إلى وراء قواعد القرآن في السماحة والرفق بالالتجاء إلى الآيات القليلة القاسية المائلة إلى التضييق، لكي يمكن التظاهر بغزارة الإيمان. إن الاقتدار يُفسد الخلق ويوهم أن التفوق عطية من الله بدل العكوف على نعومة الأخلاق على مثال محمّد. فالمتشدّدون قد تكون نيّتهم صالحة. ولكنّ التشدّد وإن كان بنية صالحة يكون غالباً مخالفاً لشهادة الإيمان النصوح الفعّالة.

حافظ النبي محمد مدة حياته كلها على قاعدة دعوته من قبل الله. هو فهم هذه الدعوة. وكان محمد يعلم كيف يمكن أن يخاطب الناس. فكان يريد أن يقنعهم بالمثل والكلام، لا على وجه الإطلاق بالإكراه. لم يكن دأبه أن ينتصر، بل أن يقنع. هذا كان منحى حياته حتى وفاته.

في حقبة التنزيل المدنيّة بين سنة 622 و632، قام بتنظيم المرافق الأولى للدولة ونشر شرائع قرآنيّة. ولكنّه بعد فتحه مكّة عام 630 إذ كان في أوج سلطته المطلقة، لم ينشئ دولة إسلاميّة توتاليّتاريّة من أمر الله، بل ثبت فقط الإيمان بالله الواحد. فأبقى الأوضاع السياسيّة الراهنة على حالها، كما أوردت «كارين أرمسترونغ» في كتابها عن محمد. وعفا عن أعدائه. بذلك التصرف نشر النبي ومارس فصلاً بين الدولة والدين أوضح ممّا يطالب به اليوم الإسلاميون المتشدّدون والسلفيون والإخوان المسلمون. أمّا الخلفاء الأوائل فقد تحوّلوا بتدرّج أسرع من الداعين إلى الإيمان إلى متسلّطين في الإسلام، وانتقلوا من الموعدة إلى الأمر. فصاروا - على نحو الباباوات في القرون الوسطى - قبل كلّ شيء سلاطين دنيويّين.

نحن نلاحظ اليوم إفساداً للإيمان: فباسم القرآن لا يدعو المتشدّدون إلى مجتمع يسود فيه الحلم والاحترام تجاه اليهود والمسيحيّين، بل يزرعون البغض. وقرآن الله هو في مفهومهم مجموعة قوانين دنيويّة كاملة، هي الشريعة الشاملة. هذا مع أنّ النبي لم يفعل ذلك حتى في مكّة، مدينة المسلمين المحرّمة. فإنّه فرّق إلى مدى بعيد بين الإسلام ودولة المدينة، ولم يفرض سوى بعض القواعد القانونيّة. أمّا الذين يجهلون القواعد الكثيرة الواضحة في القرآن التي تقول بأنّ الله هو ديان البشر في اليوم الآخر، لا أيّ شخص يدعي أنّه يمثّل الله على الأرض، فإنّهم يحاولون أن يجرّوا دينونة الله إلى الأرض. هل هذا يوافق إرادة القرآن على هذا النحو؟

حاول محمد في مكّة من عام 610 إلى عام 622، مع أتباعه القلائل أن يقنع لأوّل مرّة مواطنيه من الطريق الإسلاميّ الجديد الداعي إلى العودة إلى الله الواحد. كان المسلمون الأوائل خمسة، منهم زوجة محمد خديجة، والرقيق السابق الذي تبّناه النبي زيد بن حارثة، وابن عمّه وربيبه عليّ بن أبي طالب، وأبو بكر التاجر الثريّ، الذي صار أوّل الخلفاء الراشدين بعد وفاة محمد عام 632. وهذا موقف عسير، إذ إنّ الخليفة سلطان دنيويّ وعليه في الوقت عينه أن يكون خليفة النبي. أمّكن على وجه الإطلاق أن يكون أحد خليفة للنبي؟ أو لم تكن دعوته أن يكون رسولاً مع القرآن، فتكون قد وصلت إلى خاتمتها كإحدى الولادات؟

على الناس أن يحدوا عن تعلّقهم بالغنّى والطمع. ثمّ إنّه كان إلى ذلك يدعو إلى اتّخاذ قيم صافية والابتعاد عن عدم الإخلاص، وكبت الفقراء، والسُّكر والسرقَة والقتل، إلى مجتمع أفضل يرضي الله.

في مجال هذا العمل وقف المؤمنون اليهود والمسيحيون إلى جانبه، رغم بعض الفوارق، لأنّهم هم أيضًا كانوا يدعون إلى هذه القيم الإلهية منذ قرون تبعًا لتراث الأنبياء الآخرين والمسيح عيسى. فكانوا يقفون جميعًا معًا لا بعضهم ضدّ بعض في جهودهم لإنشاء مجتمع أفضل قائم على القيم نفسها.

كانت مواعظ النبي تحدّيًا صارخًا في مكّة مركز الحجّ، التي كانت تستفيد كثيرًا جدًّا من معبد الآلهة في المدينة. فلم يكن يكرّم في الكعبة الله الإله الأكبر وحده، بل بنوع متزايد الإلهات الأخرى: اللات ومناة إلهة القدر والعزى العظيمة. كان أهل مكّة يعميهم رغد العيش في مركز الحجّ مع أسواقه في ملتقى طرق القوافل ورخائه الاقتصاديّ، وكانوا مرتاحين لوضعهم. فهبط الله في مكّة إلى منزلة أمرٍ جانبيّ في صخب عيد عربيّ.

كان رفض النبيّ الجديد الذي كان ينتقد بحدّة الشرك المنتشر، له قبل كلّ شيء أسباب اقتصادية. فإنّ مواكب الحجّ إلى آلهة العرب القديمة المختلفة في الكعبة، كانت تأتي بالأرباح الطائلة، كمثّل صناعة سياحة في القرن السابع. فكان التجار أصحاب النفوذ يهتمهم الربح، لا قضية الله. فكان التوحيد الصارم الذي كان النبيّ محمّد يطالب به (راجع في القرآن سورة النساء 4: 48 و116)، يناقض تراث العرب القديم ويهدّد نتائج الحجّ المهمّة. فأصاب محمّدًا ما أصاب قبله يسوع الناصريّ. كلاهما كانا نذيرين مقلقين، ينتقدان الوضع في مُدُن عملهما القدس ومكّة، وحوّلا بذلك من كانوا يستغلّون على تعدّد الأزمنة الأماكن المقدّسة، إلى أعداء لدودين. كانا منذرين يريدان أن يغيّرا النظام القديم.

كان البشير الجديد محمّد كصارخ وحيد في البرية، محطّ الهزء والإهانة والاضطهاد، بل أيضًا في النهاية مهدّدًا بالطرْد من جماعة القبيلة وحتّى الموت. كان عامل قلقلة. وكان يشبه في نظر كثيرين الحنفاء، أولئك الذين كانوا بعزمهم الخاصّ يبحثون عن الله، أو الكهّان الذين كانوا يبنّون سلفًا بشتى الأحداث. ولكنّهم لم يكونوا حتّى ذلك الوقت قد أنكروا الشرك وقاوموا بحزم عبادة الآلهة الشريكة.

كان أصحاب السلطة في أوّل الأمر يريدون برودة فعل مرنة ومحاولة الإقناع، أن يردّوا محمّد عن دعوته. ولكنّهم أخفقوا في ذلك. حينئذٍ نُفي المسلمون إلى وادٍ خارج المدينة، فلا يجوز

لأحد أن يلتقي بهم. لذلك أرسل محمد عام 615 إحدى عشرة أسرة إلى الملجأ المنقذ، إلى ملك الحبشة المسيحي. تبعهم بعد ذلك عام 616 ما يقارب مئة من أتباع النبي. فلبثوا هناك سبع سنين في حماية المسيحيين. كان ذلك بدء الصداقة بين مسلمين ومسيحيين، التي يجدر أن تُعدَّ حتى اليوم كقدوة تحتذى. وتدلّ على أنّ هناك في الدينين قِيَمًا مشتركة وقاعدة عميقة للإيمان المشترك بالله. إنّ النبيّ الكريم محمدًا كان يعدّ المسيحيين أصدقاء له ومحامين عن المسلمين وشركاء في الإيمان، رغم بعض الفوارق.

2-2. الحقبة المدينيّة

لبث النبيّ محمد ومن بقي معه في مكّة من المسلمين مُبَعَدِينَ مُنْبُوذِينَ. وفي شهر أغسطس/ آب عام 622 قدّم أعداؤه من قريش مئة جمل لكلّ من يقتله أو يسلمه حيًّا. عند ذلك هاجر النبيّ مع أسرته عام 622 إلى يثرب (المدينة). بذلك فقد المسلمون كلّ شيء: الوطن والحماية والاطمئنان. وفقد بعضهم أيضًا حياتهم. لذلك صار محمدٌ عدوًّا مجاهدًا ضدّ الكبت والعنف تجاه المدينيّين وأتباع الأديان الأخرى. كتبت في ذلك «كارين أرمسترونغ»: "بسبب عدم التسامح الدينيّ نُفي محمد من مكّة. لذلك كان عليه أن يتجنّب كلّ أشكال الحصر"¹³.

كان عام 622 أشدّ الفصول ألمًا في حياته. فقد في عُمر متقدّم من حياته ووطنه وحماية عشيرته. إذ إنّ في المجمع العربيّ تكون العشيرة وطنًا ولا يكون البقاء في الحياة ممكنًا إلاّ في بعض المدن والواحات الصغيرة القلائل. فكان مصير أوائل المسلمين غامضًا يتعلّق بخيط من حرير. كانوا في الواقع كلاجئين فازّين في الصحراء الموبقة قرييين من الضياع ومحتاجين إلى عطف قبائل أخرى. كان أتباع القلائل في المدينة قد أعدّوا بظنّة استقبال المسلمين النازحين من مكّة. وانضمّ إليهم بعد ذلك المسلمون المئة الذين كانوا في المنفى قادمين من الحبشة. هنا بدأت حقبة جديدة من الحياة. فبنى محمد نظامًا اجتماعيًا جديدًا وضمّ المسلمين أتباعه إلى السكّان اليهود هناك وجعلهم كلّهم "أمة واحدة". استُقبل في المدينة بلطف من قِبَل مُعظم السكّان وأيضًا من اليهود العائشين هناك. فصارت هذه المدينة عشّ الإسلام. هناك تمكّن دينه من أن ينبسط بحريّة ويكسب أتباعًا جُدُدًا. وأضحى جزءًا من السياسة المحليّة، فكان عليه أن يستخدم بظنّة

¹³. Karen Armstrong : Muhammad Prophet of Our Time, London 2006, p. 122.

السلطة المكتسبة. وكان على محمد، لأول مرة، أن يوضح كم كانت تعاليمه تتفق بسماحة مع تعاليم اليهود والنصارى. هذا سنعود إليه في الفصول اللاحقة.

في الموطن الجديد عينه كان على محمد أن يدافع عن نفسه ضد كثير من العداوات ويجاهد ضد أعدائه في داخل الواحة، ولاسيما ضد أعدائه اللدودين في مكة البعيدة. كانت ظروف الحياة قد تغيرت. فتحوّل عند ذلك الشاب الذي كان داعياً فقط، إلى سياسي محنك، والذي كان ينذر برفق بالكلام إلى مكافح. لذلك نرى أن آيات القرآن المعلنة في المدينة أقرب إلى استعمال القتال من الآيات التي نزلت في زمن الإقامة في مكة. فضرورة الدفاع عن النفس والجهد في سبيل البقاء - ضد المهاجمين - تركا أثرهما في أعمال وأقوال وإنذارات النبي.

هذا ما نبه إليه بعض المؤلّفين ونصحوا بتأويل السور المدينة في هذه الفترة من حياة النبي تأويلاً ينبه إلى أن شروط القتال هذه لم تعد اليوم قائمة.

أما بعض المتشدّدين فيزيدون في تقديم الدليل على أن الآيات القديمة المسالمة في مكة قد نُسخت بالآيات المتأخّرة المحرّضة على القتال والقاسية من الفترة المدينة. وبعبارة أخرى عندنا اليوم أوليّة للقتال على وصيّة السلام في القرآن.

أنا لا أوافق على الرأي القائل بأنه يجب توزيع سور القرآن على هاتين الفترتين من الدعوة. يغيب عليّ منطق هذا النسخ. فإنه يعني أن الله والنبي في السنين الثانية والعشرين من الوحي قد بدّلوا رأيهم بالنسبة إلى البشر والأخلاق. فالتفريق المنتشر بين مكة والمدينة لا يسعه أن يقنعني. بل يجب أن يكون كل كلام الله مُلزماً في كثافته وعبارته غير المعرضة للحذف. فعندي أن المنطق يقضي باتخاذ مجمل النظرة وباعتبار دليل عملي لجميع الآيات. فانتقاء بعض الآيات القليلة فقط من 6236 آية أو الإعراض عن سور مكيّة مهمّة، هذا من باب العبث. هذا يمكنه أن يسيء إلى صحة القرآن في صورته الحقّة. هناك أسئلة تبدو ذات أهميّة أكبر: ما هي الأهداف التي كان النبي يسعى إليها؟ ما هي مواضع الثقل في الإيمان الجديد، وأهم المقولات في القرآن؟ ماذا يحصل إلى ذلك من توجيهات انطلاقاً من حياة النبي محمد (السنة والحديث)؟ فالنظرة الشاملة المنبعثة من مجموعة الأحاديث البالغ عددها عشرة آلاف، ومن آيات القرآن السائدة، ومن تصرف النبي، هذه هي قاعدة القرار. فإنه من الممكن الكلام عن تعاليم الإسلام الملزمة. في أجزاء القسم الأوّل 2-9 من الكتاب سنبحث في ذلك بالنسبة إلى الاحترام والسماحة.

كان على المسلمين في المدينة أن يكسبوا معيشتهم. فباشروا بالسطوة على القوافل الآتية من مدينة العدو مكة. لم يكن هذا من باب اللطف، حسب مفهومنا العصري، بل عادة قديمة لدى البدو منذ آلاف السنين. بذلك نشأ سبب لإعلان الحرب، واشتعل القتال بين المسلمين وأسياد مكة. كان محمد يهدد بهذه الخطوة السلام في موطنه الجديد. مما أدى إلى أن اليهود في المدينة لم يريدوا من بعد أن يتبعوه، إذ إن نتيجة ألوان القتال لم تكن أكيدة، وكان من غير المرجح أن ينتصر المسلمون.

مكة كان عندها عدد أكبر من المقاتلين. فبدأ الصراع بين محمد ومكة. فانتصر المسلمون عام 624 في بدر بشكل مفاجئ، ولكنهم غلبوا عام 625 في وقعة أحد، وفيها أصيب محمد بجراح. عام 627 بءت بالفشل محاصرة المدينة على يد فرقة من مكة، إذ كان قد حفر خندق حول المدينة. عام 628 وقف المسلمون أمام أبواب مكة لمحاصرتها. فتم الاتفاق على وقف القتال لمدة عشر سنوات. ولكن المكّيين نقضوا هذا العهد. فبعد ثمانية أعوام من الصراع القاسي عاد محمد في النهاية عام 630 إلى مكة منتصراً ومعه عشرة آلاف مقاتل. فكان أن الإسلام قد انتصر على أعدائه الأقوياء الذين كانوا يُعدّون خصماً لا يُغلب. فمن يعي كم كان الوضع ضعيفاً قبل ثمانية أعوام يقدر هذا النصر كأعجوبة.

توفي محمد بعد ذلك بعامين في 8 حزيران (يونيو) 632. كان قد وضع خلال عشر سنوات حجر الأساس لدين جديد ومملكة جديدة. فأضحى الإسلام بهذا دين أصحاب السلطة. فلنلتفت الآن إلى تعاليمه بشكل أدق.

3-2. ودائع النبي

إن تعاليم النبي محمد جاءت في مفهوم المسلمين من عند الله وجمعت بعد ذلك في القرآن الكريم. وقد نشأت من انطلاقة الوحي عام 610 إلى وفاته عام 632. واستندت إلى أقوال الحكمة المتوارثة عند اليهود والنصارى، وصدقتها وأصلحتها وفقاً لمعطياتها الخاصة.

دام عمل النبي 23 سنة، منها 13 في مكة و10 في المدينة. في أيام حياته سلم أقوال بشارته إلى أتباعه، وسلمها أتباعه إلى المؤمنين شفهيًا. ثم، كما كان الحال بالنسبة إلى الكتاب المقدس عند اليهود والمسيحيين، أثبتت بعد عشرات السنين في شكلها الحالي. كتب بعض الصحابة آيات

القرآن في البدء على صحف متفرقة. وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (644 - 656)، دُوّنت هذه النصوص المتفرقة والمكتوبة بلهجات مختلفة، في مصحف موحد هو القرآن الكريم.

يضمّ القرآن 114 سورة، لكل منها اسمها. ويختلف عدد آياتها. يحتوي القرآن على مجموع 6236 آية. وجاء ترتيب السور قبل كل شيء وفقاً لأهميّة محتواها ولطولها. من هنا توجد أقوال عن بعض المواضع في القرآن كلّ. لذلك يُستخرج محتوى الإيمان الحقّ من ترابط جميع الأقوال.

جميع السور ما عدا السورة التاسعة (سورة التوبة) تتقدّمها بالبسملة: "بسم الله الرحمن الرحيم". بهذا تتضح إشارة ممتازة إلى أفضليّة الرحمة، وبذلك إلى أهميّة السماحة تجاه الخطأة في جميع الآيات اللاحقة. فمن يعامل الأشخاص الآخرين وحتى الخطأة بالرحمة والعطف، فهِم لبّ البشارة الجديدة. فالبسملة هي المقياس المطلق لجميع السياسيين الذين يلتزمون بالقرآن.

إنّ نظرة صافية إلى محتوى السور الملكية خصوصاً تبين أنّ القرآن ليس هو في أول الأمر كتاب قوانين ومتطلّبات دقيقة للحياة على الأرض. هذه السور مجموعة حكميات تنوي حمل المؤمن على التفكير الصالح. فالقرآن يقود بالصلاة والتأمّل إلى الله بعيداً عن الإرادة الأنانيّة. هو يحرض على التفكّر والتواضع. في وسطه يقوم توجيه البصر إلى الله الواحد ورفض شرك أهل مكّة رفضاً حاداً.

عُيّن لكل سورة عنوان متّخذ من كلمة أو اسم عَلم في النصّ، مثلاً: البقرة، الأنعام، النحل، العنكبوت، الرعد، النور، الأنبياء، مريم، يوسف، إبراهيم. هناك فقط ما بين مئة وخمسة مئة آية - هذا اثنان إلى ثمانية بالمئة - تحتوي على أوامر قانونيّة واضحة. أكثر من تسعين بالمئة من النصّ يعالج قصصاً من الكتاب المقدّس (اليهوديّ والمسيحيّ)، وشؤون الآخرة أو متطلّبات أخلاقيّة. فمركز الثقل يرتكز إذن على آيات القرآن اللاهوتيّة التي لا تمسّ مباشرة الشؤون الدنيويّة. من هذا المنطلق يبدو إصرار المتشدّدين على إنشاء نظام إسلاميّ دنيويّ على الأرض باعثاً للتساؤل. في الكتاب الكريم إشارات كثيرة إلى أنّ العقاب يتبع المحكمة الأخرويّة وفقاً لقرار الله الرحيم. هو وحده سيّد القصاص، لا قضاة هذه الدنيا. هؤلاء عليهم أن يحكموا وفقاً لوصيّة الرحمة.

نمت في الإسلام أيضاً، كما كان الأمر في اليهوديّة والمسيحيّة، رغبة الأتباع المؤمنين في أن يعيشوا في العالم عيشة مملوءة إلى أبعد حدّ من رضى الله. ولكن بما أنّ المبالغة في الغيرة والاعتداد

بالنفس، والكبرياء وشهوة التسلط هي من مركبات ذاتنا البشريّة التامة، يُستخدَم الدين على مدى القرون في كثير من الأحيان ويُساء استعماله لأغراض سياسيّة. بذلك يمكن أن ينتج من التعليم الصافي المتوازن عبر القرون، بفعل إقصاء بعض السور والتركيز على مقولات غيرها، تبديل متفشٍ في مضمون الإيمان. قد يجري بعض ذلك عن نيّة حسنة، ولكن يكون الفعل مخالفاً للمجرى الصالح. فقد اضطرّ النبيّ نفسه في حياته أن ينذر الغيورين المبالغين ويلجهمهم، ويدافع عن نفسه ضدّ المنافقين. فإنّهم يهدّدون اعتناق الإسلام والتركيز على عبادة الله معاً.

ليس لأيّ دولة من صنع الله ولا لأيّ مُفتٍ أن ينصّب نفسه مكان الله ويفرض الطاعة له. هذا هو من حقّ الله وحده. جاءت في سورة النساء 4: 48: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ". هذا يعني بالدرجة الأولى شركاء الله، وأيضاً متسلّطين والدولة التي تنسب نفسها إلى الله، التي تحكم على الخطأة بدلاً من الله. فليس للدولة حسب هذه السورة، أن تُشرك نفسها بالله، وتعتبر ذاتها إلهاً في الأرض وقاضية في الأرض. فإنّه بذلك تصير الدولة نفسها صنماً، ويتحوّل البشر إلى خدامه الخاضعين.

القرآن هو المصدر الأوّل للإسلام. فلفهمه فهماً أكمل يقوم اللجوء إلى سنّة الرسول. هناك مجموعات تضمّ حوالي عشرة آلاف حديث تصف أفعال الرسول وأقواله.

إنّ تحليل مواقف الإسلام من السماحة والاحترام تجاه أديان وأقليات إثنيّة وأعراف أخرى يمكن تفصيله في ثلاثة أبواب: المطلب السائد في القرآن، السماحة الممارسة في مطلع الإسلام في زمن النبيّ (610 إلى 632)، واقع السماحة بعد موت النبيّ في السنين الألف والثلاث مئة التابعة لسلطان الإسلام.

إنّ السلطان الدنيويّ بدأ بعد وفاة النبيّ عام 632 مع الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة (632 - 661)، الذين كانت لهم علاقة شخصيّة بالنبيّ محمّد. تبعه حتّى عام 750 زمن الصحابة الصغار وقدامى الأتباع. جاءت بعد ذلك مرحلة النهضة القانونيّة في زمن ازدهار الإسلام الذهبيّ على عهد الخليفة هارون الرشيد (786 - 809) في المدينة العالميّة بغداد في القرن التاسع. بعد سقوط بغداد عام 1258 واجتياح المغول ومقتل 80 ألفاً من السكّان، تبعت المرحلة الأخيرة التي لا تزال قائمة إلى اليوم، مرحلة انحطاط أهميّة الإسلام العالميّة؛ مدّة 500 سنة سادت السلطنة العثمانيّة من اسطنبول، من اجتياح مصر عام 1517 إلى عام 1923، الشرق الأدنى وشمال أفريقيا في دولة متعدّدة الشعوب فيها طائفة من الجماعات الدينيّة المعاملة باحترام.

إنَّ عادات النبيِّ وأفعاله المذكورة في الأحاديث الكثيرة هي المصدر الثاني ذو الأهمية الكبرى في الإسلام. سُنن الحياة هذه جُمعت ودوَّنت بعد موته. وهي تضمُّ أقوالاً كثيرة تعطي نظرة جيِّدة على فكر النبيِّ.

إنَّ مجموعات الحديث هي المصدر الثاني بعد القرآن. فيها جُمعت أفعال النبيِّ وأقواله. وتُعتبر توجيهات للمسلمين.

أهمُّ مؤلِّفي مجموعات الحديث هم البخاري (810 - 870)، ومسلم (817/821 - 886)، وأبو داود (817 - 888)، والترمذي (815 - 892)، وابن ماجه (824 - 886)، والنسائي (توفيَّ عام 915).

يجدر لتطبيق الحديث اتِّباع القواعد التالية: بما أنَّ النصوص جمعها بَشَّر سنين كثيرة بعد موت النبيِّ، لا يجوز أن يعطى حديث أو أحاديث قليلة قيمة مطلقة، لأنَّه بذلك يمكن أن يفسد التعليم الكامل الصافي. وصحَّتْها هي أحياناً عرضة للشكِّ، لأنَّ ناقلي الحديث يكونون قد أفرغوا عليه صبغتهم الشخصية واتَّجاههم الخاص. فإنَّه يجب الانتباه إلى صورة الأحاديث الكاملة، لا إلى مجرد حديث واحد. فلا يجوز انتقاء حديث واحد وجعل قيمته مطلقة. يصحُّ القرار فقط عندما يُنظر إلى مجموعة النظرة خلال عشرة آلاف حديث وعلى ضوء الآيات القرآنية السائدة وتصرفات النبيِّ. فلأنَّ الحديث كمصدر لسُنن القوانين خاضع للقرآن ككلام الله، لا يجوز لأيِّ مسلم على أساس حديث واحد أو مجموعة صغيرة من الأحاديث أن يخالفوا ولو سورة واحدة من القرآن.

من المهمَّ جدًّا أن يكون الاتجاه واضحاً وأيضاً المواضيع المهمة التي اتَّخذها النبيِّ في نشاطه من أوَّل إعلان دعوته في مكة عام 610 إلى يوم وفاته عام 632. هذا فقط يمكِّننا من اكتشاف موقفه من السماحة والاحترام تجاه اليهود والنصارى، وأقليات أعراق أخرى.

فعندما نبحث في القرآن والحديث النبويِّ عن تعاليم حول السماحة والاحترام تجاه الأديان الأخرى والأقليات الإثنية والأعراق، تتضح بذلك وفقاً للإيمان الإسلاميِّ صورة معبرة عن مشيئة الله.

حسب نظرة الإسلام لا أحد من بين الناس، ولا النبيِّ نفسه، يحقُّ له أن ينشئ الشريعة، بل هو الله وحده فقط. لا يحقُّ لأيِّ مسلم مؤمن أن ينسى بسهولة هذا القول. فمن يخطب ضدَّ ما هو معروف من إرادة النبيِّ، ينصبُّ نفسه خارج الأمة، جماعة المسلمين، ويرتكب معصية تجاه الله. فما هو من مصادر الشرع مدوَّن تدويناً واضحاً في القرآن وسُنَّة النبيِّ، والأمر

بالسماحة والاحترام، هذا كله شرع إسلامي جاري المفعول. فهو يشرح إلزامية الشرع المباشرة تجاه جميع المؤمنين فيكون الإعراض عنه تنكراً لله وتصرفاً بعيداً عن الإسلام.

من هنا يجب على كل مسلم أن يطرح على نفسه السؤال: هل طالبي الله ممارسة التسامح والاحترام تجاه الأشخاص والأعراق والأديان في القرآن والسنة؟

إن القطع الذهبية في السماحة والرحمة في الإسلام يمكنها أن ترشد الحياة المشتركة في العالم كله وأن تخفف أيضاً وطأة القطيعة بين السنين وأهل الشيعة. فالعودة إلى استحضر هذه الأعمدة الإسلامية، أعمدة السماحة، تستطيع أن تدل على الطريق الصحيح المؤدي إلى سلام أكثر ومحبة أشد في قريتنا الشاملة.

3. هل يحث القرآن على العنف؟

إننا مقاتلي القاعدة والمقاتلين الانتحاريين يبررون أفعالهم بالإشارة إلى بعض آيات قليلة من القرآن الذي يعد 6236 آية، ويتجاهلون بذلك السور الأخرى.

من بين الآيات القرآنية الصارمة التي يصرون دوماً عليها ويعيرونها قيمة مطلقة، ثلاث آيات نأتي على ذكرها هنا:

سورة التوبة 9: 73: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ".

سورة النساء 4: 74: "وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا"

(74)

خصوصاً ما يخص قتل الكفار في سورة النساء 4: 89: "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذِّهُمْ وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ". يشير بعض ناقدى الإسلام كأمثال «روبرت سبانسر» تكراراً إلى هذه الآيات العدائية: "الإسلام إيديولوجيا توتاليتارية ترمي إلى مراقبة حياة البشرية الدينية والاجتماعية والسياسية من جميع نواحيها... أنا لا أقبل بالتفريق بين الإسلام والأصوليين الإسلاميين أو الإرهاب الإسلامي"¹⁴.

لا يجوز للمسلم الحقيقي في أي حال من الأحوال أن يبرر أعماله بثلاث آيات من 6236 آية من القرآن، ويتجاهل ببساطة الآيات الباقية وعددها 6233. من يفكر ويعمل على هذا النمط

¹⁴. انظر: Robert Spencer, The Myth of Islamic Tolerance. How Islamic Law Treats Non-Muslims, Amherst, 2005, p. 13.

ليس مسلماً أميناً، بل يحرف كل الكلام ومشينة الله الكاملة. ثم إن هذه الآيات الثلاث واقعة تحت عنوان الرحمة، فتجب تلاوتها مرتبطة بالبسملة ومجموعة القرائن التي تحيط بها.

نريد في المقاطع التالية أن نبحث في السؤال التالي: ما هي الآيات القرآنية والأحاديث التي تدعو إلى السماحة والاحترام، وكيف يجب أن تفهم الآيات التي ذكرت أعلاه.

أين هي جذور السماحة والاحترام تجاه الأديان والأقليات والأعراق الأخرى في القرآن والحديث؟

ما هو رأي النبي في ذلك؟

4. السماحة والاحترام

1-4. هدف النبي محمد: مجتمع متناغم يسود فيه السلام والحلم والإيمان الحقيقي

كما استطعنا أعلاه أن نتأكد في الأمر، كان محمد يدعو إلى إنشاء مجتمع متناغم مرتكز على الإيمان في مكة والمدينة. كان ذلك لبّ دعوته. يلخص «زاهد عزيز» ذلك في دراسته الممتازة "الإسلام والسلام والسماحة": "كان (محمد) مشهوراً بشرفه واستقامته وصدقه وخدمته للفقراء. وكان يزداد حزناً على سقوط المجتمع من حوله... فكان يفكر في معنى الحياة وفي كيفية تحسين أخلاق البشر"¹⁵.

كتبت «كارين أرمسترونغ» عن الأخلاقيات الإسلامية الجديدة: "هدف النبي كان إنشاء مجتمع الحلم. فكان على المسلمين أن يصلوا معاً ويعيشوا معاً بسلام، للحفاظ على الأمة، جماعة المؤمنين. فإن تعرضوا لهجوم ما، كان باستطاعتهم أن يدافعوا عن أنفسهم. ولكن بدلاً من أن يبادلوا المعتدي بالضرب، كان عليهم أن يكونوا على استعداد لأن يغفروا الجروح. فكان الانتقام المباشر - الذي كان مهمة المروءة الأساسية - يُعدّ إثمًا. كان روح الجاهلية القديم لا يزال عالماً في قلوب المسلمين، وكان تعصب القبائل يلتهم". هذا كان تحليل «كارين أرمسترونغ»¹⁶.

¹⁵. انظر: Zahid Aziz, Ahmadiyya Anjumans Lahore Publications, Wembley 2007, p.7.

¹⁶. في كتابها المذكور سابقاً، ص 118.

عندما عادت قبيلتنا الأوس والخزرج إلى التناحر، أسرع محمد إليهم يائساً وناشدهم قائلاً: ألا تزالون منقادين إلى نداء الجاهلية، وأنا مقيم بينكم؟ وألح عليهم بقوله: لقد هداكم الله وشرّفكم. فاقطعوا أوصال الجاهلية التي نشأت من الكفر العنيد وكونوا أصدقاء بعضكم لبعض¹⁷.

إن روحانية النبي وفضائله - التي يختصرها العرب بكلمة واحدة هي الحلم - يصفها «رضا شاه كاظمي» في كتابه الممتاز "روح السماحة في الإسلام" كمجموعة رفيعة ومتميزة من فضائل مثل اللطف والإحساس والصبر والكرم¹⁸.

كان محمد يقاوم البطش والكبرياء والأنانية. يدعم تعديلاً اجتماعياً يرتكز على حلول روحية جديدة¹⁹.

كتب «عادل تيودور خوري» أن النبي محمدًا أراد أن يُبعد الناس عن عدم اهتمامهم وتصرفهم الأعمى ويقودهم إلى الله الواحد. عليهم أن يكونوا شرفاء، صادقين، غير بعيدين عن الاهتمام بالآخرين وأنانيين وماديين كما كانوا قبلاً²⁰.

أراد محمد أن يعود إلى الدين القويم، دين إبراهيم، الذي لم يكن يهودياً ولا نصرانياً. وقد بنى هو وإسماعيل وفقاً لإيمان المسلمين الكعبة في مكة وكرسها لله. فإبراهيم هو في نظر محمد أول مسلم حقيقي وأبو المؤمنين جميعاً: المسلمين واليهود والمسيحيين. هؤلاء هم أولاد أب واحد وأسرة واحدة. فهذه الجذور القديمة هي أقوى مما يفرق بينهم²¹.

لذلك يجب على كل مسلم ويهودي ومسيحي - كما هي الحال في أسرته - أن يجتهد في إخماد النزاعات بالطرق السلمية، وأن يقابل الآخرين بالرضا، ويعينهم ويسلك معهم حياة مشتركة مرضية لله. إننا نحن أسرة كبيرة لله.

لم يقتل محمد أبداً يهودياً أو مسيحياً لمجرد أنه يؤمن إيماناً مختلفاً. ولم يلجأ أبداً بنوع عام إلى السيف ضد "الكفار". لم يقتل إلا استثناء في الجهاد للدفاع عن النفس، ولم يقتل سوى المهاجمين، إلى أن يحدوا عن القتال.

¹⁷. في كتابها المذكور، ص 118.

¹⁸. Reza Shah-Kazemi : The Spirit of Toleranz in Islam, p. 79.

¹⁹. كارن أرمسترونغ، كتابها المذكور، ص 122.

²⁰. انظر: Adel Theodor Khoury, Mit Muslimen in Frieden leben, Würzburg 2002, p. 11, 12.

²¹. في كتاب كارن أرمسترونغ، ص 120-121.

إنَّ الإسلام يشير مع التقدير الخاصِّ إلى أنبياء مختلفين جاءوا قبل محمَّد، وإلى علاقتهم بالله، هم إخوة في الإيمان. ولكنَّ النبيَّ لا يعترف بأنَّ عيسى هو ابن الله، بل نبيَّ جاء قبله، كسابق له يحترمه.

أسس السِّمَاحة والاحترام تجاه أهل الكتاب، اليهود والمسيحيِّين، تتوطَّد على أسس منطق هذه الجذور الدينيَّة المشتركة.

إن كان النبيَّ يمدح إبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء الكثرين قبله ويمشي على خطاهم، فلا يكون شادًّا تمامًا ومحتقرًا إن كان الآخرون لا يزالون يتبعون هؤلاء السابقين. فإنَّهم يفعلون ما فعل محمَّد نفسه. أيجب أن يُعاقبوا لذلك؟ كان الله قد بعث هؤلاء الأنبياء إلى الناس مع أقوالهم الحكميَّة. ما كانوا يدعون إليه كانت مشيئة الله. فمن لا يزال يؤمن بالأنبياء القدماء، فهو أيضًا مؤمن. مؤمن على طريقة مختلفة، ولكن وفقًا لمشيئة الله.

اسم الدين الجديد الذي دعا إليه النبيَّ محمَّد هو الإسلام. معنى الكلمة هو السِّلام، والخضوع لمشيئة الله. موقف الإيمان هذا لا يعني تركيز النفس بدلاً من الله على الأرض كدكتاتوريَّة الإيمان. هو يتطلَّب التواضع والزهد.

في نظرة محمَّد، الله هو النور في الأرض وفي السماء. له يجب على المسلمين أن يخضعوا، لا سيِّد من صنع نفسه يتسلَّط باسم الله في الأرض. الدول والحكومات والملوك مؤسَّسات من صنع الإنسان، مؤسَّسات تُبعد عن الله عندما تتصرَّف بسطوة تصرَّف السلاطين على البشر. هم ينصبون أنفسهم مكان الله. إنَّ البشر مسؤولون في آخر حياتهم مباشرة أمام الله - أمامه، لا أمام أيِّ كائن آخر.

فمن يدَّعي أنَّه يحكم "باسم الله والقرآن والنبيَّ" على الناس، ينصب نفسه بين الله والناس ويستلَب بسلطانه الخاصِّ مقامه.

هذا كان في نظري السبب الأساسيَّ في تصرَّف النبيَّ بعد فتح مكَّة عام 630، بالنسبة إلى السياسة والعقاب، تصرَّفًا متهاودًا تهاودًا بليغًا. فلم ينشئ في مدينته دولة إلهيَّة، بل أبقى الأوضاع السياسيَّة الراهنة على حالها، ممَّا فاجأ أتباعه، وعفا أيضًا عن مناوئيه. سنعود إلى ذكر ذلك في مقطع لاحق عنوانه "فتح مكَّة مثال للمصالحة وللتفريق بين الدولة والدين" (الفصل الأوَّل 6). لم يُرد بدلاً من الله أن يدين أعداءه باسم القرآن، ولا أن يركِّز حكمًا إلهيًّا للإسلام في مدينة مولده المقدَّسة. لم يُرد أن يلحق الدم يديه، بل أن يقنع بالكلام والمثال ويدعو إلى الخير الجديد.

اضطّر النبيّ لأن يجاهد حياته كلّها ضدّ القوى الشديدة، قوى الجاهليّة والتعدّي والانتقام غير المحدود. في مكّة والمدينة أيد أيضًا في خطبه شرائع السماحة والاحترام عن فهم له للإيمان. سنعود إليه لاحقًا بشكل أدقّ.

من الأحاديث ينتج أنّ النبيّ اضطّرّ في كثير من الأحيان إلى أن يحرض أتباعه على التمهّل والتعقّل، إذ كانوا يجتازون حدود الهدف وينقادون إلى طرائقهم القديمة. هذه كانت منبّهات للكفاح بين الإسلاميين الغلاة وأتباع الإسلام الحقّ الرضيّ المتسامح. لا يدور الأمر حول محافظ أو متطوّر، بين التفاسير القديمة أو الحديثة، بل فقط حول جذور الاحترام الحقيقيّة في حياة النبيّ وفي القرآن الكريم.

كانت شبه الجزيرة العربيّة في أيام النبيّ محمّد بلدًا عنيفًا تتقاتل فيه قبائل البدو والعشائر حول الماء القليل والغذاء والقوافل. فكان النبيّ يعي مهمّته قبل كلّ شيء كداعٍ إلى السلام. كان النبيّ يعرف جيّدًا مواضع الضعف في أصحابه واستعدادهم لمواجهة أعضاء قبائل أو أنساب أخرى بعدم الثقة والعنف. كان يعلم أنّ ارتدادهم إلى السلام كان شخصيًا، وأنّ استعدادهم البشريّ لممارسة العنف كان يراقب حظه.

لم يكن مائلًا إلى التعدّي والعنف، بل إلى المساواة والإسراع في إقرار السلام. لم يكن يعتبر الجهاد حربًا مقدّسة بالسيف، بل كفاحًا داخليًّا ضدّ الجشع والظلم والكبرياء والكبت. كان يعني الكفاح لكسب قلوب الناس، ولتوجيههم إلى الإيمان، بعيدًا عن المصالح الماديّة الأنانيّة.

كان يدعو إلى الحلم، الذي هو فضيلة عربيّة تضمّ الرفق والصبر والعطف. جاء في القرآن الكريم: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63)" (سورة الفرقان 25: 63).

المسلم المؤمن من هو رحب الصدر، لا من يقتل الناس. هو حكيم ويخدم السلام، وبذلك يخدم الله.

ليست المظاهر هي التي تكوّن المسلم الصالح، بل القيّم الداخليّة الصالحة، والقناعات الحسنة مثل الوفاء والنّبيل وحسن السيرة والحياة المثاليّة. بهذا فقط يقتدي بالنبيّ ويُقيم حقّ مثاله وحقّ الله.

2-4. بَشْرُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ - لكن بدون عنف

يُدعى محمد دائماً رسول الله. هذا لب مهمته، أن ينقل إلى البشر بكلمات سُور الله. لا يُدعى في القرآن "محارب الله" أو "سيف الله"، أي شخصاً عليه أن يردّ آخرين بعنف ويكرههم على اعتناق الإسلام. هو (فقط) مبشّر ديني.

إنّ داعي الإسلام بَشْرُ في مكّة دوماً بلا عنف. لم يكن يدعو إلى استخدام العنف لتغيير الأوضاع الاجتماعيّة، بل كان كشخصيّة قياديّة يرتكز على كلامه وصدقه. فيكون نشر الإسلام بالتبشير بكلمة الله، لا بالسيف.

بهذا التخلّي عن العنف مدّة ثلاثة عشر عاماً في مكّة من سنة 610 إلى 622، وبعد فتح مكّة من سنة 630 إلى 632 يتبيّن دليل واضح على حبّ السلام عند النبيّ وعلى فهمه للإسلام. لم يكن يؤيّد الإكراه في الدين، بل كان يبشّر بالكلام الصالح. في أعوام الكفاح الثمانية من سنة 622 إلى 630 اضطرّ النبيّ إلى استعمال السلاح ليدافع عن نفسه سياسياً ضدّ المهاجمين من مكّة. كان ذلك استثناءً من القاعدة ومنازعة دنيويّة، لا نشرًا للإيمان بالعنف.

يؤكد القرآن في بعض الآيات الطابع السلميّ للدعوة: "أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ" (سورة آل عمران 3: 20).

"فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رِسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ" (سورة المائدة 5: 92). - "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ... وَمَا عَلَيَّ الرَّسُولُ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ" (سورة النور 24: 54؛ راجع أيضًا سورة الرعد 13: 40).

وسائل النبي كانت فقط الكلمة والإقناع بالأعمال الصالحة، إذ إنّ الفوارق في القبائل وفي الإيمان هي نظام عالميّ متعدّد يريده الله. فمن يسعى إلى تغييره بالعنف ينصب نفسه ضدّ الله.

جاء في سورة يونس 10: 99: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ".

وتؤكد هذا سورة المائدة 5: 48 وتُبعد العنف كأداة للإكراه في الدين: "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ".

وجاء في سورة النحل 16: 125 إيعاز إلى النبي أن "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِلُغَتِكَ بِإِحْسَانٍ".

قاله وبذلك نبيّه أيضاً يوافقان على اختلاف الناس في إيمانهم. ويُقصدان التغيير العنيف لهذا
العالم الذي أراده الله، عالم القبائل والأديان المختلفة.

فليست هناك في القرآن دعوة إلى السيف والعنف كوسائل لنشر كلام الله.

3-4. السّلام عليكم

المسلم يحيي بقوله: السّلام عليكم. وبأني الجواب: وعليكم السّلام. هذه التحيّة لبّ التخاطب
بين الناس ورباط الإيمان: هو السّلام، لا الحرب. هو الحياة المشتركة بدل البغض، هو الاحترام.

قال السيّد محمود مدني في مداخلته في عمّان حول "دعوة الإسلام إلى السّلام والأمان": "إنّ
هذه التحيّة ترمز إلى لبّ دعوة النبي والإسلام إلى السّلام والإنسانيّة. فكُلّ نقض للسّلام وكلّ
إرهاب ضدّ أناس أبرياء يخالف مفهوم السّلام هذا"²².

هذه العبارة مداها أبعد من التحيّة اليهوديّة "شّلوم" (سّلام)، لأنّها تخاطب الآخر مباشرة.

إنّ تحيّة الإسلام تؤيّد يومياً مطلب السّماحة والاحترام تجاه أتباع دين آخر، وتجاه ذوي
الثقافات الأخرى والأقليات الإثنيّة. وهي تُلزم من ينطق بها في الوقت عينه أن يتحرّى موقف
السّلام والحلم، وتدعو بذلك إلى خلاف البغض والعنف في علاقات البشر بعضهم ببعض. ولكنّها
اليوم، للأسف، قد هوت إلى مستوى عبارة طائشة.

هي عبارة مركزيّة في السّلام، وفي الوقت عينه الإشارة اليوميّة عن أفواه الملايين ضدّ أعمال
العنف والكبت.

²². راجع:

Mahmood A. Madani, Islam's Message of Peace and Security, 14th General Conference of
the Royal Aal al-Bayt Institute for Islamic Thought, Amman, 4-7 september 2007.

4-4. الله هو إله جميع البشر

الله "مَلِكِ النَّاسِ" (سورة الناس 114: 2)، "إِلَهِ النَّاسِ" (114: 3). "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (راجع سورة البقرة 2: 21).

ورد في سورة المائدة 5: 48: "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ". هي تركز على الاختلاف الذي أراه الله في الإيمان، وعلى الجهد في بلوغ الحقيقة، كما ينقلها الأنبياء إلى الناس. فالحساب الأخير عن حياة مرضية لدى الله يرجع إليه، لا إلى البشر. عند ذلك فقط يقوم يوم الدين بأمره.

وكذلك تؤكد سورة الشورى 42: 15 هذا الاتجاه: "وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ". أكثرية الكتب المقدسة تحتوي على التوراة والكتاب المقدس. فمن يتبعها يُقيم برَّ الله. فقط في الجنة وبعد الحياة على الأرض كلَّ الله بين كلَّ البشر.

لا يجدر بمسلم صالح أن يكون "مُخْتَلًا فَحُورًا" (سورة النساء 4: 36)، أي أن يضع نفسه كأنه شخص أفضل، على مرتبة أعلى من الآخرين. عليه أن يُعامل بالحسنى الوالدين وذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل الغرباء (راجع سورة النساء 4: 36).

قال النبي: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (حديث متفق عليه).

4-5. تفوق الرحمة في القرآن

إن سألت في نيويورك أو لندن أو برلين أناسًا في الشارع عن تصورهم للإسلام، تسود عندهم صورة مفزعة لأحد الإسلاميين المناضلين، كما طُبعت في الأعوام الخمسة عشر من جراء تصرف جماعة القاعدة أو الطالبان. فنظرتهم إلى القرآن هي أنه كتاب ينادي بالعنف ضد أتباع أديان أخرى. فالسيف يُشهر ضد الكفار يبدو كرمز للنبي.

ولكن ما هي صورة الله الذي ينشرها القرآن الكريم؟ هل يأمر بالعقاب ضدَّ الخاطئ دون رحمة؟ هل يُضمر الثأر؟ أي مطلب يتضمَّنه خُلُق الله بالنسبة إلى المسلم المؤمن؟

في القرآن وصفٌ واضح لله: هو الرحيم الرحمن تجاه الناس الضعفاء الخطاة. إن سورة الفاتحة تضع القرآن كله تحت سقف الرحمة. جميع السور - باستثناء سورة التوبة (رقم 9) - تُعيد في مطلعها بالبسملة التي يجب أن تمتد إلى جميع الآيات اللاحقة: "بسم الله الرحمن الرحيم". في سورة الفاتحة يوصف الله لا أقل من أربع مرات بالرحيم. إن البسملة هي العبارة عن السماح التي تسود القرآن كله في الإسلام.

فمن لا يرحم، ينصب نفسه خارج نظام الله في القرآن. ومن يريد أن يتبع الله، عليه أن يجتهد على نمط مثاليته. بهذا يتنكر الله بشدة ضد فقدان الرحمة عند أصحاب الغيرة المغالين الذين ينصبون أنفسهم مكانه فوق رؤوس الناس وفوق قرار إلهي.

إن مصادر صفة الإسلام الرحيمة مثبتة في سورة الفاتحة المهمة وقبل جميع السور (ما عدا السورة التاسعة "سورة التوبة")، وبالإضافة في كثير من الآيات (مثلًا في سورة التوبة 9: 117، أو سورة الحشر 59: 10)، وفي سيرة النبي. شريعة السماح هذه تتراعى أيضًا في كثير من الأسماء الحسنى، التي يدعو المسلمون الله بها، وفي عبارة التحية اليومية. الإسلام هو رحمة، وعدم الرحمة منافٍ للإسلام. فأني مسلم لا يرحم، هو ينافق في انتسابه إلى الإيمان الحقيقي.

الإنسان يُنظر إليه وفقًا للواقع على أنه خاطئ. ولكن الله لا يريد أن يتصرف كديان لا يرحم، بل هو التواب الذي يلتفت برضى: "والله يريد أن يتوب عليكم... يريد الله أن يخفف عنكم. وخلق الإنسان ضعيفًا" (سورة النساء 4: 27-28). أمره للناس أن: "لا تُفسدوا في الأرض" (سورة البقرة 2: 11). وأيضًا: "ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون" (42) (سورة البقرة 2: 42).

قد يغضب الله، ولكنه يوصف دومًا في آيات القرآن كالرحمن الكبير: "يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ... وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (سورة آل عمران 3: 129). - "إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" (سورة الإسراء 17: 44). - "وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ" (سورة البروج 85: 14). - "الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)" (سورة الرحمن 55: 4-1). - "وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ" (سورة النمل 27: 63). - ويؤكد الله: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ" (سورة الأعراف 7: 156).

الدكتور مهتد حُرشيد، أستاذ التربية الدينية الإسلامية في مركز الدراسات الدينية في جامعة مونستر (ألمانيا)، يشير في كتابه الجديد الممتاز وعنوانه "الإسلام هو رحمة"²³، إلى الآيات التالية كمصدر للرحمة: سورة الإسراء 17: 110: "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى". سورة الأعراف 7: 56: "إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ".

يستخلص العالم بحق: "الله إذن ليس رحيماً فقط، إنه الرحمة"²⁴. فالرحمة تُعدّ من أوصافه الجوهرية²⁵. ويعتبر الدكتور حُرشيد أنّ الرحمة هي "محبّة الله الفاعلة التي تلتفت إلى البشر". ومحبّة الله للإنسان تتركز على مخطّطه الأزليّ بأن لا يكتفي بخلق الإنسان، بل فضلاً عن ذلك بأن يكشف له عن ذاته ويدعوه إلى شركته"²⁶.

يقول القرآن إنّ الرسول (أيضاً) "رَبُّوفٌ رَّحِيمٌ" (سورة التوبة 9: 128).

هناك أحاديث عديدة تؤكّد أهميّة الرحمة والمغفرة في حياة النبيّ. قانون مركزيّ للسماحة في الإسلام هو قول محمّد المأثور: "عن أنس: لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه" (حديث متفق عليه). ونورد هنا ما جاء في هذا الباب:

عن أبي هريرة: والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنون حتّى تحابوا (مسلم).

عن أبي هريرة: إنّ الله خلق مئة رحمة يوم خلق السماوات والأرض (مسلم).

عن أبي هريرة: جعل الله الرحمة مئة جزء (البخاري، مسلم).

عن أبي هريرة: خلق الله آدم على صورته (البخاري، مسلم).

فاحترام الإنسان هو أيضاً احترام خليقة الله. والرحمة هي احترام مخطّط في إنشاء البشر مع طبيعتهم الخاطئة.

قال الله إنّ أصحاب الفضل من صبر على العداة وغفر الإهانة²⁷.

²³ . انظر: Mouhanad Khorchide, Islam ist Barmherzigkeit, Herder, Freiburg 2012, 35.

²⁴ . ص 35.

²⁵ . ص 45.

²⁶ . ص 34.

²⁷ . من مجموعة عبد الله المأمون السهروردي: حكمة محمّد، گلکوتا 1938، رقم 191، ص 66.

عن ابن عُمر: جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله كم نعفو عن الخادم. فصمت. فأعاد الكلام. فصمت. فلما كان في الثالثة، قال: كل يوم سبعين مرة (أبو داود، الترمذي).

ونُقِلَ عن النبي أنه قال: أقرب الناس إلى الله من عفا عندما كان يقدر على من أهانه²⁸.
وأيضاً: عطف الله على خلقه أشد من عطف أم على ولدها²⁹.

عن جرير بن عبد الله: من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله تعالى (البخاري، مسلم، الترمذي).
قال النبي: إن من لا يعطف على خلائق الله وعلى أولاده، لا يعطف الله عليه³⁰.

عن عبد الله بن عُمر: الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء (أبو داود، الترمذي).

من أقوال النبي: من هو أحب الناس عند الله؟ هو من يأتي منه أفضل شيء لخليقته³¹.
من أقوال النبي أن خلائق الله عياله. فمن أحسن إليها، هو أحبها إلى الله³².

قال محمود مدني في محاضرة له في عمان في شهر سبتمبر/ أيلول 2007: "إن مظهر النبي على الأرض يدل على رحمة الله لخلائقه".

عن أبي هريرة: عندما خلق الله الخليفة كتب على عرشه: غلبت (أو سبقت) رحمتي غضبي (البخاري، مسلم).

من أقوال النبي أن العطف علامة الإيمان، فمن لا يعطف، لا إيمان له³³.

المحبة والرحمة أساسان للإيمان. تقول الوصيَّة القديمة: أحب جارك. من هنا يستنتج السفير الألماني القديم الذي اعتنق الإسلام «مُرَاد فِلفريد هوفمان»، أن هذا المفهوم للإيمان الحقيقي يُستدل عليه من آيات مختلفة من القرآن (4: 36 و60؛ 38: 3؛ 92: 5-7؛ 4: 58؛ 5: 8 و42؛ 7: 29؛ 16: 90)، إذ إنها تؤكد أن سيادة الظلم غير واردة. يقول "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"

²⁸ . السُّهْرُورِي، رقم 194، ص 67.

²⁹ . السُّهْرُورِي، رقم 212، ص 70.

³⁰ . السُّهْرُورِي، رقم 253، ص 76.

³¹ . السُّهْرُورِي، رقم 250، ص 76.

³² . السُّهْرُورِي، رقم 251، ص 76.

³³ . السُّهْرُورِي، رقم 254، ص 76.

(سورة آل عمران 3: 148؛ سورة المائدة 5: 93). "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (سورة آل عمران 3: 159)، "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ" (سورة التوبة 9: 108)، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا" (96) (سورة مريم 19: 96)، "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (سورة الممتحنة 60: 8). "وإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (سورة المائدة 5: 87)؛ "إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (سورة الأعراف 7: 55)³⁴. فسورة المائدة 5: 87 وسورة الأعراف 7: 55 تحكمان حكماً واضحاً على المتطرفين الذين يتعدون مثلاً باسم القرآن وصية حبّ القريب والرحمة.

عن عائشة: قال النبي: إن الله رفيق يحب الرفق (البخاري، مسلم، أبو داود، الترمذي).

تفرض سورة آل عمران 3: 159 على الناس المصالحة والعفو: "فَمَا رَحْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ...".

وتطلب سورة الأعراف 7: 180: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا". الجودة والرحمة كصفتين أساسيتين تبدوان بشكل إضافي في الأوصاف الكثيرة الجميلة في أسماء الله. فإن المسلمين نسبوا إلى الله تسعة أسماء تصف رفقه وصره وميله إلى السلام، وعفوه ونعمته. بذلك يتضح مسلك الفضيلة الإسلامي تجاه الآخرين والخطأ: الرحيم - الرحمن - الغفار - الغفور - العدل - الحلیم - السلام - الرؤوف - الصبور.

من أهمّ تعاليم النبي والقرآن هما الرفق والعفو. هما صدٌّ للتطرف وعدم الإنسانيّة. فيحرمان المعاقبة الهمجيّة باسم الله على طريقة الإسلاميين المتشدّدين. مثل هذه التعديّات آثام، تُهين الله والنبي وتخالف قواعد أساسيّة للقرآن الكريم.

من بالغ الأثر ما فعله محمّد في ممارسة السماحة والاحترام عند فتح مكة عام 630. فبدافع الرحمة عفا هو نفسه عن ألدّ أعدائه. وسنأتي على ذكر التفاصيل في المقطع 6.

فالمسلم الحقيقيّ يجب عليه أن يعامل حتّى أعداءه بعفو ورحمة، وإلاّ عرض نفسه لغضب الله والنبيّ. فالفكرة المتطرّفة في معاقبة شديدة على الأرض بسبب مخالفة للقرآن، وذلك بدون عفو ورحمة كما مارسها النبيّ، وكما هي من خصائص الله تناقض أفكار القرآن الأساسيّة.

³⁴ انظر:

Murat Wilfried Hofmann, Differences between the Muslim and the Christian Concept of Divine Love, Amman 2007.

أولاً، إنَّ الرحمة واجب المسلم المؤمن. الله نفسه هو الجودة، هو الرحمن والعطوف: هذا هو لبّ تعليم القرآن، وبذلك تعليم الله. البأس وعدم الرحمة وفقدان العطف هي من نَمَّ من أوصاف الشيطان، بعيدة عن الله وخطيئة غير مطابقة للإسلام.

ثانياً، في الإسلام كما في المسيحية يقع في النهاية عن أمر الله في يوم الدينونة الأخيرة، العقاب بالجحيم والثواب في الجنة، وذلك كله لا يقع في زمن الحياة على الأرض. يمكن وفقاً لمعطيات القرآن أن يكون عقاب على الأرض، ولكن دوماً بالاتفاق العملي مع الحساب الإلهي في نهاية الحياة كلها.

ثالثاً، فالإنسان ينصب نفسه مكان الله عندما يتصرّف بصرامة بالغة، إذ إنَّ القرآن يُنكر عليه ذلك.

رابعاً، يجب أن يظلّ دائماً مُتَّسِعاً لنعمة الله. فإنّه، إن صحَّ القول، يُحرَم من عمله، إذ يكون آلاف من القضاة على الأرض قد حاكموا الجميع. فتُنزع بذلك من الله إمكانية الإنعام بالرحمة للخاطئ. فلا يعود يمكنه أن يكون عطوفاً رحيماً. بهذا يقتلع التطرف سورة الفاتحة المهمة وآيات الرحمة في مطلع السور من مراسيها ويتنزعها عملياً من الإسلام. هذا يتعدّى حدود ما هو وفقاً للقرآن مسموح به للإنسان.

الرحمة بصفاتها الفضلى "أرحم الراحمين"، هي عامود الاتجاه لجميع المسلمين. فالحكم على هفوات الإنسان هو مبدئياً من حقِّ الله وحده في يوم الدين، وذلك بعد نهاية حياته.

هناك في القرآن بعض القواعد القليلة للمعاقبة في هذه الدنيا. هل هي فقط وصف للأوضاع السائدة في القرن السابع أم هي أمرٌ ملزم للمسلمين في القرن الحادي والعشرين أيضاً، هذا أمرٌ متنازع عليه. هذه العقوبة واقعة تحت وصية الرحمة. هذا لا ينتج فقط من سورة الفاتحة ومن التكرار المتواصل للأمر بالرحمة في القرآن، بل أيضاً من ذكر الجزاء والعقاب فيها من قبَل الله. الأحكام الرحيمة هي وحدها إسلامية. ولكن عندما يستلَب الإنسان هذه الوظيفة، ينقض مجال الله وسلطة حكمه. فعليه من ثمَّ أن يترك دائماً مجالاً للرحمة في الآخرة ويوم الدين.

كلُّ عقوبة وفقاً للشريعة الإسلامية، يمكنها، بل عليها أن تتخذ شكلاً رحيماً. هذا يخصّ وسائل البرهان (في حال الشكِّ لصالح الخاطئ موضوع الشكوى)، والتخفيف في المعاقبة، وعلام التحسّن وإطلاق السراح المبكّر.

كل ميثاق وطني إسلامي عليه أن يصف الرحمة في مركز الوسط من منهج قوانينه. وإلا فلا يكون بدون هذه العلاقة شرعاً إسلامياً.

إن البروفسور خُرشيد يقدم دليلاً أوسع: ليس من مهمة الدين، ولا من مهمة الإسلام، أن يُقرّ قوانين. إن هدف الإسلام الخاص هو أن يكتمل الإنسان ليحظى بشركة مع الله. ولكن الاكتمال لا يأتي من الخارج، ولا بقوة إكراه القانون، هو بالأحرى مسارٌ يجدر به ويجب عليه أن ينطلق من الداخل³⁵.

6-4. على المسلم أن يكون رفيقاً وفاعل خير

يعدّ النبي من أنبل خصال المسلم المؤمن الرفق، أي التراجع أمام أشخاص آخرين، وبذلك رفض التطرف.

- قال النبي: إن الرفق منبع جميع الفضائل³⁶.

- وأيضاً: الرفق والطهر من الإيمان³⁷.

وفقاً لعرض القرآن جميع البشر من أصل واحد، فهم من ثمّ متساوون. وأن يكون الناس يختلفون بالنسل، لا يمنهم مقاماً مفضلاً: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (سورة الحجرات 49: 13).

يشير البروفسور مهتد خُرشيد إلى محبة الله للإنسان في سورة المائدة 5: 54.

هذا الموقف يتضح من التوصيات التالية:

- "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (199). (سورة الأعراف 7: 199).

- "وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ". (سورة التوبة 9: 119).

- "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ

يَعْظُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" (90). (سورة النحل 16: 90).

³⁵. من كتابه المذكور أعلاه، ص 116.

³⁶. السهروردي، رقم 302، ص 83.

³⁷. السهروردي، رقم 303، ص 83.

- "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ". (سورة المؤمنون 23: 96).

- "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...". (سورة الجاثية 45: 15).

- "سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" (سورة فاطر 35: 32).

- "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)".

(سورة النساء 4: 40).

- يُطَالِبُ الْقُرْآنُ - كما هو الأمر في المسيحية - بوصية حبِّ القريب المركزية: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا..." (سورة الشورى 42: 23).

وورد في الحديث ما يلي:

- عن أبي هريرة: أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا. وخياركم خياركم لنسائهم (الترمذي).

- عن عائشة: خياركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي (الترمذي) (ومثله عن عبد الله بن

العبّاس عند ابن ماجه).

في ليلة الإسراء إلى القدس علم النبي محمد أنّ جميع الأنبياء إخوة وأعضاء أسرة واحدة في الإيمان. فالتوراة والكتاب المقدس والإنجيل بشارة من عند الله إلى البشر. فالإيمان بالله هو الإيمان الحق، لا الإيمان بدين واحد فقط³⁸.

يحدّث صاحب النبي وأول الخلفاء أبو بكر عن وصية تقول: لا تقطع شجرة تؤتي ثمارها، ولا تهدم أي بئر، ولا تحرق أي حقل ينتج ثماره.

من الأقوال المأثورة: أي مسلم يزرع شجرة أو يبذر بذارًا فيغدّي به إنسانًا أو حيوانًا بريًا، يُحْكَم فيه كأنه أعطى صدقة.

وفي الحديث قوله: إنّ العباد كلّهم إخوة (أبو داود).

سئل النبي يومًا ماذا يعني بالإيمان، فأجاب: التأيي والجودة³⁹.

³⁸. كارن أرمسترونغ: محمد، ص 98.

³⁹. انظر:

الإِنسان الصافي الجودة، المستعدّ للعون، الرفيق هو وحده مسلم صالح. هذه هي أيضًا الصفات الأساسية اللازمة للمزيد من السباحة والموَدَّة في القرية العالميَّة. فنحن إذن بحاجة إلى عدد أكبر من المسلمين المؤمنين الحقيقيين.

7-4. احترام الضعفاء والفقراء والمكبوّتين

طالب النبيّ محمّد مرّات عديدة بالاحترام والمساندة تجاه الضعفاء والفقراء والمكبوّتين، الذين يُضطّرونّ إلى الدفاع عن أنفسهم ضدّ أحوالهم، وضدّ الكبت.

- عن عبد الله بن عمرو: سألت رجل النبيّ: أيّ الإسلام خير؟ قال: تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف (البخاري، مسلم، أبو داود، النسائي)

- عن أبي مسعود الأنصاري: أنّ رجلاً قال: والله، يا رسول الله، إنّي لأتأخّر من صلاة الغداة من أجل فلان ممّا يطيل بنا. فما رأيتُ رسول الله في موعظة أشدّ غضبًا منه⁴⁰ يؤمّنّد. ثمّ قال: إنّ منكم منفرّين. فأينكم ما صلّى بالناس فليتجوّز. فإنّ فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة⁴¹. وإذا صلّى لنفسه فليطوّل ما شاء (رواه الخمسة).

(لفظ الترمذي: فإنّ فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض).

- عن أنس بن مالك، أنّ النبيّ رأى في المسجد حبلاً علّقته امرأة بين عامودين، لكي تتمكّن أن تقف هناك. فأمر النبيّ بإبعاد الحبل وقال: من كان تعبًا فليجلس (البخاري).

- كان أهل الصّفة فقراء يطعمهم النبيّ ويسقيهم من القليل الذي يتوفّر لديه، وذلك حتّى ولو ساء ذلك أحيانًا مرافقيه: عن أبي هريرة أنّه كان يقول: الله الذي لا إله إلاّ هو إنّ كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع ولقد وعدتُ يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه. فمرّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألتُهُ إلاّ ليُشبعني فمرّ فلم يفعل. ثمّ مرّ بي عمّر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألتُهُ إلاّ ليُشبعني فمرّ فلم يفعل. ثمّ مرّ بي أبو القاسم (النبيّ محمّد) فتبسّم حين رأي وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثمّ قال: يا أبا هرّ، قلتُ: لبيّك يا رسول الله قال: الحقّ. فمضى فتبعته فدخل فاستأذّن فأذن لي فدخلتُ فوجدتُ لبنًا في قَدَحٍ فقال: من أين هذا اللبّن؟ قالوا: أهده لك فلان أو فلانة، قال: أبا هرّ، قلتُ: لبيّك

⁴⁰. أي فليخفف مع فعل الواجبات والسُنن.

⁴¹. أي والمسافر والمُرضع والحامل.

يا رسولَ الله، قال: الحقُّ إلى أهلِ الصِّفَّةِ فادعُهُم لي، قال: وأهلُ الصِّفَّةِ أضيافُ الإسلامِ لا يَأوونَ إلى أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحدٍ، إذا أتته صدقةٌ بعثت بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً. وإذا أتته هديَّةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللَّبَنُ في أهلِ الصِّفَّةِ كنتُ أحقُّ أنا أن أصيبَ من هذا اللَّبَنِ شربةً أتقوى بها. فإذا جاءوا أمرني فأعطيهم وما عسى أن يبلِّغني من هذا اللَّبَنِ ولم يكن من طاعةِ الله وطاعةِ رسوله بُدُّ فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسَهُم من البيتِ، قال: يا أبا هريرة، قلتُ: لبيك يا رسولَ الله، قال: خذ فأعطيهم فأخذتُ القَدَحَ فجعلتُ أعطيه الرَّجُلَ فيشربُ حتَّى يروى ثم يردُّ عليَّ القَدَحَ فأعطيه الرَّجُلَ فيشربُ حتَّى يروى. ثم يردُّ عليَّ القَدَحَ حتَّى انتهيتُ إلى النبي وقد روي القومُ كلُّهم فأخذ القَدَحَ فوضعه على يده فنظر إلي فتبسَّم فقال: يا أبا هريرة، قلتُ: لبيك يا رسولَ الله، قال: بقيتُ أنا وأنت، قلتُ: صدقت يا رسولَ الله، قال: افْعُدْ فاشربْ ففَعَدْتُ فشربتُ فقال: اشربْ فشربتُ. فما زال يقولُ اشربْ حتَّى قلتُ: لا والذي بعثك بالحقِّ ما أجدُ له مسلَكًا. قال: فأرني فأعطيتهُ القَدَحَ فحمدَ الله وسمى وشرب الفَضْلَةَ (البخاري والترمذي والإمام أحمد).

- عن سهل بن سعد: أنا وكفيل اليتيم في الجنة هكذا. وقال: بإصبعيه السبابة والوسطى (رواه الأربعة). ولمسلم: كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة. وأشار بالسبابة والوسطى.

- عن أبي هريرة: حقُّ المسلم على المسلم ستٌّ. قيل: ما هنَّ، يا رسولَ الله. قال: إذا لقيته فسلم عليه. وإذا دعاك فأجبه. وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمتته. وإذا مرض فعده. وإذا مات فاتبعه (رواه الخمسة). زاد الترمذي: ويحبُّ له ما يحبُّ لنفسه.

- روى أنس بن مالك أنَّ النبيَّ في السنوات العشر التي خدمه فيها، لم يوجَّه إليه كلمة قاسية ولا شكاً من أنه لم يُقم بعمل ما (هذا عند مسلم).

- عن جابر بن عبد الله: ما سئل رسول الله عن شيء قطَّ فقال لا (البخاري، مسلم).

المسلم الإنسانيَّ المستعدَّ للعون هو وحده من أتباع النبيِّ الحقيقيين الأئمة.

كتب هاشم كمال⁴² إنّ كلّ إنسان، بغضّ النظر عن عرقه أو لونه أو انتمائه الاثنيّ أو دينه، له في نظر الإسلام كرامة لا تُنتزَع منه⁴³.

- سمع النبيّ محمّد يوماً أنّ أحدًا نودي "يا ابن السوداء"، فقال: لا فضل لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر (أحمد بن حنبل).

- عن أبي هريرة: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره (الأربعة). وقال النبيّ أنّ يوم أغيب عنكم فلا تكونوا كالمراهقين فتقومون تقتلون بعضهم بعضًا (راجع البخاري). هذا تحذير يجب التنبّه له في النزاع بين أهل الشيعة وأهل السنّة، مثلاً في سوريا والعراق.

- في حجة الوداع على جبل عرفات، وصّى محمّد بالوحدة والسلام: اسمعوا قولي واعقلوه، تعلّموا أنّ كلّ مسلم أخٌ للمسلم، وأنّ المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرئٍ من أخيه إلّا ما أعطاه عن طيب نفس منه. فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت؟ فقالوا: اللهم نعم⁴⁴.

- عن عمرو بن العاص: سئل النبيّ أيّ التصرف حسنٌ في الإسلام. فأجاب: إطعام الناس وتبادل التحية، إن كنت تعرفه أو لا تعرفه (راجع البخاري)⁴⁵.

- عن عبد الله بن عمرو: خياركم أحاسنكم أخلاقًا (الترمذي، مسلم). - إنّ من أخيركم أحسنكم خلقًا (البخاري).

- يروي أبو هريرة عن النبيّ أنّه قال: لن تدخلوا الجنة إن لم تؤمنوا، ولا تؤمنون إلّا إن أحببتم بعضهم بعضًا. هل أدلكم على ما يورد الودّ فيما بينكم؟ أن تحيوا بعضهم بعضًا (راجع مسلم)⁴⁶.

- عن عبد الله بن مسعود: لا يدخل الجنة أحدٌ في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء. وعنه أيضًا: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر (مسلم، الترمذي).

⁴² . انظر: Hashim Kamali, The Dignity of Man : An Islamic Perspective, Cambridge 2001.

⁴³ . ص 1.

⁴⁴ . ابن هشام: السيرة النبويّة 4، القاهرة، ص 447.

⁴⁵ . مولانا خان، ص 57.

⁴⁶ . مولانا خان، ص 92.

- عن أبي سُريح: ... والله لا يؤمن، والله لا يؤمن والله لا يؤمن. قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه⁴⁷ (البخاري)... لفظ مُسلم: لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه.

- يُذكر من أقوال النبي ما مُفاده أن أبغض الناس عند الله من كان أشدّهم خصومة (راجع البخاري).

- عن عمّار بن عبد العزيز: إن النبي خرج ذات يوم وهو محتضن أحد ابني بنته، وهو يقول: إنكم لتبخّلون وتجنّبون وتجهّلون⁴⁸. وإنكم ريحان الله (الترمذي).

- عن أيوب بن موسى عن أبيه عن جدّه: ما نحلّ (أي وهب) والدٌ ولدًا من نُحلّ أفضل من أدبٍ حسن (الترمذي).

⁴⁷ بوائقه جمع بائقة: أي الغائلة والشرّ.

⁴⁸ أي يصير الوالد بسبيكم بخيلاً وجباناً ويميل عن الحقّ.

9-4. التعامل المترفق تجاه التصرف السيئ

إنَّ الغضب المبالغ فيه عند بعض المسلمين بسبب إهانة القرآن، كان غريبًا تمامًا عن النبيِّ. فإنَّه لبث هادئًا ومتفوقًا عندما أساء غيره التصرف، وبرهن بذلك على عظمة دعوته التي لا يستطيع أحد أن يمرَّعها في الحَمأة. فلم يكن يردُّ بالتهجُّم والضراوة والسيِّف في يده، بل كان هادئًا، حليمًا متغاضيًا غفورًا.

- عن ابن هريرة: قام إعرابي فبال في المسجد (في المدينة الذي كان يسكن فيه المسلمون والنبيِّ) فتناوله الناس. فقال لهم النبيُّ: دعوه وهَرِّقُوا على بَولِهِ سَجَلًا من ماء (أو: دلوًا من ماء)، فَإِذَا بُعِثْتُمْ ميسرين ولم تُبْعَثُوا معسرين " (البخاري).

- عن عائشة: أتى رسول الله بصبي فبال على ثوبه. فدعا بهاء فأتبعه إيَّاه (البخاري).

- عن عبد الله بن عمرو: خياركم أحاسنكم أخلاقًا (الترمذي، مسلم).

- عن أبي أمامة: قال رجل: يا رسول الله أرايت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال: لا شيء له. فأعادها ثلاث مرّات. فقال: لا شيء له. إنَّ الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغى به وجهه (أبو داود، النسائي).

10-4. الحزم ضد الكابتين والطغاة

- كان النبيُّ محمَّد يعلم جيّدًا ضعف الإنسان وميله إلى كبت الآخرين والطغيان. وقد قرأ في غار حراء في شهر رمضان عام 610 آية القرآن: "كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ" (سورة العلق 6:96).

- بعد اختباره السيئة في مكّة كان النبيُّ يرفض بشدّة الكبت: عن عبارة ابن كثير الشامي: أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ أجابه: من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم (ابن ماجه). وعن جبير بن مطعم: قول النبيُّ أن من يدعو إلى التعصّب ليس منّا (أبو داود).

- وفي حديث عند البيهقي أن النبيُّ قال إنَّ من يساند الطاغية قد ابتعد من حضن الإسلام.

هذا تحذير واضح للطغاة في العالم الإسلامي.

- عن جابر: أن النبيُّ قال: ولينصُر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا. إن كان ظالمًا فليُنْهه فإنَّه له نصر، وإن كان مظلومًا فليُنصره (البخاري، مسلم، الترمذي).

- عن ابن عمر: من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقّ خُسف به يوم القيامة إلى سبعين أرضين. - في رواية أخرى: من أخذ شبراً من الأرض ظلماً فإنه يطوّقه يوم القيامة من سبع أرضين (البخاري، مسلم، أحمد بن حنبل).

- عن جابر: اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة (مسلم). - عن ابن عمر: الظلم ظلمات يوم القيامة (البخاري، مسلم، الترمذي).

- عن ابن عمر: المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يُسلمه. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه كربةً من كُرب يوم القيامة. ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة (البخاري، مسلم، أبو داود، الترمذي).

- عن عبد الله بن عمر: ألا كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته. فالإمام الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيّته. والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيّته. والمرأة راعية على أهل بيت زوجها ووَلَدِه وهي مسؤولة عنهم. وعبد الرجل راعٍ على مال سيّده وهو مسؤول عنه. ألا فكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيّته (البخاري، مسلم، أبو داود، الترمذي، النسائي).

- وعن معقل بن يسار: ما من عبدٍ استرعاه الله رعيّةً فلم يحطها بالنصحية إلا لم يجد رائحة الجنّة (البخاري، مسلم).

إنّ الكفاح الذي يدعو إليه النبيّ ضدّ الظالمين الطغاة والكابّتين للناس يمكن تقديره ككفاحه في سبيل كرامة الإنسان. هو يحرم كلّ أنواع الظلم والكبت، حتّى ولو ارتكبت باسم الإسلام كما يفعل المتشدّدون، إذ إنّ الدين ينهى عن مثل عدم احترام الإنسان هذا. فالإسلام والظلم لا يمكن في نظره التوفيق بينهما.

فكفاحه ضدّ الظلم يجب أن يكون إنذاراً للطغاة المتآكلين على السلطة وللأحزاب السياسيّة التي تتمكّل السلطة بدون شفقة وتكبت الآخرين.

كلّ دستور إسلاميّ يجب أن يتخذ موقف النبيّ هذا ويتبنّى حقّ مقاومة الظلم والطغيان.

11-4. معاقبة الكفّار في جهنّم

مطلب الإسلام، كمطلب كلّ دين آخر، هو أنّه الدين الصحيح الحقّ، كلام الله الصافي. من هنا يحذّر القرآن من اختيار سبيل غير سبيل الإسلام.

المعاقبة تتبع بكل ثقلها يوم الدين في نار جهنم. جاء في سورة البقرة 2: 24: "فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)".#ويتبع قول القرآن: " ... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ". (راجع أيضاً سورة يونس 10: 44-46).

الكافر هو الذي لا يؤمن بما أبه في القرآن، كما يدل على ذلك نص الآيتين 2: 23 و24 من سورة البقرة. أليس من الممكن أن يكون مثل هذا أيضاً المسلم الذي يتعدى تعدياً ثقيلاً قواعد الكتاب الكريم؟ فالقرآن لا يركز هنا على مجرد انتساب شكلي إلى الإسلام، بل على الإيمان الباطن الفعلي بجميع أحكام الكتاب الكريم.

فالقرآن ينبي دوماً بالجزاء في الجنة والعقوبة في جهنم، ولا يفرض بناء دولة إلهية على الأرض. فالقضاء الإسلامي عليه أن ينتبه لهذه الأوامر عن الجزاء والعقاب للإنسان بعد موته من عند الله. لذلك يجدر بالنسبة إلى عقوبات غير إنسانية في نظر المقاييس العصرية، كمعاقبة السارق حسب سورة المائدة 5: 38 (قابل أيضاً 5: 33)، التي كانت جارية في القرن السابع في نظام القبائل في الجزيرة العربية - يجدر تطبيقها تطبيقاً ضيقاً.

تبدو آيات سورة البقرة 2: 190 و191 و192 لأول وهلة، كأنها تطالب إجمالاً بقتل الكفار. وتذكر من قبل المتشددين كأنها تفويض لقتل شيعيين ومسيحيين ويهود. جاء في أول وآخر آية 2: 191: "وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ... كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ". ولكن من يقرأ بدقة هذه الآيات الثلاث، يلاحظ أنها موجهة فقط ضد "الَّذِينَ يُفَاتِلُونَكُمْ" (2: 190)، و"فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ" (2: 191). من هنا يتضح أنه لا يوجد قتال دائم بين المسلمين والكفار. والسورة تنبه فوراً: "وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ" (2: 190). وتأمّر الآية 2: 192 فوق ذلك بوضوح: "فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (192).

يعني هذا بعبارة أخرى: القتال يجوز فقط عند هجوم مباشر على المسلمين كحق بالدفاع عن النفس. ويجب الامتناع عنه فوراً إن استسلم العدو أو امتنع عن متابعة الهجوم. فكل دفاع عن نفس خاضع لمبدأ التوازن. هذه القواعد تشبه الحق المسيحي كما تشبه الحق الجماعي المعترف به من قبل الأمم المتحدة بالنسبة إلى الدفاع عن النفس. فأعمال الإرهاب ضد غير المشتركين في الأمر، الذين لا يهاجمون مباشرة، ليست مسموحاً بها.

فسورة البقرة ليست إطلاق اليد لأعمال إرهابية، إذ إنَّ كلَّ عمليَّة دفاع عن النفس لا يحقُّ لها إلا أن تواجه المهاجم نفسه، لا المدنيين غير المشتركين في الأمر.

سنرجع إلى هنا في المقطع المخصَّص لقواعد الجهاد.

4-12. حرية المعتقد الأساسيَّة لأهل الكتب المقدَّسة

واجه الإسلام منذ مطلعته موقفًا أساسيًا حرجًا. فهو يستند إلى حكم الكتب التراثية، كتب الأنبياء والتوراة والكتاب المقدَّس. هذه الأحكام العريقة في القدم حول الإيمان بالله هي جذور مشتركة. من ناحية أخرى يعدُّ الإسلام نفسه خاتمة الإيمان وكمال النبوءات. فإنَّ توجَّه الإسلام كثيرًا ضدَّ التراث القديم، كان كمن يقطع جذع السلالة المشتركة. وإنَّ تقبُّل القديم كلُّه فقط، لم يعد حدثًا جديدًا ولا يستطيع أن ينشئ أمة دينية خاصة.

واجه المسيحيون مثل هذا الموقف الحرج. كان عليهم أن يحدوا بينهم وبين الدين اليهودي. ولكن لم يكن ممكنًا لهم أن يتنكروا له. فاتَّخذوا الشرط اليهودي من العهد القديم من الكتاب المقدَّس، وجعلوا قدامه العهد الجديد مع تعاليم يسوع المسيح. من هنا صار الكتاب المقدَّس شطرين يُتليان مع تفسير جديد.

أما ما يخصُّ القرآن الذي أنزله الله على النبيِّ محمد، فكانت الانطلاقة أصعب بكثير، إذ كان عليه أن يتنبه لتعاليم دينين كبيرين. فلم يكن ممكنًا أن يُبطل الله ما أرسله إلى البشر على يد أكثر من 15 نبيًا سابقًا ويعدّه ضلالًا يجب إصلاحه. من هنا كان واضحًا أنَّ محمدًا كان يجب عليه أن يقبل بالقديم ويمدحه. فإنَّ ذلك كان وحيًا مرسلًا من عند الله عظيمًا ومقدَّسًا.

فمن يقطع من الإسلام عصب هذا الإيمان القديم، يقضي عليه. من هنا لا يمكن فهم القرآن وتلاوته تلاوة صحيحة إلا إذا قام الاهتمام بالحقائق القديمة، حقائق الأنبياء والكتب المقدَّسة. فهي تُعتَبَر في جزء منها سوابق وتُتخذ في آيات موافقة. فيكون كلُّ مسلم صالح في داخله كيهوديِّ صالح ومسيحيِّ صالح، وكمؤمنٍ من وجهة نظر الإسلام مُكَمَّل وأفضل.

فتنحية تعاليم يهودية ومسيحية أو ملاحظتها في المناطق التي يسود الإسلام فيها، مشكلة في نظر الإيمان الخاص، لأنَّ المسلم ينصب نفسه بذلك ضدَّ النظام المتعدّد الذي يريد الله، وضدَّ تعاليم كثيرين ممن سبقوا النبيِّ محمدًا.

إِنَّ الْقُرْآنَ يُؤَكِّدُ قِيَمَةَ الْوَحْيِ الْقَدِيمِ: سورة المائدة 5: 48: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ".

من هنا يوضَّح تعدُّد الإيمان تحت حمايته ويُطالب باستباق الخيرات بين التعاليم المختلفة وذلك في الآية المهمة من سورة المائدة 5: 48: "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ".

فمن يبغى إرساء مجتمع إسلامي بحت على الأرض، ودكتاتورية إسلامية متطرفة، ينصب نفسه ضدَّ نظام الله التعددي. أكانوا مسيحيين أم يهودًا.

ومن يؤمن بالله نفسه كالمسلمين، أكانوا مسيحيين أم يهودًا، فإنهم في حماية بشارة الله الذي يعبده قبلهم هؤلاء المؤمنون. فإنَّ النبيَّ محمدًا أراد أن يجذِّر الإسلام في هذين الدينين القديمين وأنبيائهما. فمن يقطع هذه الجذور المسيحية واليهودية يشوِّه الإيمان الإسلامي وابتعد عن تعليم النبيِّ

عن أبي هريرة: قال النبيُّ: أحبُّ الدين إلى الله الحنيفية السمحة (البخاري).

إنَّ الآية التالية هي أساس السماحة الإسلامية ويفهمها التراث الإسلامي كحظر لإكراه آخرين على الدخول في الإيمان الإسلامي. ويروى أنها وردت عندما أراد بعض المسلمين أن يُكرهوا أولادهم على الانتقال من الدين اليهودي إلى الإسلام، وأكدت أنها لا يمكن ولا يجوز أن يُكره أحد على اعتناق دين معين.

سورة البقرة 2: 256: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ".

من المؤسف أنَّ المتشددين يتجاهلون صخرة الحرية الدينية هذه التي أثبتها القرآن. هل يجوز شطب أمر الله هذا عمليًا؟ هل يوافق هذا معنى التعليم الحقيقي أو يؤدي تفرغ المعنى هذا إلى سبيل ضال، سبيل عدم التسامح؟ هل يقوم على وجه الإطلاق إسلام صحيح حقيقي بفرض الإكراه في الدين؟ ألا يعطل الإكراه في الدين حتى كلمات النبيِّ؟

ينظِّم القرآن طريقة المجادلة الصحيحة لليهود والمسيحيين: سورة العنكبوت 29: 46: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ".

يجب أن يسود تسابق سلميٍّ ودود ينصب الإيمان المشترك بالله الواحد في نقطة الوسط. فكلُّ احتقار هجوميٍّ ضدَّ المسيحيين واليهود هو محرّم، والأخذ بالتي هي أحسن هو أمره بالنسبة إلى معاملة الآخرين.

فأن تكون للناس طرائق مختلفة في الإيمان، هذا يصفه القرآن كقرار من عند الله. فالنظام المتعدّد هو عمل الله. فلا يحقّ حتّى للنبي أن يكره الناس على تبديل إيمانهم:

سورة يونس 10: 99: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99)". الله هو الإله المشترك بين المسلمين والمسيحيين واليهود:

- سورة العنكبوت 29: 46: "وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمُّ وَاحِدٌ".

- سورة الشورى 42: 15: "اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ".

إنَّ القرآن يوافق على تعدّد الأديان، لاسيّما عندما يدور الأمر حول أشكال الوحي الإلهي في تراث الكتاب المقدّس عند اليهود والمسيحيين. فإنَّ الله، كما يؤكّد القرآن، يجعل أنبياءه ورسله يبلّغون الدعوة نفسها المتعلقة بالإيمان التوحيدوي. لذلك لا يرفض المسلم الأديان الموحّدة كاليهوديّة والمسيحيّة بدون تمييز، بل يعتبرها بالأحرى بشارات من عند الله معادلة في القيمة. والقرآن لا ينتقد إلّا بعض أنواع التحريف الواضحة في نظره التي لحقت هاتين البشارتين للأنبياء الأسلاف اللتين كانتا في البدء سليمتين.

في سورة المائدة 5: 66: وقبل كلّ شيء في 5: 68 يأمر الله بإقامة التوراة والإنجيل: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ".

وللقرآن وصيّة للمسيحيين في سورة المائدة 5: 46-47: "وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورًا مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46) وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ...".

فالكتاب المقدّس هو بذلك مرشد جيّد لا يزال هدى صالحًا للمسيحيين المتّقين.

وفي يوم الدّين لا ينال الجزاء الصالح المسلمون وحدهم، بل أيضًا اليهود والنصارى والصابئون، ولا يُعاقب هؤلاء لإيمانهم المختلف:

سورة البقرة 2: 62: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62).."

بهذا يظل السبيل إلى الجنة مفتوحًا أمام المؤمنين الآخرين.

- سورة الأنعام 6: 92: هنا القرآن هو: "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ"، أي فرائض الله عند اليهود والمسيحيين التي أنزلها الله على أنبيائه.

- سورة يونس 10: 37: "وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ...".

- سورة غافر 40: 53: تمدح موسى وتؤكد: "وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ".

- سورة الشورى 42: 13: تثبت الوحدة في الإيمان بالله الواحد: "شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ سورة الأحقاف 46: 12: وَمِن قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ (12)".

- سورة الكافرون 109: 1-6: تصف بوضوح كبير موقف النبي من الذين لا يتبعونه. هو يعتبرهم كفارًا، ولكنه يفسح لهم المجال العملي أن يمارسوا إيمانهم الخاص، ويدعو إلى تجاوز عملي سلمى بين الأديان: "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)".
هذه الآيات القرآنية تفرض التسامح أيضًا تجاه اليهود والمسيحيين وترفض الإكراه في الدين.

مفروض على المسلمين أن لا يتعدوا حدود اللياقة تجاه نظريات إيمان أخرى وتجاه غير المؤمنين. هذا يصح أيضًا بالنسبة إلى الذين لا يؤمنون بالله الواحد: "وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ" (سورة الأنعام 6: 108). رفض المسبة هذا في القرآن يبرهن عن سماحة قصى. فهو ينجم عن عظمة الدعوة الإلهية التي ليست بحاجة إلى التهجم على أناس آخرين بسبب عدم إيمانهم. فمن يتعدى هذه الحدود، يسب في النهاية الله نفسه.

فالقرآن يترك الاعتراف بالإسلام لقرار الإنسان الفرد الشخصي: "إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)". (سورة الزمر 39: 41). أما المتشددون فيعدون أنفسهم وكلاء على غير المؤمنين. يُعدّ هذا مخالفة لهذه السورة.

الله هو ربّ الناس جميعًا. وكلّ إنسان يحمل هو نفسه مسؤوليّة أعماله: "قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25)". (سورة سبأ 34: 25)

وبتعبير أوضح: "وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب،" "وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ" (سورة الشورى 42: 15).

هاتان الآيتان هما في لُبهما دعوة إلى مبدأ يقول: "لكلّ امرئ ما له"، وبذلك إلى تسامح تجاه الدينين الآخرين، دين اليهود ودين المسيحيين.

كانت مهمّة محمّد كنبّي أن يرغب في قبول دعوته وأن يبشّر. ولكن عليه أن يفعل ذلك بطريقة سلميّة: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" (سورة النحل 16: 125)؛ وأيضًا: واصبر (16: 127).

لا أقلّ من اثنتي عشرة سورة ترد فيها 27 آية تأمر باحترام المسيحيين واليهود. مع ذلك لا تزال هناك في العالم الإسلاميّ عناصر متشدّدة تتجاهل هذه التوجيهات وتضع في الوسط ما يفرّق.

إنّ التعريف بالعناصر الكثيرة في الإسلام من أجل السماحة والاحترام تجاه الأديان الأخرى، والمجادلة فيها والحوار الصريح بين الأديان، هذه كلّها ستكون حاسمة بالنسبة إلى العالم الإسلاميّ، هل سيقم ذكرى النبيّ ويتطوّر في اتجاه السماحة، أم هو سيظلّ محايدًا متشنّجًا.

كما سبقت الإشارة إليه يعتمد القرآن اعتماداً شديداً على التراث اليهودي والمسيحي وعلى ما نُقِلَ من جذور الحكمة والإيمان بالله على مدى السنين. فنظر النبي محمد كان متوجّهاً بعد التصحيح والتنقية إلى العودة إلى الجذور القديمة المشتركة وإلى صلب الإيمان المشترك. أي إلى الله وإلى أساس الإيمان.

فالقرآن يعترف بصراحة بأن هذه الأديان نابعة من مشيئة الله وأنها لا تزال محتفظة على قيمتها. تؤكد سورة البقرة 2: 62: "فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ".

وتقول سورة البقرة 2: 148: "وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ". بهذا يُدْفَع إلى الخارج العنف والبغض والعداوة. هناك سباق في أمور الدين، لا عداوة.

والقرآن يأمر أن "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" (سورة النحل 16: 125)، لا بالعنف. فالأفضل له أن يصبر (16: 127).

يذكر القرآن بأسمائهم ما لا يقل عن 25 نبياً. هذا أيضاً يبيّن التعدّد الذي سرى نسيانه اليوم. هناك 25 شخصيّة مختلفة - ليس فقط محمد - بشرّوا بالإيمان الصحيح على طريقتهم وفي زمانهم. والنبي يحوِّطهم باحترام كبير واعتراف بالفضل. وهو يريد أن يحمّد اتباعه أهمّ الشخصيات اليهوديّة والمسيحيّة كأنبيا الله المشترك. فحكمتهم هي (أيضاً) من الإسلام. فيجب إدراجهم فكرياً في القرآن مع أشكال معرفتهم لله، وإلا يضيع 14 جذراً مهمّاً.

هم آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح وإسحق ويعقوب ويوسف وهارون والياس وعزير ويونس والملكين داود وسليمان.

هؤلاء الأنبياء قاموا برفض الشّرك وأيدوا عبادة الله الحقيقيّ الواحد. والنبي محمد أدخل نفسه في سياق التراث العريق منذ آلاف السنين. فالأنبياء سابقون له ومثال وإخوة في الإيمان. وقد صدّق حسب سورة البقرة 2: 101، ما كان حاضراً من الوحي لدى الناس بواسطة هؤلاء الأنبياء الأسلاف.

كان الأنبياء وفقاً للمفهوم الإسلاميّ أشخاصاً اختارهم الله لوداعتهم ورفعته أخلاقهم وحبهم للسلام وفطنتهم. هم نخبة خاصّة لله على الأرض صغيرة جداً. وقد يكون قد ظهر واحد منهم كلّ مئة سنة. من ميزاتهم الشخصية أنّهم كانوا أناساً صالحين مزدانين بالحلم، تلك الفضيلة العربيّة التي هي خلاف التهجّم والعنف.

من رجال الله الحكماء هؤلاء ينحدر آباء السلالة في الأديان الثلاثة الكبرى. من آدم، أبي سلالة البشرية، يقود الخط من أخنوخ ونوح إلى إبراهيم. ويقود بعد ذلك من إسماعيل إلى محمد (الإسلام). - وهناك تسلسل آخر مواز يقود من إبراهيم إلى إسحق ويعقوب ويوسف وموسى (اليهودية). وفي تسلسل آخر يقود من يوسف وداود وسليمان وزكريا ومريم إلى عيسى المسيح (المسيحية). هذه شجرة عائلة مشتركة للإيمان مع أربعة جذور مشتركة والأجداد القدماء آدم وأخنوخ ونوح وإبراهيم. هي أسرة واحدة للإيمان الصالح. جميعهم أقرباء. كلهم موجّهون إلى الله المشترك. هم ليسوا أعداء بالوراثة، هم أصدقاء بالوراثة في الإيمان.

المسلم العميق الإيمان عليه في شهادة إيمانه - هذا أمر منسيّ جدًّا اليوم- وفقًا للقرآن أن يعترف بهذه الجذور ويكرّمها ويكون مُسلمًا لأنبياء المسيحيين واليهود: سورة آل عمران 3: 84: "قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (84).

جاء في سورة البقرة 2: 285: "آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ..."

وفي 2: 98: "مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ... فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ".

على كل مسلم أن يكرّم جميع الأنبياء، فإنهم أولًا الآباء الأقدمون، ثم الآباء المشتركين مع اليهود والمسيحيين. والنبى نفسه آمن بهم هو أيضًا. ولكن النبى محمّدًا يعتبر نفسه خاتم النبيين، أي آخر جميع الأنبياء. من هنا ترى المسلمين الأتقياء يكرّمون جميع الأنبياء السابقين ويزيدون عند ذكر أحدهم "عليه السلام".

يعرض محمود مدني الدليل على ما يأتي: "الإسلام يحترم جميع الأنبياء. فالتفريق بينهم يُعدّ تجديفًا. فالإيمان يفرض الإيمان بجميع الأنبياء الذين جاءوا قبل محمّد. بدون الاعتراف بهذا التعليم يظلّ الإيمان الإسلامي ناقصًا"⁴⁹.

وكتبت كارين أرمسترونغ أنه لا يمكن لأحد أن يكون مسلمًا إن لم يكرّم أيضًا الأنبياء السابقين مثل إبراهيم أو داود أو نوح أو موسى⁵⁰.

⁴⁹. أنظر:

Islam's Message of Peace and Security for all, Amman, September 4-7, 2007.

⁵⁰. أنظر:

In Islamic Magazine, Divisions in Our World are not the result of Religion, Interview by Andrea Bistrich, p. 3.

هناك نبي له دور متفوق: إبراهيم، جد الأنبياء الذين لحقوا به وجميع المؤمنين يهودًا ومسيحيين ومسلمين. يمدحه القرآن بقوله: "كَانَ صِدْقًا نَبِيًّا" (سورة مريم 19: 41).

- سورة مريم 19: 49-50: ...

- "... وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)".

- وتساءل سورة البقرة 2: 130: وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ.

إبراهيم هو في القرآن أبو سلاله جميع الساميين، وليس فقط أبو شعب إسرائيل. فابنه إسماعيل هو أبو سلاله العرب، وقد بنى مع أبيه الكعبة في مكة (سورة البقرة 2: 125، 121). فهي ليست رمزًا وثنيًا، بل هي رمز إلهي في الجزيرة العربية. وقد صلى إبراهيم بعد بناء الكعبة في مكة طالبًا بعثة رسول عربي: "رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (سورة البقرة 2: 129).

وفقًا لتعليم النبي محمد كان إبراهيم حنيفًا يلتمس الله ويبشر بالتعليم الصحيح الصافي عن الله، الذي تبعه من بعده اليهود والنصارى وحرفوا بعضه: "مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ..." (سورة آل عمران 3: 67). - "وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (سورة البقرة 2: 135؛ راجع أيضًا سورة آل عمران 3: 65).

ووفقًا لسورة الصف 61: 6 بشر عيسى ابن مريم "بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ". من هنا ترى بعضهم يصفون عيسى بأنه مسلم، لأنه على مثال محمد دعا إلى سبيل الإسلام الخالص، سبيل الخضوع لله⁵¹. فيكون عيسى ابن مريم في نظر الإسلام نبيًا مهمًا والسابق المباشر لمحمد. لكنه ليس ابن الله.

ومريم هي المرأة الوحيدة التي ورد اسمها في القرآن في سورة آل عمران وسورة مريم، وجاء ذكرها في مواضع أخرى.

أما موسى فهو النبي الذي يُذكر في أغلب المواقع. ولأن الله كلمه مباشرة يُدعى كلِّيم الله. ويصف القرآن تسليم الله إليه الوصايا العشر على جبل سيناء.

⁵¹. هكذا في كتيب للمركز الثقافي الإسلامي، قطر، عنوانه: رسل الإسلام، ص 2.

فالإسلام يعتبر أصول تاريخ الوحي كوحدة مؤلفة من اليهودية والمسيحية والإسلام. ويعدّ هذه الجذور كأمر مشتركة يجب احترامها. فعندما ينتقد القرآن والنبي اليهود أو المسيحيين، فلا يكون ذلك بسبب إيمانهم بالأنبياء أو بعيسى. بل يتوجّه الانتقاد بالأحرى ضدّ ابتعادهم عن هذه التعاليم الصافية القديمة التي جاء بها الأنبياء الكثيرون.

كتب عادل تيودور خوري أنّ التوراة، كما يقول القرآن، "فِيهَا هُدَىٰ وَنُورٌ" (سورة المائدة 5: 44)، وهي آية من رحمة الله. - ويقول القرآن عن نفسه إنّه "تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب". أي التوراة والإنجيل المسيحي⁵².

من هنا يتضح أنّ القرآن ومعه أيضاً جميع كتب الأنبياء الكثيرين عند اليهود والمسيحيين تُكْرَم ككتب مقدّسة، من "صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ" (سورة الأعلى 87: 19) إلى توراة موسى، وزُبر داود والتوراة والإنجيل مع تعاليم عيسى. هذه كلّها مقدّسة لدى المسلمين. فالمسلم العميق الإيمان يؤمن بأقوال الحكمة عند مختلف الأنبياء القدماء وإثباتها كتابة في التوراة والكتاب المقدّس بما فيه العهد الجديد. فالقرآن يوضّحها كأقوال من عند الله في نقلها بواسطة محمّد، خاتم النبيين". الأستاذ يوسف فان إس يصف ذلك "إِعْلَاءً وَإِكْمَالًا" بواسطة الإسلام⁵³.

من يريد اليوم أن يعيش بتقوى على مثال النبي - وهذا ما يحاول أن يفعله السلفيون وبعض المتمسكين بالتقاليد - عليه أن يمارس الجلم على مثاله. ويُعرض عن كلّ ميل إلى العنف. فأن يكون من الواجب نشر الإيمان بالعنف والسيف، هذا يخالف طبائع جميع الأنبياء والنبي محمّد مخالفة واضحة. فالسيف هو فقط أداة للدفاع عن النفس، لا للإكراه في الدين.

نقص المتشدّدين وخطأ تفكيرهم هو أنّهم لا يعيشون كالحكماء في ممارسة الجلم، بل بغيرة مُزبّدة وأعين مملّى بالبغض. فهم لم يعودوا يُكرّمون الأنبياء السالفين، كما كان يفعل النبي محمّد. فلا يعتبرونهم مساوين بالمرتبة، بل أدنى قيمة. إنهم نسوهم. فصار بعض المتطرفين بذلك أعداءً للنبي. ولكن بدون حكمة تعاليمهم يظلّ الإسلام مُفرّغاً من مضامينه فاقد الدم لا يُفهم. فالإسلام بحاجة إلى هذه الجذور النبوية الروحية العميقة الأربعة عشر وإلى الجذر الرئيسي الذي هو الجلم، لكي ينمو ويزدهر. وإلّا يبس بفقدان الغذاء الروحي، كشجرة بدون ماء.

⁵². أنظر:

Adel Theodor Khoury, So sprach der Prophet. Worte aus der islamischen Überlieferung, Gütersloh 1988, 29, 30.

⁵³. أنظر:

Josef van Ess, Islam, in : Emma Brunner - Traut, Die fünf Weltreligionen, Freiburg 1974 (36. Auflage 2000), 68.

أما من يولج أفكار هؤلاء الذين مدحهم محمدٌ عاليًا في إيمانه الإسلامي فهو يعلو بالإسلام إلى نظام متعدّد من عند الله مرتكز ارتكازًا ثابتًا.

أهمّ الأمور المشتركة هو التوحيد المركزي في الإسلام واليهوديّة والمسيحيّة، كما أثبت في سورة الحجّ 22: 34: "فَالِهَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا". وأُثبتَ في سورة الإخلاص 112: 1: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(1)". بذلك ينتقد النبيّ محمدٌ بحدّة عبادة آلهة متعدّدة، أي الشُّرك السائد في موطنه مكّة. فسيره ليس موجّهًا ضدّ الدين اليهوديّ أو المسيحيّ، بل هو مكافحة الكفّار الذين يكرّمون آلهة وثنيّة مختلفة كإله مدينة مكّة هبل، ومناف وودّ وسوّاع ويعوق، أو الإلاهات اللاتّ والعزرى ومناة. يتّضح من هنا أنّ من يعتبر القرآن كتابًا موجّهًا ضدّ اليهود والنصارى، فهو يميل عن لبّ رسالته.

فإنّ اليهود والمسيحيين كانوا منذ مئات السنين يتبعون هذه العقيدة الرئيسيّة في الإسلام، لأنّهم كانوا يمارسون الإيمان بالله الواحد. فلهذا السبب بعينه هم شركاء في الإيمان أو أتباع إيمان آخر يختلف في بعض الدقائق. فعابد جماعة من الآلهة هو مشرك، وبذلك كافر، فيما يُعدّ من يؤمن بالله الواحد مؤمنًا حقًّا. وهو يشترك في جزء من الشهادة الإسلاميّة: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمدًا رسول الله. فعندما يتكلّم القرآن أو الحديث عن الكفّار، فهذا موجّه ضدّ أتباع الآلهة المتعدّدة، لا ضدّ المسيحيين واليهود.

عندما جُمع نصّ القرآن بعد وفاة النبيّ بأمرٍ من الخليفة عثمان في مُصحف من مصادر مختلفة، ركّزت السُور على كلام النبيّ المباشر. هل نُسي عند كتابة مواظ النبيّ محمدٌ إدراج الكتب المقدّسة القديمة التي أشار إليها القرآن تكرارًا، أم خُشي أن يكون قد حصل في بعض الجُمَل تحريف للتعليم القويم الصحيح؟

أليس من الأفضل وفقًا لتعليمات النبيّ وكلام الله أن يُورد إلى جانب القرآن نصوص التوراة والكتاب المقدّس، إذ إنّها تحتوي على حكَميّات جميع الأنبياء المباركة؟ فإنّ الأنبياء هم الحبلُ الوثيق إلى الله وخطّ الوصل بإبراهيم المرساة القويّة. فالأمور المشتركة في الإيمان هي حبل المرساة.

فلأنّ القرآن جُمع في بضع سنين بعد وفاة النبيّ محمدٌ، ولأنّ الذين جمعوه اكتفوا فقط بأقوال النبيّ المباشرة، لم يتمّ إضافة إلى ذلك الاهتمام إدخال القطع الذهبيّة من حكَميّات الأنبياء اليهود والمسيحيين كتابة في مصحف القرآن. وكان النبيّ يفترض وجودها.

فلأنها لم تُكتب في القرآن لا يعني أنها لا تتعلّق بتعليم النبي. فعندما يشير محمّد إلى حكميات الأنبياء السالفين، يولج بطريقة غير مباشرة تعاليمهم في الإسلام مع بعض التجديدات والتعديلات. وإنّ بعض الآيات القرآنية تتبنّى الكتب المقدّسة القديمة في القرآن:

سورة البقرة 2: 285: "أَمَرَ الرَّسُولُ مِمَّا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ..." (راجع أيضًا 2: 98).

سورة آل عمران 3: 84: "قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)".

مثل هذه الطريقة اتّبعها جامعو نصوص الكتاب المقدّس، فوضعوا العهد القديم قبل العهد الجديد، وفي حال وجود خلاف فضّلوا الجديد. هكذا سلك يسوع في تراث الحكميات القديمة، وشدّد عليها وغير في الوقت عينه بعض مقولاتها.

فما جاء في الآيات القرآنية الإيجابية عن أنبياء اليهود وعن عيسى ساري المفعول، وهي أوامر ملزمة لكلّ مسلم. منها ينتج الأمر باحترام تعاليم التوراة والكتاب المقدّس. فيجدر بكلّ مسلم أن يعرفها ويقراها ويحترمها ويكرّمها، إذ هو بذلك يعترف بالأنبياء القدماء وبحكميات الله القديمة. في زيارة إلى الدوحة في قطر ذكر لي المدير العامّ لمؤسّسة قطر البعيدة الأثر، أنّه كمسلمٍ جيّد يعتبر نفسه أيضًا يهوديًا ومسيحيًا جيّدًا، وأنّ هذه الجذور هي جنى من الإيمان الصحيح.

إنّ الأمور المشتركة هي أكثر وضوحًا وأعمق وأهمّ ممّا يفرّق. فاحترام الأنبياء يفرض أيضًا احترام الكتب المقدّسة الأخرى، وأيضًا احترام الأماكن التي يُحمّدون فيها، والأشخاص الذين لا يزالون يؤمنون بأقوال حكمتهم القديمة.

وينتج من ذلك بالعكس الأمر الموجه إلى اليهود والمسيحيين المؤمنين بأن يبدو الاحترام للقرآن وللإسلام، لأنّهم بذلك يُكرّمون أيضًا إبراهيم وموسى ومريم وصرّح الإيمان المشترك.

2-13-4. النبيّ محمّد صديق المسيحيين وشريكهم

تردّ في القرآن أيضًا ملاحظات ناقدة عن المسيحيين وإيمانهم (مثلًا في سورة المائدة 5: 14، 17، 18، 37، وفي سورة التوبة 9: 29، 73). ولكن هناك أيضًا آية تؤكّد أنّ النصرى أقرب

الناس مودّة للمسلمين (راجع 5: 82). كان النبيّ يعتبر المسيحيّين قبل كلّ شيء أصدقاء وشركاء في أيام الاضطهاد في مكّة حتّى عام 622، وبعد ذلك شركاء مقبولين في الحوار حول الدين.

إنّ سيرة النبيّ تروي أنّ محمّداً في سنيّ حياته وشبابه صادف مسيحيّين. واثنان منهم خلفاً عنده أثراً بليغاً.

في الثانية عشرة من عمره رافق عمّه أبا طالب في قافلة إلى سوريا. فصادفاً في البريّة الراهب بحيرى. هذا لاحظ خاتم النبوءة كعلامة بين كتفيه وطلب أن يُعنى به عناية خاصّة⁵⁴. وابن عمّ زوجته الأولى المحبوبة خديجة، القسّ ورقة بن نوفل، كان مسيحياً مؤمناً حكيماً. فأكد له أنّه نبيّ العرب وأنّ عليه أن يقوم برسالته بقلب طيب⁵⁵. وكمهذب كان يترك أثراً بليغاً في نفس محمّد الشابّ بأحاديثه عن الله والكتاب المقدّس.

لولا الصداقة النزيهة المتجرّدة من قبل المسيحيّين لما تمكّنت على ما يبدو الجماعة الصغيرة المستضعفة من المسلمين الأوائل في مكّة من البقاء. ففي عام 615 اضطرتّ زمرة من أوائل المسلمين إلى الهرب من الاضطهاد والتعذيب من قبل قبيلة قريش في مكّة، فجازوا البحر الأحمر إلى الحبشة. غادر أحد عشر رجلاً وخمس نساء من الصحابة على رأسهم عثمان بن مظعون في أوّل هجرة إلى المنفى. استقبلهم المسيحيّون ودافعوا عن حرّية المعتقد لصالح أصحاب النبيّ، وذلك محبّة للقريب. وفي العام التالي 616 غادرت زمرة ثانية من 83 رجلاً وثمانية عشر امرأة من مكّة إلى المملكة المسيحيّة السموحة في أفريقيا، مملكة أكسوم.

كانت الحبشة منذ عام 330 دولة مسيحيّة قديمة في أفريقيا، يحكمها الملك النجاشي. وكان يعيش فيها أيضاً منذ أكثر من ألف سنة كثير من اليهود في مقاطعة شماليّة في عُندَر. لا تزال الحبشة بلدًا متسامحًا يمارس التواصل المسكونيّ والاحترام المتبادل بين الأديان الإبراهيميّة الثلاثة، كما وصفه لي الأمير أصفى فسّن أسراقي.

كان النبيّ محمّد يعرف بلد السماحة الجميل هذا "عن طريق جدّه عبد المطّلب لما كان له من خبر مع أبرهة الحبشيّ، وتجارته مع الحبشة ذاتها، ومرافقته الأحباش الذين كانوا

⁵⁴. أنظر: A. Guillaume, The Life of Muhammad, Oxford University Press 1955, p. 79-81.

⁵⁵. في الكتاب عينه، ص 83 و107.

يخفرون قوافل خديجة معه. ثم إن حاضنته، أم أيمن، كانت امرأة حبشية⁵⁶ اعتنت به كأمه الشخصية حتى يوم زواجه.

نصح النبي أصحابه في شدّتهم: أقترح عليكم أن تذهبوا في المنفى إلى الحبشة، عند ملك مسيحي مشهور بعدله. ويروى أنه لم يلحق بأحد أدّى في مملكته⁵⁷.

ولكنّ الأعداء لحقوا بالمسلمين وطلبوا من الملك المسيحي الأصحم بن أبجر، المدعوّ النجاشي تسليمهم إليهم. وقدّمت البعثة القادمة من مكّة بقيادة عمرو بن العاص للنجاشي هدايا إن هو سلّم المسلمين. ما الذي كان يخالف هذا المقصد؟ وما كانت فائدة المسلمين له؟ كانوا بالحريّ عبئًا يُثقل العلاقة بمكّة المدينة الغنيّة المهمّة. ولكنّ الملك لبث صامدًا ولم يميل إلى مصلحته الخاصّة، بل اختار حلًّا مسيحيًّا نبيلًا يدلّ على احترامه وسماحته تجاه أتباع دين آخر.

فطلب من قائد المسلمين، جعفر بن أبي طالب، أن يشرح له وللأساقفة المسيحيين المجتمعين الدين الجديد. فقال هذا:

"أيّها الملك كُنّا قومًا أهل جاهليّة، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونُسِيء الجوار ويأكل القويّ منّا الضعيف. فكُنّا على ذلك، حتّى بعث الله إلينا رسولاً منّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه. فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كُنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نُشرك به شيئًا. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحلّ ما كُنّا نستحلّ من الخبائث. فلمّا قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيّها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك ممّا جاء به عن الله من شيء؟ فقال جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ. فقرأ عليه صدرًا من (سورة مريم 19: وفيها ذكر لمولد عيسى). - فبكى والله النجاشي حتّى اخضلتّ لحيته. وبكت أساقفته حتّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما

⁵⁶. أ. جوزف قزّي: هذا هو الإسلام، دار لأجل المعرفة، ديار عقل - لبنان 2002، ص 1275.

⁵⁷. الحافظ: البداية والنهاية، المجلّد الثالث، ص 58.

تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، فلا والله لا أسلمكم إليهم ولا يكادون⁵⁸.

إن المعهد الممتاز للدراسات العربية والإسلامية لجامعة إكستر (Exeter) في إنجلترا يبرز الدليل على ما يلي: أمران مهمان يبينان سماحة المسلمين تجاه المسيحيين. الأول هو أن النبي اقترح بدون تحفظ للمسلمين وطناً جديداً كان يحكمه ملك مسيحي. هذا يبين إلى ذلك بنوع غير اعتيادي أن الإسلام مستعد للتعاون مع مسيحيين بصفاء ولرد الكبت والشرّ بجهد مشترك. فلم يكن المسيحيون والمسلمون في مهد الإسلام خصوصاً بل أصدقاء. فكانت الأمور المشتركة تسهل تجاوز الفوارق⁵⁹.

هذا التعاون الخيّر ذو الأهمية الكبيرة لأجل إنقاذ الإسلام في السنوات ما بين 615 و630 هو أفضل مثل، هو مثال للحوار الخيّر بين المسيحيين والمسلمين، وفي الوقت عينه نقطة انطلاق لمعاملة سمحة مليئة بالاحترام بينهم. وهو أيضاً في الوقت عينه واجب ثابت يفرض على المسلمين العرب أن يبادلوهم بالضيافة وفقاً لتصرف البدو المعروف ويمارسوا السماحة تجاه التقاليد وأماكن العبادة المسيحية في الجزيرة العربية. فإن القرآن يأمر: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (سورة المائدة 5: 69). فعون المسيحيين المهّم للبقاء في ساعة نشوء الإسلام والصداقة الطويلة الأمد مع المسلمين الأوائل والنبي محمّد والآية 5: 69، كلّ هذا أشدّ وقفاً من أحداث آحاد تقول إن النبي على فراش موته أعلن منيته أن لا يجوز إلا للإسلام أن يظلّ ثابتاً في الجزيرة العربية.

في أثناء إقامتهم في الحبشة أعرب المسلمون دوماً عن صدقهم وأمانتهم للبلد الذي أحسن ضيافتهم. هذا أيضاً فرض على جميع المسلمين في البلاد المسيحية التي تضيفهم وفقاً لما ورث من أعمال النبي. فإنهم في الحبشة قاتلوا إلى جانب الملك ضد أعدائه، كما يورد حافظ في كتابه البداية والنهاية⁶⁰.

من يعجب من ثم من أن النبي محمّداً استقبل مسيحيين عام 622 في المدينة، الوطن الجديد للمسلمين، بذراعين مفتوحتين. هذا وافق عادة البدو المفروضة في استقبال الضيف.

⁵⁸. ابن هشام: السيرة النبوية، المجلد الأول، دار التراث العربي، القاهرة، ص 206-207.

⁵⁹. أنظر:

Muslim's Alliance with Christians and Jews, in : www.islamicstudies.org, August 2012.

⁶⁰. في المرجع السابق.

استقبلهم في المسجد الذي كان يسكن فيه هو وأتباعه. زار صلواتهم المسيحية، وقال: هم أكرموا قومي، وأنا أكرمهم الآن.

أما المسيحيون فلم يكتفوا بتأمين الحماية للاجئين المسلمين، بل أصروا على أعدائهم من قريش ليرفعوا عنهم التنحية الصارمة. فساندوا بذلك النبي محمداً وأتباعه مرة ثانية في كفاحهم في سبيل البقاء وفي سبيل إيمانهم الجديد.

لم يكن في ذلك الوقت يجوز لأحد من قريش في مكة أن يتاجر مع المنفيين أو يسكن معهم. فكان النبي وأسرته يُعاملون كمصابين بالبصر. فكانت حياتهم صعبة جداً. فاضطروا إلى أكل الجراد والحشرات ليضمنوا عيشتهم. فتوفيت خديجة أولى نساء محمد المحبوبة وتوفي عمه أبو طالب من الإعياء.

قدم من الحبشة وفد مؤلف من 33 شخصية، مسيحيين ومسلمين، لكي يساندوا الذين هاجروا إلى المدينة. فوقف المسيحيون إلى جانب المسلمين ضد مكة. قاد هذا التدخل هناك إلى أعمال الفكر وأخيراً إلى رفع التنحية. فأمر قريش هشام ابن عمرو وزهير بن أمية ومطعم بن عدي والبحري بن هشام، اتفقوا أولاً بينهم على رفع التنحية الطائشة. ثم في لقاء لاحق مع جميع الأمراء أمام الكعبة، طالبوا باتباع هذه الخطوة. هناك وافق أعداء المسلمين على رفع التنحية. وبهذا تم إنقاذ المسلمين.

تمدح سورة القصص 28: 52-54 تدخل المسيحيين المجاني والمهم لأجل المسلمين: "الذين آتيناهم الكتاب من قبله⁶¹ هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إننا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا. ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم يُنفقون".

بعد بضعة أعوام أقبل وفد مسيحي من مدينة نجران في اليمن لزيارة النبي في المدينة، واستؤنف الحوار الرضي بينهم. استقبلهم محمد عام 628/627 في مسجده وأذن لهم أيضاً أن يؤدوا صلواتهم في جانب من المسجد. فيما كان المسلمون يصلون في الجانب الآخر. لم تُسمع هناك عداوة أو تهجم، بل دار عنده حوار مفتوح رضي مليء بالاحترام. كان يربطهم بعضهم ببعض الله الواحد الذي كانوا يعبدونه معاً كل على طريقته.⁶²

⁶¹. أي من قبل القرآن.

⁶². Karen Armstrong, Muhammad Prophet of Our Time, p. 116.

كان في وفد الأعيان هذا زعيمهم العاقب عبد المسيح والأيهم السيّد، وأسقفهم الذي كانت عنده معرفة ممتازة للمسيحية. وكان ذلك اللقاء الثاني بين الديّنين للنبيّ محمّد مع ممثّلين أعيان للجماعة المسيحية. وكان الهدف أن يعقدوا اتّفاقاً يضمن الاحترام المتبادل والمساندة بين الطرفين.

أراد النبيّ أن يدعّوهم إلى الدخول في الإسلام، وكان يشير إلى أنّ هناك بين المسلمين والمسيحيّين الفوارق التالية: هم يؤمنون بأنّ عيسى ابن الله لا نبيّ فقط، كما يقول المسلمون، ويعبدون الصليب ويأكلون لحم الخنزير.

إنّ رُدّت هذه المقولات إلى صفوتها يكون هناك فرقان ضئيلان وفرق كبير واحد. هذا قليل بالنسبة إلى عدد آيات القرآن وهي 6236 آية. وتتضاءل هذه الفوارق عندما يُبحث فيها بدقّة. إنّ الكتاب المقدّس، في العهد القديم، يحتوي على تحريم أكل لحم الخنزير (راجع تثنية الاشتراع 14: 8: والخنزير فإنّه ذو حافر مشقوق، ولكنه لا يجترّ، فهو نجس لكم. لا تأكلوا شيئاً من لحمها ولا تمسّوا مبيّتها). هذه ليست أكثر من فريضة مهمّة جدية. ثمّ إنّ الصليب هو رمز لله. فإن كان المسلمون ينسبون إلى الكعبة أهميّة إلهية، فلماذا لا يحقّ للمسيحيّين أن يكرّموا رمزهم. ثمّ إنّ ابن الله ليس إلهاً إلى جانب إله آخر كما كان الوضع في دين مكّة الوثنيّ، بل هو شخص من الثالوث الإله الواحد الأب والابن والروح القدس. فمن يعبد عيسى، يكرّم حسب المفهوم المسيحيّ الإله الواحد، لا ثلاثة آلهة.

جادل النبيّ والأعيان المسيحيّون طويلاً وبطريقة ودّية حول الآيات في الكتاب المقدّس والقرآن، وقرّروا أن يأخذوا علماً بهذه الفوارق ويفترقوا فراقاً ودّياً.

كتب خالد أبو الفضل أنّ هناك متعصّبين مسلمين يشيرون مراراً إلى تلك الآيات في القرآن التي تقيم حدوداً تجاه المسيحيّين. فيردّ في سورة المائدة 5: 51: "يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض. ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم"⁶³.

كيف يمكن (سوء) فهم هذه الجملة كأمرٍ من النبيّ للمسلمين أن لا يتحالفوا قطعاً مع المسيحيّين، فيما نراه هو نفسه حتّى عام 630 قد تحالف مع المسيحيّين في الحبشة واستودع أكثرية المسلمين حينذاك هناك، واستقبل هو نفسه الوفود المسيحيّة التي جاءت إلى المدينة في مسجده الأوّل المقدّس عينه وأتاح لهم أن يقيموا فيه صلاتهم؟

⁶³.Khaled Abu al-Fadl, The Place of Tolerance in Islam, p. 11

وخالد أبو الفضل على حقّ عندما ينتقد المتطرفين بأنهم يسردون آيات مفردة دون قرائنها ودون ربطها ببشارة القرآن الممتازة، بشارة النعمة والعدل والرفق⁶⁴.

لم تُحوّلِ وجهةِ قبلة المسلمين من القدس، المدينة المقدّسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين، إلى مكّة إلاّ في المدينة موقع العمل الجديد. عند ذلك فقط بدأ الإسلام يعي نفسه كدين مستقلّ (راجع سورة البقرة 2: 142-150)، قد لا يزال متعلّقًا بالأساس القديم الذي قام عليه، أساس اليهود والمسيحيين.

ثمّ إنّ النبيّ محمّدًا يناهض بشدّة مطلب اليهود والمسيحيين بمطلقيّة دينهم في جميع قضايا الإيمان المفردة، وبمطلقيّة زعمهم بأنّهم جماعة المؤمنين الصحيحة الوحيدة. فلا بدّ أنّه على مدى السنين كان ينزعج من جهلهم لمحاولته الجادّة في إحياء التعليم الصحيح عن الله. فإنّه كان يدعو إلى إيمانه الحقيقيّ الجديد الذي كان يعتبره عودة إلى الحقيقة والتراث القديم الصالح والإيمان الصافي بالله. المهّمّ القاطع في الأمر هو أنّ النبيّ محمّدًا لم يقصد هدم الإيمان القديم، إيمان اليهود والمسيحيين، بل كان يعتبر نفسه أنّه هو الذي يعتني مجدّدًا بشجرة المعرفة القديمة، ويسقيها ويجعلها تزهر من جديد.

محمّد هو عندي في إيماني الشخصيّ كمسيحيّ كاثوليكيّ، نذيرٌ مؤمن بالله، أحترمه احترامًا رفيعًا. كما أحترم البابا يوحنا بولس الثاني الذي كان يعمل نذيرًا من عند الله ألفي عام بعد يسوع المسيح. أنا لا أعتبر محمّدًا عدوًّا، بل صديقًا في الإيمان المشترك، الإيمان بالله، وأرى فيه إنسانًا صالحًا كريم الصفات أقابله بالإعجاب. هذا يجعلني بشكل أشدّ أنزعج من أولئك الذين يُفسدون شخصيّة الصالحة الحقيقيّة ويشوّهون هيئته بوصفهم إيّاه محاربًا شريرًا يحمل السيف بيده، وينشرون باسمه البغض والعنف. وقبل كلّ شيء يؤسفني أن أضطرّ أنا المسيحيّ الكاثوليكيّ إلى أن أدافع عنه. فأين الأكثرية الكبيرة من المسلمين؟ لماذا يصمت مليار مسلم؟ من يدافع بشجاعة عن تعليم النبيّ الصالح الحقيقيّ؟

فإنّ الإسلام نشأ كغصن من جذع شجرة معرفة الله القديمة، وقد سقاها تكرارًا نحو 24 من الأنبياء الحكماء. كان هذا الجذع عند نشوء الإسلام يشترك فيه اليهود والمسيحيون منذ أكثر من 600 سنة. والنبيّ قطع كما يفعل البستانيّ ما رأى فيه تحريفًا. فمن يحارب المسيحيين

⁶⁴. خالد أبو الفضل، ص 14.

واليهود يقطع شجرة الله الواحدة هذه، التي يجلس على جذعها جميع المسلمين. جاء أولاً اليهود، ثم المسيحيون، والآن المسلمون أيضاً. جميعهم أولاد شجرة المعرفة الكبيرة.

الإسلام هو حكمة قديمة توسّعت بمعرفة جديدة أنزلها الله إلى النبي محمد بصفته رسول الله. في ذلك الوقت كان الدين اليهودي موجوداً منذ ألفي سنة والدين المسيحي منذ 600 سنة. فكان النبي يرى أنّ التعليم الصافي عن الله لم يُعد في واقع هذين الدينين الكبيرين مطابقاً في جميع نقاطه للتعليم الصافي عن الله. فعنده أن الدين الحقيقي الوحيد هو الإسلام، لأنه أتى في نهاية تاريخ النبوة الطويل (راجع سورة المائدة 5: 3)، وينزع أصناف التناول ويُعيد الناس إلى الله.

الأستاذ عادل خوري يصف وضع المسيحيين واليهود السياسي في الإسلام كمزيج من تسامح نسبي وعدم تسامح نسبي. إن القرآن في سورة الحديد 57: 26-27 يوجّه انتقاده فقط ضدّ "الفاسقين" من اليهود والمسيحيين المؤمنين، الذين لم يحافظوا جيّداً على الرسالة. ويمدح في الوقت عينه المؤمنين الحقيقيين بأنهم مهتدون. ثمّ يرد مدح بشارة عيسى وإنجيله وجميع المسيحيين الذين تبعوه، لأنّ الله جعل "في قلوب الذين تبعوه رأفة ورحمة ورهبانية". فالانتقاد لا ينال إذن جميع المسيحيين وبشارة عيسى، بل الفاسقين الذين لا يتبعونه غير المسيحيين⁶⁵.

يعدّ البروفسور خوري من بين الفوارق المهمة أنّ المسلمين لا يعترفون بالثالوث الأقدس (الآب والابن والروح القدس)، والمسيحيين لا يعترفون بأنّ محمداً نبي الله. والفوارق الرئيسية الأخرى تتعلّق بألوهية يسوع المسيح وموته على الصليب. من هنا تحذير القرآن في سورة النساء 4: 171: يا أهل الكتاب لا تغلّوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحقّ. إنّما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فآمنوا بالله ورسله. ولا تقولوا ثلاثة. انتهوا خيراً لكم. إنّما الله إله واحد...

سورة المائدة 5: 72: لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح: "يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربّكم..."

- سورة آل عمران 3: 70-71: "يا أهل الكتاب لِمَ تكفّرونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ... لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ..."

⁶⁵. أنظر:

Adel Theodor Khoury, Toleranz im Islam, München 1980 / 2. Auflage, Altenberge 1986, 177.

- سورة التوبة 9: 31: "اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ..."

يعارض القرآن والنبي محمد بشدة كل تأليه للأنبياء، إذ إنّه بذلك يُنصب إله ثانٍ إلى جانب الله الواحد ويُنقض مبدأ التوحيد. ولكنّ هذا من باب سوء التفاهم. فوفقًا للتعليم المسيحيّ الكاثوليكيّ هناك يُعبد دائماً الله وحده، الله الأحد، كما يراه القرآن أيضًا. فالبابا بندكتس السادس عشر في كتبه الثلاثة الرائعة عن يسوع الناصريّ اتخذ موقفًا من هذا الشأن. فأن يكون "الله في يسوع" يعني أنّ الألقوم الإلهيّ يجمع بين الطبيعتين، وأنّ رُكن الإيمان المسيحيّ يقوم بالاعتراف "بالإله" الذي اتَّخذ إنسانًا في يسوع المسيح". وفي جبل الزيتون دعا يسوع بصفته الابن الله قائلًا: "أبا أيُّها الآب" (إنجيل مرقس 14: 36)⁶⁶. ثمّ إنّ البابا كتب بتاريخ 25 كانون الأوّل 2005 في رسالته الجامعة "الله محبة"، لا يوجد إلّا إله واحد، خالق السماء والأرض، ولذلك هو أيضًا إله جميع البشر. هذا الإله يحبّ البشر. الله هو في يسوع المسيح، الذي يمنح الأفكار لحماً ودمًا وواقعيّة قصوى. فإنّ الله أظهر نفسه في يسوع. وفي يسوع نستطيع أن نرى الآب.

يسوع المسيح ليس هو إذن في النظرة المسيحيّة إلهاً ثانيًا، بل هو الله لابنًا بشريّة يسوع ومُرسلاً إلى الأرض. أمّا مريم وقدّيسو الكنيسة الكاثوليكيّة فليسوا هم موضع عبادة على الإطلاق، بل يكرّمون لأجل أعمالهم المثاليّة. فهم ليسوا آلهة جانبيّة كما كانت الآلهة المختلفة في مكّة.

فبالنسبة إلى تعليم توحيد الله وعند إنعام النظر في التحليل لا يبتعد المسلمون والمسيحيّون كثيرًا بعضهم عن بعض، كما يبدو لأوّل وهلة. لأنّ ابن الله هو ظهور الله الواحد في هيئة بشريّة. وهذه ليست عمليّة انتساب بيولوجيّة من الله، بل هو الله نفسه في هيئة بشريّة. فليست عبادة الابن والآب والروح القدس هي عبادة ثلاثة آلهة، بل عبادة إله واحد في ثلاثة أقانيم. فيسوع المسيح والروح القدس هما أيضًا الله الواحد، كما يشرح رئيس الأساقفة ألفونس نوسل من أوبلن في بولونيا، أحد أصدقاء البابا يوحنا بولس الثاني.

إنّ حبّ الله للبشر هو في المسيحيّة مقولة أساسيّة في الإيمان المسيحيّ: "الله محبة" (رسالة يوحنا الأولى 4: 8). والبابا بندكتس يتكلّم في رسالته عن "محبة غافرة"⁶⁷. وفي القرآن يرد ذكر هذه المحبة في مطلع الفاتحة وكلّ سورة أخرى، ما عدا سورة التوبة 9، وذلك بحمد الله

⁶⁶ Joseph Ratzinger, Jesus von Nazareth, 2. Teil, Freiburg 2010, 181

⁶⁷ . الرسالة الجامعة، ص 22.

الرحمان الرحيم. فالتكرار الدائم لهذه العبارة في عنوان السور ومقدّمة الآيات يدلّ على أهميّة هذه المقولة في القرآن بشكل رفيع، على إلزاميّة تنال جميع القواعد الأخرى الخاضعة لها ولا يجوز أبدًا التعديّ عنها. هي القاعدة الذهبيّة في السماحة والاحترام في الإسلام، لأنّ الإنسان لا يجوز له أبدًا أن يتعالى على الله، ولأنّ المسلم الذي يخشى الله عليه اتباعها. حتّى الذي يخطأ ضدّ الشريعة الإسلاميّة يجب أن يُعامل بالرحمة، لأنّ الله هكذا يصنع وينتظر أن يمارس ذلك المؤمنون به الحقيقيّون. هكذا تصرّف النبيّ مدّة حياته كلّها.

فالاختلاف بين الأديان العالميّة الثلاث يبدو عند إنعام النظر أقلّ بكثير من الأساس العريض المشترك في الإيمان الذي يوحد بينهم. ألا يمكن أن يسلك الناس في سُبُل مختلفة طريقتهم إلى الله، سُبُل تتحد بعد ذلك بالنسبة إلى الهدف الواحد الإلهيّ الصحيح؟

كان النبيّ محمّد يزاوّل التوفيق مع المسيحيّين وأدخل في الإسلام كثيرًا من تعاليمهم وحرّيتهم في الدين. وكان ذلك على حقّ، لأنّ القرآن أنزل من عند الله. فكيف يصحّ أن ينتصب الله ضدّ أولاده اليهود والمسيحيّين؟ أيصحّ أن يعتبرهم ضالّين ويعاقبهم على ما كان أنبياءهم يعلمونهم على مدى القرون؟ أو أيضًا أن يُقصيهم من جماعة المؤمنين؟ وأن يقرّع الأنبياء السابقين كجهال حادّين عن الطريق السويّ؟ أو أن يقتلع الحقائق القديمة التي أُعلنت في القرون الأخيرة، بواسطة القرآن؟ فأن تكون المسيحيّة واليهوديّة من عند الله، فهذا عرفه محمّد معرفة واضحة وأكّده علنًا. من هنا تُفهم النبوة المصالحة، إذ إنّ السماحة تبدو واجبة مُلزمة على أساس الإيمان المشترك.

لا أوافق على قول أولئك العلماء الذين يصفون فرائض السماحة في القرآن والأحاديث كمجرّد مخطّط وضرورة في طور الضعف الأوّل في مكّة. ثمّ ينتقلون إلى موقف أشدّ حدّة بعد الوصول إلى السلطة في المدينة. نظرة في الأمور مثل هذه تخالف جوهر الإسلام.

من هنا فُرض بحقّ على المسلمين أن "لا تُجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتي هي أحسن"، فإن "إلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون" (سورة العنكبوت 29: 46). ومن الأهميّة بمكان ما ورد في سورة المائدة 5: 48: "استبقوا الخيرات"، وأيضًا: "ولو شاء الله لجمعكم أمةً واحدة..."، وأيضًا: "لكلّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجًا".

وجاء في سورة البقرة 2: 139: "قل أتُحاجوننا في الله وهو ربّنا وربّكم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم". بهذا يمدح القرآن ويحترم التعدّد كأمر يطابق مشيئة الله ويصف الاختلافات كأمر طبيعيّ.

جاء في سورة آل عمران 3: 199، مدح للمسيحيين واليهود الصالحين: "وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله... أولئك لهم أجرهم عند ربهم".

وهناك أمر في سورة التوبة 9: 29: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون". - بلى إن اليهود والمسيحيين يؤمنون بالله وباليوم الآخر وينتمون إلى دين كتاب من عند الله. فالآية 9: 29 لا يصح - كغيرها من الآيات - أن تُنفذ على وجه مطلق، بل هناك حاجة إلى اتفاق عملي، أي إلى صورة كاملة مؤلفة من آيات كثيرة. فعندما يُنظر إلى هذه الآية مع أوامر القرآن الأخرى المليئة بالاحترام، لا تُستخلص فقط من هذه الآية وما فرض فيها معاملة سلبية عامة ضد المسيحيين واليهود.

سورة الحج 22 تحل النقاش حول السبيل الصحيح للمسلمين والمسيحيين واليهود بسماحة مليئة بالاحترام: "لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه. فلا ينازعنك في الأمر. وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم" (22: 67). - "وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون" (22: 68). فالحكم في السبيل القويم ليس في قبضة أي إنسان على الأرض، بل في قبضة الله وحده: "الله يحكم بينكم يوم القيامة في ما كنتم فيه تختلفون" (22: 69).

سورة الممتحنة 60: 7: تدعو - مثل عظة يسوع المسيح على الجبل في الإنجيل - إلى وصية المحبة: "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودةً والله قديرٌ والله غفورٌ رحيمٌ". 60: 8: "إن الله يحب الْمُقْسِطِينَ"، وقبلها: "لَا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم...".

عن أنس بن مالك: قال بعض أصحاب النبي: يا رسول الله، إن أهل الكتاب يسلمون علينا، فكيف نرد عليهم؟ فقال: قولوا: وعليكم (مسلم، أبو داود).

المسلم الحقيقي يجب عليه أن يكون متسامحاً مترقفاً تجاه خلائق الله، وذلك تجاه أتباع الأنبياء السالفين، لقول القرآن عن الله: "ولقد كرمنا بني آدم" (سورة الإسراء 17: 70).

جاء في سنن أبي داود عن النبي: ألا من ظلم مُعَاهِداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة.

من يصدّ الناس عن سبيل الله يكون كافرًا (راجع سورة محمد 47: 1). فمن يهاجم يهودًا أو مسيحيين لأنهم يتبعون إيمانهم، يصدّهم عن السبيل إلى الله ويهاجم بذلك أيضًا أساس إيمان النبي محمد.

كلّ الأوامر في القرآن وفي الحديث التي تدعو إلى السماحة والاحترام تجاه المسيحية والدين اليهودي تستند إلى الجذور المتنوعة المشتركة في الإيمان. لذلك يصف عادل تيودور خوري المسيحيين واليهود بأنهم مؤمنون جزئيًا. هذا أوافق أيضًا عليه.

سورة الكافرون 109 تتوجّه فقط إلى الكافرين: "قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلي دِينٍ" (109: 1-6).

إنّ لفظة "الكافرون" هنا تتعلّق وفق رأي بعض المفسّرين المسلمين بدين الإسلام فقط. فهي تعني جميع الناس الذين لا يتبعون الإسلام في دينه وعباداته. وهي إلى ذلك تعبير إداري وديني، يستعمل في مجال سلطة الإسلام للتمييز السياسي بين المسلمين المؤمنين من جهة والمسيحيين واليهود من جهة أخرى، وللدلالة على فرض معتاد زمنيًا طويلًا، فرض الجزية على غير المسلمين.

فمفهوم الكافر هنا يعني جميع اليهود والمسيحيين، إذ إنهم لا ينتمون إلى الإسلام. ولكنهم مع ذلك أناس يؤمنون بالله حسب مفهوم القرآن.

وفقًا لما أفهمه من السور القرآنية ليس المراد هنا أولًا المظهر أو الانتماء الشكلي إلى جماعة دينية، بل الإيمان الحقيقي الباطن بالله الواحد. فالقرار لا يستند إلى المظهر، بل إلى الإيمان الباطن الحقيقي الصالح.

المؤمنون بالله، وفقًا لمفهوم القرآن - هم في نظري جميع المسلمين والمسيحيين واليهود المؤمنين. والكافرون بالله هم جميع أتباع هذه الأديان الثلاثة والمنتمين إلى أديان أخرى، الذين لا يؤمنون بالله الواحد ويتعدّون تعدّيًا فطريًا قواعد كتبهم المقدّسة.

فيجد من ثمّ أن تُفهم كلمة "الكافر" فهمًا أضيق يطبق على الأديان الأخرى، لا على الذين يلتزمون بالله. وأودّ أن أصف اليهود والمسيحيين - شأنهم في ذلك شأن المسلمين المؤمنين - كمؤمنين بالله.

المسلمون واليهود والمسيحيون يؤمنون معًا بالله الواحد. فمن يسعى في سبيله إلى الله، هو مؤمن وليس كافرًا. فالقرآن لا يُبطل أيًا من الكتب المقدّسة اليهودية والمسيحية، بل زاد عليها في بعض السور ما اعتبره النبي توضيحًا للإيمان. فحيث لا ترد فرائض أخرى تطلّ تعاليم

الحكمة التي أتى بها الأنبياء السابقون الكثيرون، ومنهم يسوع المسيح، جزءاً من الإيمان الإسلامي. فيها يكون إذن الدين المسيحي والدين اليهودي والدين الإسلامي على توافق في الإيمان. على هذا الصعيد تؤمن الأديان الثلاثة بالله الواحد نفسه.

اليهود يتبعون أنبياء هم اليهود، والمسيحيون يتبعون الأنبياء اليهود والمسيحيين ويسوع المسيح. هؤلاء الأشخاص الكبار الأثر كانوا مثلاً للنبي محمد لا كفرة، بل حاملي الإيمان بالله، متقين لله ومؤمنين وفقاً لمفهوم القرآن. يرد ذلك في سورة البقرة 2: 136 بوضوح: "قولوا آمناً بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أتوت موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم. ونحن له مسلمون".

كانت دعوة النبي موجهة خصوصاً ضد الشرك في مكة وضد الذين لا يؤمنون بالله الواحد، بل بألهة كثيرة. كان يريد تعزيز سبيل الله واكتساب المسيحيين واليهود ليدعموا هذا الهدف. هناك فرق واضح بين الإيمان بالله الواحد والشرك في سورة النساء 4: 76: "الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ...".

وجاء في سورة البقرة 2: 2 و4 أن القرآن "هُدًى لِلْمُتَّقِينَ... وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ". وفي 2: 41 نداء إلى اليهود: "وَأْمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ". وفي سورة البقرة 2: 62 وسورة المائدة 5: 69، نص واضح متطابق تقريباً: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ". هذا يضم بشكل واضح اليهود والمسيحيين وكتبهم المقدسة.

عندي أن مسيحياً مؤمناً، كقداسة البابا مثلاً، بصفته إنساناً يسلك في سبيل الله، هو أيضاً مؤمن حقيقي بالله، حتى وفقاً للقرآن. في زيارة البابا يوحنا بولس الثاني للجامع الأموي في دمشق في شهر أيار 2001، سلم عليه الشيوخ المسلمون ودعوه أيضاً "بشيخنا المفتي"، كان أول بابا صلى في جامع ومارس الأمور المشتركة في الإيمان.

فمن هو متطرف لا يؤمن إيماناً عميقاً يمارسه وليس عنده رحمة، فهذا يُعد في مفهومي العميق كافراً بالله، ولو أنه يعي نفسه مسلماً بالشكل ويعترف سطحياً بالقرآن. فالمسلم يصير مشابهاً للكافر عندما يتعدى فرائض القرآن ومحتوى الحديث تعدياً فظاً ويتعدى بذلك عن الإيمان الحقيقي. هذا يُستخلص في نظري من سورة البقرة 2: 8-12: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا

يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مِمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ".

إنَّ الجدالَ السلميَّ حولَ السبيلِ القويمِ إلى الله هو جزءٌ من تعاليم القرآن الحكيمَة وتعادَل تحدُّث النبيِّ مع المسيحيِّين.

والقرآن يوضح إلى ذلك أنَّ الحكم النهائيَّ في أمور الدين لا يصدر على الأرض من عند قضاة، بل في يوم القيامة والدينيَّة من عند الله.

14-4. أهنالك تسامح تجاه اليهود؟

إنَّ علاقة النبيِّ محمَّد باليهود في الجزيرة العربيَّة تطوَّرت بتوتُّر أشدِّ ممَّا كانت بالنسبة إلى المسيحيِّين الذين صاروا أصدقاءً للجماعة الصغيرة الملتقَّة حول النبيِّ وحلفاء في الكفاح في سبيل البقاء ضدَّ الحاكمين في مكَّة. وقد عبَّرت بعض آيات القرآن عن الأسف لرفض اليهود الدين الجديد تعبيرًا واضحًا.

جاء في سورة البقرة 2: 40: "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ". - 2: 41: "وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ...". - 2: 122: "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلِّفُوا بَيْنَكُمْ وَأَلْفَتْ بَيْنَكُمْ وَرَأَيْتُمُ اللَّهَ كَارِهًا فَكُلْتُمْ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ فَمُضَىٰ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَاقِبَةٌ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ لَشَدِيدٌ". (مثل سورة البقرة 2: 105؛ سورة آل عمران 3: 112 و 118 - 120؛ سورة النساء 4: 44-45؛ سورة المائدة 5: 64؛ أو سورة آل عمران 3: 69) يوجِّه نقدٌ إلى اليهود ممَّا يدلُّ على مجابهة حادَّة أحيانًا حول سبيل الله الصحيح.

عندما هاجر النبيُّ في 20 أيلول (سبتمبر) 622 إلى يثرب، التي دُعيت بعد ذلك المدينة (مدينة النبيِّ المنورة)، كان يأمل بشدَّة أن يكسب تحمُّس اليهود المؤمنين لدينه الجديد. فدعا الجميع إلى الاعتراف به كنبِّي جديد لهم. قبل ذلك كان اثنا عشر رجلاً قد زاروه في عقبه وتعاقدوا معه أن لا يعبدوا إلاَّ الله الواحد ولا يصنعوا شرًّا. بعد ذلك أذعن ثلاثة وسبعون رجلاً وامراتان من يثرب لدعوته إلى العقبة وانضمُّوا إلى جماعة المسلمين الأوائل. ووقف اثنا عشر من الأتباع الجُدُّ على رأس جماعة المسلمين الأوائل في يثرب ودَّعوا الأنصار. وكانت بعض الأسر المسلمة قد غادرت مكَّة بسبب الاضطهاد المتنامي إلى المدينة.

تلك الواحة المثمرة كان يعيش فيها أناس من بلاد فارس، ومن المملكة البيزنطية والحبشة والجزيرة العربية يخضعون لتأثير يهودي شديد جداً. كان اليهود مستوطنين في يثرب منذ سنين كثيرة كتجار وصناع وصيارفة، وكانوا مندمجين ومقبولين في محيطهم العربي. تذكر كارين أرمسترونغ أن سبع عشرة قبيلة من عشائر اليهود قضوا سنين كثيرة في سلام مع المسلمين الذين وفدوا إلى المدينة⁶⁸. كان من أهم القبائل اليهودية بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وكانوا يتحالفون مع إحدى القبائل العربية ذات الشأن - الخزرج والأوس - في تضامن سلمي بين الدين اليهودي والتراث العربي.

كانت القبائل العربية منذ أجيال تتنازع حول مصالح صغيرة كثيرة في الحياة اليومية. لم تكن هذه المنازعات تدور حول شؤون دينية، بل كانت مرتبطة بالانتساب إلى القبائل. أما النبي محمد فكان طرفاً ثالثاً حكيمًا حياديًا ومقبولاً بطيبة خاطر كحكم في النزاعات. ونجح في مهمته كفاعل سلام واكتسب بذلك مقامًا في المدينة.

كان مبدأ التعايش المتسامح بين العرب والمسيحيين واليهود متفقًا عليه اتفاقًا أساسيًا في المدينة الصحراوية هذه متعددة العشائر والثقافات. فاستفاد النبي من هذا التراث المتسامح العريق تجاه أتباع دين مختلف. فوجد هناك مع جماعته الجديدة حرية دينية، خلافاً لما لاقاه في مكة. ولأن اليهود كأقلية في المدينة في وسط الجزيرة العربية كانوا ينعمون بالتسامح، نشط تقديرهم لأنفسهم ورفقهم تجاه التطور الجديد، وذلك ما داموا لم يلقوا ضغطاً كبيراً ولم تكن هويتهم أو أيضاً بقاؤهم في الحياة معرضاً للخطر.

كانت يثرب كمدينة اليهود في الجزيرة العربية محملة من أقوال الله تتقبل المبشرين الذين كانوا يمدحون سبيل الله الحقيقي. ولكن هل طبّق هذا على محمد والدين الإسلامي الجديد الذي جاء به المهاجر من مكة البعيدة 300 كيلومتراً، ذلك الدين الذي كان يختلف في بعض النقاط اختلافاً واضحاً عن تعليم التوراة القديم منذ قرون عديدة. هل أراد أن يُبعدهم عن إيمانهم القديم منذ قرون عديدة وعن عاداتهم؟ هل هم مستعدون لأن يقبلوا محمدًا؟ وهل يقبلهم هو ويتغاضى عن تمسكهم بتراثهم اليهودي؟

⁶⁸. راجع كتابها المذكور، ص 162 و192.

كان اليهود يقرأون كتابهم المقدس بلغتهم العبرانية الخاصة. فكانت التوراة بعبادتها وعباداتها تهب الجماعة الصغيرة على مدى القرون سنًا وهويّة. كان ذلك أكثر من مجرد دين. كان تاريخًا ونوع حياة، وفي الوقت نفسه محرّكًا ولحمة وهويّة لتلك الأقلية في الغربية. كان العرب والمسيحيون يتقبلونهم كمؤمنين يمثلون أقدم دينٍ موحي. ولكن حدثت أيضًا بعض المشادات مع المسيحيين الجدد. ففي جنوبي غربي الجزيرة، في اليمن، في القرن السادس. فقد الملك اليهودي ذو نواس، الذي اضهد المسيحيين، سلطنة على يد الأحباش المسيحيين الذين دخلوا بلده⁶⁹.

كان مصير يسوع المسيح في القدس قد بين أن العلماء اليهود كانوا يقابلون فورًا بحذر أنبياء جددًا، عندما كان هؤلاء يهددون بالخطر نظام الدولة والتوازن الاجتماعي. كان هناك إذن شيء كخط أحمر. فلماذا كان ينبغي أن يقابل النبي محمدًا مصير أفضل.

عندما وصل محمد إلى يثرب مع ما يقارب سبعين أسرة، استقبل استقبالًا طيبًا بقول الناس: "جاء نبي الله". فبدأت أول مرحلة طيبة، مرحلة التحسس والتعارف.

وَرَع المهاجرون المسلمون القادمون على الأنصار القلائل الذين اعتنقوا الإسلام في المدينة. فألفوا عند ذلك جماعة جديدة نامية من السكان. بذلك تبدلت على مهل مع السنين أوضاع السلطة في المدينة الصغيرة.

تبنت المسلمون عادات يهودية ثلاث مهمة، مثل الصوم كما يمارسه اليهود في يوم الكفارة، وتحريم لحم الخنزير - كما يذكر أيضًا في العهد القديم المتداول عند المسيحيين أيضًا - وأداء الصلوات الثلاث مع توجيه الرأس وجهة القدس⁷⁰. فدمج محمد بذلك فرائض من التراث اليهودي في دينه واعترف بها كأقسام أرادها الله من الدين القديم.

فالتعايش بين اليهود المستوطنين والمهاجرين الجدد أدى إلى اتفاق شامل على الاحترام والتسامح، إلى معاهدة عامة بين المسلمين واليهود. فعين محمد كرجل حكيم محترم حكمًا في المدينة واكتسب بذلك أول دور سياسي قيادي له في وطنه الجديد.

⁶⁹. أنظر:

Francis E. Peters, Islam. A Guide for Jews and Christians, Princeton University Press 2003, p. 48.

⁷⁰. Robert Nright, The Evolution of God, New York 2009, p. 361

فوقع المسلمون والعشائر اليهودية الإحدى عشرة المقيمة هناك عهداً تعددًا ينظم الحقوق والواجبات في المدينة يُدعى "صحيفة المدينة"⁷¹.

إن هذا العقد التاريخي يمكن أن يكون مثالاً للعلاقة الحالية المليئة بالاحترام بين المسلمين والمسيحيين واليهود في البلاد الإسلامية. فإنه يسكب فكر النبي في فرائض حسية.

من المفاجئ أن العقد يتكلم عن أسرة كبيرة بدينين: "إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم... وإن بينهم النصح والنصيحة... وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو استئجار يُخاف فسادَه، فإن مَرَدَه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله. وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره... وإن بينهم النصر على من دهم يثرب...".

جاءت هذه المعاهدة بثلاث منافع للمسلمين: أزالته خطر إضعاف المسلمين في وضعهم في الغربية، ونشوب حرب على جبهتين في الداخل، وفي الخارج أيضًا تجاه الأعداء في مكة. وقبل كل شيء فُرضت على اليهود مساندة المسلمين ضد أعدائهم من قريش ووقوفهم إلى جانبهم ضد مكة. ودينهم قُبل إلى جانب الدينين المسيحي واليهودي قبولاً متساوياً في الحقوق. بذلك وُضع أساس البقاء في الغربية. وصار المسلمون سياسياً فئة مندمجة في المدينة وصار اليهود حلفاءهم.

أما من الوجهة الدينية فإن الدعوة إلى اعتناق الإيمان لبثت خائبة، إذ إن بني إسرائيل - كما يدعوهم القرآن - قاوموا بصلابة الاعتراف بمحمد نبياً جديداً لهم واعتناق تعاليمه الجديدة. فلم يدخل في الإسلام إلا يهود قلائل تبعوه. هذا كان موافقاً تماماً للفصل بين الدينين في صحيفة المدينة، التي لم تفرض قبول القواعد الإسلامية، بل الاحترام المتبادل.

إن التوترات مع اليهود في المدينة يأتي ذكرها في عدد من الآيات الناقدة والتحذيرات من اليهود (راجع سورة البقرة 2: 61؛ سورة آل عمران 3: 112 و118-120؛ سورة النساء 4: 46؛ سورة المائدة 5: 13 و64). كان ذلك من باب الموادة المخذولة. ويجب أن تفهم الآيات على أساس الوضع في ذلك الوقت، لا حرفياً بقطع النظر عنه. فمن المنظور العقلي لم يكن من الممكن أن يأمل النبي من اليهود التخلي عن إيمانهم الموروث. فإنهم كانوا بدون دولة خاصة عائشين في الشتات. وكانت التوراة وإيمانهم أهم جزء من هويتهم وانتمائهم الاجتماعي إلى عشيرتهم، بحيث إن المرتد عن دينه كان يضع نفسه خارجاً عن عشيرته وتراثه. إيمانه هو مرساته. فكان تبديل الإيمان، الذي يجزّ عدداً كبيراً من الخسائر الاجتماعية ويؤدّي إلى التنحي،

⁷¹. راجع النص في كتاب ابن هشام: السيرة النبوية، القاهرة، الجزء الثاني، ص 318-320.

عملاً قَلَمًا يُنتَظَر. فكان اليهود يراقبون التعليم الجديد بشكٍّ، إذ إنهم كانوا يعتبرون إيمانهم القديم جدًّا ذا تجرُّرٍ أعمقٍ وحقيقة أصفى. فكانوا لا يصدِّقون بعض روايات النبيِّ عن قصص العهد القديم، ذلك بسبب عدد الفوارق. فلم يكونوا يعتبرون أنَّ إبراهيم وابنه إسماعيل هما اللذان بنيا الكعبة في مكَّة، لأنَّ إبراهيم لم يُقِم هناك.

هذا جعل النبيِّ يفشل ويتألَّم بالنسبة إلى اقتناعه من أنَّه يجدد الإيمان القديم، وهذا يشرح الكثير من الانتقادات حول اليهود التي جُمِعت في القرآن.

لم يُصَبِّب محمَّدًا غير الذي أصاب يسوع المسيح الذي أراد، وهو نفسه يهوديًّا، أن يردَّ مواطنيه اليهود إلى إيمانه المسيحيِّ الجديد ولم يُفلح. فبسبب دعوته إلى دينه المسيحيِّ الجديد أصاب البغض من قِبَل زعماء اليهود في أورشليم القُدس، وسيق في نهاية المطاف إلى الصليب كمشاعب يتعدَّى الدين القديم والنظام المرعيِّ في أورشليم. فتصريحه أنَّه ابن الله كان بالنسبة إلى العلماء اليهود تحدِّيًّا لم يُسمَع مثله. فبخلاف مواقف يسوع كان عمل محمَّد بصحيفة المدنية ومنهاج التعايش أقرب إلى مطالب سياسة السلطة وأداةً للبقاء من وراء هذا النزاع حول الإيمان. أمَّا يسوع فكان بخلاف النبيِّ يريد أن يضحيَّ بنفسه في سبيل البشر. ومن ناحية أخرى كان النبيُّ كداعية يؤمن بالله قد لاقى تسامحًا واحترامًا من قِبَل اليهود.

كفَّ النبيُّ محمَّد عن استمالة اليهود ونظَّم شعائر دينه تنظيمًا جديدًا عربيًّا. استقلَّ وأسس دينًا جديدًا هو الإسلام. ونظرًا إلى رفض اليهود، نُقِلت في المدينة قِبلة صلاة المسلمين من القدس إلى مكَّة. فكان هذا التكريم للكعبة في مكَّة باعثًا على قطع التآخي مع اليهود والمسيحيين وأساسًا لدين جديد وبدءًا لفصل أشدَّ للعلاقة بين الطرفين. وبدلًا من يوم الكفارة اليهوديِّ، فُرِض الآن على المسلمين أن يصوموا في رمضان، ذلك الشهر الذي أنزل فيه القرآن (راجع سورة البقرة 2: 185؛ سورة القدر 97: 1-5).

واندلج القتال بالسيف بين المسلمين ومكَّة ممَّا جعل الصداقة خصوصًا في السنوات الستَّ من 624 إلى 630 ترزح مرارًا عديدة تحت مِحَنٍ وأثقال شديدة. فإلى جانب الخلافات الدينيَّة قامت، سنتين بعد اندماج المسلمين، مشادَات اقتصادية وسياسيَّة مع القبائل القويَّة في مكَّة، زد على ذلك أنَّ الأمر كان يدور حول البقاء الصرف على قيد الحياة، وذلك بالنسبة إلى المسلمين وإلى اليهود. فكان السؤال: ماذا يحدث لغير المسلمين حُلُفائهم، إنَّ غلب المسلمون على أمرهم في المدينة؟

كان على جماعة المسلمين أن يكسبوا عيشهم. فبدأوا من عام 624 ينقضُّون على القوافل الغنيَّة التي كانت في طريقها من الشمال إلى مكَّة. هذا قد يبدو اليوم من باب حبِّ التهجُّم،

ولكنه كان في القرن السابع عادة منتشرة بين البدو. وكانت كنوز القوافل غنيمة حلالاً في معركة القبائل حول البقاء على الحياة. كان النبي يهتم بدقة أن لا ينال ضرراً أحدًا من المدنيين. ولكن بذلك تحوّل الدفاع الخالص إلى هجوم على رقاب مكة. وكان ذلك يهدّد الآن المدينة بشكل أشدّ من السنتين الماضيتين.

تحوّلت أوّل معركة ربحها النبي في بدر إلى دافع إلى الحرب مع مكة. واليهود الذين فُرضت عليهم المساندة جرّوا جرّاً متزايداً إلى حرب المسلمين ضدّ مكة، تلك الحرب التي لم يكونوا يريدونها. إنّ الدفاع المشترك ضدّ المهاجمين من الخارج هو أمر تمكّن الموافقة عليه من جهة سكّان الواحات. ولكن هل يصحّ ذلك عندما يسبّب فريق ما عدداً من أصناف الهجوم والحصار؟ أيزال قائماً عند ذلك واجب المساندة؟

ليس من المدهش أن تكون بعض قبائل اليهود قد نما فيها الخوف على بقائها. كلّ أقلية تتجنّب المشاجرة مع الأقوى منها، وهكذا ترقّب بعض اليهود طمعاً بالبقاء على قيد الحياة ظفر المكّيّين المتفوّقين بالقدرة. كان الأمر الحفاظ على البقاء في وضعهم كأقلية في الجزيرة العربيّة. فإنّ حظّ محمّد كان في بادئ الأمر سيّئاً. وفي عام 625 تكبّد المسلمون عند جبل أحد هزيمة قاسية. وعندما حاصرت قريش في شهر آذار عام 627 المدينة وتراجعت بدون نجاح وحّد العدو المشترك أكثر سكّان الواحة وتوطّد وضع النبي بفضل انتصاراته الأولى.

كان لا يزال غير واضح من سينتصر في النهاية في معركة التسلّط هذه. وبما أنّ مكة كانت قويّة شديدة ترقّب كثيرون من اليهود أن تلحق الغلبة بالمسلمين. ومن لا يريد الوقوف إلى جانب المنتصر، عندما يمكن أن تعني الغلبة في التراث العربي المنفى والعبودية؟

تحوّل اليهود في مرحلة الإسلام المهمّة هذه إلى حلفاء غير أمينين، هم الذين كانوا لا يزالون منافسين في الدين، بالرغم من الجذور المشتركة، من الإيمان بالله نفسه، ومن المعاهدة التي حفظها المسلمون. فبدأت التوتّرات تجاه المسلمين وبدأ فقدان الثقة يشتدّ.

فمن لم يحافظ في هذا الوضع الحرج على الفريضة التي اتّخذها حسب المعاهدة أو تحالف فعلياً مع العدو، عوقب وفقاً للعرف البدوي عقاباً صارماً.

كان بنو قَيْنُقاع بعد انتصار محمّد على أهل مكة في وقعة بدر عام 624، موضع الانتقاد الحادّ واعتُبروا خونة. "إنّ الله لا يحبّ الخائنين"، هذا ما ورد في سورة الأنفال 8: 58. وانتقدوا على أنّهم، خلافاً لاتّفاق المعاهدة، قد تحالفوا مع العدو من مكة. وعندما اعتدى أحد اليهود على

امرأة مسلمة، صرخت هذه فوثب رجل من المسلمين وقتل واحدًا منهم، ووثب اليهود على المسلم فقتلوه. عندئذٍ طفح الكيل. فهرب اليهود وحاصروهم المسلمون خمسة عشر يومًا. ولكنهم لم يتلقوا عونًا من مكة. ففضى النبي بإجلاتهم عن المدينة، فارتحلوا إلى وادي القرى.

وقامت توترات أيضًا مع بني النضير بعد فشل غزوة أُحد عام 624. وعندما قُتل أحد أعيانهم كعب بن الأشرف على يد أحد المسلمين، تخوَّف المسلمون من أخذ الثأر من جهة اليهود. وفي أثناء زيارة لهم قام بها النبي في شهر آب (أغسطس) 625، حُدِّر النبي من مؤامرة لهم فغادر مكانه مسرعًا. وكان عاتبًا على هذه القبيلة اليهودية لأنهم لم يهبوا في غزوة أحد لمساندة المسلمين ضدَّ المكِّيِّين المهاجمين، خلافًا لتعهداتهم وفقًا للعقد المُبرم. فحاصر المسلمون بني النضير خمسة عشر يومًا، ودمروا نخيلهم وأسس معاشهم. فاضطرَّ بنو النضير إلى الاستسلام، ودفعوا سلاحهم إلى المسلمين وسألوا النبي أن يؤمّنهم على أموالهم ودمائهم وذرائعهم، واتَّجهوا في المنفى إلى خيبر. هناك تحالفوا مع المكِّيِّين. في زمن لاحق طلبوا من النبي أن يُسلمهم وأضحوا خاضعين لحكم المسلمين. ولكي يوثق علاقة الصداقة الجديدة، تزوج النبي محمد صفيّة اليهودية، بنت عدوّه القديم وشيخ العشيرة حَيِّي بن أخطب، وأوصاها أن تقول لمناوئتها: "عمِّي موسى، وزوجي محمد". في آخر الأمر تصالحو في ما بينهم.

والقبيلة الثالثة بنو قُرَيْظَةَ، تصرّفوا تصرفًا عدائيًا خاصًا ضدَّ المسلمين. عندما حاصر المدينة مقاتلو مكة، مكثوا على الحياد، ولم يهبوا لمساعدة المسلمين. بل قيل إنهم تفاوضوا مع الأعداء، حسب ما ورد في سورة الأحزاب 33: 26. فأصرَّ محمد عام 627 على استسلامهم بلا شرط ومنعهم من الذهاب بأموالهم إلى المنفى. فتمَّ الاتفاق على أن لا يحكم المسلمون أنفسهم في الأمر، بل أن يكون سعد بن معاذ، أحد زعماء القبائل العربية، هو الحكم الذي يقضي بما يجب تنفيذه في مصير هؤلاء اليهود. فأصدر سعد أشدَّ حكم ممكن وفقًا لمعاملة الخيانة في التراث العربي: فقتل جميع الرجال الستمائة، وسُبيت النساء والذرائع.

هذه العشائر اليهودية التي دُكرت حوربت لأنها لم تساند النبي سياسيًا وبذلك هدّدت بشكل ذريع سلامة المسلمين في كفاحهم ضدَّ مكة. فطرد القبيلتين اليهوديتين من المدينة يتأتَّى من تنصلهم من واجبات المساندة التي تعاقدوا عليها. فلأنهم هم سبقوا فتنصلوا من صحيفة المدينة، وضعوا أنفسهم خارجًا عن نظام الحماية في المدينة الذي تعاقد عليه المسلمون واليهود في المعاهدة. فمساندة الأعداء المكِّيِّين هي التي ساقَت تلقائيًا إلى الإبعاد. فاليهود لم يُنزل بهم الجلاء لأنهم كانوا على إيمان مختلف، بل لأنهم في نظر النبي لم يقفوا بواجباتهم السياسية المتعاقد عليها، وذلك في الوقت الذي كان فيه المسلمون معرّضين لأشدَّ الضرر.

خلال بضعة أعوام تحوّل المسلمون من مهاجرين لا تأثير لهم إلى منتصرين أشدّاء. فتمكّنوا من تسوية أعدائهم في الداخل وفرض سلطتهم في الخارج.

في الغزوات اللاحقة ضدّ الواحة اليهوديّة خيبر والقرى فدك ووادي القرى وتيماء، لم يُطرَد اليهود ولم يُفرض عليهم الإيمان الجديد. إذ إنهم لم يكونوا قد نقضوا أيّ معاهدة. ومحمّد لم يكن يبغى الإكراه في الدين.

في مدينة خيبر على بعد 150 كيلومتراً شمالي المدينة، كان اليهود قد تحالفوا مع مكّة. فانطلق محمّد في أيار (مايو) عام 628 في غزوة وحاصر خيبر بضعة أسابيع. فسأل السكّان أن يُعامَلوا بالرفق. وتمّ الاتفاق بين الطرفين. فوافق النبيّ الظافر على معاهدة تضمن لليهود استقلالهم الدينيّ والسياسيّ. مقابل ذلك عليهم أن يؤدّوا للمسلمين نصف غلّتهم. وكذلك اليهود القاطنون في مقاطعة فدك وافقوا على مثل هذا العقد.

كان المسلمون عند ذاك في موطنهم الجديد في المدينة لم يعودوا يتعرّضون لخطر أساسيّ، وكانوا إلى ذلك قد حازوا على الظفر العسكريّ ضدّ مكّة، وتفوّقوا جدّاً على القوّات اليهوديّة، فكانت قضيةّ السلطة محسومة. فكان على اليهود فقط أن يخضعوا سياسيّاً، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يظلّوا قاطنين في وطنهم المعهود ويمارسوا دينهم. فكان عليهم أن يؤدّوا الجزية كمساهمة لصالح السلطة الإسلاميّة الجديدة، مساهمة تبلغ عادة نصف غلّتهم، يؤدّونها للمسلمين الظافرين.

وأمر النبيّ أتباعه بالتسامح والمعهود في المجادلة حول الحقيقة. قال: "ألا ظلم من ظلم معاهداً... فأنا حججه يوم القيامة" (أبو داود).

بعد عقد الصلح مع سكان خيبر أساء بعض جنود الجيش الإسلاميّ معاملة نساء يهوديّات وسلبوهنّ ثماراً وحيوانات. فشكا شيخ القبيلة ذلك إلى النبيّ الذي قال: لا يقبل الله أن تدخلوا بيتاً من بيوت أهل الكتاب إلّا بإذنهم ولا تسيئوا معاملة نساءهم وتسلبوا ثمارهم⁷².

عندما شكّا يهوديّ أمره للنبيّ لأنّ أحد الأنصار لطمه، ناداه وسأله لماذا لطمه. فقال المسلم: عندما لقيته قال: والذي اصطفى موسى على العالمين. فسألته: وعلى محمّد أيضاً؟ فاستشطّ غضباً ولطمته. فقال النبيّ: لا تخيروني على الأنبياء الآخرين... ففي يوم الدين سأصادف موسى يمسك عموداً من عرش الله. (عن أبي سعيد الخدري: البخاري).

⁷² .Mahmood Madani, Islam's Message of Peace and Security for All

كان اليهود يقرأون التوراة باللغة العبرية ويشرحونها للمسلمين باللغة العربية. فجاء عن أبي هريرة قول النبي: "لا تصدقوا أهل الكتاب، بل قولوا آمناً بالله وبما أنزل إلينا وما أنزل إليكم" (البخاري).

عن عائشة زوجة النبي: دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله فقالوا: السّام⁷³ عليكم. ففهمتها فقلتُ: عليكم السام واللعنة. فقال رسول الله: مهلاً، يا عائشة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقلتُ: يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا؟ قال: فقد قلتُ وعليتكم. (البخاري، مسلم، الترمذي).

عن جابر بن عبد الله: مرّت جنازة. فقام لها رسول الله وقمنا معه. فقلنا: يا رسول الله إنها (جنازة) يهودية. فقال: إنّ الموت فرع. فإذا رأيتم الجنازة فقوموا (البخاري، مسلم، أبو داود، النسائي).

عن صفيّة⁷⁴: دخل عليّ رسول الله وقد بلغني من حفصة⁷⁵ وعائشة كلام⁷⁶، فذكرتُ ذلك له. فقال: ألا قلتِ: وكيف تكونان خيراً منّي وزوجي محمّد وأبي هارون وعمّي موسى" (الترمذي).

رغم كلّ الفوارق ورفض اليهود أن يعتنقوا إيمانه احترّمهم النبيّ محمّد لأجل إيمانهم بالله الواحد ولأجل الأنبياء المشتركين.

والقرآن يخطو إلى ذلك خطوة أبعد. فيحبذ أن تبقى التوراة والإنجيل والقرآن جنباً إلى جنب، كما يثبت عادل تيودور خوري مشيراً إلى الآيات التالية:

سورة المائدة 5: 44: "إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ ... وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . 5: 47: وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ". - 5: 48: "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ⁷⁷ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ".

⁷³. أي الموت.

⁷⁴. إحدى نساء النبي، وكانت يهودية.

⁷⁵. إحدى نساء النبي.

⁷⁶. أنها قالت لها: بنت يهودي.

⁷⁷. إلى النبيّ محمّد.

بعد وفاة النبي محمد عام 632 اجتاحت جيوش إسلامية بسرعة المقاطعات المسيحية البيزنطية سوريا وفلسطين (عام 638)، ومصر (628 - 642) وحتى شمالي أفريقيا في الفترة الممتدة حتى عام 700. لم يكن من المستطاع بعد أن تُردّ فتوغلت إلى إسبانيا (711 - 717)، وحتى إلى قلب فرنسا في تور وبواتيه (717 - 732). بذلك اجتاحت صلب البلاد المسيحية وسادت على مقاطعات واسعة كان يسكنها كثيرون من المسيحيين وقلائل من اليهود.

في المناطق المفتوحة كان المسيحيون هم أكثرية السكّان. وكان السؤال كيف يجدر أن يُعاملوا؟ أيسخّ منعهم من ممارسة إيمانهم؟ وإكراههم على الإسلام، كما فعل المسيحيون أحياناً مع اليهود في أوروبا؟

كان مسيحيو الشرق أقدم المسيحيين في العالم. عاش يسوع في فلسطين، الأرض المقدّسة. وأكابر المفكرين من بين المسيحيين القدماء، وكذلك زعمائهم نشأوا هناك من مثل القديس يوحنا فم الذهب بطريك القسطنطينية والقديس الشهير أوغسطينوس في شمالي أفريقيا (تونس الحالية).

كان النبي قد أثبت اتجاه المسار: عدم الإكراه على اعتناق الإسلام وضمانة الحريات الدينية بما فيه بيوت الصلاة. فريضة الأمانة وفي مقابلها حماية أصحاب السلطة على واجب أداء الجزية. فلم تُبنّ دولة إسلامية أحادية متناغمة كالتي يحبّذها اليوم المتطرفون، بل مجتمع متعدّد منفتح تمارس فيه الحرية الدينية لدى اليهود والمسيحيين وإدارة سياسية مركزية.

كان النبي محمد قد عقد عام 623 معاهدة أولى تنصّ على السماحة والمساندة، معاهدة تبعتها ثلاث معاهدات أخرى، مستوحاة من صحيفة المدينة، ولكن بدون الإسهاب عينه. وتبع اثنان من خلفائه مثاله، وأبرما مع الجماعات اليهودية والمسيحية عشرة عقود مماثلة، تحمي سلامة الجماعات وممارسة الدين، مقابل أداء الجزية.

هذه المعاهدات كانت تماثل تراث البدو في الجزيرة العربية، وتضمن مطلب القرآن في عدم الإكراه في الدين.

وبما أنّ ضمانة الحماية أمر ثمين جدّاً، قامت طبعاً مقابل ذلك المطالبة بأداء المال، الذي كان النبي بحاجة ماسة إليه في غزواته. لم يكن ذلك من الوجهة الأخلاقية أمراً مرفوضاً أو مخالفاً للعدالة، إذ إنّ البدو كانوا منذ مئات السنين يفرضون قسماً من الفوائد المادية على

القبائل غير المتحالفة معهم وعلى قوافلهم. فكانت العادة أن لا تؤمّن الحماية إلاّ بدفع المال والغنائم، فيقوم الوضع على تبادل المصالح. فإمّا أن يتبع الفريق الآخر الغالب وإمّا أن يخضع ويدفع المال المفروض. كان ذلك نوعاً من الضريبة ووسيلة سياسية عملية قائمة على العطاء والأخذ. فكان على أتباع إيمان مختلف أن يخضعوا للسلطات الجديدة الإسلامية وأن يؤدّوا بتسليم دفعة خاصة نصيبهم لتوطيد هيئة الدولة الجديدة.

لم يحصل إكراه على اعتناق الإسلام. ولا هدم للنظام المسيحيّ القديم وبناء دولة إسلامية متطرّفة، أو قتل لأتباع إيمان مختلف. وإذ إنّ المسيحيين واليهود وهم أتباع إيمان مختلف - وجماعاتهم لم يُحرّموا من بقائهم السلمي، يمكن تصنيف هذه المعاهدات كعهود أربعة عشر لضمان التسامح والعيش المشترك.

أول هذه العهود عُقد سنة 623 من قبل النبيّ محمّد تجاه رهبان دير القديسة كاترينا في سيناء. أنشئ هذا الدير سنة 527 من قبل الأمبراطور البيزنطيّ يوستينيانوس (527-565). وكُرّس على اسم الشهيدة المسيحية كاترينا المصرية. والدير هذا ينتصب كجُرج محوَّط بجدران على بُعد كيلومتر مع جبل سيناء. هناك تقبل موسى وفقاً للعهد القديم من الكتاب المقدّسة لוחي الوصايا العشر. وفي موضع الدير في الوادي شاهد موسى الله في عليقة محترقة. وفي القرن الحادي عشر بنى الرهبان في الموقع مسجداً فاطمياً صغيراً.

تقول الراوية إنّ رئيس الدير زار النبيّ محمّداً عام 623 وطلب منه الحماية لهذا المكان الذي هو محطة موسى النبيّ يكرّمها المسيحيون والمسلمون. هذا كان مطابقاً للعادات المرعية. فإنّ النبيّ استقبل عدّة مرّات وفوداً مسيحية. وإكرامه لموسى واضح في ما نُقل عنه.

فأصدر محمّد للرهبان في السنة الثانية للهجرة (في 7 تمّوز (يوليو) 623) عهداً بحمايتهم وحماية العائلات التي كانت تعيش في جبل موسى. والوثيقة تقول إنّهُ كُتب على صحيفة من الطائف بيد عليّ بن أبي طالب في مسجد النبيّ وإنّ محمّداً ختمه ببصمة يده. وتُشاهد بصمة اليد هذه على نُسخ هذه الوثيقة، فيتبيّن رمزياً أنّ النبيّ نفسه قد لمسها. وعندما اجتاح السلطان العثمانيّ سليم الأول مصر عام 1517، أبرز الرهبان النصّ الأصليّ على صحيفة مكسوة بحريّر أخضر. فنُتبت السلطان صحة القرارات التي بقيت تُتبع على مدى قرون حتّى عهد السلطان عبد الحميد الثاني عام 1904⁷⁸.

⁷⁸. راجع برنامج المعرض 14 آذار - 8 تمّوز 2012، ص 63 - 64، التابع له:

The Metropolitan Museum of Arts, New York, Byzantium and Islam: Age of Transition, Yale University Press 2004, p. 14-15.

توجد نسختان من الوثيقة تحتويان على النص نفسه، مزيتتان بصور للدير هما فيه المسجد. زيدت على إحدى النسختين حواشٍ ويد سوداء في آخر النص، وعلى النسخة الأخرى تُرى صُور على الهامش ويدان اثنتان.

يُقال إنَّ النصَّ الأصليَّ جُلِبَ عام 1517 إلى إسطنبول إلى السلطان سليم الأول، ثمَّ ضاع أثره منذ ذلك الوقت. وبقي بحثٌ قمتُ به في تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2012 في المتحف الشهير توبكابي في إسطنبول بلا نتيجة إيجابية. وأخبرتني نائبة الإدارة غولندام نكيوغلو أنه لا يمكن العثور على الوثيقة. فلعلها لا تزال مطمورة في مجموعة منسوبة من آلاف المخطوطات القديمة في مَلَفٍ ما. وهيلانة إيفانس صاحبة الاختصاص المشهورة في متحف الفنون، الذي زرته في شباط (فبراير) 2013 في نيويورك، هي أيضًا لا تعلم شيئًا عن موطن الوثيقة الأصلية.

إنَّ صحَّةَ هذا التعهّد الأولى بالحماية من قِبَل النبيِّ لا تزال حتَّى الآن غير واضحة إلى حدِّ بعيد. إنَّ البروفيسر طيار أتكولتش الذي كان أعلى سلطة والمفتي الأكبر في تركيا، حلل نسخة من الوثيقة عن موقع الدير في 14 تشرين الثاني (نوفمبر) 2012، وذلك في أثناء لقائي له في ومجادلة حول هذا الكتاب. فهذا الخبر في المخطوطات الإسلامية القديمة يرى أنَّ محتوى الوثيقة مطابق لما ورد في الحديث وفي القرآن. إنَّ الوثائق الأصلية من زمن الإسلام الأول ورسائل النبيِّ هي وللأسف كلها ضائعة. هل الیدان اللتان تظهران في النسخة هما بمثابة ختم النبيِّ، هذا يبدو غير واضح. فإنَّ محمَّدًا كان يفوِّض إلى سواه أمر الكتابة. وقد تكون من خطِّ الرهبان أنفسهم، يختصر محتوى ما جرى الحديث حوله ويثبتته كتابة. وإنَّ ما تمَّ الاتفاق عليه شفهيًّا بين النبيِّ والرهبان هو أيضًا ملزم.

في إحدى النسخ المعروفة من الوثيقة صُور المسجد في الزاوية اليمينية السفلى. من المحتمل أن يكون أحد الرهبان في القرن الحادي عشر قد زاد هذه الصورة على الوثيقة. أو أنَّ أحدًا قام بضبط نسخة، كما يمكن اليوم إنتاج نسخ من الوثائق بواسطة آلة ناسخة. هذا أيضًا يطابق ما اعتاد البيزنطيون أن يفعلوه. فإنَّه نُقلت في الدير إيقونات ثمينة. فيكون أنَّ الرهبان قد اعتبروا أنَّ مخطوط محمَّد ثمين مثل إيقونة.

في هذه الوثيقة يوصف الرهبان بأنهم "مواطني" وحلفائي وينعمون بحماية النبيِّ الشخصية. ويُمنع إبعاد الرهبان من ديرهم أو تدمير كنيسة. ولا يجوز أن يُمنع أحد من زيارة

الكنيسة. وهذا العهد يصحّ حتى اليوم الأخير. من النصّ أنّه رسالة من محمّد بن عبد الله كعهد للذين اعتنقوا المسيحية قريبين وبعيدين، نحن معهم. فحقاً أنا وخدامي وأنصاري وأتباعي يحامون عنهم لأنّ المسيحيين مواطني. والله إني أدفع عنهم ما يؤذيهم، فلا إكراه عليهم. فلا يُبعد قضاتهم من عملهم ولا رهبانهم من أديارهم. ولا أحد يحقّ له أن يهدم بيتاً من بيوت دينهم، أو يلحق به الضرر أو يسلب شيئاً منه إلى بيوت المسلمين. وإن فعل أحدٌ شيئاً من هذا، فهو يعطلّ عهد الله ويعصي النبي. فإنهم حلفائي ولهم أمانة عهدي ضدّ جميع مناوئهم. فلا أحد يحقّ له أن يضطرهم إلى السّفَر أو يُكرههم على القتال. فالمسلمون عليهم أن يقاتلوا عنهم. وإن زوّجت امرأة مسيحية إلى مسلم فلا يحقّ أن يحصل هذا بدون إذنها. ولا تُمنع من زيارة كنيستها للصلاة. كنائسهم يجب أن تُحترم. فلا يحقّ منعهم من إصلاحها ولا من حرمة عهودهم. لا يحقّ لأحدٍ من الأمة (من المسلمين) أن يعصي العهد حتى اليوم الأخير⁷⁹.

إنّ الطابع الثورويّ لهذه الوثيقة هو أنّها منحت قبل 1500 سنة الحماية والحرية الدينية، حماية حُفِظَتْ 1500 سنة⁸⁰.

عندي أنّ نصّ رسالة الأمان هذه صحيح للأسباب التالية: إنّه موافق لما ورد في الوثائق المعروفة عن وفود إلى عند النبيّ ومعاهدات مع مسيحيي نجران وغيرهم وعمّا يعادل اثني عشر عقداً مع جماعات مسيحية. والرهبان أناسٌ يلتمسون الله ويمارسون بنوع خاصّ رغبة محمّد في قبول إيمان صافٍ. وموسى نبيّ مهمّ محترم من أنبياء الإسلام وجبل موسى موضع لقاء مهمّ بنوع خاصّ للإيمان المشترك بين المسلمين واليهود والمسيحيين. والرهبان القلائل لا يشكّلون خطراً ما بالنسبة إلى سياسة السلطة. وحماية الكنائس تطابق فكر محمّد في السماحة. فلم يحدث هدم أي كنيسة أو معبد مدّة حياته كلّها. بالعكس سمح لوفود مسيحية أن يقيموا صلاتهم في مسجده الأول في المدينة. فما يبدو لنا اليوم جديراً بالعبارة على مقارنة مع بعض الخطباء المتطرفين، كان في زمن النبيّ أمراً اعتيادياً، هو العيش المشترك السلمي مع المسيحيين واليهود. فلم يحصل تعدّي العلامة الحمراء إلا إذا انضموا فعلياً إلى الأعداء. في هذا الحال فقط كان الدفاع عن النفس والعقاب أمراً مقبولاً.

⁷⁹. A. Zahoor and Z. Haq, Muslim History 570-1950, C. E., p. 167.

⁸⁰. راجع:

Islamic Treatment of the People of the Books, in : www.antiochgate.com .

وهناك وفاق في أقسام كثيرة من المحتوى بين الوثيقة ومعاهدات أخرى أبرمها النبي نفسه بعد ثلاث سنوات على بعد 150 كيلومتراً إلى الشرق في خليج العقبة. ولكن هنا ينقص دفع الجزية من قبل الرهبان. ولكن ما كان يمكن هؤلاء الرجال الأتقياء أن يدفعوه في الصحراء؟

في عام 629 انطلقت غزوة محمد إلى شمالي الجزيرة العربية، ولكن دون أن يحصل في البدء على نجاح مرموق. وسيناء اجتاحتها الجيوش العربية بعد وفاة النبي بين عام 640 و642.

من عام 630 إلى 632 قاد النبي غزوات ضدّ واحات مسيحية في الشمال واستولى على تبوك ودومة الجندل وتيماء. وفي عام 631 سار محمد على رأس عسكره إلى خليج العقبة في البحر الأحمر. فصادف في تبوك صاحب أيلة، يوحنا بن روبة، وخيّر بين القتال أو المصالحة السلمية. وتمّ الاتفاق على عقد شامل يظهر بوضوح تفكير النبي. فوضّح المسيحيون في أمانته وأمانة الله:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليُحْتَمَ بن روبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البرّ والبحر: لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر. فمن أحدث منهم حَدًّا فَإِنَّهُ لَا يَحُولُ مَا لَهُ دُونَ نَفْسِهِ. وَإِنَّهُ طَيِّبٌ لِمَنْ أَخَذَهُ مِنَ النَّاسِ. وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يُمَنَعُوا مَاءً يَرِدُونَهُ، وَلَا طَرِيقًا يَرِيدُونَهُ مِنْ بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ"⁸¹. وتمّ الاتفاق على أن يؤدّوا 300 دينار سنويًا، على عدد الرجال من سگان المدينة.

بعد ذلك عُقدت معاهدة مماثلة مع أكيدر ملك دولة الجندل، صالح فيها النبي سگان المدينة على الجزية مقابل ضمان أمانهم على حياتهم ومساكنهم. ولم تُصادر منهم سوى المساحات غير المزروعة فُوُزَعَتْ على المسلمين. مدينة التجارة المهمة هذه على بعد بضعة مئات من الكيلومترات شماليّ المدينة كانت تابعة للمملكة البيزنطية. وصارت في القرن الخامس عاصمة مملكة كنده. وفي عام 633 فتحها خالد بن الوليد مع جيشه الإسلامي.

من النصوص المشهورة والموثقة جيّدًا هو تاريخ اللقاء والمعاهدات التي أبرمت بين النبي محمد والخليفة الأول أبي بكر وسگان نجران المسيحيين. فإنّ مسيحيي هذه المدينة المهمة عاصمة التجارة في جنوبيّ الجزيرة العربية بقرب حدود اليمن أرسلوا عام 631 بعثة إلى النبي في المدينة. فتجادل المبعوثون مع محمد حول طبيعة عيسى أهي بشرية أم إلهية. فدعا المسيحيين إلى اعتناق الإسلام، فرفضوا ذلك. وفي اليوم التالي قالوا لمحمد: يا أبا القاسم قد رأينا... أن نتركك على دينك ونرجع إلى ديننا. وأكّدوا له أنّهم يريدون أن يؤدّوا تسوية ماليّة.

⁸¹. ابن هشام: السيرة النبوية، الجزء الرابع، القاهرة، ص 387.

عند ذلك أبرم النبي معهم عهدًا ثابتًا في حمايتهم. فمنح السكّان المسيحيين استقلالاً سياسياً ودينياً واقتصادياً. فمن وجهة النظر التاريخية لا يجدر أن ننسى أنّ القياصرة والملوك ورؤساء الدول المسيحيين هم أيضاً طالبوا بشكل منتظم بقسطهم من محاصيل مدنهم ومقاطعاتهم، وإلا لكان لهم سلطان على المناطق ولكن بدون وسائل ماليّة.

في المعاهدة الأولى القديمة ضمن النبي للمسيحيين الأمان وحرية الاعتقاد. والخليفة الأوّل أبو بكر (632 - 634) نفّذ هذا العقد "بسم الله الرحمن الرحيم وذمة النبي محمّد"، عام 634، وذكر فيه الأنظمة التالية:

يُمنح السكّان حماية الله وضمانة الأمان من النبي محمّد رسول الله، لسكّان نجران وجوارها لأملاكهم وأشخاصهم وعيالهم ومعابدهم... ولا يُبعد أسقف من مركزه ولا راهب من ديره ولا كاهن من رعيتّه. ولا يلحقهم قهر... ولا يفرض عليهم الالتحاق بالجيش... ولا يدخل مقاتلون إلى بلدهم... لا يقهرون أحدًا ولا يُقهرّون ولا يتعرّضون للشتيمة.

هذه الضمانة تدوم "إلى يوم يُظهر الله قدرته"، وطالما يحافظ أهل نجران على استعدادهم الطيب ويقومون بواجباتهم.

مقابل ذلك عليهم أن يؤدّوا الجزية: ألفي ملبس ثمن كلّ منها أوقية فضّة. ويستضيفون موقّدين مسلمين لمدة شهر. وفي أوقات الحرب يقدمون قرصًا 30 من الخيل والجمال والدروع، ويعوّض عليهم ما يضيع منها.

هذه المعاهدات الأربع للنبي لحقت بها عشر معاهدات أخرى. فالقائد المسلم خالد بن الوليد اجتاح في عام 633 منطقة الحيرة مع الأكثرية المسيحية من سكّانها، وكانت تقع إلى جنوبي المدن العراقية العصرية النجف والكوفة. في ما يلي بعض النقاط التي اتّفق عليها الطرفان في معاهدة الحيرة لصالح المسيحيين وفي الوقت عينه لصالح اليهود القاطنين هناك:

ينعم السكّان بما كانوا عليه من حرية الدين. كنائسهم ومجامعهم وحصونهم تبقى قائمة. يمكنهم أن يدقّوا النواقيس ويقوموا بالتطواف مع الصليب. لا يجوز لهم أن يساندوا أعداء المسلمين ويدلّوهم على مواضع الضعف في صفوف المسلمين. ويتصرّفون تصرّفًا صالحًا. أحرارًا في ملبسهم. ولكن عليهم أن لا يتشبّهوا بالمسلمين.

إياد بن عُثْم اتَّفَق في رَقَّة والرَّها في منطقة ما بين النهرين، مع المسيحيين على معاهدات ضمان وحماية، ومقابل ذلك على دفع دينار واحد عن كلِّ رجل وكيلين من الحنطة. لا تُهَدَم كنائسهم. وينعم الأشخاص والأملاك بالحماية.

تبعَت ذلك المعاهدات المهمَّة في بعلبك وحمص ودمشق (عام 635) والقدس (عام 638). وعُقِد بعد ذلك اتِّفاقان مع مقاطعة أذربيجان ودوين.

في بعلبك صَمِن الأمان للأشخاص والممتلكات والكنائس القائد المسلم أبو عبيدة باسم الله. وأُعلنت الضمانات هذه كذلك في حمص في سوريا.

فتح دمشق يُظهر كَمثال تصرَّف المسلمين الظافرين. عندما حاصر خالد بن الوليد مع خمسة آلاف فارس العاصمة البيزنطية المركزية دمشق عام 635 باشر قائد جيشه أبو عبيدة بمشاورات حول السلام مع أسقف المدينة. نصَّت معاهدة دمشق على ما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما منح خالد سَكَّان دمشق بعد فتحها: يضمن لهم الأمان لحياتهم وممتلكاتهم وكنائسهم. هذا عهدٌ مع الله وذمَّة النبي والخليفة والمؤمنين. فطالما يدفعون هم الجزية، فلا يحقُّ أن ينالهم إلا الخير".

في العاصمة دمشق كان المسيحيون قد حوَّلوا هيكلًا رومانيًا إلى كنيسة بيزنطية. والآن بنى المسلمون إلى الجانب الشرقي منها المسجد المعروف بالجامع الأموي. فكان المسيحيون والمسلمون يدخلون من البابا الجنوبي ويتفرَّقون من هناك للصلاة إلى كنائسهم أو جامعاتهم.

أمَّا في مدينة حمص شمالي دمشق فكان المسيحيون فرحين بسلطة المسلمين، لأنَّ الإمبراطور هرقل لم يَكُن محبوبًا هناك. فكانوا يقولون: نحن نحبُّ العدل الإسلامي أكثر من التجبُّر الذي كُنَّا نرزح تحته. والمسيحيون الأقباط أيضًا في مصر كانوا منخذين من تناول القسطنطينية، وفرحوا بتسلُّم السلطة من قِبَل القائد المسلم عمرو بن العاص.

عندما برزت كتائب المسلمين في آخر عام 637 أمام أسوار القدس وصمد المدافعون أربعة عشر شهرًا دون الحصول على مساعدة من الخارج، قرَّر البطريرك صفرونيوس أن يفاوض في أمر تسليم المدينة. زار الخليفة عمر معه كنيسة القيامة الشهيرة. وعندما عرض على الفاتح أن يصلي معه فيها، رفض ذلك قائلاً إنَّ المسلمين يطالبون عند ذلك بهذا المكان ويحوَّلون الكنيسة إلى جامع. بدل ذلك بنى الجامع الذي يحمل اسمه، وعيَّن الموضع الذي منه انطلق إسرائ النبي ببناء قبة الصخرة.

إنَّ الاختصاصيَّ الألمانيَّ بالإسلاميَّات الدكتور محمد خلوق يؤكِّد أنَّ السَّماحة تجاه أديان ونظريَّات مختلفة هي "قسم أساسيَّ من الإسلام". فهي لا تدلُّ فقط على موقف النبيِّ محمد، بل إنَّه هو نفسه استطاع أن يُقنع بها أيضًا المسؤولين السَّياسيين في فجر الإسلام. ويصف الخليفة عُمر الذي فتح مدينة القدس عام 637، بأنَّه مثال لها. فإنَّ الخليفة زار مع بطريك المسيحيين كنيسة القيامة. وإذ حلَّ وقت الصلاة عند المسلمين، عرض عليه البطريرك أن يؤدِّي الصلاة داخل جدران كنيسته. فرفض الخليفة عمر هذا الاقتراح، لكي لا يتمكن أحد من خلفائه من أن يحتجَّ بأنَّ عمر سبق فصلَّى هناك ويطلب باستملاك هذا المكان المقدَّس لدى المسيحيين مع كنيستهم.

"بفضل سماحتهم ونباهته لم يختبر مسيحيو القدس الإسلام كدين معادٍ لهم، بل كدين أخويِّ. فلو كان في مقدور سكَّان القدس أن يقرُّوا هم أنفسهم مصيرهم ويتشبَّهوا بالخليفة عُمر، لما لحقهم ما عانوه من الحملات الصليبيَّة والحروب الدينيَّة"⁸².

وعُقِد اتفاق القدس بين المسلمين والمسيحيين، وهي معاهدة مهمَّة في عيني الطرِّفين. فالوثيقة تضمَّن للمسيحيين الأمن لشخصهم وأملاكهم الخاصَّة. والكنائس والعبادات المسيحيَّة تنعم بالأمان. فلا يجوز بالنسبة إلى الصلبان والكنائس والأبنية المجاورة، وكلَّ أملاك الكنيسة، أن يلحق بها الضرر أو الهدم أو أن تُحوَّل إلى بيوت للسكَّن. لا إكراه لهم في الدين، ولا يجوز أن يلحق ضررٌ بأيِّ منهم.

هذه المعاهدة هي بالنسبة إلى المدينة المقدَّسة في أعين المسيحيين واليهود والمسلمين أهمَّ معاهدة سماحة في الإسلام، لا يزال أثرها قائمًا حتَّى اليوم.

فمن إحدى الجهات كان أصحاب السلطة المسلمون أكثر سماحة من أسلافهم المسيحيين. فاليهود الذين كانوا في عهد الرومانيِّين والبيزنطيِّين قد نُفُوا من القدس، سُمِّح لهم أن يعودوا إلى عاصمة دينهم.

إنَّ حافظي مفاتيح كنيسة القيامة هم منذ 1300 سنة وفتح المدينة على يد الخليفة عُمر أعضاء أسرة نُسيبة المسلمة، لا أحدُ الرهبان أو الكهنة المسيحيين. ولم يحصل إلاَّ في السنين الثماني والثمانين من سلطة الجيوش الصليبيَّة، إلغاء ممارسة الاحترام هذه. وعندما اجتاح صلاح الدين القدس عام 1191 لصالح المسلمين، وعد الملك قلب الأسد، أن تكون أسرة نُسيبة هي التي تعود كحراسة لكنيسة القيامة فتقوم بإدارة استعمال المفاتيح.

⁸². عن: Jüdische Zeitung, Berlin, Nr. 94/95, 19.

ووفقاً لهذا الاقتناع المتسامح للنبي وأصحابه، كان خليفته الأول أبو بكر قد وجّه إلى المقاتلين المسلمين أمره باحترام الرهبان المسيحيين والشعوب غير المسلمة:

لا تطردوا المتوحّدين. ولا تُلحِقوا ضرراً بالرهبان، لأنّهم يمارسون خدمة الله. سالموا الشعوب التي تستقبلكم، وحافظوا على عهودكم. لهم أن يعيشوا وفقاً لقوانينهم وعاداتهم الخاصّة. ولكن عليهم أن يؤدّوا الجزية، ويتمّ الاتفاق عليها. دعوهم يعيشون وفق دينهم وفي أرضهم.⁸³

كان المرّدة نصارى يعيشون بقرب أنطاكية. في عام 639 عقدوا مع المسلمين معاهدة تضمن لهم إنّ هم ساندوهم أماناً وقراراً شخصياً. ففي معاهدة دبيل يوعد المسيحيون واليهود والزرادشتيون بالأمان لألاكهم وكنائسهم ومعابدهم. وفي عام 641 ضمن الفاتحون المسلمون لسكان القاهرة الأمان لشخصهم وممتلكاتهم وكنائسهم.⁸⁴

إنّ رئيس الأساقفة النسطوري إيشوعيهب الثالث (توفي 658) كتب إلى أحد الأساقفة: هؤلاء العرب الذين وهبهم الله السلطة في أيّامنا صاروا أسيادنا. ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحي، وهم إلى ذلك يحمون إيماننا ويحترمون كهنتنا وقدّيسينا، وحتى إنّهم يقدمون الهدايا لكنائسنا وأديرتنا.⁸⁵

تمتّع اليهود والمسيحيون بالسماحة، ولو كان من الصعب إقناع الجنود والأشراف به في ذلك الوقت، كما تبيّنه جيّداً تعليمات القيادة المختلفة. فالنبي واثنان من الخلفاء الأوائل حمّوا في المقاطعات التي فتحت حديثاً اليهوديّة والمسيحيّة من الاضطهاد. فأصحاب الإيمان المختلف تمّ ضمّهم إلى جهاز الدولة. إنّ سورة التوبة 9: 29 تقرّر بوضوح أنّه بدفع الجزية وأداء الطاعة تجاه الإسلام يكون القتال قد انتهى: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ قَبْلَ أَنْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (29)".

إنّ الجزية من أهل الكتاب بصفتهم ذمّيين كانت تُقابل حمايتهم من جهة سلطات الدولة. مطابقة للعادة المنتشرة في ذلك الوقت في الجزيرة العربيّة وخارجها في معاهدات حماية لقبائل غريبة وتديراً موافقاً للعادات المرعيّة. مقابل ذلك تُفرض دائماً حماية الأقليات، حتى ضدّ

⁸³ . راجع:

Adel Theodor Khoury, Christen unterm Halbmond, Herder, Freiburg 1994, 76.

⁸⁴ . راجع:

Adel Theodor Khoury, Toleranz im Islam, 2. Auflage, Altenberge 1986, 78-80.

⁸⁵ . راجع:

Adel Theodor Khoury, Christen unterm Halbmond, Freiburg 1994, 109-110

قَوَاتٍ أجنبيّة. هذا حسب المبدأ القائل: أعطيك لتُعطيني. عندما لم يتمكّن الخليفة الثاني عُمر من حماية قبيلة عربيّة مسيحيّة ضدّ هجمات البيزنطيين ردّها لها الجزية⁸⁶.

كان أهل الذمّة أقلّيّة تحظى بحماية السلطة الإسلاميّة. منهم أهل الكتاب اليهود والمسيحيّون، وكذلك الصابئة والزرادشتيّون. وعندما توسّع الإسلام إلى الهند في القرن الثامن ضمّ حكام المسلمين هناك الهندوسيين والبوذيين إلى هذه الفئة.

كان أصل نظام الذمّة في المعاهدات الأولى للنبيّ مع المسيحيّين واليهود طالما كان على قيد الحياة، كان هذا تبادلاً بين ضمانة التسامح والحرية الدينيّة مقابل الجزية. كان ذلك، كما قلنا، موافقاً للعادات المرعيّة عند البدو، وأُرسيت قواعده في القرآن في سورة التوبة 9: 29.

ولكن الذميين تحوّلوا على مدى القرون الثلاثة عشر بالمقابلة مع المسلمين إلى مواطنين من الطبقة الثانية وأُخضعوا لهضم الحقوق في بعض قطاعات الحياة المدنيّة. لماذا؟ هضم حقوقهم لا يرد ذكره في القرآن. وسببه لم يكن دينياً، بل من باب سياسة التسلّط، وكان يسري بموجات كانت أقسى أحياناً وتخلّلتها أحياناً أخرى سماحة كبيرة.

أمّا ما يخصّ اليهود فكانت أوضاعهم تحت الحكم الإسلاميّ لقرون عدّة أفضل من أوضاعهم في الغرب المسيحيّ، حيث كانوا يُضطّرون كعلامة انتسابهم أن يلبسوا قُبّعات يهوديّة ويتحمّلوا الكثير من هضم الحقوق، ذلك فضلاً عن الجزية المألوفة تؤدّي لأمرأء المناطق الروحيّين والمدنيّين معاً. فلم يأت خبرٌ عن مشاحنات واضطهاد في البلدان الإسلاميّة، كما حدث في تجمّع كتائب الصليبيين في شبابير وفورمس عند نهر الرين، وذلك خرقاً لمعاهدات الحماية.

إنّ النبيّ محمّداً وضعهم تحت حمايته الشخصيّة: "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته - فأنا حجيجه يوم القيامة" (أبو داود). - وأيضاً: من ظلم ذمياً فكأنّه فعل بي ذلك. وقد عفا بعض القبائل المسيحيّة الصديقة من دفع الجزية، أو أرسل إليها هدايا.

عندما أرادت بعض القبائل العربيّة المسيحيّة أن تؤدّي الزكاة (وهي ما يؤدّيه المسلمون) بدل الجزية، وافق الخليفة عُمر على ذلك. وفي أحد الأيام صادف رجلاً طاعناً في السنّ أعمى وهو يستعطي. فسأله عُمر: مَنْ أنت؟ أجاب المتسوّل: أنا يهودي. كنتُ أستعطي ما يكفي لتأدية الجزية وسدّ الحاجة الضروريّة والغذاء. عند ذلك أخذه عُمر بيده ومضى به إلى منزله. فأعطاه شيئاً وأرسل إلى الخازن الأمر التالي: انظر إلى هذا الرجل وأمثاله. والله لسنا نعاملهم

⁸⁶. راجع مثلاً:

بالعدل. فبعد أن قضى شبابه نُخِضَعه في شيخوخته الضعيفة للهوان. - بذلك عفا عُمر هذا الشيخ من الإهانة⁸⁷.

يروى يوحنا غُرسة، الذي كان عامل القيصر الألماني أوتو الأول في بلاط الخليفة في قرطبة (إسبانيا) حوالي عام 950، "أنهم (أي المسلمين في إسبانيا) لا يمنعوننا من تطبيق قوانيننا الخاصة. والذين يعلمون عنهم أنهم أتباع غيورون للدين المسيحي، فهم يكرمونهم ويعترفون بهم وتسرهم معاشرتهم.

في بعض الأماكن شارك مسلمون بشكل منتظم في العادات الدينية عند اليهود والمسيحيين. في معابد النبيين حزقيال ودانيال كان هناك في القرن الثاني عشر اشتراك في مظاهر التكريم. وكان يهود ومسيحيون ومسلمون يلتقون عند قبور الآباء الأقدمين في مدينة الخليل. وفي مصر من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر كان حسب الأخبار التاريخية أشرف المسلمين يشتركون في احتفالات المسيحيين الدينية بمناسبة عيد عماد المسيح. وهناك كان الكهنة في أحد الشعانين يخرجون برموزهم الدينية وبخور أمام مساكن القضاة وسواهم من الأشراف المسلمين ويتلون نصوصاً من الأناجيل.

لبثت معاهدات الحماية سارية المفعول على مدى واسع حتى انهيار المملكة العثمانية عام 1923، ذلك مدة تزيد على ألف عام. فهذه المملكة الكبيرة الجديدة جمعت من عام 1299 إلى عام 1923 أدياناً مختلفة تحت سيادتها في إسطنبول، منها السنّيون والشيحيون والدروز والعلويون والمسيحيون الأرثوذكس والكاثوليك واليهود. عندما فتح العثمانيون القسطنطينية عام 1453 حياّ كثيرون من المسيحيين الروم الأرثوذكسيين هؤلاء السلاطين الجدد. ذلك كان فرسان الحملة الصليبية الرابعة المسيحيون وجنود البندقية قد هاجموا المدينة قبل مئتي سنة وسرقوها وقتلوا الأمبراطور الأسير ألكسيوس الخامس وعددًا كبيراً من السكّان. ذلك "باسم الله"، كما كان شعارهم الفاسد.

وانقضّ الفرسان على الكاتدرائية البيزنطية، المسماة آغيا صوفيا (أي الحكمة الإلهية)، فقطّعوا المذبح وقبعوا الحجارة الكريمة من مكان الزينة، ورَمَوْا بالثريات وهدموا أقدس كنيسة عند المسيحيين الشرقيين. وسلب المهاجمون كنوز المسيحيين الشرقيين الثمينة. ولم يعيروا انتباهاً لحظر الهجوم من قبل البابا، ولم يُظهروا أي احترام لإخوانهم المسيحيين

⁸⁷ .راجع:

Adel Theodor Khoury, Toleranz in Islam, 2. Auflage, Altenberge 1986, 92.

الأرثوذكسيين. فكانت رغبتهم تدور فقط حول السلطة والغنى. كفاح مريم يقوم به مسيحيون ضد مسيحيين شرقي البحر المتوسط. كان الأباطرة البيزنطيون ومشيدو وحرّاس أكبر كاتدرائية في المسيحية على مدى القرون يعتبرون أنفسهم خلفاء المسيح وأدرجوا رسومهم مع نسائهم في لوحات الفسيفساء محاطين بهالة التقديس - وذلك على علو إيقونات العذراء مريم ويسوع المسيح. لم تكن القناعة من أخلاقهم، وكان تسلطهم المتعجرف في بلاد الغربية يُبعد عنهم محبة الشعب ويعرض المملكة إلى التهشم. وكانت البندقية تنافسهم في حقل التجارة وترمي فوق ذلك إلى الحد من هذا الخصم القوي، وانضمت إلى حملة الصليبيين. بعد عملية النهب باتت القسطنطينية مجرد حلة فارغة. وغدت المملكة البيزنطية التي كانت غنية قبلاً مُخلّعة: غنيمة سهلة المنال للفاتحين المسلمين بعد قرنين.

عندما دخل الفاتح محمد الثاني عام 1453 إلى الكنيسة تصرّف باحترام أشد من موقف الأشراف المسيحيين من قبله. فأمر أن لا يلحق ضرر بأحد ووعد البطريك المسيحي بالحرية الدينية. ولبثت الفسيفساء الذهبية التي جاءت صورة للعذراء مريم وابنها يسوع عالقة في نصف الدائرة فوق المذبح. أما عندما حوّلت الكنيسة إلى جامع فطُليت الإيقونات والصلبان. وتمّ تحويل بنائها إلى أكبر جامع وإلى رمز المملكة العثمانية.

هناك بقرب الكنيسة يقوم القصر توبكاي الذي حكم قرونًا عدّة مملكة عالمية. في 28 أيار (مايو) 1463 أصدر فاتح سلطان محمد خان مرسومًا في السماح لصالح غير المسلمين في البوسنة والهرسك وفقًا لتراث النبي والخلفاء الأوائل: لا يجوز لأحد أن يعدّب أو يُقلق الفرنجة في البوسنة. ولا أن يتعدّى على كنائسهم. فلهم أن يعيشوا بسلام في مملكتي. يمكنهم أن يعودوا بدون خوف وإلى جميع بلدان السلطنة وأن يبنوا أيضًا أديارهم. ولا يجوز للأمرء ولا لأحد من سگان السلطنة أن يشتموهم أو يقلقوهم. لا يجوز لأحد أن يهاجمهم أو يستولي على أملاكهم أو أملاك الكنيسة. أُقسِم على هذا باسم الخالق وباسم النبي. لا يجوز لأحد أن يخالف هذا ما داموا يخضعون لأوامري بأمانة⁸⁸.

بمرور القرون بات المسيحيون الشرقيون تزداد غربتهم أكثر فأكثر في بلدتهم الخاص، وباتوا يشعرون بأنفسهم مواطنين من الطبقة الثانية، تتقلص هويتهم درجة درجة على أثر

⁸⁸. إن نص هذا الأذان، الذي هو من أقدم التصريحات حول حقوق الإنسان في تاريخ البشرية، محفوظ في كنيسة الفرنسيسكان الكاثوليكية في مونيكا، في البوسنة والهرسك.

مضايقات سياسية. ثم إن قسمهم من السكّان تضاعل على ممرّ هذه المدّة الطويلة. واعتنق كثيرون منهم الإسلام أو هاجروا بلدهم.

ذلك التطور الإيجابي في العلاقات وفي الحوار حول الأديان الذي أطلقه النبيّ محمّد، لم يحصل، بل غرق على مر ثلاثة عشر قرناً في رمال الشرق. وواحات التعايش الرضيّ الذي نوّه به النبيّ تقلّصت شيئاً فشيئاً.

إنّ المسيحيّين هم اليوم في العالم الإسلاميّ أقلّيّة معرّضة للخطر. فمستقبلهم في سوريا ولبنان غير واضح. والأقباط في مصر وهم عشرة بالمئة من مجموع السكّان يعانون الخناق من قبل مسلمين متشدّدين. أكثر من مئة من كنائسهم هُدمت في آب (أغسطس) عام 2013 على يد الرعاع. وأكثر الدساتير الجديدة لم تتبنّ عبارات السماحة التي وضعها النبيّ وتقتصر على اتّخاذ أسس الشريعة الإسلاميّة دون اعتبار صريح واضح للحرية الدينية.

إحدى النقاط الحساسة تتعلّق بضيقّة المسيحيّين في العراق. فمنذ الحرب ضدّ صدام حسين والحرب الأهلية في البلد عام 2003، غادر نصف مليون منهم وطن آبائهم. زرت عام 2007 في أنكاوا أكبر جماعة مسيحية في العراق شرقيّ مدينة إربل في كردستان العراق، وهي جنة للمسيحيّين في جحيم العراق. لا يزال خمسمائة ألف مسيحيّ يعيشون حالياً في كردستان العراق المستقلّ بين أربعة ملايين مسلم، أي أكثر بقليل من واحد بالمئة من مجموع السكّان.

هناك تنتصب عند الشارع الرئيسيّ كنيسة كبيرة جميلة. ولكن للأسف يجب أن تُصان ضدّ هجمات الإرهابيين، وكذلك أمر حديقة الأطفال. توجد في هذه المدينة مع 20 ألف ساكن كنستان إضافيّتان. والمسيحيّون هنا هم الأكثرية مع 97 بالمئة من السكّان. المختار ورئيس الحزب الكرديّ الديمقراطيّ هما مسيحيان عراقيان. وفي قاعة الجلسات هناك صليب معلّق على أحد الجدران.

منذ أكثر من 1300 سنة كان المسيحيّون في العراق يعيشون بسلام مع المسلمين. والآن يهدّد المتطرّفون أساس الاحترام المتبادل هذا. إنّ الأسقف المساعد الكلدانيّ الكاثوليكيّ روفائيل بنيمان يمدح التعايش اليوميّ الجيّد بين المسيحيّين والمسلمين، والاحترام المتبادل الذي مارسوه طيلة قرون، والإيمان المشترك بالله الواحد. إلى ذلك تدعم حكومة المنطقة الكرديّة الحرية الدينية وحماية الأقلّيّة المسيحية.

إنّ مسيحيّ العراق، وهم جزء من مملكة بابل القويّة، نزحوا قبل ألفي عام إلى هذا البلد. هم من المسيحيّين القدامى. والكاثوليك من بينهم ينتسبون إلى جماعة الكلدان المستقلّة. في

الحادي عشر من كانون الأوّل (ديسمبر) عام 2005 زار مجمع أساقفة العراق برئاسة بطيريك بابل الكاثوليكيّ عمانوئيل الثالث دليّ البابا بندكتس السادس عشر في روما.

إنّ مختار أنكاوا فهمي سولوكا يؤكّد وجود تراث المسيحيّين الطويل في العراق منذ ألفي عام، والتعايش الأخويّ مع المسلمين منذ 1400 سنة. هربت ألفا عائلة مسيحيّة من بغداد والموصل إلى أنكاوا. وخمسة آلاف عائلة أخرى استوطنت مناطق أخرى في كردستان العراق. رئيس الحزب الديمقراطيّ الكرديّ في أنكاوا، هنا شابو باتروس روى لي أنّ هناك أخباراً كثيرة جميلة عن التعاون بين المسلمين والمسيحيّين والأكراد. وخصوصاً في حربهم جميعاً كأكراد ضدّ الدكتاتور صدام حسين.

يُخبر وزير الداخليّة في حكومة المقاطعة المستقلّة، عبد الكريم سلطان سنجاري أنّ المسيحيّين لهم أيضاً مدارسهم الخاصّة التي يدرّسون فيها باللغة السريانيّة. وهو يقول: نحن نحبّ بعضنا بعضاً ونقوم بأفضل جهد لدينا في سبيل تعاون جيّد. فكردستان العراق برهان على أنّ السلام بين المسيحيّين والمسلمين ممكن، حتّى في العراق الممزّق. ولكن يجب الاعتناء بالسلام بالفعل من قبل السياسة وأيضاً من قبل الجماعة الدينيّة، كما يُعتنى بحديقة. ويجب وضع حدٍّ واضح لقوى البغض والعنف. عند ذلك يسود سلام حقيقيّ ولا يقوم كفاح بين الثقافات والأديان.

إنّ هذا السلام الجيّد العميق ليس هو إذن وضع قديم صامد، بل يحتاج إلى الانتباه للجدور المشتركة في الإيمان بالله ولأقراص التسامح الذهبية.

يسود اليوم في العراق نزاع بين أهل السنّة والأكثرية الشيعيّة. فإنّه في أيّام الدكتاتور صدام حسين كانت الأقلّيّة السنيّة تكبت الأكثرية الشيعيّة. واليوم هناك قوّة متكبّرة من جهة الشيعة في بغداد، تطالب لنفسها وحدها بالسلطة كلّها ومليارات الغنى من عائدات البترول. فمن لديه السلطة يريد أن يكسب كلّ شيء لنفسه، فلا ينشأ تعادل نصح بين فئات الشعب. فبدل أن يُقام أوسع استقلال في المنطقة للأكراد والسنّة والشيعة وتُبنى دولة فدراليّة، دَحَرَ الأميركيّون منذ عام 2003 الجماعات الثلاث الواسعة الاختلاف في دولة موحّدة لا يحبّها مُعظم السكّان. هذا كان الخطأ الجازم. لا جرم أنّ هذه الدولة التي ساندها 80 بالمئة من السكّان فدراليّة وأنها تحمي الأقلّيّات. ولكن السلطة المركزيّة لا تزال بالغة القوّة وقدرة التصرف بعائدات النفط التي يجب مبدئيّاً تقسيمها وفقاً لحجم جماعات السكّان، لا تزال واسعة. فعلاً تحول السلطة المركزيّة دون تطوّر المناطق وتُبعد أيضاً سياسيّين سنيّين وأكراد من المناصب المركزيّة. فالأساس بُني بسدّاجة

فولّد مزيجًا سريع الانفجار، يتألم منه أيضًا الأكراد والمسيحيون. فالأكراد لم يعودوا ينتظرون صدور قرارات متوانية من بغداد، بل أخذوا أمر مصيرهم بيدهم. ففي كردستان العراق نهضت خلال بضعة أعوام جنة كسويسرا في ضمن عدم الاستقرار. هذه أعجوبة حقيقية، وصفها لي الرئيس مسعود برزاني في قصره بافتخار مُحقّق. فالسياسة الواعية المتجدّرة في المنطقة يمكنها أن تأتي بنتائج كثيرة في الشرق الأدنى. ليس فقط رخاء وسلامًا، بل أيضًا سماحة. إن سياسة واضحة تُعنى بالمصالحة وتوازن المصالح وتطبيق مناهج السماحة، هي وحدها يمكنها أن تصنع السلام في العراق وتتغلّب على الخنادق العميقة وعدم الثقة.

لا يزال بناء الكنائس محظور في المملكة العربيّة السعوديّة. وكذلك حمل الصليبان أو اقتناء نسخ من الكتاب المقدّس. وفي الوقت عينه يساند البلد بكثافة بناء مساجد تابعة للوهابيّة في العالم المسيحيّ، ويمدّ بالمال السلفيّين المتشدّدين في مصر.

في 14 آذار (مارس) 2012 طالب مفتي البلد الكبير الشيخ عبد العزيز آل الشيخ في فتوى، أنّه من الضروري هدم جميع الكنائس في الجزيرة العربيّة. ولا يجوز إلى ذلك أن تُبنى فيها كنائس جديدة، كما كان يخطّط له سلطان البحرين.

كان دليله الوحيد أنّ النبيّ على فراش موته عبّر عن رغبته في أن لا يكون في الجزيرة العربيّة إلاّ دينٌ واحد. ووفقًا لهذه الأحاديث طالب بأنّه يجب أن لا يكون في جزيرة العرب سوى الإسلام.⁸⁹

لا جرم أنّ رأي ممثّل مهمّ للمسلمين لا يكون مُلزِمًا للجميع، إذ إنّ هناك خمسة مذاهب فقهية معتبرة في الإسلام. ولكن تتبيّن هنا ضرورة قيام حوار منفتح عريض حول نُظُم التسامح الذهبيّة في الإسلام، وحول حياة النبي وأمثاله السابقين. فالتمسك ببعض الأحاديث يحتاج إلى تحليل قادر على التمييز وأبعد عمقًا.

إنّ مثل هذا التصلّب الحديث والقساوة من قبل عالم سعوديّ رفيع المقام يبعث على التعجّب، إذ إنّ العاهل السعوديّ، خادم الحرمين مكّة والمدينة، زار عام 2007 البابا في روما، ونظّم عددًا من ندوات الحوار بين الأديان في بلده وفي إسبانيا، وأسّس مركزًا جديدًا ممتازًا للقاء

⁸⁹ حديث عن عمّار بن الخطّاب: لأُخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلاّ مسلمًا (أبو داود). راجع الأحاديث المعروفة في:

Adel Theodor Khoury, Toleranz im Islam, 2. Auflage, Altenberge 1986, 87; Adel Theodor Khoury, Christen unterm Halbmond, Freiburg 1994, 74.

الأديان في فيينا / النمسا عام 2012، فيه يبحث مسلمون ومسيحيون ويهود في الأمور المشتركة. فالملك عبد الله لا يرمي إلى التصادم مع المسيحية، بل إلى الأمور المشتركة وإلى الحوار الجيد وفقاً لمثال النبي محمد.

فالسؤال هو: كيف ينبغي تفسير الأحاديث؟ أم هي وحدها ملزمة؟ أم قواعد الرحمة في القرآن؟ وما علاقتها بالأحاديث الأخرى التي تنوّه بالتعايش الصالح بين المسلمين والمسيحيين؟ وما قيمة المعاهدات المتسامحة مع اليهود والمسيحيين في مطلع الإسلام، وما قيمة التسامح المتبع في بغداد؟

كل حديث يجب أن يفسر في مجمل جميع الأحاديث وتراث النبي، وقبل كل شيء وفقاً لقواعد القرآن. فليست الجمل المفردة، بل الصورة الكاملة هي التي تعبر عن الإسلام الحقيقي.

وقد سبق علماء عهد الإسلام الأوّل وقدموا في الموضوع ملاحظات مختلفة: كيف ينبغي أن تفسر هذه الأحاديث المذكورة، وما الأماكن والشروط المعينة هنا؟ في هذا كله تذهب آراء أتباع النبي في جهات مختلفة. فمنهم من قال إن المعني هما مكة والمدينة، أو هم غير المسلمين الذين لم يُعقد معهم عهد حماية أو الذين نقضوا عهد حمايتهم⁹⁰.

ثم إنّه من المفروض أنّ مرتبة جميع الأحاديث تقع تحت قواعد القرآن الذهبية، ولا يحقّ لها أن تخالفها. وعندني أنّه من باب قلة احترام للنبي محمد أن يُنسب إليه أنّه قد بدّل رأيه على عكسه في قضية التسامح الديني المهمة قبيل وفاته. هذا لا يتفق وثباته وحكمته. فأن يكون النبي في آخر حياته قد نسخ اثنتي عشرة آية من القرآن حول السماحة بجملة واحدة، هذا غير وارد. فالنبي محمد لا يبدّل رأيه من شهر إلى آخر. فتصرّفه المتسامح مدّة حياته موثوق به ودليل على وجوب احترامه.

هذه القاعدة لا يحقّ لمسلم مؤمن أن يتخطأها ويتجاهل بسهولة سور القرآن بتعبيرها المختلف. والحديث لا يمكنه أن يبدّل آيات القرآن الملزمة أو يقلبها إلى ضدها. هناك اثنتا عشرة سورة في القرآن وعدد من الأحاديث تبين علاقات النبي الدينية المسالمة مع المسيحيين في الحبشة ونجران. والنبي نفسه ومن بعده الخليفة أبو بكر والخليفة عمر عقدوا أربع عشرة معاهدة تسامح مع اليهود والمسيحيين فيها ضمانات للحريّة الدينية وحماية الكنائس حماية دائمة حتّى يوم الدين - كما سنرى في فصل لاحق.

⁹⁰ راجع ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، المجلد الأوّل، الطبعة الثانية، بيروت / لبنان 1983، ص 176 وما يتبع.

ثم إن موقف المفتي الكبير لا يستطيع أن يُقنع بالدليل. لا شك أن كل مؤسس دين يود أن يتغلب دينه على الأديان الأخرى. ولكن الأمر القاطع هو السؤال عن الطريقة: بالعنف والسيف أم فقط بالأقوال الطيبة؟

ثم كيف يتفق هذا الموقف مع تصرف الملك عبد الله الحكيم ومع مطلبه في ممارسة الحوار مع روما؟

وأخيراً كيف يتفق إعلان الكفاح هذا ضد الكنائس المسيحية والإنذار المتواصل السائد في القرآن الداعي إلى الرحمة في مطلع جميع السور (ما عدا سورة التوبة 9)، وفي عدد كبير من السور، تلك الدعوة التي تعلقو على جميع الأقوال الأخرى وتثبت وصية الاحترام وسماحة الله؟ أليس القرآن يحمي بوضوح الكنائس المسيحية إلى جانب المساجد كأماكن لتكريم

الله؟ سورة الحج 22: 40: "وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" (40).

قام محمد غُرمز، كبير أئمة تركيا ومدير قسم الشؤون الدينية في الحكومة التركية، بانتقاد مبرر لمطلب المفتي السعودي، لأنه يناقض معاهدات النبي مع الجماعات غير الإسلامية في المدينة وجوارها، وتعاليم السماحة القائمة منذ قرون وحماية الأماكن المقدسة على ذمة المسلمين⁹¹.

هذا الجدل يبين الانقسام بين فئات العلماء المسلمين المختلفة، وعدم الوضوح وموافقة الحقيقة. ولأنه ليست هناك سلطة ملزمة لكل الإسلام، يستطيع كل إمام أن يُدلي بفتواه.

كل مؤسس دين جديد يرغب في أن يقنع بدينه غير المؤمنين جميعهم، وفي نهاية هذا التطور أن يصير جميع الناس أتباعه. ولكن هذا لا يعني أنه ينبغي أن يكبت المسيحيون قهراً وأن تُهدم بيوت عبادتهم. فالرغبة في أن لا يكون في الجزيرة العربية إلا دين واحد يطابق إرادة كسب الآخرين، وذلك بالكلام واستباق الخيرات كما يحدّد القرآن الموقف. هذا لا يتضمّن الإكراه في الدين ولا هدم الكنائس. إن النبي لم يهدم كنائس قط، بل وعد المسيحيين بحماية معابدهم وضمنها لهم.

وفي كثير من الأحيان يحاول المغالون بالبروز وفقاً للمبدإ القائل: ما كان أشدّ تطرفاً، كان أكثر مطابقة للإيمان. هذا من ميول الإنسان. وهنا يمارس تركيز مدعاة للتحفظ، تركيز

⁹¹. Today's Zaman, Ankara / Türkiye, 5 April 2012.

للإسلام على بعض الأحاديث والآيات القليلة. هذا يمكن أن يشوّه تشويهاً خطراً الصورة الكاملة، وأن ينتج الشك في كلمات الله ويقلبها إلى خلافها. هذه الطريقة الضيقة السليبة في التفسير تقطع أنفاس الإسلام، وتسلب القرآن مصداقيته. فإنّ المبدأ هو أنّ القرآن له الأوليّة في القرار، وبعد ذلك يأتي الحديث. السُّور لها الأسبقية. فتحليل شامل هو وحده يناسب قدسيّة الكتاب وحياة النبيّ محمّد المثاليّة. فمن ينتقي حديثاً أو بعض الآيات القليلة ويعيرها قيمة مطلقة دون قرائنها، فهذا يُفسد إرادة الله. ولا أحد يحقّ له أن يتجاهل مجموعة تعاليم سُور السّماحة والتاريخ الإيجابي في حياة النبيّ، وينتقي لنفسه مقاطع هجومية قليلة. توجد اليوم في المملكة العربيّة السعوديّة فئات قويّة بقيادة الملك تنزع عن هذه السُّبل القديمة الحكميّة أشواك عدم الثقة، وتسلك على خطى أجلّ رجل ومثال في الجزيرة العربيّة.

في الغرب لم يلتفت أحد من السياسيّين المسؤولين إلى هذا المطلب المستغرب الذي صدر في العربيّة السعوديّة. فهذا الإضراب عن ردّ الفعل وعدم الشجاعة لإطلاق جدال واضح يُضعفان جميع القدرات في العربيّة السعوديّة وفي العالم العربيّ، التي تدعو إلى قيام إسلام صحيح متسامح. إنّ ضعف الغرب المدهش هو الذي يشجّع المتشدّدين من جراء عدم اكتراثه.

توجد في العربيّة السعوديّة من بين العلماء شخصيات تساند تحت وصاية الملك الحوار بين الأديان. فإنّ المتشدّدين - من أمثال أسامة بن لادن والقاعدة التابعة له - هم أولاً تهديد للغرب، ثمّ للعاهل السعوديّ، ثمّ لجميع أتباع الشيعة، وبعد ذلك لمواطنيهم السنّيين، فيمزقون بذلك العالم الإسلاميّ.

لذلك فإنّي أوجه النداء إلى العاهل عبد الله خادم الحَرَمين مكّة والمدينة أن يحمي النبيّ والقرآن الكريم وشرائع السّماحة الإسلاميّة من مساءة مهيجين متشدّدين. فالأكثريّة الصامتة في البلدان الإسلاميّة لا يحقّ لها أن تتخلّى عن المحافظة الأمانة للكتاب الكريم لصالح المتشدّدين القلائل.

ولكن كيف يمكننا في العالم الإسلاميّ والمسيحيّ أن نعيد إنعاش التعايش السلميّ القديم بين المسيحيّين واليهود والمسلمين؟

إنّ البابا بندكتس السادس عشر في احتفاله بالقدّاس في بيروت في 16 أيلول (سبتمبر) عام 2012 قال منذراً: "في عالم يترك فيه العنف أثراً مفجعاً من الموت والدمار، تكون خدمة العلوم والسلام ضرورة ماسّة لبناء مجتمع أخويّ. إنّي أصليّ إلى الربّ أن يهب هذه المنطقة من الشرق الأدنى دعاة يخدمون السلام والمصالحة، بحيث يستطيع جميع البشر أن يعيشوا بسلام وكرامة. إنّي أناشد الجميع أن يصيروا فاعلي سلام".

وفي صلاة السلام الملائكيّ صَلَّى البابا: "عسى الله أن ينعم على الشرق الأدنى بهديّة قلوب مليئة بالسلام، وعسى أن يفهم الناس أنهم جميعهم إخوة. السلام هو في سبيل تعايش متناغم بين إخوة ضروريّ، بغضّ النظر عن الأصل والقناعات الدينيّة".

وفي الإرشاد الرسوليّ الذي سلّمه في بيروت: "الكنيسة في الشرق الأوسط" يعبر عن ألمه قائلاً: "اليهود والمسيحيّون والمسلمون يؤمنون بإله واحد، خالق البشر جميعهم. فعسى أن يعودوا ويكتشفوا رغبة الله في الوحدة والتناغم في العائلة البشريّة. عسى أن يعتبر اليهود والمسيحيّون والمسلمون أتباع الإيمان المختلف إخوة وأخوات يستحقّون الاحترام والمحبة، وأن يؤدّوا في بلدهم شهادة جميلة للصفاء والمشاركة بمودة بين أولاد إبراهيم. فالاعتراف بإله واحد، إذا تمّ عيشه بقلب طاهر، يمكنه أن يكون دافعاً قوياً للسلام في المنطقة وللتعايش" (حاضرة الفاتيكان 2012، رقم 19، ص 15).

ويربط البابا دعوته بتراث السماحة العريق منذ قرون في الإسلام، بالعهد الذهبيّ في دمشق، والازدهار في الأندلس أو انتشار القرآن في الهند. فبعد فتح الهند في القرن الثامن ساد هناك تسامح عريض مع الهندوسيين والبوذيين وتراثهم الطويل.

وإنّ ملك المغول المتميّز أكبر دعم في عهد سيادته التي دامت خمسين سنة التعايش السلميّ الصالح. فأسس في عام 1575 مركزاً مشتركاً للأديان (فاتح بور سكري). هناك صادف علماء مسلمون يسوعيين من غووا (في الهند)، وزرادشتيين وهندوسيين، وتداولوا بصراحة وصداقة حول أديانهم وأمورهم المشتركة ومواضع الاختلاف⁹². فصارت الهند مثلاً في السماحة الدينيّة. فكانت الجماعة اليهوديّة الصغيرة المقيمة هناك إحدى الجماعات القليلة التي على مدى أكثر من ألف سنة لم تضطرّ أن تكابد الاضطهاد. فبالنسبة إلى اليهود كان جميعهم في الهند متسامحين: المسلمون والمسيحيّون والهندوسيون والبوذيّون.

5. التعليم حول الجهاد واستخدام العنف

ليس هناك لفظاً ساد في المجادلة العالميّة حول الإسلام مثل لفظ الجهاد. في الاستعمال اللغويّ العامّ وفي وسائل الإعلام يترجم لفظ الجهاد بالحرب المقدّسة، ويوصف بأنه مؤسّسة إسلاميّة تعني عدم التسامح تجاه الآخرين والعنف والإكراه في الدين بالسيف وباسم الله.

⁹² . راجع: Reza Shah – Kazemi, p. 33

وفقاً لهذا زعم أسامة بن لادن في 24 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2002، "أنَّ الإسلام دين الجهاد في سبيل الله، لتعلو كلمته ودينه".

ولكن ماذا يعني النبيّ والقرآن بكلمة جهاد بالحقيقة؟

هي تعني قبل كل شيء بشكل حياديّ جدًّا - لا بمعنى القتال والتهجّم - فقط الاجتهاد والاهتمام. فمجاهدة النفس الدنيئة والأنا الشخصية توصف في المراجع الإسلاميّة بأنّها "الجهاد الأكبر". فيقوم بالجهاد من يطبّق كلام الله باجتهاد وتضحية في الواقع، وذلك بوسائل روحية، أي بدون سلاح وعنّف. وأيضًا لا يقتصر على سورة واحدة من القرآن، بل يعيشها جميعها وجملة تعليم النبيّ محمّد، وخصوصًا رحمة الله، بجهد باطن وتطبيق خارجيّ ويسعى في اكتساب الكمال. أي مسلم رقيق رحوم يقدّم للغريب ماءً وثمارًا، قد يكون هو في الجهاد. أمّا الإرهابيّ المدجج بالسلاح المليء بغضًا فيكون بعيدًا عن الجهاد. فالأمر يدور إذن فقط حول الاستعداد الباطن وصفة المسلم المؤمن الحيّة. فمن يخالف بعنف قواعد القرآن هذه ويقا تل بلا رحمة، لا يقوم بالجهاد. فإنّ عمله عند ذلك غير مبرّر، ولا يدخل الجنّة.

إنّ النبيّ أنذر أتباعه: نعود من الجهاد الأصغر (القتال) إلى الجهاد الأكبر. ذلك هو إصلاح مجتمع أنانيّ ميّال إلى العنف وعودة إلى مجتمع متناغم، مجتمع يسود فيه الحلم.

تشير كارين أرمسترونغ إلى أنّ النبيّ لم يُرد أن يشيّد دينه الجديد وثقافته على أساس واحد قائم على العنف والسيّف، بل على الإسلام، أي السلام والمصالحة⁹³.

عن أبي الدرداء، عن النبيّ قال: ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البين (أبو داود، الترمذي).

وعن النبيّ أنّه قال: كونوا مواظبين على الأعمال الصالحة.

السبب الوحيد للجهاد هو إقامة نظام سلميّ عادل، نظام الحلم، بدون حرب وعنّف تجاه الآخرين.

بخلاف سوء الاستعمال من جهة الإرهابيين وسوء الفهم في وسائل الإعلام لا يعني الجهاد في المرتبة الأولى فقط قواعد الحرب، بل هو موقف نفسيّ صالح تجاه الله والبشر. فقد يكون صانع السلام الرقيق ممارسًا للجهاد الأكبر، والإرهابيّ المدجج بالسلاح قائمًا خارج قواعد الجهاد.

⁹³ Karen Armstrong, Muhammad Prophet of Our Time, p. 214.

والقرآن إلى ذلك ينظم استعمال العنف المسموح به في الظروف الاستثنائية بطريقة مفصلة داعية إلى التراجع. فالقواعد الإسلامية هي خلاف مقولات المتطرفين الهجومية. ففي جميع النزاعات يكون في الإسلام للسلام دائماً الأفضلية وفقاً لقواعد القرآن والحديث.

فقد كان النبي محمد يرفض بعزم ومراراً عديدة النزاعات المتواصلة بين القبائل العربية المتخاصمة. وكان هدفه إقامة جماعة الحلم والتناغم. فصار داعية السلام. فمن يسير على منواله عليه هو أيضاً أن يصنع السلام بين الأعداء. فالتحية الإسلامية، "السلام عليكم" هي عبارة عن الانتساب إلى دين سلام.

فالمسلم المؤمن لا يجوز له أن يبدأ بالهجوم. وفي حالة الدفاع عن النفس عليه أن يتجنب أي تعدد. فهو يقع تحت مبدأ تناسب القضية. هذا ما تفرّده بوضوح سورة البقرة 2: 190: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) ". - ومثل هذا في سورة الحج 22: 39: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا... - وهناك نقطة مركزية في سورة المائدة 5: 32: "... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (32) ".

وسورة الإسراء 17: 33 تؤيد مبدأ التناسب في أعمال القتال: "وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33)".

جاء في سورة التوبة 9: 36 القول عن مقاتلة المشركين كافة "كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً". وفي 9: 5: "فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ". ولكن ذلك مرتبط بهجوم من قبلهم.

وفي سورة محمد 47: 4: "فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ". ولكن هذا يصف موقع التصادم في قتال.

إن غالبية المتطرفين يبحثون فقط عن الآيات التي تتكلم بقسوة عن الحرب، ويتجاهلون التحفظات في سور أخرى. فلأن القرآن لم يجمع إلا بعد وفاة النبي ولم يرتب حسب الموضوعات، يجب أن تُصمّم جميع الآيات كصورة فسيفساء للحصول على صورة عن قواعد الجهاد. فيتضح في نظرة شاملة أن الآيات القاسية تصف الوضع في الحرب والدفاع، ولا تحتوي على تفويض غير مشروط لمهاجمة أتباع أديان أخرى. ولا يجوز بأي حال أن تُنصب وحدها دون التخفيف الحاصل من الرحمة والآيات الرفيعة.

تحدّد سورة البقرة 2: 194 أنّ الدفاع عليه أن يقابل ثقل الهجوم: "فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ" عندما يتوقّف العدوّ يجب التوقّف فوراً عن استعمال العنف: "فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ" (سورة البقرة 2: 193). - "فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (2: 192). فكلّ عدوان هو إلى ذلك ممنوع وفقاً للآيات 2: 190، وسورة المائدة 5: 2 و8).
 "وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (2: 5).

ووفقاً لسورة النساء 4: 90 وسورة الأنفال 8: 61 يظلّ واجب إحلال السلام قائماً قبل النزاعات وبعدها: "فَإِنْ اعْتَرَفْتُمُوهُمْ فَلَمْ يِقَاتِلُوكُمْ وَاللَّفَّاءُ لَكُمْ فَالْوَقْتُ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا". (4: 90). - "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" (8: 61).

يذكر عادل تيودور خوري أنّ القرآن يأمر بأن يكون السعي إلى السلام له أسبقية واضحة على أعمال القتال⁹⁴. ويشير في ذلك قبل كلّ شيء إلى السور التالية: البقرة 2: 193؛ الأنفال 8: 61؛ النساء 4: 90.

والخيرة في شؤون الإسلام كارين أرمسترونغ تستند هي أيضاً إلى سورة النساء 4: 90، وتزيد سورة المائدة 5: 45: "النَّفْسُ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ". من هنا يكون الدفاع محصوراً بمعاملة المهاجم نفسه. لا آخرين غير مشتركين في الأفعال أو جماعات كاملة. بهذا يرفض القرآن الثأر الدامي ضدّ أعداء القبائل الذي كان سارياً قروناً طويلة. من هنا يتضح أنّ المسلم لا يجوز له من بعد أن يثأر من أعضاء قبيلة آخرين، بل من الفاعل نفسه فقط.

يشير زاهد عزيز إلى أنّ محمّداً لم يسمح لأنصاره أن يقاتلوا إلاّ عندما أرسل الأعداء من مكّة جيشاً لمحاربة المسلمين في المدينة. فوفقاً للقواعد التي جاء ذكرها أعلاه من سورة البقرة 2: 39، لا يكون ذلك إلاّ قتالاً للدفاع عن النفس⁹⁵. فقط عندما خرق المكيّون من طرف واحد معاهدة السلام، دخل المدينة مع جنوده عام 630.

يقدم خالد أبو الفضل، مدرّس في الحقوق الإسلاميّة في الجامعة الأميركيّة / لوس أنجلوس، الدليل التالي: إنّ لفظ "الحرب المقدّسة" لا تُستعمل لا في القرآن ولا عند العلماء المسلمين. الحرب لا يكون أبداً مقدّساً. فإمّا أن يكون مبرّراً أو لا. والقرآن لا يُقرّ كفاً حربياً غير

⁹⁴. راجع:

Adel Theodor Khoury, Mit Muslimen in Frieden leben, Würzburg 2002, 42-43.

⁹⁵. Zahid Aziz, Islam, Peace and Tolerance, p. 9

محدود. فأن يكون المرء مسلمًا، هذا وحده لا يبرّر شيئًا. فبموجب القرآن يمكن أن يكون كفاح مسلمٍ ظالمًا. فالقرآن يفرض عليه بوضوح أن لا يعتدي. هذا يعني المحافظة على مبدأ التناسب، حتّى لو كان الظرف مبررًا⁹⁶.

حدث يومًا أن قُتلت نساء وصبيان في غزوة على قافلة من مكّة على أيدي المسلمين المهاجمين، فنهى النبي صراحة استعمال العنف ضدّهم: عن ابن عمر: وُجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي فنهى عن قتل النساء والصبيان (البخاري، أبو داود). فالإسلام ينهى صراحة عن قتل النساء والأطفال، وبذلك عن التعديّات الانتحاريّة ضدّ مواقع مدنيّة بغضّ النظر عن إيمان السكّان وعن انتمائهم إلى شعب ما. يشير جون كلسي مثل سواه إلى حظر النبي الواضح استعمال العنف ضدّ النساء والأولاد⁹⁷.

فالكتاب الكريم يوجّه المؤمنين بوضوح نحو إحلال السلام والتصالح. ليس السيف، بل حماسة السلام هي الرمز الداخلي للإسلام. السيف جاء بعد ذلك إشارة إلى سلطة الخلفاء في الدولة، فهو من ثمّ رمز خارجي غير ديني.

إنّ الشيوخ الكبار من مصر وعمّان وسوريّا وتركيا وروسيا وسلوفانيا والبوسنة والهرسك وكوسوفو كتبوا عام 2006 رسالة مفتوحة إلى البابا بندكتس السادس عشر حول السؤال: ما هي الحرب المقدّسة؟" أعلنوا أنّ "كلمة الحرب المقدّسة لا ترد في لغة الإسلام. فالجهاد يعني الاهتمام والجهد في سبيل الله. وهذا الجهد يستطيع أن يتخذ أشكالًا كثيرة، منها أيضًا استعمال العنف".

الأئمّة المسلمون الثمانية يذكرون المبادئ الثلاثة التالية التي تسمح باستعمال العنف وبالنزاعات الحربيّة: أولًا: لا يجوز التهجم على المدنيّين وعلى الذين لا يحاربون. فإنّ هذا أكده النبي تكررًا. وهو يطابق التراث. - ثانيًا: لا يجوز أن تصير القناعات الدينيّة هدفًا للهجوم. - ثالثًا: على المسلمين أن يعيشوا بسلام مع جيرانهم. هذا ملزم لجميع المسلمين⁹⁸.

بعد وقوع الهجوم في 11 أيلول (سبتمبر) عام 2001 شجب كثيرون من العلماء الكبار أفعال المجرمين الملتحقين بالقاعدة، وأكثرهم من العربيّة السعوديّة، على أساس النظرة

⁹⁶. راجع:

Khaled Abou El Fadl, The Place of Tolerance in Islam, Mai 2005, in: www.bostonreview.net.

⁹⁷. John Kelsay, Arguing the Just War in Islam, Boston 2007, p. 114

⁹⁸. يمكن الاطلاع على نصّ الرسالة كاملة من عمّان في: www.ammanmessage.com/openletter

الإسلامية. فأمام جامع الأزهر الشهير في القاهرة، الشيخ محمد سيد طنطاوي قال في 14 أيلول عام 2001: مهاجمة أشخاص أبرياء وأطفال ونساء ومدنيين ليس عملاً شجاعاً. فسوف ينالها العقاب في يوم الدين. العمل الشجاع هو حماية الحرية والدفاع عن النفس، لا الهجوم".

كبير المفتين في السعودية عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ أوضح في 15 أيلول 2001 أنه لا يمكنه أن يوافق على أفعال تؤدّي إلى إرهاب أناس أبرياء بشكل آثم وبجريمة كبيرة. وزاد على ذلك في شباط (فبراير) 2004 أن الإسلام دين السلام ونعمة العدل. - والشيخ صالح آل لحيدن، رئيس المحكمة الشرعية العليا في السعودية، قال في 14 أيلول 2001: "علينا أن نقاوم هؤلاء الشياطين الأشقياء الفاجرين مقاومة شديدة. فإن أفعالهم لا يبرّرها شيء في الإسلام". - والشيخ محمد بن عبد الله السبيل، عضو شورى المدرّسين الدينيين في العربية السعودية، عبّر عن رأيه في 4 كانون الأول (ديسمبر) 2001: "كلّ تهجم على أبرياء هو ظلم ويخالف الشريعة. على المسلمين أن يُحاموا عن حياة المسيحيين واليهود وشرفهم وملكهم. فمهاجمتهم تخالف الشرع الإسلامي". - وأشار الشيخ عادل آل قلباني، إمام المسجد الحرام في مكة، في مومباي عام 2008، إلى "أنّ الإسلام دين السلام والرفق. فهو لا يشجّع أيّ إرهاب. الرفق والسلام لا ينبعان من القتل والقنابل. بعض مواطنينا تحوّلوا إلى شياطين".

فمن يتبع بدقّة شروط الدفاع الماثلة إلى التآني ومطالبة القرآن والنبيّ باحترام الأنبياء الآخرين وعيسى وأتباع الدين اليهودي والدين المسيحي، هذا يؤدّي الجهاد الأكبر. أمّا من يقتل فقط فإنّه منعزل عن القوانين الإسلامية.

من هنا يتّضح أنّ العنف لا يحلّ اللجوء إليه إلا إذا سبق الآخرون واستخدموا العنف. ولا يجوز استخدامه إلا ضدّ المهاجم، لا ضدّ غير المشاركين في الأمر. وعليه أن يكون مناسباً للوضع. فالتعدّيات غير جائزة. والنساء والأولاد لا يجوز بأيّ حال أن يُهاجموا.

فهجمات الحادي عشر من أيلول عام 2001، والجرائم المرتكبة ضدّ قطارات في مدريد عام 2004، التي سبّبت مقتل 191 شخصاً، والهجمات الأربع في لندن عام 2005 التي أدّت إلى مقتل 56 شخصاً، والهجمات الكثيرة على سنّين وشيعيين وأقليّات مسيحية في أفريقيا وآسيا، التي أدّت إلى مقتل آلاف الأشخاص، هذه كلّها لا يمكن تبريرها على أساس القرآن وقواعد الشريعة. بالعكس هي آثام. ومن يستند مع ذلك إلى القرآن يشتم الكتاب والمسلمين الذين يعدّون أكثر من مليار شخص مسلمين.

حتى الآن نرى الأكثرية ساكنة عن سوء استعمال الإسلام على يد متطرفين قتلة متعصبين. وكذلك القول في صمت أصحاب السياسة. هذا يجب أن يتغير. على العالم الإسلامي أن ينهض ويعلن الحقيقة بصراحة وشجاعة. هذه فريضة على كل مسلم مؤمن، وعلى السياسيين على رأس البلاد الإسلامية. فإن عدم الانتفاض أيضًا خطيئة ضد القرآن الكريم.

6. فتح مكة: مثال حق للمصالحة وللتفريق بين الدولة والدين

بعد أن نقض المكِّيون معاهدة وقف القتال مع المسلمين، دخل النبي مكة على رأس 10 آلاف مقاتل عام 630، إذ بدا لشيوخ القبائل هناك أن الدفاع لا جدوى فيه. فكان عام 630 العام الذهبي للنبي. فقد انتصر وعاد إلى وطنه.

خشي أمراء قريش الثلاثة الأكثر نفوذًا، عباس وأبو سفيان وبديل. أن يحل بهم أسوأ حطب. ألم يكونوا هم قد عزلوا محمدًا ونفوا المسلمين الأولين من وطنهم. ألم يريدوا أن يقتلوه قبل هجرته بثمانية أعوام؟ ألم تمت امرأته الأولى الحبيبة خديجة بنت خويلد بسبب الضيقات - إذ كان هذا أمر عام في حياته، كما أحس به النبي؟ ألم تُضطرَّ أسر كثيرة من المسلمين أن يهربوا في النفي إلى الحبشة المسيحية؟ ألم يحاول المكِّيون استرجاع هؤلاء بدفع مال إلى النجاشي؟ ألم يهيجوا عليه في المدينة بالمال والمؤامرة بعض القبائل اليهودية؟ ألم يُقتل كثيرون من المسلمين في أشواط القتال ويُجرَح النبي نفسه؟ ألم يهزأ أمراء قريش بمحمد شخصيًا به وبدينه الجديد، ورفضوا مصرين التنكر لأوثانهم؟ فما العمل إذن؟

الثأر، أخذ الثأر هذا ما كان منتظرًا من جهة المغلوبين. فإنها كانت قد جاءت ساعة الحساب على منوال الثأر بالدم وفقًا لعادات القبائل العربية. قطع الرؤوس والسبي والمنفى، هذا ما كان يهدد مصير أعداء محمد.

ماذا فعل النبي؟

كان يمكنه أن يقتل كثيرين أو على الأقل ألد أعدائه، أو أن يزجهم في الحبس أو أن يشردهم في الصحراء. وكان يمكن أن تُباع النساء والأطفال عبيدًا. وأن تُنهَب المدينة الغنية وأن تؤخذ غنيمة أملاك الأعداء الكبيرة. وأن تُحرق منازلهم. كان من الممكن الآن أن يضطرَّ المكِّيون إلى التخلي عن إيمانهم بالأوثان ويكرهوا على اعتناق الإسلام. وأن يُحرَم اللعب والموسيقى والغناء، كما يرى ذلك المتطرفون اليوم مهمًا جدًّا. كان هذا مما يختم سلطته وظفره وفقًا لعادة البدو

القديمة. هذا ما كان قد حصل لقبيلة قريظة اليهودية عام 627، التي كانت قد نقضت معاهدة المدينة واصطفت في القتال إلى جانب المكّيين.

ولكن - بعكس ما يفعل المتعضّبون اليوم بعد مرور 1300 سنة- لم يعاقب النبي أشدّ أعدائه. لم يُقَضَّ على أحد. لم يُقتل أحد. بل منح محمّد سلماً مفاجئاً، ومارس الحِلْمَ.

إنّ النبيّ - خلافاً لمطالبة السلطة التوتاليتارية عند المتطرّفين الذين يدّعون أنّهم مسلمون، لم ينشئ في مكّة دولة إسلامية، ولا خلافة، بل حافظ على النظام السياسيّ القديم القائم في مدينة مكّة، وذلك بدون تغييرات سياسية كبيرة.

فتح محمّد مكّة بدون عنف. فلم يُكره أحدًا، وفقًا للمبدأ المنصوص في القرآن أن "لا إكراه في الدين"، على اعتناق الإسلام. ولم يُقتل الكافرون ولم تُنهب بيوتهم.

وفي خطبته الأولى وجهًا لوجه مع ألدّ أعدائه سأل: "يا معشر قريش، ما ترون أنّي فاعلٌ فيكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطُّلقاء"⁹⁹. ثمّ قال: لا يلحقكم اليوم ملامة. ولا تقوم ضدّكم شكوى أو محاكمة أو عقاب. فغفر لمضطهديه السالفين، وخيرهم إن أرادوا اعتناق الإسلام بحريّة¹⁰⁰.

من المحتمل أن يكون النبيّ قد تذكّر في لحظة أكبر نجاح له هذه، لبّ دعوته من قبيل الله، وفقًا لسورة الأنبياء 21: 107: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ".

بعد صلاة الصبح ركب على راحلته قصواء وطاف بالكعبة سبع مرّات قائلاً "الله أكبر". ثمّ طمس الصور والرموز الوثنيّة، وأبقى على صورتيّ عيسى ومريم، لأنّهما يرد مدحهما في القرآن، كما يروي كتاب سيرته.

وأهاب بالناس أن يتحرّروا من العصبية القبلية ومن قتال الجاهليّة. فيجب الآن أن يتصالح الناس في الجزيرة العربيّة لكونهم أسرة كبيرة تعبد الله. ونادى: اشكروا الله، إنّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهليّة. إنّما الإنسان مؤمن بالله أو خاطئ فقير. جميع الناس من آدم¹⁰¹.

كلّ من تخلّى عن القتال كان يمكنه أن يحصل على ضمانة شخصيّة من النبيّ. هذا يدلّ أيضًا على أنّ الصحابة وبعض أعوان محمّد كانوا يميلون أكثر إلى عادة الثأر القديمة، واضطرّ

⁹⁹. ابن هشام: السيرة النبويّة، 4، القاهرة، ص 314.

¹⁰⁰. راجع: Zahed Aziz, Islam, Peace and Tolerance, p. 10.

¹⁰¹. راجع ابن هشام: السيرة النبويّة، 4، القاهرة، ص 314.

النبيّ أن يُكرههم على ممارسة قواعده. وكما هي الحال اليوم لم يفهم بعض جنوده لماذا لم ينهب ويقتل، بل غفر.

كان النبيّ يمارس الغفران والرحمة حتّى تجاه ألدّ أعدائه، الذين أرادوا أن يقتلوه واضطّروه أن يهاجر إلى المدينة، كمثّل عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن سعد بن أبي سراح. وعفا عن خالد بن الوليد الذي كان سبب قتل سبعين من أصحاب النبيّ في معركة أُحُد. وكذلك عامل عبد الله بن أميّة، ابن عمّ النبيّ وواحد من أشدّ أعدائه، عاد فرحّب به في العائلة. وعبد الله بن شهب الذي كان شخصياً قد جرح أثناء القتال النبيّ في وجهه وناصيته وكاد يقضي عليه، نال العفو بعد أن كان قد قُبض عليه.

كانت هند بنت عُتبة بن ربيعة تبغض النبيّ جدّاً، ولكنّها بعد أن اعتنقت الإسلام قالت لمحمّد: لقد كرهتُك أنت وعيالك أشدّ الكره. ولكنّي بعد دخولي في الإسلام وزيارتي لكم، استطعت أن أختبر سموّ أطباعك ورحمتك ومحبتك، ولا أظنّ أن أحداً على الأرض يملك مثلها.

أرادت ابنته فاطمة وصهره الأمين والمقاتل معه عليّ أن يُقضى على اثنين من أقرباء عليّ كانا قد حاربا النبيّ. ولكنّ أخت عليّ أمّ هاني طلبت العفو من محمّد. فوعدهما النبيّ عند ذلك بالأمان، وأعلن عفوّاً شاملاً. فتصرّف بخلاف ابنته المحبوبة وصهره الكريم. هذا دلّ على الأهميّة التي كان يراها في العفو. وكان عشرة أشخاص قد أُدرجوا على لائحة الخصوم المطلوبين أشدّ الطلب. سألوهم أن يعفو عنهم، وهم أيضاً لم يتلهم العقاب.

لم يُقم النبيّ محمّد في مكّة "مملكة الله على الأرض"، ولا خلافة، كما يحلّم بها اليوم المتطرّفون. ولم يتسلم السلطة السياسيّة في تلك المدينة المهمّة. وترك جميع الأشراف والموظّفين من قبيلة قريش التي كانت تُعاديّه في مناصبهم. ففي أيّامنا عند انتقال السلطة ديموقراطيّاً تُبدّل الحكومة والإدارة، هم مثلاً في واشنطن عموماً أكثر من ألفي موظّف كبير، عندما يُنتخب الرئيس الأميركيّ الجديد. كان محمّد ينادي بالمصالحة حتّى مع ألدّ أعدائه وترك النظام السياسيّ القديم والوضع قائم¹⁰².

إذن فرّق محمّد في مكّة عمداً بين الدولة ودينه. ففتّحه مكّة وحكمه فيها من عام 630 إلى 632 يبيّنان بوضوح أنّه لم يكن يعتبر القرآن كمهمّة حكوميّة. فرفض بوضوح قيام دولة إلهيّة، ولم يُقم سيادة العلماء في أهمّ مدينة إسلاميّة. وكان يميل إلى فصل واضح بين الدولة

¹⁰². Karen Armstrong, p. 203-204

والدين، أي إلى العلمنة، إذ إنّه لم يُدخَل آيات القرآن في عمل إدارة المدينة، بل ترك الأنظمة الإدارية القديمة سارية المفعول. بهذا يكون مثال مكة وفقًا لمحمد قريبًا من الدستور التركي الذي هو أيضًا يفصل بين الإسلام والدولة. وهو بعيد جدًا من السلطة الحالية العائدة إلى أصحاب الإفتاء الوهابيين في الجزيرة العربية، الذين يريدون أن يراقبوا ويسودوا على كل شيء بواسطة القرآن، وحتى سوق السيارة في مكة. إن هذا لبث كما كان غير وارد هناك في عهد النبي. لم تُصِر مكة دولة إسلامية توتاليتارية - بل هي مثال للفصل بين الدولة والدين في العالم الإسلامي الحالي.

في حجة الوداع عند عَرَفات وصّى محمد بالوحدة والسلام: "اسمعوا قولي واعقلوه، تَعَلَّمْنَ أَنْ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرٍ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ. فَلَا تَطْلُمُنَّ أَنْفُسَكُمْ. اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ"¹⁰³.

لماذا تفوّه النبي محمد بمثل هذا الإنذار في موضع مهمّ؟ الجواب واضح: إن العُرف البدوي القديم السيئ المليء حسدًا وأناية والميل المتطرّف إلى النزاع كانا قد خفّت وطأتهما، ولكنهما لم يكونا بعد قد أقصاهما المسلك الإيجابي، مسلك الحلم والتعايش الصّديق.

تحوّل محمد في مكة في ذروة نجاحه من مدافع عن حرّيته الدينية إلى محبّد للتساوي والتصالح. كان هذا لبّ دعوته الإسلامية الحقّة. اعتبر هذا والإيمان بالله الواحد مهمّة الإسلام الحقيقية. كان يؤمن أنّه على كل إنسان أن يعمل الصالحات. عند ذلك فقط يدخل الجنة.

من يريد أن يعيش ويعمل مثل النبي، عليه أن يكون فاعل سلام حقيقيًا. من هذه الناحية أيضًا يشارك محمد يسوع المسيح في مصيره، فإنّ بشارة السلام التي أتى بها يسوع منذ أكثر من ألف سنة حوّلت من قبَل المتطرّفين الذين يدعون أنّهم أتقى أتباعه إلى تعليم يؤيّد عدم السماحة المسيحية والخطرة.

فإن ألقينا نظرة قصيرة إلى معاملة الظافرين المسيحيين للمدن التي أخضعوها، تبين كم كان النبي في القرن السابع متقدّمًا ومتسامحًا ومُحترمًا تجاه حياة أتباع الأديان الأخرى.

في عام 782 أمر الأمبراطور شارلمان (774 - 814) في فردن على نهر الأتر بقرب مدينة هنوفر الحالية في شمالي ألمانيا بقتل ما لا يقل عن 4500 من السكسون بعد هزيمتهم. وذلك

¹⁰³. ابن هشام: السيرة النبوية 4، القاهرة، ص 447.

باسم الله، لأن أولئك الوثنيين قاوموا إكراههم على قبول المعمودية. ومع ذلك يدعى الإمبراطور شارلمان الكبير، ويُعلى قدره كوالد أوروبا المتحدة.

تصرّف بضاوة أشدّ الفرسان الصليبيين عند فتح القدس عام 1099. كان شعارهم "هذه إرادة الله"، وكانت مهمّتهم تحرير الأماكن المقدّسة من يدي الكفار. أمّا أفعالهم فكانت أنهم قتلوا 30 ألفاً تقريباً من سكّان المدينة أغلبهم مسلمون، وأيضاً المسيحيين البيزنطيين واليهود المحترقين فعمّ القتل المدينة كلّها لساعاتٍ طويلة، حتّى إنّ المازّة كانوا يُضطّرون إلى سلوك الطرق وأقدامهم غاطسة في دم القتلى. كان هذا على مدى قرون طويلة أكبر مجزرة في تاريخ البشرية. ارتكب هذا في ما يُسمّى الأرض المقدّسة بأمر من الله، كما ادّعوا، أشرف أوربا، لا إرهابيون. لا علم لي بأنّ احتجاجاً شديداً ضدّ هذا التصرف البربري صدر من قبل الملوك أو البابا. كانت معركة مدينة القدس في القرون الوسطى مثل الهجوم الانتحاري في 11 أيلول 2001، ولا تزال جرحاً دامياً وعازراً على المسيحية. وكان حجم القتل أسوأ، فقد قُتل آنذاك من الناس عدداً يزيد عشر مرّات عن ضحايا 11 أيلول. لم يكن القتلة إرهابيين بل أشرافاً وفرساناً. ارتكبوا المجزرة في المدينة المقدّسة في ذلك الزمان. ففضى الفرسان على نساء وأطفال وشيوخ. لم يرتكب أحد على مدى القرون مجزرة أشنع منها لأسباب ادّعوا أنّها دينية.

ما هذا مقابل ما جرى عام 1187؟ في ذلك الوقت خسر الصليبيون القدس على يد المسلمين. فإنهم كانوا بقيادة غي دي لوزينيان ورينولد دي شاتيون المتعجرفة قد هاجموا حجّاجاً مسلمين في مملكة القدس ونقضوا معاهدة الصلح. لم يكونوا يفهمون فنّ صنع السلام، بل كانوا يعتمدون على العنف، لا على المصالحة. عند ذلك هاجمهم صلاح الدين، سلطان مصر وسوريا، وفتح عدّة مدن وحضر في أوائل تشرين الأوّل (أكتوبر) عند القدس.

هل أعدم الآن جميع السكّان وأخذ ثأره عن عام 1099؟ لا، بل فاوض على تسليم المدينة مقابل دفع جزية عن كلّ ثريّ من السكّان. واستطاع المسيحيون أن يغادروا المدينة دون أن يحصل سفك دماء. ولم تُعرّض المدينة للنهب.

وفي عام 1194 كان الملك الإنجليزي ريشارد قلب الأسد، بطل روايات كثيرة عن الفرسان، حاكماً على عكا. فعندما لم يحصل في الوقت المحدّد من صلاح الدين على فدية المسلمين الرهائن وقدرها 200 ألف دينار ذهبي، أمر بإعدام جميع الرهائن المسلمين الثلاثة آلاف في قلعة عكا في الأرض المقدّسة.

مكة والقدس، وفردان وعكا تبين بوضوح الفرق القائم في ذلك الوقت في المعاملة الإنسانية للأعداء المغلوبين بين المسيحيين والمسلمين في القرون الوسطى الأوائل. النبي محمد وصلاح الدين يشيرون اليوم أيضًا للمسلمين إلى الطريق في ممارسة الحرب بشعور بالمسؤولية وقدر صحيح ورحمة مع اعتبار أفضلية صنع السلام والتصالح مع الأعداء القداماء.

7. السماحة تُربة ازدهار الإسلام في بغداد والأندلس

بعد الفتح السريع للجزيرة العربية وسوريا والأرض المقدسة ومصر وكلّ شمالي أفريقيا وإسبانيا، كان الإسلام يحكم 50 بالمئة من مجموع المسيحيين كلهم في ذلك الزمان. فضمّ في مملكته الثقافات الجديدة، والمعارف والأفكار الخلاقة، على مدى قرون طويلة بشكل متّسع على العالم ومنشرح.

عرف الإسلام في بغداد عهد ازدهاره الذهبي في القرن التاسع. إنّ السيّد جون باغوت غلوب يصف حكم الخليفة المأمون (814 - 833) بأنه العصر الذهبي للعلم والتعليم. لم يكن هذا الخليفة رجل سيف، بل رجل كُتّب. لم يكن قائداً ضيق النظر، بل مفكراً مرهف الإحساس؛ لم يكن كاتباً وظالمًا وإرهابيًا، بل محببًا لما هو جديد وغريب. كان هذا الخليفة يهتمّ بعلوم الدين والفلسفة وعلم الفلك والطب والشرائع.

كان أول رجل نهضة مسلم، قبل ستمائة سنة من قيام النهضة الأوروبية في فلورنسا في القرن الخامس عشر. وأول دافع لقيام أوروبا من نعاس الفكر تأثر بتقبل العلم العربي الذي جُمع في الأندلس والمكتبات الكبيرة في قرطبة. ففكر وعلم اليونانيين المدرسيين وصلا كذلك عن طريق العرب وإسبانيا إلى أوروبا. فالنهضة العربية كانت المحرك اللوعي الفكري والتقدم في أوروبا.

سبق الإسلام الثقافات المسيحية في أوروبا الوسطى والشمالية، التي كانت لم تنزل غير متطورة. كانت أوروبا في الشمال، في الجزيرة الإنجليزية وفي وسطها، قارة نائمة، غائصة في النزاعات الدائمة بين الأمراء، وفي البحث عن الاعتراف بهم من قبل البابا بروما. كانت أميركا لا تزال مساحات أعشاب غير مسكونة سوى بعض قبائل الهنود والغابات الكبيرة الظليلة. فقمة الثقافة لم تكن على مدى قرون في عصر القرون الوسطى أوربية مسيحية، إسبانية أو أمريكية، بل كانت تحت حكم إسلامي عربي.

في أوروبا وانطلاقاً من إيرلندا وفرنسا قامت بمهمة دفع عجلة العلم مئات الأديار المنتشرة هناك. ولكن الإيمان المسيحي لبث على مدى بعيد متحجراً غير متسامح تجاه أصحاب الفكر المختلف ومغلقاً تجاه الفكر الجديد. فكر الآخرين لبث قابلاً خارج جدران الأديار، ولُوحق أيضاً على أنه بدعة. لم تكن الإيديولوجيا والإيمان منفتحين متقبّلين، بل كانا مَسعاً إلى الإبعاد. كانت أوروبا تعيش في القرون الوسطى المظلمة، إذ كان تفتح العقل والإنارة والانفتاح غائباً. وفي الحقل السياسي كانت أوروبا مقسّمة إلى دويلات صغيرة تابعة للأمراء ومُفَعّدة. فالعالم العربي صار متفوقاً فقط لأنه تبع وصيّة السماحة من نبيّه في كلّ مملكة القرآن. كان أكثر حرّيّة وجمعاً لثقافات متعدّدة، واطمئناناً ونزعة دوليّة وأبعد آفاقاً من الغرب المتشجّج. ي طوّرت بغداد في ذلك الوقت أهميّة الثقافة والعلم والفنّ مثل لندن أو نيويورك أو باريس أو برلين اليوم. ففي مدّة مئة سنة عاشت هناك الثقافات والأديان المختلفة تمارس السماحة والاحترام بعضها تجاه بعض. فساهم العلماء في إنتاج وإكمال واحترام بعضهم بعضاً، وتعلّموا بعضهم من بعض. لم يُنح الإسلام العلماء الكثيرين المسيحيين واليهود وسواهم، بل دمجهم في المجتمع. كتب وليم دراير: "في ذلك الوقت رُقّي حكماء من مسيحيين ويهود حتّى إلى مناصب عالية. فالخليفة هارون الرشيد تصرّف وفقاً للمقدرة والإنتاج، لا وفقاً لدين معيّن أو منطقة معيّنة"¹⁰⁴.

قبل ألف ومئتي سنة صارت بغداد المركز السائد في العالم الإسلامي، عاصمة لها قدرها العالمي في حقل العلوم. فالخليفة الحكيم هارون الرشيد - وهو بطل أسطورة "ألف ليلة وليلة" - دعا النّخب من جميع الثقافات إلى مدينته، من مسلمين ويهود ومسيحيين ومفكرين نابهن، وموسيقيين وشعراء. فكان المسلمون والمسيحيون يتعاونون بسلام في العمل على كشف المعرفة العالميّة في ذلك الوقت، وكانوا شركاء التقدّم.

أسّس دار الحكمة - في القرن التاسع، على شاكلة هرفارد اليوم. منها نشأت أكاديميّة مع مكتبة كبيرة ومجموعة أهمّ الآلات العلميّة من العالم كلّه.

كانت بغداد مدّة مئة سنة مرحلة متعدّدة الألوان تسع أنواع العلم العالميّ المعروف في ذلك الوقت. كان العلماء يتجادلون باختلاف آرائهم وصراحة باللغات العربيّة والفارسيّة والعبرانيّة

¹⁰⁴. William Draper : History of Intellectual Development of Europe

واللاتينية، وكانوا يترجمون نصوصًا من أرسطو وهيوكرات إلى اللغة العربية. كانت الجعبة الإسلامية مفتوحة تنتج المعرفة والقدرة وتتمتع بتأثير عالمي.

حرية الفكر والتعليم من جهة وإسلام متسامح من جهة أخرى تعاقدا تعاقداً وحيثاً ناجحاً، أبلغ الإسلام خلال مئة سنة إلى درجة سلطة متقدمة للتقدم السلمي. فأضحى أكثر نجاحاً من الغرب المسيحي ومركز العالم في القرون الوسطى الأوائل في المنطقة الجامعة بين أوروبا وآسيا.

يروى محمد مراديوك بكنهال في خطابه الشهير في نيودلهي "حول السماح في الإسلام"، عام 1927، أن الأقباط في مصر والجماعات المسيحية المختلفة في سوريا كانوا يعيشون مع المسلمين في جو من الصداقة الحميمة". لا يجدر بأي مسلم أن يعتبر السماح ضعفاً في الإسلام. هي أكبر قدرة فيه. فإن الله هو إله الجميع، المسلمين واليهود والمسيحيين¹⁰⁵.

بالرغم من أتعاب السفر برًا وبحرًا كان تبادل العلم ناجحاً مع بيزنطية، وحتى مع الهند والصين. بذلك قام العالم الإسلامي بمهمة إضافية قوية لمدّ الجسور بين أوروبا وآسيا. مثل هذه المهمة تصلح أيضاً في القرن الحادي والعشرين. فدي اليوم مركز لحركة الطيران. تنقص بعد مهمة إقامة الجسور للثقافة والعلوم.

ما الدوافع الفعالة في العلم والثقافة في العصر الذهبي؟ في أي حقل كان العالم الإسلامي سباقاً؟

جمع العلم كله دون موانع دينية، وتبادل الآراء بين العلماء من جميع أطراف العالم المعروف، وانفتاح المجادلات والفكر، هذا أتى بعد زمن قصير بثمار جديدة شيقة في شجرة المعرفة.

سبق في عهد النبي أن أهل العلم أوكل إليهم تدريس الأولاد، وكان هذا يتم في أغلب الأحيان في المسجد. نشأت من ذلك في القرن العاشر المدارس المستقلة الأولى. فصارت التنشئة مهمة مركزية، تربة التقدم في مملكة العالم الإسلامي.

في عام 859 أسست الوارثة الغنية فاطمة الفهري، أول مدرسة قرآنية ثم بعد ذلك جامعة في فاس في مراكش. منذ عام 975 يتلقن الطلاب العلم الدولي في جامعة أوسع شهرة، جامعة الأزهر في القاهرة بمصر.

¹⁰⁵. راجع:

Muhammad Marmaduke Pickthall, About Tolerance in Islam, Lecture, New Delhi 1927.

بُنيت المكتبتان الكبّريان في ذلك الزمان كبحيرة المعرفة والتقدّم في القاهرة وفي بغداد، سنة 1258.

العالم المسلم محمّد بن موسى الخوارزمي اخترع عام 800 المفهوم الجديد للجبر في علم الرياضيات. ومحمّد بن أحمد قام بثورة في علم الحساب باختراعه رقم الصفر في القرن الحادي عشر.

أدهش العالم الإسلاميّ بما جدّد في علم النّظر والملاحة والنجوم. بنى الفزاري عام 820 الأسطرلاب وهو أهمّ آلة للحساب في علوم النجوم. واكتشف الرازي أنّ النجوم تتحرّك وأنّ مسافاتهما تتغيّر. هذا كان في مطلع القرن العاشر. وفي القرن الثاني عشر شرح الإدريسي المسلم العالم في الجغرافية أنّ الأرض مستديرة. في ذلك الوقت كان الناس في أوربا لا يزالون يظنّون أنّ الأرض لها شكل شريحة.

الكيميائيّ جابر بن حيّان اكتشف عام 900 حامض البوتاس وبحث في التحليل ونشوء الكريستال.

وجاء تحسين الزراعة واستعمال المياه بقدر ثورويّ.

عام 707 نشأ أول مستشفى في دمشق وتمّ تحسين الطبّ وأساليب العمليّات حتّى وصلت بعد مدّة وجيزة إلى الطبقة العالميّة العليا. قدّم الرازي أول تقرير طبّي عن الحصبة وطريقة في التطعيم الوقائيّ. وأدخل الزهراوي في القرن العاشر مئتين من الأدوات الجراحية. في القرن الحادي عشر كتب ابن سينا "القانون في الطب" الذي يقع في 14 مجلّدًا، ولبث على مدى 500 عام الكتاب الأساسيّ حتّى في أوربا.

في سنة 711 انطلقت الحملة الإسلاميّة لفتح إسبانيا ومناطق في فرنسا. بهذا وصل الدين الجديد إلى أوربا. في إسبانيا كان أكثر السكّان من المسيحيّين ونحو مئة ألف إلى ثلاثمائة ألف يهودي. وعندما احتلّ المسلمون المقاطعات وصاروا الطبقة العليا الحاكمة، فيما صار المسيحيّون واليهود خاضعين لهم يؤدّون الجزية.

في الأندلس استفاد العلم والتجارة على مدى ستّة أجيال استفادة كبيرة من تمازج الثقافات والأديان. فالمنطقة المزدهرة في إسبانيا مع المدن الجميلة قرطبة وطليطلة وغرناطة وإشبيلية ومَلَغَا، ويداخس وسرقسطة وبلنسية، كانت من عام 1009 إلى عام 1248 على مدى قرنين أشدّ مناطق أوربا ازدهارًا.

في القرن الثاني عشر كانت الجماعات الثلاث، المسيحيون والمسلمون واليهود عائشة معًا بسلام. فتحوّلت المنطقة إلى مخزن الفكر العالمي في أوروبا. وكان المسيحيون واليهود يستطيعون أن يحتلّوا مناصب عالية. ولم يُكرهوا على اعتناق الإسلام. أمّا قرطبة وعدد سكاّنها كان 600 ألف شخص، فكانت إلى جانب بغداد والقسطنطينية إحدى عواصم العالم القديم. واشتهرت بمكتبتها التي كانت أكبر مكتبة في أوروبا في خدمة علماء ذلك العصر. كانت لغة الكتابة العربية الفصحى أو اللغة الإسبانية القديمة أو العبرية. من قرطبة نشأ أشهر فيلسوف مسلم ابن رشد، وكذلك أكبر مفكر يهودي في القرون الوسطى ابن ميمون، المدعوّ راّي موسى بن ميمون. كان ابن رشد يفسّر آيات القرآن كرموز استنادًا إلى تواصل معانيها. وابن عربي جمع بين الأديان الثلاثة الكبرى في وحدة خلاقة بواسطة التواصل العاشق. وكانت الشاعرة ولادة بنت المستكفي، توفيت عام 1091، في قرطبة تنادي بحرية الفكر. في طليطلة كان الحاكم الملك ألباسيو يحنّد روح التعايش، التعايش الصالح بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة. الثقافة والتجارة كانتا مزدهرتين، وكانت المدينة تنعم بأهمية شبيهة بلندن أو برلين.

يؤكّد فيليب حتّي أنّه من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر لم يأت أي فريق آخر بمساهمة مهمّة في دفع تقدّم البشرية مثل العرب. فكانت اللغة العربية في ذلك الوقت لغة العلم والمفكرين¹⁰⁶.

يتحدّث محمّد مرماديوك بكتهول عن التعايش الجيّد بين المسلمين واليهود والمسيحيين في إسبانيا. "كانت جماعات المسيحيين تشارك في الإدارة ببطاركتها في مجلس الدولة، وبأساقفتها على مستوى القطاعات وبكهنيتها على مستوى القرى. كان باستطاعة المسيحيين واليهود أن يزوروا المدارس والجامعات، وذلك على حساب الدولة. فكانت السماحة تجاه الأعراق والأديان الأخرى لا مثال لها في ذلك الزمان".

ويشكو المؤلف من جهل القادة المسيحيين في ذلك الزمان، الذين لم تكن لهم إلا معرفة ضئيلة أو مارسوا الأحكام المسبقة تجاه المسلمين، فيما كان هؤلاء لهم معرفة جيّدة بالمسيحية. فالمسيحية الغربية كانت تتصرّف في ذلك الوقت بمثل هذا الجهل والكبرياء تجاه المسيحية الشرقية البيزنطية¹⁰⁷.

يذكر بكتهول بالمصير المفجع الذي لحق اليهود عندما عاد المسيحيون واكتسحوا المناطق الإسلامية. أكره 300 ألف يهودي على تقبّل المعمودية ولحقهم النفي والموت. فلم يبق في النهاية

¹⁰⁶ Philip Hitti : History of the Arabs, p. 557

¹⁰⁷ راجع:

Muhammad Marmaduke Pickthall : About Tolerance in Islam, Lecture, New Delhi 1927.

يهوديٍّ واحد. وأعلنت إيزابلاً الأولى وفردينادو الثاني عام 1492 مرسومًا بنفي جميع اليهود السفرديين من إسبانيا. فهرب معظمهم إلى المناطق الإسلامية في البلقان والمغرب وتركيا. بلغ عدم السماح ذروة جديدة عندما نُفِيَ من البلد أيضًا الموريسكوس أحفاد الذين اعتنقوا المسيحية من المسلمين. وقامت محاكم التفتيش الضارية التي أرادت أن تكتشف وتفني جميع الكفار بالجلد، وذلك لا على سبيل الصدفة، عام 1478 في إسبانيا بلد عدم التسامح. وإفناء الهنود الكفار وكتبهم الثقافي في أميركا الوسطى وأميركا الجنوبية على يد الإسبانين انطلاقًا من القرن السادس عشر، دليل على تجرّب هذه الدولة المسيحية تجاه أتباع أديان أخرى وأعراف وثقافات أخرى.

إنّ التعايش السلمي بين المسلمين أصحاب السلطة والمسيحيين الذين كانوا منذ قرون في المناطق المحتلة والأقلية اليهودية كانت التربة التي أدّت إلى ازدهار الحكم الإسلامي. فهذا التمازج الجديد بين الأكثرية المسيحية وأنواع التأثير اليهودي والإيمان الإسلامي أدّى إلى نتيجة إيجابية ضخمة لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت بالنسبة إلى الثقافة والعلم والفن، كما حدث بعد قرون كثيرة في عصر الأنوار في أوروبا. أجل إنّ أفكار عصر الأنوار والنهضة الأوروبية قامت من بوتقة بغداد وإشبيلية وغرناطة وطليطلة ومدن الأندلس الأخرى. من هناك انطلقت هزّات مهمة إلى إيطاليا، مرجل النهضة المسيحية. فالمفكرون المسيحيون تعلّموا ونسخوا العلم العربيّ ومزجوه بأفكارهم الشخصية. كان العالم العربيّ في ذلك الوقت أكثر انفتاحًا على معارف العلم الجديدة من الكنيسة المسيحية التي غالبًا ما كانت تعتبر ذلك تهجّمًا على مطالبتها بالقيادة وعلى حقيقتها المطلقة. فتلاقى الثقافات شديدة الاختلاف جعل شجر المعرفة ينبت ويعلو بفضل تناقل العلم ودرسه. كانوا ينمون معًا، ويتناقشون بصراحة، ويضمّون الآخر ولا يُقصونه. كان يسود التسامح والاحترام. هذا التوافق العمليّ المثمر جعل بُنى وثقافات متعدّدة تزهر وجمع مقدراتها.

إنّ سياسة السماح الواسعة من قبل الحاكم تذكّرني بالتقدّم الحاليّ في مجتمعات إسلامية مفتوحة مثل قطر والإمارات العربية المتحدة، وأندونيسيا وكردستان العراق. هي تعاكس المنظّمات الضيقة كما يريدونها البعض في المملكة السعودية الوهابية، وأصحاب التصوّرات الانعزالية في صفوف المتطرّفين كمثّل الطالبان في أفغانستان أو باكستان، أو كمثّل السلفيين وبعض فرق متطرّفة من الإخوان المسلمين. فإيديولوجيتهم التحريمية ومطالبتهم بامتلاكهم الحقّ المطلق التوتاليتاري هي نماذج مخالفة للعصر الذهبيّ في الإسلام. فكيف يريدون في القرن الحادي والعشرين أن يقودوا المسلمين إلى ذروة العالم؟

فالعصر الذهبيّ في تاريخ الإسلام يمكن أن يكون اليوم مثلاً لبلدان إسلاميّة ناهضة في جُهد انطلاقتها ولبلدان كبيرة حائرة مثل باكستان ومصر. النهضة تشير إلى بغداد وتنتج ازدهاراً جديداً. فازدهار الإسلام على مدى خمسمائة سنة يبيّن أنّ الثقافة لها أهميّة مركزيّة، وكذلك التبادل العمليّ والثقافيّ المنفتح مع جميع الثقافات والأديان. فالإسلام يكون قوياً إن هو ضمّ ثقافات كثيرة في علاقة فرقاء، وساند حرّيّة الناس في الفكر والبحث والعمل، وإن كانت التعاليم تمارس في جوّ من السماحة والانفتاح على العالم.

كلّ دستور إسلاميّ ينبغي له أن يتّخذ مثال السماحة في بغداد الذي كان ناجحاً أشدّ النجاح، ويبدّل صورة البلد باعتماد على النفس وبقوّة. بهذا فقط يمكن اكتساب حماسة الشبيبة وخلق مجالات عملٍ جديدة ضروريّة في صناعات متجدّدة. روح الحرّيّة هو أساس الرفاهية.

إنّ انحطاط عدد كبير من البلاد الإسلاميّة في السنين الخمسين الماضية مرتبط أيضاً بفقدان الحرّيّة الشخصية والتعدّد والانفتاح على العالم. فمن يحضّن نفسه يقيد الثقافة والعلم والاقتصاد، ويمنع قيام المناقشات المنفتحة وأنواع التقدّم في جميع مجالات الحياة، والتواصل الدائم مع القمّة العالميّة. بعض أصحاب السلطة الفاسدة لا تهمهم الحرّيّة والتقدّم، بل توطيد مصالحهم والتمسك بيئتي متحرّرة. فلم تعدّ النخبة الغنيّة المهمة تأتي للتعلم في أوروبا والعودة بعد ذلك إلى المدن الإسلاميّة، بل تنزح من البلاد الإسلاميّة إلى أميركا وأوروبا. وكثيرون من الشبيبة عاطلون عن العمل ولا ممتّسع لهم.

ولكن هناك حكّام مسلمون آخرون تبعوا نموذج التسامح الناجح في بغداد في القرون اللاحقة.

فمملكة المغول الإسلاميّة في الهند (من 1526 إلى 1857) مارست كذلك التبادل الحرّ بين تعاليم الحكمة الإسلاميّة والهنديّة مع جذورها القديمة على مدى آلاف السنين. يذكّرنا كراً دي فو أنّ الفلاسفة في ذلك العصر كانوا يستطيعون أن يبدوا بأرائهم وأعمالهم بحريّة. "كانوا يتكلّمون بفصاحة. وكانت مبادئ السماحة والعدل والإنسانيّة سائدة طويلاً على مدى حكم السلطان المغوليّ أكبر"¹⁰⁸. ومن بدائع المغول أجمل بناء في الإسلام "التاج ماهال"، الذي تم بناؤه عام 1648 بقرب أغرا، ولا يزال حتّى اليوم يدعو إلى المحبّة مع ممارسة الأخلاق الإنسانيّة.

¹⁰⁸. Carra de Vaux, The Philosopher of Islam, Paris 1921.

بعد فتح القسطنطينية أمر السلطان محمد الثاني (1430-1481) بانتخاب بطيريك أرثوذكسي في جلسة انتخاب قانونية وثبته بالحفلة الرسمية في منصبه وضمن للمسيحيين البيزنطيين اليونان حرية ممارسة عباداتهم وسلامة كنائسهم.

يعتبر مرسل كليرجي حكم سليمان الكبير ذروة ازدهار المملكة العثمانية. كان هناك تبادل أعمال الأدب مع القطاعات العربية وفارس وتركيا، وكانت تمارس السماحة الدينية في هذه المملكة متعددة الشعوب.

يُعتبر محيي الدين محمد بن عربي (1165 - 1240) أحد كبار الصوفيين المسلمين في القرون الوسطى. كان داعية السماحة الدينية. وكان له أثر كبير في تطوير التصوف في الثقافة الإسلامية. ويكرّم كالشيخ الأكبر. فموقفه كمسلم من اليهود والمسيحيين صاغه في أشعار يشيد فيها بوحدة الأديان في وحدة الوجود وشمول المحبة. يقول إن قلبه يتسع لكل الأشكال، فهو مرتع للغزلان ومنسك للرهبان وهيكل للأوثان، وكعبة للحجاج، ومصحف للتوراة والقرآن، وإنه يمارس دين المحبة.

عندما أهمل الإسلام تربة الحكمة المثمرة هذه وحجز نفسه في قوالب ضيقة من التسلط التوتاليتاري، وتفكك وتقلص في داخله ولم يعد عن وعي لنفسه يتطور من تلقاء نفسه، خسر تفوقه وتأثيره العالمي لمدة تريبو على ألف سنة حتى اليوم. فقد العالم الإسلامي تفوقه واتصاله بنقل المعرفة من النهضة والثورة الصناعية. فإن الغنى الحاصل من النفط والغاز في هذه المنطقة منذ السنوات المئة الفائتة لا يمكن أن يغطي هذه الخسارة في حقل الأذهان والقيم.

أما بغداد وثقافتها الإسلامية الرفيعة فقد عانت من انحطاطها لدى اجتياحها على يد المغول الفساة وغير المتسامحين عام 1258.

وفي حقبة الاستعمار في القرنين التاسع عشر والعشرين، وعند انقراض المملكة العثمانية الكبيرة عام 1922، انكسر ظهر الشعور الإسلامي بالقيمة الشخصية. إذ تحولت البلاد الإسلامية إلى ملعب قوات غربية ولم تعد هي الدافع لأشكال التقدم العالمي. فقد الفن والعلم والسياسة اللحاق بالعصر الحديث. وكانت النتيجة انحطاط القوة. فمن الشعور بالانحطاط وفقدان القوة نشأت المرارة والعنف.

من هنا فسّر الإسلام بعض المفكرين المتشددّين من أمثال مؤسس حركة الإخوان المسلمين فقط كموقف مدافع ضدّ الغرب واستعمارهم وضدّ قيمه، بدل ان يسلكوا طريق الانفتاح كما حدث في بغداد في القرن التاسع. فلم يعد يفسّر القرآن من قبل الإسلاميين المتشددّين إلا في

اتجاهٍ أكثرَ عداءً للغرب وأضيق وأشدَّ انحساراً، فاختنق وجفَّ بذلك ما في الكتاب الكريم من حقيقة وجمال وخير. فلم يعد يحتلُّ نقطة الوسط في التعليم الديني ما هو حرٌّ ومُصالح ومنفتح ومتسامح ومسام، بل مدَّ الحدود وتأكيد الموانع في تفسير ضيق لها. من هنا انطلق تسابق من قبل خطباء التحريم، على أساس أنَّ الزيادة في عدد المحرّمات يزيد في الإيمان. فيعدُّ المسلم الذي يرتدي ملابس غربيّة كافرًا. مثل هذا كان من قبيل الرأي الصالح، ولكنّه كان في الواقع ردّ فعل قصير المدى وغلوًّا أكثر منه تطبيقًا لتعاليم النبي الحقيقيّة. فكَمِثل صدفة ختم الإسلام على نفسه في موقف دفاعي. فانسحب ولم يُعد يُعنى إلا بمدَّ الحدود وإقصاء من لا يفكر مثله. بهذا دفع المتشدّدون الإسلام إلى مزلقة حادثة خطيرة، وخسر هو قدرته القويّة على اكتساب المستقبل. فهل يستطيع تفكير جديد جذريّ أن يهب البلاد الإسلاميّة مستقبلاً أفضل، هذا موضع الشكِّ وفقاً للخبرة التاريخيّة.

فضاع عالم الحِلْم وفقاً لتعليم النبي، ذلك العالم الجميل الذهبيّ المزدهر المليء بالافتخار والسعادة، بفعل الاختناق الذاتيّ على مدى القرون في المملكة الإسلاميّة والعثمانيّة. ولكنّ هذا الوضع لا ينبغي أن يظلَّ على هذه الحال. فإنعاش الفضائل القديمة وإعادة التفكير في حقيقة الإسلام، يمكنهما أن يقضيا على أزمة المعرفة الطويلة هذه ويفضيا إلى نهضة جديدة في القرن الحادي والعشرين.

قام هديراً في العالم الإسلاميّ. إنّ الربيع العربيّ أفضى عام 2012 أصحاب سلطة طويلي العهد من مناصبهم. والشبيبة تطالب بحريّات أوسع وبتسامح.

انطلاقاً من الأساس في القرآن والحديث وفي تاريخ الإسلام في بلدان كثيرة من العالم، عرض مفكّرون مسلمون آراءهم حول السّماحة في الإسلام.

فالدكتور مُرّمَل صِدِّيقي، الرئيس السابق "للجمعيّة الإسلاميّة في أميركا الشماليّة"، يعدّ السّماحة مفهوماً شاملاً يضمّ "الاحترام والاعتراف والتقدير للتعدّد في العالم، تعدّد في الثقافة وأشكال التعبير وسُبل البشر". هذا يُقال له "تسامح". ألفاظ أخرى كالحلم والعفو والصفح تشير إلى هذا الاتجاه. فالسّماحة هي مبدأ أساسيّ في الإسلام. "السّماحة تنتج في الإسلام من الاعتراف بكرامة الإنسان، والمساواة بين البشر وحرية الفكر والمعتقد، كما يتّضح من سَور القرآن. فالنبيّ يتكلّم عن المساواة بين البشر بغضّ النظر عن العرق أو لون البَشرة أو اللغة أو الواقع الإثني". المساواة والعدالة لا تقومان بدون سّماحة.

إنّ العقوبات المذكورة في القرآن ضدّ الكفّار لا تنالهم لأنّهم رفضوا الإسلام، بل لأنّهم تصرّفوا تصرّفاً متهجّماً وكتبوا المسلمين في ممارسة دينهم. إنّ الإسلام يستطيع أن يتحمّل الكثير. ولكنّ الصبر يلاقي حدّه حيث يبدأ الكبت والإجحاف بحقوق الإنسان.

إنّ الموقع في الأنترنت Islamoline.net يقدّم شرحاً للسؤال: ما هي السّماحة الإسلاميّة؟ "السّماحة هي مبدأ أساسيّ في الإسلام. هي فرض دينيّ. هي الوسيلة التي تحافظ على حقوق الإنسان والتعدّد وسيادة القانون".

الشيخ خالد أبو الفضل، أستاذ علوم الشريعة الإسلاميّة في معهد أميركيّ بكاليفرنيا، يكتب في مقالته عن "مكانة السّماحة في الإسلام" ما يلي: "إن نحن نظرنا إلى إيديولوجيا أسامة بن لادن والطالبان والوهابيين في العربيّة السعوديّة والجهاديين، فإننا نقع بسهولة في فخّ الانعزاليّة. فإنّ هؤلاء المسلمين المُغالين في الموقف يقاومون نهج الحياة الغربيّ، وأيضاً فكرة مجتمع دُولي وحقوق الإنسان الشاملة. هم يُبدون تصرّفاً مطلقاً ضدّ السّماحة وموقفاً محارباً قائماً على الشعور بالتفوق الشخصيّ. فالإسلام بالنسبة إليهم هو سبيل الحياة الوحيد ويجب التمسكّ به تجاه الآخرين بدون وقاية¹⁰⁹. فالأخلاق تقوم في رأيهم وتنتهي مع الشريعة

¹⁰⁹. نُشر النصّ في: www.bostonreview.net

الإسلامية. فيضحى نهج الحياة منهج قوانين. فمن لا يتبعه يكون كافرًا أو منافقًا أو فاسقًا. المُغالون في التنقيب يقرأون آيات القرآن منفردة مستقلة عن سياقها. ولكنه من المستحيل أن تُفهم السُّور دون مفاهيمها الأخلاقية وأوامرها الأخلاقية كالصّبح والعدل والرفق. إنَّ القرآن يقبل التعدّد بين البشر.

نُشرت دراسة شيّقة لجامعة هرفرد عام 2008 تبين أنّ الحجّ إلى مكّة يقوِّي سماحة المؤمنين تجاه أناس وجماعات إثنية وبلدان تختلف عنهم. فمن زار مكّة يكتسب الرأي بأنّ معتنقي الأديان الأخرى متساوون. و11 بالمئة يرون أنّ الأديان المختلفة يمكنها أن تعيش معًا بتناغم. فالحجّاج الاعتياديون العائدون يُضاعفون اللعنة على أهداف أسامة بن لادن¹¹⁰

عبد ديواف رئيس السنغال المسلم، قال في 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 1984: "كلّ شخص بغضّ النظر عن دينه، عليه أن يحترم آخرين لا يشاركون معتقده أو ينطقون بلغة غير لغته. إنّي أشدّد على كلمة "احترام" إذ إنّ الأمر لا يدور فقط حول التسامح. فليس الغرض التجاهل وغضّ النظر، بل احترام آراء الآخر وتعابيره".

هناك في البلدان الإسلامية أبطال السماحة، شخصيات تحمي الطابع الحقيقيّ المُسلم في الإسلام ضدّ التهجّمات المتشدّدة. ولقد استطعتُ أن أزور بعضًا منهم وأختبر اندفاعهم في سبيل النبيّ محمّد وعالم شامل يسود فيه الحلم.

بقي في ذاكرتي الأثر النامي من رجل لطيف في عمّان / الأردنّ، هو الأمير حسن بن طلال. فلو كان النبيّ لا يزال حيًّا ويبحث اليوم عن رفيق أمين حكيم ذي قدر رفيع، لكان الأمير بشكل أكيد من أفضل من يختار.

إنّ هذا الرجل اللطيف هو من أنسباء النبيّ محمّد ويندرج في الجيل الثاني والأربعين من السلالة المباشرة لأنسابه. فأسرته الملكية الهاشمية نشأت في مكّة، وهي تحكم اليوم دولة الأردنّ. وقد ورثوا اسمهم من هاشم بن عبد مناف، جدّ النبيّ. وبصفتهم أشراف مكّة والمدينة كان لهم منذ القرن العاشر دور كبير في الجزيرة العربية. أمّا اليوم فقد تقلّص حجم سلطتهم ولم يبقَ منها سوى الأردنّ، ذلك البلد الصغير الرضيّ. الملك عبد الله الثاني يحكم هناك منذ عام 1999 في بلد مضطرب، والأمير ابن طلال عمّه وأخو الملك المتوفّي المحبوب في البلد حسين الأوّل.

¹¹⁰. راجع:

Estimating the Impact of the Hajj : Religion and Tolerance in Islam's Global Gathering, bei David Clingsmith, Asim Ijaz, and Michael Kremer, July 2008.

دعاني الأمير ابن طلال مع زوجته الأميرة ثروت إلى قصرهما الصغير في عمان مع أربعة من الأصدقاء، لكي نتناقش على طاولة العشاء في شرايح السماحة. هذه الأسرة مثال في اللطف، ثلاث بنات، ابن واحد وستة أحفاد. والأمير نفسه هو قائد في فرقة الفرسان وطيّار مروحيّات.

أهمّ من ذلك أنّه مع الأمير غازي بن محمّد بن طلال والأمير حمزة بن الحسين وبفضل الدعم المندفع من قبل العاهل الأردنيّ، أحد المحرّكين الأوائل في العالم الإسلاميّ للعودة الحكيمّة إلى الجذور الحقيقيّة والأهداف لدى الإسلام ولدى نسب النبيّ محمّد. فالعائلة الملكيّة تساند الإسلام الصالح الحقيقيّ. والأمراء هم مناوور الحكمة الإسلاميّة في عهد المغالين المتشدّدين.

في عام 1994 تمّ في عمان تأسيس المعهد الملكيّ للدراسات المشتركة بين المعتقدات (www.riifs.org). وفي عام 1999 أُطلقت المؤسّسة الدوليّة للبحث والحوار في العلاقات بين الأديان والثقافات، وأيضًا مؤسّسة آل البيت للفكر الإسلاميّ.

في أثناء العشاء في قصره شرح لي الأمير حسن بن طلال فلسفته: "إنّي بصفتي من أنساب النبيّ محمّد والرئيس السابق لجمعية الأديان في سبيل السلام (WCRP) أنادي بالحوار لحلّ الأزمة الأخلاقيّة والإنسانيّة. فإنّ العنف قد سبق الحوار. والرحمة دُحرت بالبغض والثأر. يؤلمني أن أرى كيف يمزّق دين الإسلام بشكل لا يتفق ودعوته التاريخيّة. علينا أن نتذكّر أنّ السلام ينتج من تكوين فعّال للحقيقة والاحترام والتعاطف".

مُرادُه "أن تتطوّر من ثقافة البقاء في الحياة ثقافة المشاركة، ومنها ثقافة السلام". فالأخلاقيّات عليها أن تصير قاعدة نظام عالميّ جديد. كلّ إنسان تجب معاملته بإنسانيّة. نحن بحاجة إلى تحوّل أخلاقيّ.

الأمير حسن بن طلال وأستاذ الفلسفة غازي بن محمّد بن طلال هما عندي أهمّ أبطال السماحة في المنطقة العربيّة.

الأمير غازي بن محمّد بن طلال، رئيس معهد آل البيت الملكيّ للفكر الإسلاميّ، كان المحرّك وأحد الموقعين على رسالة "كلمة سواء" التي حازت شهرة واسعة. في هذه الرسالة المفتوحة إلى البابا ورؤساء الكنائس والجماعات المسيحيّة ينبّه بحزم 138 قائدًا وعالمًا وإمامًا من

المسلمين، بتاريخ 13 تشرين الأول 2007، للأمور المشتركة في الإسلام والمسيحية (راجع www.acommonword.com)¹¹¹.

جاء في الرسالة: "يشكل المسلمون والمسيحيون معاً ما يزيد على نصف سكان العالم. ولا يمكن أن يكون هناك سلامٌ مُجدٍ في العالم من دون إحلال السلام والعدالة بين هذين المجتمعين الدينيين؛ فمستقبل العالم يعتمد على السلام بين المسلمين والمسيحيين. وإنّ الأساس الذي يُبنى عليه السلام والتفاهم موجودٌ أصلاً، وهو جزء من صميم المبادئ التأسيسية لهذين الدينين وهو حبّ الإله الواحد، أو حبّ الجار. وهذه المبادئ يتكرّر وجودها في النصوص المقدّسة للإسلام والمسيحية". وتورد الرسالة نصّ الآية من سورة آل عمران 3: 64: " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ..."

المحبة والعطف لهما الأوليّة في الإسلام، كما جاء في الرسالة. وقد قال النبي: "لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه (أو قال: لجاره) ما يحبّ لنفسه" (مسلم).

في تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2004 كان العاهل الأردني عبد الله الثاني بن الحسين قد سبق فأعلن "رسالة عمان" ودعا في تمّوز (يوليو) من العام التالي 180 عالماً من 45 بلداً إلى عمان. رسالته تستند إلى آية سورة الحجرات 49: 10: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ..." في خطابه أمام الجامعة الكاثوليكية في واشنطن في 13 أيلول (سبتمبر) 2005، أكدّ أنّه "لم يكن أبداً أمرٌ أهمّ من أن نفهم ونعيش بالإيمان عالمنا المشترك، فبتضافرنا نستطيع أن نتحدّ باحترامنا المتبادل وندفع عنّا المشاغبين الدينيين. هذا المنطلق مهمّ بالنسبة إلى السلام العالمي. فالنزاعات العقائدية تقيم جذراً من عدم الثقة. علينا أن ننحّي هذه العوائق. وأن نعترف بقيمتنا المشتركة في أعماق باطننا. بذلك نفتح الطريق إلى مستقبل أفضل".

إنّ الآيات التي تبدو قاسية في القرآن يُدرجها أكابر العلماء المسلمين في نصّ "كلمة سواء" في قرائن النصّ المهمة: "كمسلمين نقول للمسيحيين إنّنا لسنا ضدّهم - ما داموا لا يشنون الحرب ضدّ المسلمين بسبب دينهم، أو يضطهدونهم ويخرجونهم من ديارهم" (راجع القرآن، سورة الممتحنة 60: 8)¹¹² - "لذلك فلنعمل على أن لا تتسبّب اختلافاتنا الكراهية والشقاق بيننا. ولنتنافس في ما بيننا في ميادين الفضيلة والخيرات. وليحترم بعضنا بعضاً، ولنكن منصفين

¹¹¹ نصّ الرسالة العربيّ: عادل تيودور خوري: في سبيل توثيق أواصر القربى بين المسيحيين والمسلمين، المكتبة البولسية، جونبة / لبنان 2011، ص 40-86.

¹¹² المرجع السابق، ص 67.

وعادلين ودودين، بعضنا تجاه البعض الآخر ولنعش في ظلال سلام مخلص، وبانسجام ونية طيبة متبادلة"¹¹³. ويشيرون هنا إلى آية سورة المائدة 5: 48 التي تقول: "لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا". بعد الحديث الجيد سافرتُ إلى العقبة على البحر الأحمر. هناك تنقلتُ مع الملك عبد الله في سيارته في الصحراء، وعلى المقعد الخلفي تجلس امرأة أنيقة، هي الملكة رانيا زوجة العاهل الأردني. وقد دعيا المنتدبين إلى الندوة إلى عشاء في خيمتهم الجميلة في قصرهم الصيفي.

الملكة رانيا مثال المرأة في البلاد العربية الحديثة. وُلدت عام 1970 من أسرة مهجرين فلسطينيين في الكويت. ثم اضطرت مع والديها إلى الهرب من جنود صدام حسين إلى عمان. هناك صادفت في افتتاح حفلة التاجر بالتفاح، الذي كانت تعمل في محله، الأمير عبد الله، ذلك عام 1993. قام بينهما حب متبادل، فاقترنا بالزواج في السنة عينها. لها أربعة أولاد. تجمع الملكة رانيا بين الأناقة والجمال من جهة ولطافة الشبيبة ويقظة الفكر من جهة أخرى. تذكرني بأول امرأة من نساء النبي، التي هي أيضًا كانت سيّدة يقظة الفكر ومستقلة تُدير تجارتها وتعرف ماذا تريد. خديجة بنت خويلد والملكة رانيا كلتاهما في نظري مثال للنساء المسلمات. الملكة رانيا هي عندي بطلة سامية من أبطال السماحة في الإسلام. في فترة العشاء تناقشنا حول السؤال: كيف يمكن أن يهدّب الأولاد قبل كل شيء على سماحة أكبر تجاه الآخرين..؟

من يلتفت لأول مرة إلى الإسلام والنبي محمد، يجدر به أن يتناول مؤلفات كارين أرمسترونغ، إنّها سهلة الفهم وعميقة الفكر. فالراهبة القديمة من إنجلترا التي اعتنقت الإسلام تنجح في أن تعرض علينا الإيمان الصالح الحقيقي الذي نشأ في مكة والمدينة. لقد صادفتها مرّات عديدة في باكستان والأردن بمناسبة محاضرات ألقته، وتعلّمت منها الكثير. عام 2008 نالت تشريفًا لها "جائزة العبادة" من معهد روزفلت، وجائزة تيد (TED) في نيويورك. كتبها التي يمكن أن تُقرأ هي "محمد داعية دين ورجل دولة"، و"الإسلام: تاريخ موجز"، و"تاريخ الله"¹¹⁴. هذه يجب أن توضع في كلّ خزانة كتب.

هناك عالم يحبّ السكينة والتأني، شرح الإسلام باجتهاد عجيب للألمان خصوصًا وقرّبه إلى فهمهم. هو البروفسور عادل تيودور خوري. وُلد في لبنان، يتكلّم اللغة العربية بمرونة، درس

¹¹³. المرجع السابق، ص 70.

¹¹⁴. راجع:

Karen Armstrong, Muhammad : Religionstifter und Staatsmann ; - Islam : A Short History ; - A History of God.

الفلسفة واللاهوت في جمعية المرسلين البولسيين للروم الكاثوليك، ثم تخصص في الفلسفة في معهد الدراسات العالية في بيروت التابع لجامعة ليون الفرنسية وفي العلوم الشرقيّة في الجامعة اليسوعيّة في بيروت. بعد حصوله على التأهيل للتدريس الجامعيّ في ليون عُيّن عام 1970 من قبل الجامعة الألمانيّة في مونستر أستاذًا ومديرًا لمعهد علوم الأديان في كليّة اللاهوت الكاثوليكيّ. دام نشاطه فيها حتّى عام 1993، سنة تقاعده عن التدريس الجامعيّ. البروفسور خوري مؤسس ومدير مركز الأبحاث في الحوار والتعاون بين المسيحيّين والمسلمين في حريصا (لبنان). من مؤلفاته الغزيرة ترجمة ألمانيّة جيّدة لمعاني القرآن الكريم (الطبعة الخامسة عام 2011)، وقد استعملتها في هذا الكتاب، - وأجمل كتاب صدر في ألمانيا بعنوان "القرآن" عام 2005 (عرف حتّى الآن ثلاث طبعات)، - وتفسير للقرآن يقع من 12 مجلدًا كبيرًا (1990 - 2001)، وتفسير موجز للقرآن (2007)، - السماحة في الإسلام (1980)، طبعة ثانية (1986)، - هناك أيضًا أكثر من عشرة كتب إضافية، منها "هكذا تكلم النبيّ". منتخبات من الحديث (1988)، - "الإسلام في عقيدته ونظامه" (الطبعة السادسة 2001؛ الترجمة العربيّة: جونية - لبنان 1997)، - معجم الإسلام (1991)، - ماذا يقول القرآن في الجهاد؟ (1991)، طبعة ثانية (2007)، - المسيحيّون في ذمّة الإسلام (1994)، - الإسلام والغرب (2001)، - في سبيل العيش بسلام مع المسلمين (2002)، - الحديث (في خمسة مجلّدات 2008-2011).

إنّ مؤلّفات عادل تيودور خوري تثير الإعجاب، هي مساهمة ثمينة في التفاهم بين المسيحيّين والمسلمين. إنّي أدين له بالشكر الجزيل أنّه زوّد هذا الكتاب بملاحظات ثمينة.

لا يسعنا بدون الإمام علميًا بالإسلام وبعياة النبيّ أن نفهم فهمًا جيّدًا هذا الدين العالميّ، ولا أن نكتشف ماذا أراد محمّد والقرآن الكريم فعلاً. من هنا أعدّ كارين أرمسترونغ وعادل تيودور خوري من العلماء المفكرين حول السماحة، إذ إنّهما قدّما مساهمة ضروريّة وممتازة لاكتشاف قطع السماحة الذهبيّة في الإسلام.

هناك في الإسلام أبطال آخرون في حقل السماحة وسباقون في حقل الحوار، شخصيات كبيرة يجدر ذكرهم هنا: في لبنان من السنّيين المشهورين محمّد السمّك ومنير سعد الدين، ومن الشيعيّين الشيخ شفيق جرادي والمرحوم آية الله العظمى محمّد حسين فضل الله، ومن طهران في إيران آية الله محمّد عليّ التسخيري.

في عام 2007 بادر العاهل السعوديّ عبد الله بإحياء أشكال التراث القديم في الحوار بين الأديان التي كان النبيّ محمّد يمارسها مع نصارى الحبشة ونجران ومع يهود المدينة من عام

610 إلى 632، ويعلق عليها أهمية كبيرة. ففتحت المملكة للحوار حول الاحترام المتبادل وصار بذلك الأمين الأخلاقي على روح الحرّمين الشريفيين في مكة والمدينة. قال: "إنّ الناس بعثهم الله في الأرض شركاء متساوي الحقوق: فإمّا أن يعيشوا معاً في سلام وتناغم، وإلّا غاصوا في نيران سوء التفاهم والخيانة والبغض. فأن الأوان أن نتحد على أساس قيم أخلاقية. كل إرهابي هو عدو لكل دين وعدو لله". ودعا "إلى حوار أخوي جدي بين مؤمني جميع الأديان".

في 7 تشرين الثاني (نوفمبر) 2007 زار الملك عبد الله خادم الحرّمين الشريفيين البابا بندكتس السادس عشر في الفاتكان. فدعا كلاهما إلى الحوار بين المسلمين والمسيحيين لتعزيز السلام والعدالة والقيم الأخلاقية. وفي آخر السنة دعا العاهل السنيّ الرئيس الإيراني الشيعيّ أحمددي نجاد إلى الحجّ في مكة. كانت تلك المزة الأولى التي يكرّم فيها ملك سعوديّ بدعوة مثل هذه أحد قادة الشيعة.

الشيخ عبد الرحمن آل سديس، إمام المسجد الكبير في مكة، يعدّ أحد الوهابيين المنفتحين في البلد. هو يشارك الملك موقفه، فدعا في أوّل حزيران (يونيو) 2007 في إسلامباد إلى "حلّ النزاعات بالحوار، وحماية حقوق الإنسان ودعم التناغم والتآخي وبذلك محاربة الأفعال السيئة".

في حزيران 2008 نُظمت ندوة مهمّة في مكة، دعا فيها الملك عبد الله قادة المسلمين إلى أن ينطقوا بصوت واحد. وخلال الشهر نفسه عقد أوّل حوار دولي بين الأديان في مدريد شارك في عقدها ذلك البلد المسيحيّ الكاثوليكيّ العريق وملكّه. وفي تشرين الثاني أطلق المبادرة الناجحة باسم "سلام الثقافة" في الجلسة العامّة للأمم المتّحدة، وانضمت إليها بلدان إسلامية ومسيحية ودول أخرى.

في 27 تشرين الثاني 2012 بلغ نشاطه في سبيل التصالح ذروته بافتتاحه في فيينا / النمسا "مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدوليّ للحوار بين الأديان والثقافات" كمؤسسة دولية مستقلة. وقد شاركت في التأسيس دولتان هما النمسا وإسبانيا. والكرسيّ الرسوليّ في الفاتيكان بروما مرتبط برتبة مراقب. من فريق الإدارة ممثلون عن جميع الأديان العالميّة الكبرى. جميعهم يريدون تعزيز الحوار بين الأديان والتفاهم المتبادل ومساندة المركز بصفته دؤارة التواصل في سبيل التضامن في العمل والتناغم. في مجلس الاستشارة يعمل مئة شخصيّة من جميع الأديان والثقافات. انطلق العمل الحميد في هذا المركز الوحيد بندوة حول أفضل سُبل النشاط، الذي يؤدّي مساهمة هامّة لفهم ما تقدّمه جميع الأديان من منطلق للسماحة والاحترام. من هنا يليق بالعاهل السعوديّ لقب "بطل السماحة الملكيّ".

في العربية السعودية عينها يتصرف الملك في سبيل تحديث البلد تصرفًا حذرًا. فليس جميع الأشخاص البالغ عددهم نحو خمسة آلاف من أمراء وشيوخ وفقهاء أصحاب الفتاوى مقتنعين بضرورة الحوار المليء بالاحترام مع المسيحيين واليهود والبوذيين والهندوسيين. وهناك بعض القوى المحافظة التي تمنع بانخراط أشد للنساء في الحياة العامة، مع أنهن في نطاق المنزل لهن تأثير لا يقل عما هو مألوف في العالم الغربي. هناك في البلد فجوة واضحة بين مؤيدي الإصلاح والمتمسكين بالعادات المتوارثة الذين يعتبرون البلد والإسلام أرضًا مقدسة مُغلقة.

اتجاه الدين الرسمي في دولة السعودية الوهابية يرفض الكثير من أنواع الإصلاح. بفضل توطنه في العربية السعودية ومساندته المالية الطائلة لنشر الإسلام، ينمو ثقله الاقتصادي والسياسي بشكله الإسلامي المتشدد في العالم الإسلامي والغربي. فمبادرات الملك الإصلاحية لا تزال وجلة في السياسة الداخلية. فلا يُسمح ببناء كنائس واقتناء كتب مقدسة. ولا يجوز للنساء أن يقدن سيارات. والملك يكافح ضد مقاومة شديدة في سبيل تثقيف النساء - وإن كان ذلك أمرًا طبيعيًا بالنسبة إلى النبي محمد. هناك اليوم 40 ألف طالبة يدرسن في الرياض. وفي كانون الثاني (يناير) عين الملك عبد الله ثلاثين امرأة في مجلس الشورى الذي يضم 150 عضوًا، وأمر بأن يخصص لهن عشرون بالمئة من المقاعد. فمن يتأمل أي دور سائد قامت به أولى نساء النبي خديجة في مطلع الإسلام، تبدو له هذه الخطوة متأخرة جدًا. ولكن من الواضح أن الملك يعود رويدًا إلى جذور الإسلام. وهي يلقي من قبل الشيبية وأرباب العمل مساندة لإصلاحاته. فالبلد هو اليوم في مجرى التحرك. والإمارات العربية المتحدة وقطر بينت للنخبة السعودية كيف يمكن لشكل من السلطة المتوارثة أن يرتبط ارتباطًا صالحًا بإصلاحات متنوعة ويشارك النساء فيها.

9. مجموعة القطع الذهبيّة العشر حول السماح في الإسلام

هل من الممكن أن يشدّ النبي محمد زنارًا من المتفجرات ويفجر نفسه في جماعة من المدنيتين؟ أو أن يسير طائرة في برج عالٍ، أو أن يجلد أو يقتل إن كان معه أحد ينتمي إلى شعب معين أو إلى دين آخر؟ أو أن يقتل شيعيين لأنهم يؤمنون بالله إيمانًا يختلف نوعًا ما عن إيمانه؟

هذه أسئلة سخيفة لمن يعرف سيرة حياته وطموحاته ويقرأ القرآن بكامله ويفهمه.

اضطرَّ النبيُّ محمَّدٌ طيلة حياته إلى أن يقاوم العُلاة بين أصحابه، الذين كانوا يتجاوزون هدفه وعن طيب نية يُضعفون الإسلام في النهاية بسبب عدم تسامحهم. فإنَّه كثيرًا ما لجم اندفاعهم، كما يرد ذلك في الحديث.

كان النبيُّ نفسه مثلاً حيًّا للرحمة والتفهّم والفضل والرفق. فعلى كلِّ مسلم مؤمن حقًّا أن يتبع حُطاه.

إنَّ قرآن النبيِّ محمَّدٍ الحقيقيّ هو دومًا رحيم متوجّه نحو التناغم والسلام. هذه هي تربة الإسلام. في هذه التربة فقط، تربة الجلم، يستطيع دين محمَّد أن يأتي بثمار ذهبية، كما كان الوضع في قرطبة أو بغداد في قديم الزمان.

في مفهوم الإسلام يجب أن تُنسب السماحة إلى الله نفسه. فالله في القرآن ليس ملاكًا ثار سيفه في يده، بل هو قبل كلِّ شيء جزيل الرحمة.

للأسف نلاحظ أنّ نواة السماحة في الإسلام غاصت في النسيان في البلدان الإسلاميّة كما في الغرب. فهي تُدخّر إلى الخلف في وسائل الإعلام على يد دعاة العنف.

كان الدّين القديم في مكّة دينًا مسالمًا متسامحًا، فحوّله بعض المتطرّفين والمُغالين على مدى 1300 سنة ماضية، إلى تعليم محرّف يدعو إلى الإقصاء والقتال الدائم ضدّ أصحاب الإيمان المختلف. تعلّقوا بما يقلّ عن واحد من ألف من آيات القتال للدفاع عن النفس في المرحلة الثانية في المدينة وجعلوها أهمّ من كلِّ أنواع التسامح. بذلك حوّلوا التعليم الحقيقيّ الصالح المسالم إلى خلافه. فضاع نظرهم إلى مجمل القرآن وتعلّقوا ببعض النثرات القليلة. ولا يفهمون إلى أي هدف يريد الدّين أن يسير بهم وما كان في نظر محمَّد بالغ الأهميّة.

الوضع هنا مثله في أكثر الأديان الأخرى، بما فيه الدين اليهوديّ والدين المسيحيّ، فالمتشدّدون يضيّقون مجال النصوص المقدّسة بشكل مطّرد ويفسّرون القرآن على وجه يزداد فيه عدم الرفق تجاه الناس. قد يكون أنّهم يريدون إقامة الجنّة في الأرض - مع العلم أنّ هذا لم يتسنّ لأحد حتّى اليوم - ولكنّهم يزجّون الناس في دكتاتوريّة عدم التسامح. من غير المستبعد أن يكون هذا الميل إلى المغلاة عالقًا بالطبيعة البشريّة.

إنّهم يتناسون وصيّة الرحمة الأساسيّة التي بدونها يكون القرآن كتابًا بلا قلب. وهم ينصبون أنفسهم مع جميع أعمالهم الضارية بدلًا من مقام الله في عقابه، ويجعلون من أنفسهم إلهًا.

هناك أناس يدعون أنفسهم إسلاميين حولوا تعاليم النبي ومعاني القرآن إلى خلافها السيئ، إلى إيديولوجيا البغض والقتل، لا إلى الدعوة إلى السلام والرحمة والتناغم. فهم لا يريدون الإقناع بالكلام، بل القتل بالمتفجرات. بذلك يخونون النبي محمداً والقرآن الكريم. ويلوثون بشارات الله الحكيمة.

مسجد السماحة الذهبي غطته على مدى 1380 سنة فائتة منذ وفاة النبي، طبقة عريضة سوداء بواسطة تفاسير خاطئة ضيقة والأعيب سلطة سياسية وعادات عربية، فطمست النواة الحقيقية الذهبية.

إنَّ بحثنا عن القطع الذهبية للسماحة والاحترام تجاه الأديان والأعراف والأقليات الإثنية الأخرى أدى إلى الكشف عن كنوز غنية.

فالدعوة في الإسلام التي أرادها الله إلى السماحة والاحترام تجاه الأديان والأقليات الإثنية والأعراف الأخرى تنتج من مفعول المصادر التالية، القطع الذهبية العشر التالية حول السماحة:

1. أولية الرفق والرحمة الشاملة عند الله وفقاً لسورة الفاتحة وجميع سور القرآن الأخرى. هذه الطباع يجب على كل مسلم أن يسعى وراءها. فمن لا عطف عنده ولا مداراة تجاه البشر بكل اختلافاتهم وأخطائهم، يشتم الله. أما من يرحم المخالفين والخطاة فهو مسلم صالح حسب تراث محمد ووفقاً لمشيئة الله. الرحمة هي الفضيلة الأصلية لكل مسلم مؤمن.

2. إنَّ دلالة التحية "السلام عليكم" هي عند المسلمين تحية الاحترام تجاه جميع البشر وتبين أفضلية صنع السلام. كل مسلم عليه أن يعزز السلام، لا الحرب.

3. إنَّ هدف التناغم الذي مارسه النبي هو مجتمع يسود فيه الجلم والاحترام أمام الله والبشر، والرجوع عن مجتمع البطش في سبيل المصالح المادية، والقتال المتواصل والأنانية والجهل كما مارسه مكة حتى عام 630. زد على ذلك مطالبة النبي لجميع المسلمين أن يقابلوا شركاءهم في الإنسانية بالصفح والرفق والأعمال الصالحة. فإنَّ القرآن يندد بـ"الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ" (سورة الشعراء 26: 152؛ سورة البقرة 2: 27؛ سورة المائدة 5: 33). كل مسلم عليه أن يسعى في إقامة مجتمع حلم متسامح وأن يسانده عملياً ويقضي على منازعات الجاهلية، - كما فعل النبي في مكة.

4. يجري العقاب في يوم الدين، لا على الأرض، كما تعبر عنه سور عديدة. والديان هو الله، لا الإنسان. وهو يقضي بالحكم النهائي (هكذا في الآيات التالية: 58: 7؛ 43: 74 - 76 و77).

والجزء يُمنح في الجَنَّة، لا على الأرض (هكذا في الآيات التالية: 3: 15؛ 4: 57؛ 13: 20-24؛ 22: 14؛ 29: 58؛ 40: 8؛ 84: 25). فالعقوبات وأشكال الأجر القانونيّة في الدنيا حسب القرآن تخضع دومًا لأوليّة الجزاء الأخير من قِبَل الله، لا عن يد الإنسان. فلا يجوز لأيّ مسلم أن يحكم على آخرين بلا رحمة.

5. إنّ مثال النبيّ السياسيّ للدولة هي المصالحة بعد فتح مكّة من عام 630 إلى 632، إذ إنّه لم يُقم فيها دولة إسلاميّة بحكم الله، بل حافظ على البنى السياسيّة القديمة وعفا أيضًا عن مناوئيه. بهذا أقام إشارة لا تُنزع إلى الفصل بين الإيمان والسياسة، بين الإسلام والدولة، ودعا إلى علمنة ممارسة، ورفض سيادة من قِبَل البشر المعرضين للخطأ، والمتأكلين على السلطة والخطأة، تُقام على الأرض باسم الله. فحظر الشرك في سورة النساء 4: 48 ينطبق في نظري على المتسلّطين وأشكال الدولة الإلهيّة، التي تنسلّ بين الله والمؤمنين وتطالب بتكريمها. كان النبيّ محمّد يكره الطغاة والمتعصّبين وكابتي الناس. على كلّ مسلم وكلّ مسلمة أن يكونا من صانعي المصالحة.

6. الدلائل الكثيرة على إلزاميّة النصوص المقدّسة القديمة وتعليم الأنبياء الأربعة عشر الآخرين الذين لا يزال اليهود والمسيحيّون يتبعونهم. وأيضًا بشارة يسوع المسيح. هذه كلّها لا تزال مُلزّمة تمام الإلزام بالنسبة إلى المسلمين ما عدا بعض الاختلافات (راجع الآيات التالية: 2: 62؛ 6: 92؛ 10: 37؛ 40: 53؛ 42: 13). المسلم الصالح يحمل معه الحكميّات اليهوديّة والمسيحيّة.

7. الأقوال الأساسيّة في القرآن حول السماحة الدينيّة. منها أنّه "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" (2: 226)؛ كلّ جدال يجب أن يكون "بالتّي هي أحسن" (29: 46)؛ - إله المسلمين هو نفسه إله اليهود والمسيحيّين: "وَالْهَنَاءُ وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ" (29: 46)؛ إنّ الله شاء أن يكون هناك تعدّد دينيّ (5: 48)؛ - "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي" (109: 6)؛ - كلّ مسلم مؤمن يمارس السماحة الدينيّة.

8. التركيز على الإيمان بالله وإقناع غير المسلمين بواسطة كلام الله فقط، لا بالسيف الدنيويّ والإكراه على اعتناق الإسلام. فالمفروض وفقًا لسورة المائدة 5: 48 هو "فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ".

9. إنّ استعمال العنف يقتصر بوضوح على الدفاع عن النفس وذلك فقط ضدّ المُعتدي ما دام هو يسبّب خطرًا مباشرًا (راجع 2: 190-192). وتحدّر سورة المائدة 5: 32 من أنّ "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا". فالمدنيّون الذين ليس لهم ضلع في الأمر لا يحقّ لأيّ مسلم مؤمن أن يهاجمهم.

10. الإلزامية الدائمة إلى الأبد للمعاهدات الأربع عشرة التي عُقدت مع المسيحيين بما فيه حماية ممارسة دينهم بحرية: عهد النبي نفسه مع دير القديسة كاترينا عام 628؛ أيلة ونجران عام 631؛ وعهود خلفائه في الحيرة ورققة وإديسا؛ ودمشق عام 635؛ وبعلبك وحمص والقدس عام 638؛ وبعد ذلك أذربيجان ودبيل.

إن احترام المسيحيين يتفق وتصرف النبي وتراثه، هو والمسلمين الأوائل. أرسل مسلمين من مكة إلى الحبشة المسيحية. فنجا المسلمون المئة الأولون واستطاعوا أن يمارسوا دينهم الجديد بحرية، ذلك لأن النجاشي، ملك الحبشة المسيحي، استقبلهم كلاجئين من عام 615 إلى عام 630، ولم يُسلمهم إلى مناوئهم من مكة رغم مطالبة هؤلاء. زد على ذلك أن الأقباش نجحوا في طلبهم إلى المكين برفع الخصومة عنهم. فالمسلم الذي يحترم المسيحيين اليوم، يشكر وفقًا للعادات العربية المسيحيين لحمايتهم المسلمين قبل 1300 عام، ويجدد معاهدة الصداقة على مثال النبي.

هناك أيضًا التبادل الديني الصريح مع المسيحيين واليهود في عصر الإسلام الذهبي في القرن التاسع ببغداد وقرطبة وكل المملكة الإسلامية الكبيرة. فالإسلام بفضل جو من التعدد والاحترام تمكن من اكتساب قدرة داخلية واندفاع وقيمة عالمية. أما عدم التسامح وعظمت البغض فإنها تقلل من قدره وقوته.

في مجال الأمم المتحدة طُور هذا التراث الإسلامي الذي أصدر ما يُقارب 14 معاهدة صداقة وضممان، في وثيقة الأمم المتحدة ووثيقة حقوق الإنسان، اللتين تضمنان اليوم للمسلمين أيضًا الحرية الدينية الكاملة في البلدان المسيحية وسواها. فبدل من تأدية الجزية كما فرضت سورة التوبة 9: 29، تقوم اليوم الحماية المتبادلة. من هنا تبطل مقابل ذلك تأدية الجزية المعروفة قديمًا لضممان حماية الأديان الأخرى.

إن عناصر التسامح والاحترام العشرة في الإسلام لهي معًا أكبر عددًا وأهم تاريخيًا وأقوى في شكلها وتواصلها بكثير من بعض السور والأحاديث، التي توحى بتصرف أشد تجاه غير المسلمين. هذه السور كلها تعني وضع الدفاع عن النفس ضد مهاجمين أو كبت الدين. ونوع الدفاع هذا محصور وفق قواعد الجهاد الصارمة بالمهاجم المباشر وبالهجوم. فإن هناك أيضًا في التوراة والعهد القديم من الكتاب المقدس مثل هذه الآيات القاسية، التي لم تعد تفهم كأنها قواعد مطلقة، بل هي مربوطة بسياق المعنى الحقيقي المرتكز على الإيمان بالله وعلى تعليم الكتب المقدسة الصحيح.

إنَّ مسجد السّماحة الرّائع يجب أن يتخلَّص من عُبار ورمّل السنين الألف والثلاثمائة الأخيرة. فالآن يجب أن تقوم في القرن الحادي والعشرين نهضة تبيّن اللبّ الذهبيّ الكامن في بشارة الله في القرآن، أي أن تنوّه بمجتمعٍ مليء بالحلم لجميع البشر، وللنساء أيضًا، تسود فيه الرحمة والاحترام تجاه المسيحيّة والدين اليهوديّ.

إنَّ المجاهدين المدعوّين إسلاميّين، ومنهم السلفيون والوهابيون المتشددون والإخوان المسلمون، ليسوا فقط من الفاعلين، بل هم أيضًا ضحايا خطأ في الفهم وضيق القلب. عليهم أن يهتمّوا اهتمامًا أعمق بجذور الإيمان الحقيقيّ وبقرارات القرآن والنبّي حول السّماحة، وأن يملأوا حياتهم مجدّدًا بالحلم والرحمة. هذا يعود بهم إلى إيمان محمّد الصحيح الصافي، ويعود بالإسلام في انطلاقة مليئة بالسلام إلى ازدهار جديد.

إنَّ المتطرّفين يهتمّون كثيرًا جدًّا بالمظاهر، مثلًا هل يريّ الرجل لحيّةً أو تلبس المرأة خمارًا؟.. هذا لم يتطرّق له القرآن في آياته البالغ عددها 6236 آية باهتمام زائد. تعليم الله هذا دار دائميًا قبل كلّ شيء حول الإيمان الباطن، سطحيًّا حول لباس أو رموز خارجيّة. فالهمم ليست حُلة المسلم، بل قلبه الطيّب وأعماله الصالحة والإيمان الباطن العميق. لهذا اهتمّ النبيّ محمّد طول حياته.

بعض منتقدي الإسلام في الغرب يعتبرون الكلمات والأفعال العدائيّة من قبل متشدّدين مسلمين أهداف القرآن والنبّي الحقيقيّة. ولكنهم يُخطئون فهم ما هو حقّ وصالح وأساس لدعوة هذا الدين العظيم. ويتجاهلون إلى ذلك القطع الذهبيّة الكثيرة حول السّماحة.

القرار القاطع هو أنّ على الأكثرية التي تؤلّف 99 بالمئة في البلدان الإسلاميّة أن تدافع بإقدام عن القرآن الحقيقيّ الداعي إلى الحلم، ضدّ تجاوزات المتشدّدين العالقة في جوّ الجاهليّة، ولا يتركّ الداعين إلى البغض القلائل يستولون على تفسير القرآن. فلا يجوز لها أن تتخلّى عن النبيّ وتعاليمه الحقيقيّة.

من يدافع عن محمّد والقرآن الكريم؟ أين هم أصحاب السياسة الشجعان في العالم الإسلاميّ الذين ينتصبون حاجرًا ضدّ الهجمات على القرآن والنبيّ؟ الذين لا يحولون أنظارهم ولا ينخرطون في اتجاه المتطرّفين القلائل؟

إنّ الفتاة الباكستانيّة ملالا يوسفزاي، التي عمرها 15 سنة وجاهدت في وادي سواط ضدّ الطالبان في سبيل تثقيف الفتيات في المدارس، وأصابتها في رأسها رصاصة الإرهابيّين. إنّها

أشدَّ شجاعة من أكثر القادة والوزراء والأمراء في العالم. صمت النخبة الإسلاميّة يجب أن يوضع له حدٌّ. وينبغي لمواطنين شجعان أن ينهضوا ويدافعوا عن الإسلام الصحيح.

العالم الإسلاميّ بحاجة إلى مزيد من الحقيقة وإلى سماحة واحترام، كما هو بحاجة إلى مزيد من فُرص التثقيف وفُرص العمل. هذا جهاد المودّة والرحمة باسم النبيّ ومن أجل إسلام حقيقيّ صالح متسامح.

10. النبيّ محمّد في قوله: "وأنا خيركم لأهلي"

إنّ وضع النساء في الإسلام هو أمر بالغ الأهميّة يختلف بشأنه العالم الغربيّ الحديث ومبدأه الملزم للمساواة في الحقوق، اختلافاً واسعاً عن التيارات الإسلاميّة المتسلّطة عند الوهابيّين والسلفيّين والإخوان المسلمين. وفقاً لإحصاء أجره المعهد المشهور النّسبّاح بتاريخ تشرين الثاني (نوفمبر) 2012، يعدّ 83 بالمئة من الألمان هضم حقوق النساء أهمّ نقطة في تقديرهم للإسلام¹¹⁵.

إنّ وثيقة الأمم المتّحدة من عام 1945 تذكر في مقدّماتها أنّ المساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة والتقدّم الاجتماعيّ ومستوى حياة أفضل هي أهداف الأمم المتّحدة. البلدان الإسلاميّة أعضاء في الأمم المتّحدة وبذلك ملتزمة بهذه الأهداف. هذا الالتزام كثيراً ما يغيب عن النظر أو يُصيبه التجاهل.

إنّ الجدل حول المساواة في الحقوق في العالم الإسلاميّ عليه قبل كلّ شيء أن يعي أنّ النبيّ عامل نساءه وبناته بالحسنى. هذا مثال ذهبيّ في الإسلام. فلا يحقّ لأيّ مسلم مؤمن ولا لإسلاميّ متطرّف أن يعامل نساءه معاملة أسوأ ممّا فعل النبيّ كمثال للمسلمين.

يبدأ تحليلنا بمفاجأة عظيمة: دين عالميّ واحد ساندته امرأة مالياً لدى انطلاقاته وحقبته الأولى. هو الإسلام. هذه المرأة هي أمّ الإسلام. تُدعى خديجة بنت خُوَيْلِد (نحو 555 - 620). هي امرأة مستقلّة وتاجرة ناجحة عزيزة النفس من مكّة. فتكرّمًا لها دُعيت في مكّة بخديجة الكبرى. فأخلاقها وخصوصاً نشاطها الاجتماعيّ أدّت إلى تسميتها أميرة قُرَيْش، والطاهرة.

¹¹⁵. راجع:

Thomas Petersen, Die Furcht vor dem Morgenland im Abendland, Frankfurter Allgemeine Zeitung, 21. November 2012, 10.

كانت قد تلقّت من والدها إرثًا ضخمًا، وازداد عندها بنشاطها الناجح. كانت قوافلها في سيرها في الصيف إلى سوريا وفي الشتاء إلى اليمن تضاهي في حجمها مجموع قوافل قبيلة قريش الأخرى. كانت قد تزوّجت مرتين وأنجبت ابنين وابنة واحدة. كان زوجها قد توفّي كلاهما عند قدوم محمّد. وكانت قد رفضت عدّة طلبات زواج، هي الأرملة الغنيّة النشيطة.

كان محمّد يعمل عند عمّه أبي طالب كمرافق للقوافل. فعينته أهمّ تاجرة ناجحة في مكّة كمعاون في أعمال نقلها. كانت هي الرئيسة الأولى والوحيدة، وفي الوقت نفسه مديرة عمل النبيّ. كان هو يقوم بمهمّته بنجاح كبير، فنال تقدير مديرتة. فكانت تقول له: "إني قد رغبتُ فيك لقربتك وسطتك"¹¹⁶ في قومك، وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك"¹¹⁷.

وقد حدّث النبيّ أنّ الله أعدّ له امرأته هذه فقال إنّ الله وضع حبّها في روحي.

هذه المرأة كان لها أثر كبير في تحريك الوعي الدينيّ عند النبيّ. فابن عمّها كان الراهب المسيحيّ ورقة بن نوفل. جاء في حديث البخاري: "لم ينشَب"¹¹⁸ ورقة أن تُوفّي وفتّر الوحي"¹¹⁹. فلعلّ هذا القسّ الذي كان يعيش في مكّة كان يدفع محمّدًا إلى البحث عن الله وكان هذا يتأثر به مثل مرشدٍ أكبر سنًا منه. ويُقال أيضًا إنّه أقنعه بأنّه نبيّ زمانه. وقرب النبيّ من المسيحيّين اتّضح عندما أرسل فئة من المسلمين الأوائل إلى الحبشة إلى مملكة النجاشي المسيحيّة في منفى آمن.

لم يكن محمّد هو البادئ بالأمر. بل كانت هي التي عرضت عليه بوسيط (منهم من يظنّ أنّ الوسيط كان ورقة بن نوفل) أن يتزوّجها. كان ذلك بعد نجاحه كتاجر في تنظيم رحلات قوافلها إلى سوريا. فكان عليه أن يبيّن قبل الزواج مقدرته المهنيّة وحسن أخلاقه.

كان عمره 25 عامًا، وكانت هي قد بلغت الأربعين.

كانت خديجة بنت خويلد "امراة تاجرة ذات شرف ومال"، كما جاء في السيرة النبويّة¹²⁰.

كان أمر محمّد منوطًا بنصيحتها وتأييدها، ليس فقط ماليًا، بل أيضًا عاطفيًا. فأمضت 25 سنة تدعمه بنصائحها وتسندة عاطفيًا كأساس استطاع معه أن يتلقّى القرآن ويقوم بمهمّته.

¹¹⁶. أي لأنك شريف في حَسَبك.

¹¹⁷. ابن هشام: السيرة النبويّة 1، حديث تزويج رسول الله خديجة، القاهرة، ص 115.

¹¹⁸. أي لم يلبث.

¹¹⁹. صحيح البخاري بشرح الكرمانى 1، 38: راجع أ. جوزف قزّي: هذا هو الإسلام، لبنان 2006، ص 1363.

¹²⁰. عن ابن اسحاق في ابن هشام: السيرة النبويّة 1، القاهرة، ص 114.

كان محمّد بعد دعوته في حراء بجبل النور إذ كان عمره قد بلغ الأربعين، حائرًا في أمره جدًّا. ولكنّه لم يسأل أحدًا من الرجال، بل امرأة هي زوجته خديجة هل عليه أن يبدي اهتمامًا بصوت الملاك جبريل وبدعوته كنبّي، أم هو واقع فقط في ضياع. قال لخديجة، إنّه لم يكره قطّ شيئًا أشدّ من كرهه للأوثان والكهّان الوثنيين. ولكنّه الآن يخشى أن يكون هو نفسه كاهنًا، فإنّه يرى أنوارًا ويسمع أصواتًا. - فقامت زوجته بتهدئة روعه وتعزيبته. فصارت بذلك في أدقّ مرحلة له الأساس الأوّل للإسلام النابت، وركيزة سند لمحمّد.

تُرى أكان الإسلام نشأ لو أنّ هذه المرأة أبعدت زوجها عن الوحي؟ أكان محمّد قادرًا على التصدي للضغط الداخلي لولا تشجيع زوجته الحبيبة وموافقتها. إنّ خديجة حملت النبي على أعمدة أربعة: أيدته عاطفيًا بحبّها؛ ومنحته الاستقلال المالي؛ كانت محبوبه في مجتمع مكّة؛ وكانت إلى ذلك عضوًا مهمًّا في قبيلة قريش ذات النفوذ الكبير.

وحلّت فترة انقطاع الوحي الطويلة حتّى عودة إثباتها، وكانت قد طالت من نصف سنة على الأقلّ إلى ثلاث سنوات. فيها كان باستطاعة امرأة أن تساند زوجها في اتّباع دعوة الله أو أن تبعده عنها. فإنّه اضطرب طويلًا وبشدة وتنازعته مخاوف وشكوك. هي تلك المرأة كانت معاونة لتنزيل القرآن ومنحته ثقة بالنفس وتوجّهًا صائبًا ووعنًا ومساندة حاسمة¹²¹.

بدأت في المرحلة الأولى تؤمّن الأساس المالي للإسلام بفضل نقلياتها وتجارتهها، فصارت أوّل مؤيِّدة حاسمة للبحث الطويل والمليء بالمخاطر عن الله. فهذه المرأة أعطت محمّدًا في أعوام انطلاقته في الحياة عمله الأوّل ولقمة عيشه ونوع نشاطه. هي التي مكّنته من ارتقاء سلّم الشهرة الاجتماعيّة واكتساب تقدير الشعب، إذ كانت هي - لا هو - ذات منصب رفيع في مجتمع مكّة، مع أنّها كانت امرأة - إذ كانت غنيّة ناجحة.

وكانت أوّل من اعتنق الإسلام في العالم بعد محمّد، فأضحت "أمّ الإسلام" و"أمّ المؤمنين" (راجع سورة الأحزاب 33: 6). بذلك أضفت على رسالته في عيون مواطنيه أولى سمات الأصالة ونالت له احترامهم.

هل كان محمّد والمسلمون القلائل المضطهدون في مكّة المعادية لهم استطاعوا أن يبقوا على قيد الحياة بدون مساندتها الماليّة والمعنويّة، ويحتملوا ضغط الأعداء الماليّ والنفسيّ مدّة طويلة؟

¹²¹. راجع:

A. Th. Khoury, Einführung in die Grundlagen des Islams (Köln 1981), 4. Auflage, Altenberge 1995, Neudruck 1999, 22.

من المرجح أنهم ما كانوا ليستطيعوا البقاء والاستمرار دون مساندتها. هي التي حامت عن أول أغصان الإسلام الرقيقة.

خديجة بنت خويلد بقيت تسانده في أوقات العداة الصعبة، عندما كان يناضل ضد الجهل والكبرياء والتصلب.

كان كلاهما ينطلق كل عام في رمضان للاختلاء في غار حراء في جبل النور، يقضيان الوقت في الراحة والتفكير في الله والكون وفي الصلاة.

هي مكنته أن ينعم بحريته ويعمل الفكر في الله، ولو كان ذلك يضطره إلى إهمال عمله ويعرضه إلى فقدان مقامه التجاري في مكة. إن السنين الخمس عشرة الأولى من هذا الزواج أهدته قوة باطنة كبيرة، واستقلالاً وأساساً عاطفياً صامداً، إلى أن نزل عليه القرآن.

أحبها النبي حباً جماً. فكانا معاً زوجين شديدي العزم، عاشا معاً سعيدين، ولم يتزوج محمد عليها طيلة حياتها. عندما توفيت في عام 620 وعمرها 65 سنة، كان ذلك له "عام حزن"، دُفنت بالحجون بالقرب من مكة. ولم يزل محمد يذكرها مراراً كثيرة بعد وفاتها. وعندما كان يُهدى إليه شيء كان يعطي حصّة منه إلى أقرب أصدقاء زوجته المتوفاة. كانت امرأته الفتية عائشة تغار منها بشكل خاص. فقال لها محمد: "لا والله، ما أخلف الله لي خيراً منها، لقد آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله أولادها إذ حرمني أولاد النساء" (حديث في مسند أحمد). - وقال: "خير نساها (أي السماء) مريم بنت عمران، وخير نساها (أي الأرض) خديجة بنت خويلد (البخاري، مسلم، الترمذي). وكان يؤكّد بان دفاع: إن الله غداني بحبها.

أنجبت له ستة أولاد. الابن القاسم وعبد الله توفياً. والبنات الأربع هنّ زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فكانت أسرة محمد تتألف من رجل وخمس نساء. ثمّ تبنّى محمد عبيد كانا في خدمته.

حلّ الوقت لأنّ تُقام هذه المسلمة الأولى والعظيمة مثلاً لجميع النساء في العالم الإسلامي وأن تُسمّى مساجد وجامعات باسم خديجة بنت خويلد. وينبغي أن تُنصب في الدساتير الإسلامية العصرية مثلاً للنساء والمسلمات. وعلى الوهابيين والسلفيين والإخوان المسلمين أن يوفقوا مجدداً نظرهم الضيقة إلى النساء وموقف زوجة النبي هذه المتحررة وأن يعاملوا نساءهم كما عامل محمد زوجته الحبيبة خديجة بنت خويلد، وذلك بشكل يرتكز على الحرية التجارية والشخصية وعلى الاحترام والمحبة.

وبناته الأربع كان النبي محمد يعاملهنَّ بحبٍ وشوق. وكنَّ هنَّ يبادلنه المحبَّة. وليس هناك حديث يروي أنَّه كان يعاملهنَّ بالسوء والعنف، أو أنَّه حرَّمهنَّ من الفكاهة في الحياة ومن الرقص والغناء.

هل عُرِف أنَّه عاقب نساءه وبناته لأنهنَّ أصغين إلى موسيقى؟ لم يرد مثل هذا في الحديث، وهذا يعني أنَّ مثل هذا لم يقع في تصرّفه. ألم يكن يجوز لهنَّ أن يركبن الجمال أو الخيل لأنهنَّ نساء! لا، فإنَّ أوَّل نساء النبيِّ مثلاً كانت فارسة ممتازة. أكان لهنَّ أن يذهبن إلى المدرسة؟ أجل، فإنَّ النبيِّ قال: "ما نَحَل (أي أعطى) والدٌ ولدًا من نَحَلٍ أفضل من أدب حسن" (عن سعيد بن العاص، في سنن الترمذي).

هل كان من واجب النساء أن يرتدين البرقع؟ لا، فإنَّه لم ينصَّ على ذلك حديث. كنَّ يرتدين من الملابس ما كانت ترتدي النساء في عصرهنَّ في مكَّة والمدينة. فلو كانت زوجته الأولى خديجة مرتدية البرقع لما كانت تستطيع أن تقوم بأعمال التجارة، إذ كان من غير الممكن في هذا الوضع معرفة هويّتها. فإن كانت زوجة النبيِّ لم ترتد البرقع، فلماذا على النساء باسم القرآن أن يرتدين قطعة الملابس هذه؟

جاء في سورة الأحزاب 33: 53 عن نساء النبيِّ: "... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ". تشير الكاتبة إيريني شنايدر في كتابها "الإسلام والنساء" إلى أنَّ المفردة العربيَّة "حجاب" استعملت في ما بعد بمعنى رداء، بحيث صار القناع، إن هو غطى الوجه أو الشعر والعنق فقط، يقال له اليوم "حجاب"¹²². هذه الآية تعني مبادلة الحديث مع نساء النبيِّ ولا تفرض شيئًا بالنسبة إلى ملابس النساء المسلمات.

ثمَّ هل أبدى النبيُّ اهتمامه لأن تكون زوجته بكرًا، كما يفعل اليوم المسلمون المحافظون؟ لا، فإنَّ زوجته المحبوبة خديجة كانت قد تزوجت من قبل مرتين وأنجبت عدَّة أولاد.

ألم يكن يحقَّ لهنَّ كنساء أن يَقمن بأشغال؟ بلى، فإنَّ زوجته الأولى كانت ناجحة في مهنتها في مكَّة، وكانت أيضًا رئيسة عميلها محمد.

أكان له عدَّة نساء أم واحدة فقط؟ إنَّ النبيِّ عاش 25 سنة مع خديجة زوجته الوحيدة. بعد وفاتها تزوج نساءً أُخر كما كانت العادة في ذلك الزمان.

¹²² Irene Schneider, Der Islam und die Frauen, München 2011, 29

إن زوجته الفتيّة عائشة تُخبركم عما كان للنساء عنده من تقدير: خياركم خياركم لنسائكم. وأنا خيركم لأهلي (الترمذي). هذه العبارة ينبغي أن تُسَيِّم المقياس لمعاملة النساء في العالم الإسلامي. يؤكّد أبو هريرة قول النبيّ هذا: "أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، وخياركم خياركم لنسائكم" (الترمذي).

قال النبيّ إن الله يفرح عندما تُعامل النساء معاملة حسنة، فإنهنّ أمهاتك وبناتك وعمّاتك. - وإنّ حقوق المرأة مقدّسة، فاسهر على أن تحصل النساء على حقوقهنّ¹²³.

كان النبيّ محمّد يكرم قبل كلّ شيء الأمهات. قال إنّ الجنّة عند أقدام الأمهات¹²⁴. - وعن أبي هريرة: جاء رجل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله، من أحقّ الناس بحُسن صحّابتي؟ قال: أمك. - ثمّ من؟ قال: أمك. قال: ثمّ من؟ قال: أبوك (البخاري، مسلم).

علينا أن نُخضع الترتيبات الإسلاميّة في حقّ النساء لميزان القرن الثامن ونراعي ظروف حياتهنّ في ذلك الزمان كأشخاص من درجة ثانية. فإنّ النبيّ لم يرد للنساء حقوقًا وحرّيات أقلّ بل أكثر وحماية أفضل. إنّ رغبة محمّد في تحرّر النساء وحمايتهنّ الواسعة في مجتمع يسوده الرجال، يتجاهلها اليوم أعداء المساواة في الحقوق. وهم لا يعتبرون الحقوق الحاليّة قابضة على أقلّ مستوى، يمكن أن يُزاد عليه حقوق أخرى حتّى حصول المساواة في الحقوق.

إنّ وصايا القرآن كانت في ذلك الحين تقدّمًا محسوسًا. فالإسلام أهدى للنساء في ذلك الزمان خمسة أنواع من التحسّن العمليّ وحقوقًا جديدة هامة. دَعَم تحرّرهنّ من وظيفتهنّ المكبوتة حتّى ذلك الوقت في المجتمعات القبليّة في القرون الوسطى الأولى. لذلك لا يجوز أن تُعدّ هذه حدًّا للتحرّر، بل هي توجّه مطلوب نحو حقوق للمرأة أوسع.

فالنساء مُنجن لأول مرّة حقًا بالارث والملكيّة الشخصيّة. وكان من المفروض أن يوافقن على زواجهنّ، وكان لهنّ لأول مرّة الحقّ في طلب الطلاق¹²⁵.

من المهمّ مثلاً خطر دفن البنت وهي حيّة من بين المواليد، كما لا يزال ساريًا للأسف في بعض أجزاء الأرض مثل الهند. كان الأب عليه عند عقد الزواج أن يُعدّ لبناته مَهْرًا. فكانت

¹²³. راجع:

Al-Suhrawardy, The Wisdom of Muhammad, New York 2011, Nr. 430, 431, p. 105.

¹²⁴. Al-Suhrawardy, Nr. 336, p. 89.

¹²⁵. Qatar Islamic Center : Understanding Islam, Qatar 2008, 48

البنات عبئًا على عاتق الفقراء من بين الآباء، ومولد الصبيان فرحة كبيرة. هنا أدخل النبي المساواة في الحقوق بين الأولاد الذكور والإناث. قال النبي:

عن ابن عباس: "من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يئنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله الجنة" (أبو داود).

إني أوافق عالمة الاجتماع المراكشيّة فاطمة مرنيسي، في وصفها نساء محمّد كأعضاء فاعلة واسعة الأثر ونشيطة في المجتمع، وكنوع من حركة نسائيّة¹²⁶. لم تكن نساء النبي يختبئن في العُرف البعيدة، بل أشخاصًا واعية.

أما اليوم فيبدو للمراقب أن تحرّر النساء في الإسلام لا يخطو إلى الأمام، ويكون أحيانًا في تراجع. فبالمقابلة مع ما يجري في الغرب يُحصر عملهنّ في وظيفة ربّة بيت وأمّ. ويُعتبر ملبسهنّ مقياسًا لصحة إيمانهن. والإسلاميون المحافظون يصرّون على أن يحدّوا من تحرّك النساء ويحصروا نشاطهنّ على خدمة الأسرة وفقًا لأوامر أزواجهنّ. فمجال حريّتهن يضيق عليه في أبواب الشريعة ولا يُعدّ حقًا خاصًا بهنّ.

في 25 آب (أغسطس) 1990 وافقت منظمة المؤتمر الإسلامي، التي تتألف من 57 دولة إسلاميّة، على تصريح القاهرة حول حقوق الإنسان في الإسلام. هذه الوثيقة تربط كلّ شيء بموافقة الشريعة الإسلاميّة. يقرّر البند 6 أنّ المرأة المسلمة لها الكرامة عينها مثل الرجل، ولكن ليست لها الحقوق المماثلة. والتربية عليها وفقًا للبند 7 الفقرة 2 أن لا تخالف القيم الأخلاقيّة والمبادئ المقرّرة في الشريعة، وعليها وفقًا للبند 9 الفقرة 2 أن تقوّي الإيمان بالله.

إليك مَثَلًا آخر متّخذًا من الدستور الذي أملاه الإخوان المسلمون في مصر بتاريخ كانون الأوّل (يناير) 2012، ثمّ أُبطل بعد انقلاب تمّوز (يوليو) 2013. لا يحتوي نصّ هذا الدستور على أيّ ضمانات لحقوق المرأة أو أيّ انطلاقة باتجاه المساواة في الحقوق لهنّ. كلّ شيء فيه خاضع لقوانين الشريعة الإسلاميّة وبذلك لأيّ قانون فيها يمكنه أن يعطّل جميع حقوق المرأة بقرار من مجلس النواب. بهذا الشكل لا تُعطى النساء أمانة قانونيّة. فالبند 10 من هذا الدستور المصريّ الجديد الأوّل يضمن فقط "الطبيعة الخاصّة بالأساس العائليّ المصريّ في المجتمع"، ويُضخّ كلّ شيء للمفهوم الغامض، مفهوم "صمود وتنشيط وحماية القيم الأخلاقيّة". فليس هناك شيء واضح، ويبقى كلّ شيء ممكنًا.

¹²⁶. راجع:

Fatima Mernissi, Der politische Harem, Mohammed und die Frauen, Freiburg 2002, 152 ss.

في العربية السعودية لا تزال حقوق المرأة للأسف ضئيلة. فلا يجوز لهنّ الخروج من المنزل إلا بصحبة رجل، ولا قيادة السيارة حتى ولو كان ذلك للتبضع لحاجات الأسرة. في العصر الحديث تقوم السيارة مقام الجمّل والناقة في الماضي البعيد. فحظر قيادة السيارة للنساء يقع بالضبط في ذلك المكان الذي كانت فيه امرأة مستقلة اسمها خديجة بنت خويلد تركب الفرس والناقة وتدير شؤون نقلياتها الواسعة. النبيّ محمّد اختار هذه المرأة المستقلة وعبر بذلك عن موافقته على سلوكها كامرأة سلوكاً حراً أبيضاً. أمّا اليوم فلو عادت خديجة إلى الحياة، لَمَا حظيت بأية إمكانيّة. مثل هذا لا معنى له، إذ يُفرض "باسم النبيّ". فلولا وجود زوجته إلى جانبه لما كان النبيّ حسب التقدير تلقى القرآن وقام بدعوته.

نادين البديّر من مؤسّستي المستقلة حول شبكة الأمان العالميّة¹²⁷، محررة سعودية وصحفيّة مشهورة تدافع عن حقوق المرأة. شكت في فيديو نُشر في يوتيوب وأطّلع عليه أكثر من 150 ألف شخص، وقالت: لا توجد في العربية السعودية مساواة في الحقوق بين الرجال والنساء. وإننا نحن النساء نتألّم لذلك. نُعامَل كأناس لا حقوق لهم ولا أخلاق". - "فإنّ النساء عليهنّ، باسم الله، أن يمتكّن في منازلهن ولا يحقّ لهنّ أن يقمن بعمل خارج المنزل. ولكن ينبغي للنساء أيضاً باسم الله أن يشتغلن ويساهمن في بناء البلد. فالنساء يستطعن أن يؤدّين الكثير من الخدم لوطنهنّ، والمملكة بحاجة إليهنّ. لا يتّسع لنا الوقت لترقّب تغييرات بطيئة، فإننا لم نُعط سوى حياة واحدة".

لا تزال النساء في هذا البلد يخضعن لسلطة الرجل، قبل الزواج عادة لسلطة الأب أو أحد الإخوة، وبعد الزواج لسلطة الزوج. هناك فصل صارم بين الرجال والنساء في المدارس والجامعات، في حافلات النقل والمطاعم، وحتى في مجلس الشورى.

ولكن منذ عام 1966 سُمح للبنات أن يزوروا المدارس. ومنذ عام 2008 سُمح للنساء أن يسكنّ وحدهن في الفنادق وأن تكون في يدهن إدارة مصالح اقتصاديّة. إنّ العاهل السعوديّ عبد الله قد دعم بحزم ونجاح تثقيف النساء وإشراكهنّ في بعض قطاعات الحياة العامّة كمجلس الشورى. وعيّن امرأة نائبة وزيرة للتربية. ولأوّل مرّة يجوز للنساء أن يشتركن في الانتخابات البلدية وأن يُنتخبن كمرشّحات في جولات انتخابيّة. والحكومة تدبّر وظائف للنساء وتضغط على أرباب العمل في القطاع الخاصّ لأن يوظّفوا النساء. بهذا يتّضح أنّ البلد سائر في السبيل الصحيح.

¹²⁷ .www.worldsecuritynetwork.com

لماذا لا تزال النساء في موطن النبي محمد عرضة دائمة للإجحاف، في حال أن علماء الإسلام والمفتين يعلمون أن محمداً كان يعيش مع زوجته وبناته الأربع بعزم راغب في التقدم، ويدعم استقلال النساء؟ أليس العكس من ذلك يعبر عن وصية هذه المرأة المهمة جداً في الإسلام، ويعرب عن الشكر لمساندة هذه المرأة للنبي وللدّين؟ فيجدد بالملك أن يُسمي جامعة جديدة باسم زوجة النبي الأول ويقدم بذلك لها آيات الشكر والعرفان.

لدينا في الماضي والحاضر أمثلة أسوأ على الإجحاف بحقوق النساء في العالم الإسلامي. لقد تسلّطت جماعة طالبان على إمارة إسلامية بأفغانستان من عام 1996 إلى آخر عام 2001. فلم يكن يُسمح للفتيات الذهاب إلى المدرسة، ولا للنساء تعاطي العمل خارج المنزل. "غاية ذلك كانت إنشاء حقل أمين للنساء يحمي عفتها وكرامتها"¹²⁸.

منذ انهيار تأثير الطالبان المتشددين تحررت النساء في أفغانستان. في السنة الأخيرة من حكم الطالبان زار المدرسة مليون ومئة ألف ولد فقط، منهم على ما يقدر 50 ألف فتاة فقط. أما في آخر عام 2010 فوصل عددهم إلى 7 ملايين ونصف، منهم مليونان سبعمائة ألف فتاة، ممّا يعادل 37 بالمئة. فُبنيت في هذه السنين العشر 9 آلاف مدرسة جديدة. وازداد عدد طلاب الجامعات من 4000 فقط في عام 2001، إلى 75 ألف في عام 2009، بينهم طالبات بلغ عددهنّ 35 بالمئة.

في باكستان قامت منظمتي "شبكة الأمان العالمية" بدعم مالي من قبل وزارة الشؤون الخارجية في برلين من عام 2010 إلى عام 2012، بتثقيف مئة شاب وشابة من المناطق القبليّة. كانوا يعيشون في مخيمات اللاجئين في مدينة كراتشي الباكستانية واستطاعوا بذلك لأول مرة أن يزوروا المدرسة. ولقد حرك شعوري كيف كان الأولاد في المنطقة فرحين منشرحين حيّون حتى الغرباء مثلي. هذه المنطقة من باكستان محاذية لأفغانستان وهي تزرع تحت عبء المنازعات وتحتاج إلى مساعدتنا النشيطة، وخصوصاً في ما يخص الثقافة والعناية الصحيّة والتوظيف.

إن أهمية تثقيف الفتيات خصوصاً في مناطق باكستان الحدودية تتبين في قضية الفتاة الشابة ملالا يوسفزاي من وادي سوات في شمالي غربي باكستان حيث تدور منازعات. كان

¹²⁸. هكذا صرّح محدث باسم طالبان، راجع:

Nancy Hatch Dupree, *Afghan Women under the Taliban*, in: William Maley, *Fundamentalism Reborn? Afghanistan and the Taliban*, London 2011, 145-166.

عمرها إحدى عشرة سنة عندما بدأت تطالب بحق الفتيات بزيارة المدارس، وضد هضم حقوقهن من قبل مقاتلي الطالبان المتشددين، الذين منعوا عام 2007 البنات من زيارة المدارس وسماع الموسيقى. هدم الطالبان 400 مدرسة في وادي سوات الجميل، الذي يذكرني بالغابة السوداء في جنوبي ألمانيا. في إرسال لقناة BBC حدثت، دون أن يذكر اسمها، عن كبت الفتيات من قبل المتشددين، ونالت عام 2011 لجهدا جائزة السلام من الحكومة الباكستانية. ولكنها في 9 تشرين الأول (أكتوبر) 2012 لدى عودتها من المدرسة إلى منزلها، اقتُرف أحد الإرهابيين عمل نأر ضدها وربماها بالرصاص وجرحها جرحاً خطيراً. لحسن الحظ تغلّبت على هذا الجرم القاسي. والناطق باسم حركة طالبان الباكستانية، إحسان الله إحسان برّر محاولة الاغتيال هذه بقوله: "كانت توافق على آراء الغرب ومدحت أوباما". وهذه الشابة الشجاعة أشارت كمثال لتصرفها إلى المجاهد الهندي الباكستاني في سبيل الحرية خان عبد الغفار خان (1890 - 1988)، المدعو بادشان خان، الذي بذل جهوداً سلمية ضدّ السيادة البريطانية في الهند.

لو سمع النبي محمد هذه القصة لكان استشاط غيظاً. إن تصرف المتطرفين هذا يخالف مخالفة صريحة إرادته وأوامر القرآن.

الطالبان ومتشددون آخرون يُبدون غيرة خاصة عندما يدور الأمر حول إخضاع النساء للمسلمات لفرائض تحدّد منظرهنّ وتصرفهنّ خارج المنزل. عليهنّ أن يختبئن في بيوتهنّ. وإن اضطررنّ إلى الخروج فلا يجوز لهنّ التجول وحدهنّ، بل يجب أن تكون معهنّ مرافقة من قبل الرجال. لا يجوز لهنّ أن يفرحن ويضحكن ويرقصن ويستمعن إلى الموسيقى. وعليهنّ أن يرتدين ألبسة لا تكشف للرجال منظرهنّ النسائي الخاصّ.

فارتداء الحجاب كشكل رقيق أو ارتداء البرقع الأسود كشكل صارم، يعبران عن طريقة التفكير هذه. ولكن ماذا يريد القرآن والإسلام في حقيقة الواقع؟ ماذا يطابق مشيئة الله، وماذا نبع من اختراع المتسلطين؟

إنّ نظام لباس المرأة اليوم في مناطق مثل العربيّة السعوديّة أو أفغانستان ومن جهة السلفيين والوهابيين والإخوان المسلمين، يُخضع لمقاييس لم تُفرض على نساء النبي وتتعدى كثيراً ما يفرضه القرآن. هل نظام الملابس للنساء - الحجاب والبرقع - لهما في الإسلام من الأهمية ما هو جارٍ من النقاش العالمي؟ أم يُفرض في هذا الشأن ما لم يفرضه النبي على هذا الشكل؟

من يفرض الأمر بالتغطية؟ كيف نشأ وأين يُعتبر فريضة دينية، وأين هو مجرد تراث ثقافيّ دون أن يكون فرضاً إسلامياً؟

إن مؤيدي فريضة التغطية يستدلون بثلاث آيات من القرآن:

- "قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطُّفُلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)".

- سورة النور 24: 60: "وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60)".

- سورة الأحزاب 33: 59: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَلرِّجَالِ مِثْلَ مَا لِرِّجَالِكُمْ وَلِلنِّسَاءِ مِثْلَ مَا لِنِسَائِكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (59)".

إن المركز الإسلامي في مونخن كتب في صفحة بالإنترنت حول "المرأة والأسرة في الإسلام" أن على المسلمين أن يرتدوا ثياباً لا تبين الكسب فلا تجذب اهتمام الجنس الآخر. ولأن الشعر له أيضاً شيء من الجاذبية، فينبغي للنساء أن يرتدين الخمار.

لكن سور القرآن الثلاث لا تتضمن أوامر واضحة. فالآيات توجه الانتباه إلى الملابس اللائق، دون أن تفصل أوامر واضحة. لا يدور الكلام فيها حول الحجاب، بل "بضرب الخمر على الجيوب"، وهذا لا يدل على حجاب بل على تغطية العنق. أما ما يجب عدم إبدائه من الزينة فهو الثدي والعورة... الآية 24: 60 تذكر "وضع الثياب"، والآية 24: 31 تذكر "الجيوب". فليس المراد إذن الحجاب، إذ لا يعتبر رداء. وتستثني الآية 24: 31، ما ظهر من الزينة. فالتحجب الكامل بالبرقع يخالف أمر القرآن، إذ إنه عند ذلك لا يبقى شيء ظاهراً. فالقرآن لا يفرض على النساء أن يخفين أجسادهن ووجوهن في برقع. فالوجه لا يُعد في القرآن واحداً من الأمور التي تثير الغزيرة. ثم كيف تستطيع المرأة أن تغط من بصرها وفقاً لمعطيات الآية، إذا كان لا يعود من الممكن الاطلاع عليه من وراء البرقع؟

تشير كارين أرمسترونغ في كتابها المشهور الواسع الانتشار "تاريخ الله"، إلى أن القرآن لا يفرض حجاب الوجه على جميع النساء، بل فقط على نساء النبي محمد، وذلك دلالة على منصبهن. فالعرف الذي يفرض على النساء التحجب والاختلاء في منازل الحریم، صدر من

فارس وبيزنطية المسيحية، حيث كانت النساء من زمن بعيد مدحورات إلى جانب المجتمع. واليوم يطالب مؤيدو حقوق المرأة بالعودة إلى روح القرآن الأصيلة.

إنّ القرآن لا يفرض وضع الحجاب - كما يفرض الصلوات اليومية. بل هذه عادة ثقافية متوارثة. فكلّ مسلمة يمكنها أن تقرّر هي نفسها هل ترتدي الحجاب أم لا. فالمهمّ القاطع يتعلّق بالاستعداد الباطن، لا بالظواهر.

ثمّ إنّ جميع فرائض الملبس في القرآن تخضع لمبدأ رحمة الله، بحيث يجب أن يُعامل خرقٌ ممكن لها بلين.

أما ما يخصّ الإكراه على الزواج فلدينا أقوال للنبيّ تؤكّد حرّية المرأة في تقرير موقفها:
- عن خنساء بنت خدام الأنصارية: أنّ أباهَا زوّجها وهي تيّب¹²⁹. فكَرِهت ذلك. فأُتت رسول الله فردّ نكاحه (البخاري، أبو داود).

- عن أبي هريرة: لا تُنكح الأيم حتّى تُستأمر، ولا تُنكح البكر حتّى تستأذن. قالوا: يا رسول الله وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت (البخاري، مسلم...).

- عن أبي هريرة: تُستأمر اليتيمة في نفسها، فإن سكّت فهو إذنها. وإن أبت فلا جواز عليها (أبو داود، الترمذي).

كان النبيّ يكره العنف ضدّ النساء. روت عائشة أنّ النبيّ لم يضرب أحدًا بيده، لا امرأة ولا خادمًا (راجع مسلم).

وفقًا لتصرّف النبيّ أصدر آية الله محمّد حسين فضل الله الشيعي من لبنان عام 2007 فتوى ضدّ القتل دفاعًا عن الشرف. صادفت مُراسلة "شبكة الأمان العالمي" آية الله العظمى فضل الله في بيروت. فشرح أمامها أنّه لا يحقّ لأحد سوى المحكمة أن تقضي في الأمر. ثمّ يجب أن يؤكّد أربعة شهود على ارتكاب المحرّم. فالقتل دفاعًا عن الشرف يعود إلى ذهنيّة قبليّة عند المشايخ، قد تمّ تجاوزها. هذا ما قاله ذلك العالم الحكيم.

الإجحاف بالحقوق والعنف ضدّ النساء ليسا من فرائض الإسلام ولا يتفقان والحديث النبويّ، بل هما من باب الإفساد. كلّ مسلم ينبغي له أن يعامل نساءه معاملة حسنة، كما فعل النبيّ دومًا: بحبّ وتفهمّ واحترام، وبرحمة عند حدوث المخالفات.

¹²⁹. أي مفارقة زوجها موت أو طلاق.

إنَّ التساوي في الحقوق بين الرجل والمرأة، وهو بفعل الاعتراف بوثيقة الأمم المتحدة ملزماً ميدئياً في الدول الإسلامية، يوافق طريقة عيش النبي ومثاله على مدى 25 عاماً من الزواج بأول امرأة له، امرأة مستقلة هي خديجة بنت خويلد، ويوافق هدفه في إنشاء مجتمع متناغم، وأمنيته في منح النساء حقوقاً تعلقو على ما كان لهنَّ من قبل من حقوق. فتحقيقها تدريجياً ضرورة في سير المجتمعات الإسلامية نحو مستقبل أشدَّ هناء.

11. جحود الإيمان

المسلمون الذين يجحدون إيمانهم يهددهم القرآن بنار جهنم في الآخرة: "... وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (سورة البقرة 2: 217). - "أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (سورة آل عمران 3: 87؛ راجع أيضاً 3: 88-89)، "فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (سورة النحل 16: 106). فجحود الإيمان الإسلامي يسبب حلول غضب الله. والله له وحده أن يُعاقب، لا للبشر. وهو يتخذ القرار حول حجم العقاب. وقوله: "فيمت وهو كافر" تلميح إلى أنه لا يُقتل وأنه يستطيع أن يرجع عن جحوده ويحسن سلوكه. فالقرآن لا يتكلم بصراحة عن عقاب بالموت آلي لجحود الإيمان على الأرض على يد البشر.

والعقوبة لا ينبغي أن تكون عامّة، بل عليها أن تكون فردية، وفقاً للإساءة أمام الله. عليها أن تأخذ بعين الاعتبار مجمل صنيع الإنسان، أي أعماله الصالحة والسيئة.

بعض العلماء المسلمين يعتبرون الارتداد عن الدين إثماً ثقيلاً، لا تصحَّ معاقبته إلا بعقوبة الموت. وهم يشيرون في ذلك ليس فقط إلى الآيات التي وردت من قبل، بل خصوصاً إلى آية سورة النساء 4: 89: "... فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ". من هم هؤلاء؟ أهم جميع المسلمين أم فقط فريق منهم؟ فإن الآية حسب النص في 4: 88 تتعلق بالمنافقين، وحسب الآية 4: 90 بالذين يقاتلونكم أو يقاتلون قومهم... "فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ بِالَّذِينَ قَاتَلْتُمُوهُمْ وَالَّذِينَ قَاتَلْتُمْ سَبِيلًا". فالكلام في الآيات 4: 88-90 لا تخص جحود الإيمان عامّة، بل فقط الوضع الخاص بأن يلتحق مسلمون بالعدو ويرتدوا بذلك عن الإسلام ويقاتلوا المسلمين. في

هذا الوضع فقط يقوم الدفاع عن المسلمين في القتال بالسماح بإعدام المهاجمين إلى أن يستسلموا، ولا يُسمح إن عرض العدو السلام¹³⁰.

إن القرآن يهدد المرتد بعقاب شديد في الآخرة. وهذا مليء بالمعنى، إذ إنه حتى ذلك الموعد تكون العودة إلى الإيمان ممكنة ويستطيع المذنب أن يبرهن عن حسن أعماله. يقول زاهد عزيز إنه لا يمكن استنتاج عقوبة الموت للمرتد من آيات القرآن. "فإن القرآن يكرر مرّات عديدة أنّ الناس يرتدون من الإيمان إلى الكفر، ولكنّه لا يفرض معاقبتهم لذلك¹³¹. ويشير في ذلك إلى الآية من سورة البقرة 2: 217، حيث يرد ذكر "الصدّ عن سبيل الله".

القرار يرد في الأمر الواضح في سورة البقرة 2: 109: "وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ نِّدَائِنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) ". - سورة النساء 4: 137: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137)". بهذا يتضح أنه لا تفرض عقوبة الموت على الأرض، بل هو فقط عقاب الله¹³². مثل هذا يجري دليل المؤلفين في موسوعة الإسلام: "إنّ جحود الإيمان يلحقه في القرآن التهديد بالعقاب في الآخرة¹³³. ويذكر شيخ الأزهر السابق محمود شلتوت رأي بعض العلماء من أنّ عقوبة الموت هذه لا يمكن استنتاجها من الأحاديث الإسلامية¹³⁴.

فالقرآن لا يحدّد عقوبة دنيوية للمسلمين الذين يعتنقون الدين المسيحيّ أو الدين اليهودي. مثل هذه العقوبة تعود إلى سلطة الله وحده.

هناك أحاديث تفرض حدّ الموت على المرتد. - عن عكرمة: من بدل دينه فاقتلوه (البخاري، أبو داود): - عن عبد الله بن مسعود: لا يحلّ دم امرئ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب¹³⁵ الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة (الخمسة)¹³⁶.

¹³⁰ . راجع:

Zahid Aziz, Islam, Peace and Tolerance, p. 18-19

¹³¹ . ص. 16.

¹³² . زاهد عزيز: المرجع السابق، ص 17.

¹³³ . موسوعة الإسلام، مجلد 7، ص 635.

¹³⁴ . محمود شلتوت: الإسلام، بيروت 1978، ص 281.

¹³⁵ . من فارق زوجته بهوت أو طلاق.

¹³⁶ . راجع:

Adel Theodor Khoury, Der Islam und die westliche Welt, Darmstadt 2001, 123.

إنَّ النقاش حول حدِّ الردّة عن الإسلام، أي حول عقوبة الموت للجاحد، وفقًا للشريعة عليه أن يراعي وصية الرحمة والمبدأ الممتاز من أنه لا إكراه في الدين. من هنا يتضح أنَّ العقوبة لا تتبع تلقائيًا. ثمَّ إنَّ دولاً إسلامية قد وقّعت على البند 18 من الإعلان العامِّ لحقوق الإنسان الذي صدر في 10 كانون الأوّل (ديسمبر) عام 1948، وهذه مُلزمة لها عندما تصرّح أنه من المسموح بوضوح لكلِّ إنسان في الدول الموقّعة على الوثيقة أن يبدّل دينه:

"كلُّ إنسان يحقُّ له أن ينعم بحريّة الفكر والضمير والدين. هذا الحقُّ يضمُّ حريّة تبديل دينه أو اقتناعه، وحرية ممارسة دينه أو اقتناعه وحده أو في جماعة مع آخرين، وذلك علنًا أو على انفراد، بالتعليم والممارسة والاحتفال بالمراسيم الدينية والقيام بطقوس دينية".

إنَّ أكثر الدول الإسلاميّة - ما عدا العربيّة السعوديّة - التي وافقت على هذا التعهّد، هي أيضًا مرتبطة بهذا الدعم للحريّة الدينيّة. في سورة المائدة 5: 1 يفرض القرآن على المسلمين أن يوفوا بالعهد: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ"، وفي سورة الإسراء 17: 34: "وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ". من هنا ينتج وفقًا للقرآن من الإمضاء على إعلان حقوق الإنسان، فرض ملزم للشريعة قابل للمحاكمة حول حريّة الدين في الدول الإسلاميّة. ولكنَّ أكثر التصريحات الإسلاميّة حول حقوق الإنسان تزيد غالبًا في آخر بند ما، أن هذا كلّه لا يكون مُلزمًا إلا إذا لم تضع الشريعة فريضة مخالفة له.

أَيكون مسيحيّ مؤمن صالح، كان قبلاً مسلمًا، ولكنّه في حياته أكثر من عمل الصالحات (وحتّى أنقذ مسلمين كملك الحبشة من عام 615 إلى 622)، لا قدر له عند الله، ويكون مسلم شرير يقضي وقته في اللهو والعجرفة، أكبر قدرًا؟

أورد البابا بندكتس السادس عشر في رسالته الخاصّة بيوم السلام العالميّ في أوّل كانون الثاني (يناير) عام 2006 ما يلي: "الناس جميعهم يؤلّفون أسرة واحدة. فالمغلاة في الافتخار بالأمر الخاصّة المختلفة تناقض هذه الحقيقة الأساسيّة". وهو يسرد ما قاله البابا يوحنا بولس الثاني في رسالته الخاصّة بيوم السلام العالميّ عام 2002: "إنَّ التجاسر على إكراه الآخرين بالقوّة على تقبّل ما يعده المرء تعبيرًا عن الحقيقة، يعني أنَّ كرامة الإنسان بذلك تُجرّح وفي النهاية أنَّ الله يُهان في خليقته المكوّنة على صورته". من هنا يتضح أنَّ الإكراه في الدين إهانة لله.

لماذا لا يُسمَح اليوم مثلاً في العربيّة السعوديّة عينها ببناء كنائس. هناك يعيش مليون عامل كاثوليكيّ من الفيليبين، يُحرّمون بهذا من إمكانيّة ممارسة دينهم، مع أنَّ الكنائس والمسيحيين هناك نعموا دائماً بحماية النبيّ؟ مع أنَّ السعوديّة تموّل بناء مساجد في العالم كلّه. أليس هذا التصرف

يخالف أوامر وعادات النبي؟ لماذا لا يجوز للمسيحيين أن يدخلوا مكة، مع أن نداء النبي إلى اعتناق الإسلام كان موجَّهًا خصوصًا إلى هذا الفريق، وأن النبي في حياته لم يمنع أبدًا الدخول إليها.

انطلاقًا من الآيات القرآنية التي أوردناها أعلاه ومن العقود القديمة حول حرية المعتقد، يمكن إلى ذلك استنتاج مطلب اليهود والمسيحيين حول السماح بدينهم وممارسة معتقدتهم ومراسيم المعمودية.

فإن الآيات الموجهة إلى الكفار لا يمكن تطبيقها على الذين يؤمنون بالله الواحد، ولو كان ذلك على طريقتهم المختلفة. فالمسلم الذي يعتنق المسيحية، ولا يزال يؤمن بالله الواحد المشترك، ويتصرّف بسلام مع المسلمين، يجب أن لا يُعارض في ذلك.

ينتج من هذه الملاحظات الثلاث أنه علينا في الحوار بين الأديان أن نحلّل تحليلًا رصنيًا وأعمق طريقة التعامل من أشخاص بدّلوا إيمانهم، وفقًا للقرآن الصحيح وإعلان حقوق الإنسان، وأن نسعى إلى إيجاد حلّ منصف. يجب هنا أن نلاحظ أن الدين المسيحي لا يرى مشكلة مستعصية في انتقال المسيحي إلى الإسلام ولا يعاقبه. هناك شخصيات، مثل الراهبة الكاثوليكية سابقًا كارين أرمسترونغ أو السفير الألماني القديم مراد فلفريد هوفمان، لا يعتبرون عندي وعند مسيحيين آخرين كُفّارًا، بل أشخاصًا سلكوا طريقًا آخر في سبيلهم إلى الله، وأعضاء في أسرة كبيرة تمتد إلى أبعد من الحدود الضيقة لدين معيّن. ومسيحي مؤمن يمكنه أيضًا أن يكون أعمق إيمانًا بالله من مسلم ينتمي شكليًا إلى الإسلام.

إنّ نظام قانون الشريعة الإسلامي الذي نما في 1300 سنة من الحكم السياسي أنقص من حقوق غير المسلمين وضيّق مجال تصرّفهم. ومن المرجّح أن هذا يعلو على ما كان النبي يرضاه. فتمت في هذا الحقل طبقتان من السكّان، ممّا يخالف المفهوم الحالي عن حقوق الإنسان والمساواة في النظام الديمقراطي. فالمسيحيون وأتباع الأديان الأخرى لا يتساوون في الحقوق مع المسلمين. بل هم من يحتملهم المسلمون. فالدولة فيها مزيج من السماحة وعدم السماحة.

هذه بعض أمثال لعدم السماحة في بعض بلدان إسلامية وفقًا للشريعة. يجوز بالنسبة إلى الكنائس ترميمها فقط، ولا يجوز بناء كنائس جديدة. لا يجوز أن تتزوَّج امرأة مسلمة مسيحيًا. شهادة المسيحيين واليهود، على أساس سورة المائدة 5: 14، التي لا تقول شيئًا عن هذا الموضوع، تفيد أقلّ من شهادة مسلمين. ويزعم بعضهم استنادًا إلى سورة الواقعة 56: 79 أنه لا يجوز لغير المسلم أن يقتني القرآن: "لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)". ولكن كيف يمكن أن يقتنع أحد - بتعليم النبي، إن كان لا يجوز مسّ الكتاب ولا قراءته؟

جاء في سورة المائدة 5: 51: "لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ". كيف تتفق هذه الآية وصداقة النبي مع أكثر من مئة مسلم من الأوائل مع ملك الحبشة النصراني والمسيحيين الخاضعين له؟ فهذا قد منح حق اللجوء والصداقة للنازحين من مكة من عام 615 إلى 622 استجابة لطلب محمد؟ ثم إنهم كانوا سبع سنين حلفاءه في الكفاح ضد مكة. وبالرغم من أنها قُدمت للملك مجازاة كبيرة، إن هو سلّم المسلمين إلى أعدائهم في مكة، وقف محامياً عنهم. بل أصرّ على أعداء المسلمين أن يُكثروا من معاملة هؤلاء بالرحمة.

وكيف يتفق ذلك ودعوة النبي لأهل نجران، الذين سُمح لهم في المدينة حتى أن يصلوا في أول مسجد؟ وكيف يتفق ذلك وصداقة النبي الواضحة وتحالفه مع اليهود في المدينة إذ إنّه في معاهدة المدينة دعاهم هو نفسه أمة واحدة مع المسلمين؟ هل هذا تقصير في الصداقة؟ إن السماحة والاحترام لا ينفصلان في قريتنا الشاملة، وليساً طريقاً في اتجاه واحد. فلا أحد يمكنه أن يطالب بهما لنفسه فقط ويحرم منهما الآخرين.

السلام والمحبة يزدهران فقط عندما تصير هذه القواعد واقعاً حقيقياً، عالم الحلم، عالمًا متناغمًا عادلاً مليئًا بالاحترام، على مثال ما حدّده النبي.

إن مؤتمر العالم الإسلامي طالب بهذا المعنى منذ 1975 بشركة حقيقية بين المسيحيين والمسلمين لدعم السلام العالمي ومستقبل مضمون، وأيد عام 1975 "كل خطوة كفيلة بأن تشق الحاجز المليء بسوء التفاهم الذي يفصل بين المسيحيين والمسلمين. علينا أن نتخلى عن محاربة ومسابة بعضنا بعضاً وأن نسعى بدلاً من ذلك لأن نشهد لله أمام الملحددين والذين أضعوا الإيمان بالقيم الروحية والأخلاقية. إن هذا الجهد يجب أن يكون النقطة المركزية في محادثاتنا المشتركة، كما يجب أن تتضافر أيدينا لإنقاذ البشرية من المادية الصّرف وغياب الأخلاق"¹³⁷.

لا تمكن إلا الموافقة على هذا النداء.

فلنعد إلى الصداقة الجيدة القديمة بين المسيحيين والمسلمين على مثال الحبشة ونجران.

ولنعد إلى المصاحبة بين المسلمين واليهود حسب عهد المدينة.

ولنقم بحملة فكرية مشتركة في سبيل نظام الحلم في جميع البلدان.

¹³⁷. ورد ذكره في:

.Adel Theodor Khoury, Toleranz und Religionsfreiheit im Islam, in: Kirche und Gesellschaft, Nr. 216, 14.

ولنتغلب على صراعات التسلّط كالحروب الصليبيّة وعلى الإرهاب باسم القرآن، في سبيل مشاركة متناغمة جديدة وفقاً لقواعد تصريح الأمم المتّحدة والاتّفاق حول حقوق الإنسان. وليكن عندنا تفوّق الرحمة، كما بيّنها لنا الله.

ثمّ مصالحة صحيحة بين السنّين والشيّعيين، كفريقين في الأسرة الإسلاميّة الكبيرة بعد قرون من عدم الثقة والمذابح بين المسلمين.

12. تحريم الصور. المنازعة حول صور النبيّ والفلم المصوّر عن محمّد

في أيلول (سبتمبر) عام 2005 نشرت الصحيفة الداعريّة اليوميّة يِلّانْدس بوسْتن 12 صورة هزليّة بعنوان "وجه محمّد". فانطلقت من هنا احتجاجات صاحبة مستديمة في العالم الإسلاميّ.

في أيلول عام 2012 لحق فيديو هجائيّ يدوم 14 دقيقة بعنوان "براءة المسلمين". كان واضعه مجرم مصريّ في كاليفورنيا. فيه شتم النبيّ كحميم النساء وغاصب الأولاد ومجرم لا يراعي شيئاً. فقامت موجة من الاستياء في العالم الإسلاميّ، وتوجّهت أيضاً ضدّ الولايات المتّحدة الأميركيّة، حتّى ولو لم يكن صانع الفكر مواطناً أميركياً. وفي نيجيريا والهند أُحرقت كنائس مسيحيّة.

كيف ينبغي أن يكون ردّ الفعل عندنا؟

علينا أن نراعي طبيعة الأمر. فعندما يسيء أحد المواطنين التصرف، فهو عند ذلك لا يتصرف باسم جميع مواطني الدولة. فالقرآن يؤكّد دوّمًا أنّ الدفاع مسموح به فقط ضدّ المعتدي، لا ضدّ آخرين لم يشتركوا في العمل.

نحن بحاجة إلى أسلوب نشيط مزدوج. إنّ شتم أنبياء الدين والكتب المقدّسة تحدّ سخيف. يجب أن يُحصّر عندما يتجاوز حدود المناقشة السلميّة وحرية الرأي. إيّ أطالب بوضوح باحترام أشدّ لرموز الأديان عند اليهود والمسيحيّين والمسلمين، وذلك في جميع بلدان العالم.

من ناحية أخرى يجدر بنا أن لا نغالي مغالاة مأساويّة ونزيد في أهميّة السلوك السيئ لدى القليلين في قريتنا الشاملة التي يبلغ عدد سكّانها سبعة مليارات. إذ إنّنا بذلك نعطي أهميّة لهؤلاء الأشرار، ونشعل لهيب البغض نحن أيضاً بريح تنبّهنا الزائد، فتحترق قريتنا.

علينا أن نقاطع تصوّرات المتشدّدين القائلين بتبادل الضربات، الذين ينشّطون بعضهم بعضاً ويريدون أن يزجّونا في الصدام.

لا يجوز لنا أن نوجّه الاهتمام الرسميّ نحو الحمقى والمتشدّدين القلائل. بل أن نفسح المجال أيضاً للناس الصالحين وأعمالهم الخيرة.

إنّ ربط الصور الهزليّة بالرموز الدينيّة هو دائماً عندي على خطأ. وأهيب بوسائل الإعلام أن يعبروا عن احترام أكبر تجاه إيمان جميع الجهات. ومقابل أصدقائي المسلمين أركّز دليلي على معنى تحريم الصور وعلى تصرّف النبيّ محمّد.

(1) أولاً إنّ القرآن عندما تطال الإهانة الكتاب الكريم لا يفرض على المؤمنين العنف، بل التحفّظ.

- سورة آل عمران 3: 186: "... وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ".

- سورة البقرة 2: 109: "... فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا".

- سورة طه 20: 130: "فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ..." (مثله في سورة ق 50: 39؛ سورة المزمل 73: 10).

سورة الأحزاب 33: 48: "وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَيَّ اللَّهُ".

فطول الأناة فرض على المسلم عند وقوع الشتيمة.

(2) ثانيًا: كان موقف النبيّ دائماً وبشكل مفاجئ متغاضياً عند قيام سلوك معادٍ وسيئ ضده وصدّ رموزه. وكان يحرض على الهدوء (راجع بعض الأمثلة في المقطع 904 حول التغاضي في الردّ على السلوك السيئ).

- عن أبي هريرة: قام أعرابيّ فبال في المسجد. فتناوله الناس. فقال لهم النبيّ: دعوه وهريقوا على بوله سجلاً من ماء. فإنها دُعيتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين (البخاري).

- عن عائشة: دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله فقالوا: السام (أي الموت) عليك. ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة. فقال رسول الله: مهلاً، يا عائشة. فإنّ الله يحبّ الرفق في الأمر كلّه.

وهناك قول يؤكّد أنّ النبيّ وأصحابه كانوا يُبدون طول الأناة عندما كانوا يسمعون أقوالاً مؤذية. وفي قول آخر أنّه لا أحد عنده صبر أطول من صبر الله عندما يسمع أقوالاً مؤذية.

(3) ثالثاً لا يمكن أن يُشتم القرآن الكريم والنبيّ من قبل صور سخيّفة في صحيفة ولا من فيديو، فهما كلاهما أسمى من هذه الأمور الدنيويّة، كريمان لا تنالهما الشتيمة. فالقرآن، وهو في إيمان المسلمين رسالة أبدية من عند الله هو مقدّس، لا مجرد مصحف على ورق مطبوع. فلا يمكن من ثمّ أن يُفنى. فمن يُحرق مصحفاً، لا يُحرق كلام الله، بل فقط صورة هذا الكلام في الكتاب. فالقرآن كرسالة لا يمكن إحراقه. فالمسلم الذي من حنقه يزيد في ردّة فعله، يهبط بالكتاب الكريم في فكره إلى هذه الدرجة الوطيئة ويعرّض هو نفسه نوعاً ما كلام الله للإذلال. لهذا السبب لا يصحّ أن يُعدّ السلوك السيئ فوراً كإلحاق مذلة حقيقيّة بالقرآن.

(4) رابعاً لم تظهر صورة النبيّ في صورة مزاحة ولا في شخص ممثّل، بل فقط تصوّر شخصي للمؤلف كيف يمكن أن تكون صورته. ولا يمكن لا في صحيفة ولا في فيديو أن يُكرّم، لأنّ الصورة هناك لا ترمي إلى الإكرام. فتحريم تصوير النبيّ في الإسلام يبغى تجنّب إكرامه كقدّيس إلى جانب الله، كما يفعل المسيحيّون بالنسبة إلى يسوع المسيح أو مريم العذراء. الله وحده تجب عبادته، لا أنبيأؤه. من هنا يكون مجرد إبراز صورة النبيّ على الورق أو في فلم هو تصوّر بشريّ ولا قيمة له ولا أهميّة دينيّة بالنسبة إلى التكريم والشرك.

علينا نحن جميعاً أن نعتاد اتّخاذ موقف هادئ من التصرف الرديء، وفي الوقت نفسه القيام بدعم فعّال لعالم متناغم سلميّ ونزيد في احترام بعضنا بعضاً.

13. اقضوا على تصرف المتطرفين

إنّ مجموعة المتطرفين المناوئين للسماحة تضمّ المتعصّبين الذين يعتبرون الأديان والأقليات والأعراف الأخرى ضيئلة القدر ويحاربونها بالكلام، مروراً بالدول التوتاليتاريّة التي تكبت الأديان والأقليات، إلى الإرهابيين الممارسين العنف الذين ينشرون على وجه الأرض دعوتهم المتعصّبة المليئة بالبغض والعنف بواسطة القنابل والمسدّات.

كيف يجب علينا أن نقابلهم؟

نحن بحاجة إلى مخطّط مزدوج يضمّ القوّة والسياسة، الصقر والحمام. فبدون قدرة كافية على الدفاع لدى القدرات المؤيّدة لحقوق الإنسان، لا يمكن صيانة السلام. ونكون قد تركنا

العالم لسلطان الشرِّ. وفقاً لتصريح الأمم المتحدة يحقُّ لكلِّ دولة أن تدافع عن نفسها. ولكننا بحاجة أيضاً إلى أساس ثانٍ في سبيل صنع السلام، إلى العوامل اللينة مثل القيام بشرائع السماحة، والتربية على السلام والمصالحة.

الفيلسوف الألماني عمانوئيل كانط علّمنا بكتابه الشهير "حول السلام الدائم"، أن السلام ليس وضعاً تلقائياً طبيعياً، بل يجب صنعه". والفيلسوف الأميركيّ إيرك هُفر زاد على ذلك قائلاً: "تكون قد نلت الظفر في الحرب، عندما تكون قد حولت عدوك إلى صديقٍ لك".

إنَّ العناصر الصلبة في صنع السلام تحتاج إلى إضافة وإلى مخطّط خلاقٍ لحصر ودفع العناصر المتشدّدة. فالاعتماد المتخذ حتّى الآن على الوسائل العسكريّة وأعمال الشرطة لا يكفي. علينا أن نصل إلى قلوب الناس وأذهانهم بواسطة سياسة جديدة أشدَّ فاعليّة في خدمة السلام.

بالنسبة إلى الإرهابيين الأفراد علينا قبل كلّ شيء أن نحصر استدعاءهم، وأن نُقدّم لمن أغواهم العنف تربية قيّمة ونشرح لهم تعليم النبيّ الصحيح. عندما أتكلّم مع المتطرّفين ألاحظ أنّهم في أغلب الأحيان لا يعرفون إلّا القليل عن النبيّ محمّد ويستخلصون اندفاعهم إلى العنف من بعض آيات قاسية من القرآن، ولا يفتنون إلى مُجمّل تعليم القرآن والسُنّة. ولكن لا يمكن حصر القرآن في جزء واحد من ألف من آياته، وإلّا لما أمكن فهم لبّ رسالة الله. فالآيات الداعية إلى التصالح لا يعرفونها. والبشارة المركزيّة الداعية إلى الحِلْم والسلام يجهلها الغلّة في غيرتهم. قد يرددون في صلاتهم آيات الرحمة الغالبة في دعوة القرآن، ولكنهم لا يحملونها في قلوبهم ويقومون بالأعمال المناقضة لها. وهم يجهلون أهميّة خديجة وطريقة حياتها، تلك التي كانت أوّل زوجة وحيدة للنبيّ متحرّرة مدّة 25 سنة، وتلقّب بأُمّ الإسلام. ويجهلون كيف استقبل ملك الحبشة المسيحيّ مئة شخص من أوائل المسلمين. ولا يعلمون شيئاً عن المعاهدة الأخويّة مع اليهود في المدينة، وعن عقود السماحة الاثني عشر مع المسيحيّين. وتغيب عنهم الدعوة إلى الرحمة في مطلع السور من القرآن. والفرائض المخفّفة من ممارسة الجهاد لم يسمعوها بها، ولاسيّما حظر الاعتداء على المدنيّين.

في خريف عام 1985 قمتُ شخصياً بمحادثات مفصّلة مع إسلاميين متطرّفين ومع المجاهدين، واطلعتُ بذلك على تفكيرهم. لقد قضى أكثر من 13 ألف روسي نحبهم في الحرب الخسيسية من عام 1979 إلى 1986. وقُتل مليون أفغاني، وطُرد خمسة ملايين إلى باكستان وإيران. جرت هناك مجزرة دمويّة جدّاً. فبصفتي معاوناً للنائب الأوربيّ هانس غرت بوترينغ كتبْتُ له بصفته محرّراً لمجلس النواب وصفاً للوضع في أفغانستان. صادفنا الرئيس

الباكستاني ضياء الحق في قصره في مدينة راولبندي، وقادة جميع المجاهدين الأفغان في مقاطعات القبائل وفي بشاوار. وأيضاً رجالاً يرتدون عمامة وثياباً سوداء، كانت لهم في ما بعد شهرة واضحة.

لم يكن إلا بإصرار شديد من قبلي تجاه ضياء الحق على تسليم صواريخ مضادة للطائرات، من الممكن وضع حد متأخر للقتل من عام 1987 إلى 1989.

بعد القتال سلخ جلد بعض الجنود السوفييتيين وهم بعد على قيد الحياة، وذلك لأنه قُتلت قبل ذلك في القرى نساء وأطفال. فلم يكن من السهل توجيه دعوة حارة إلى مقاتلي المقاومة بألا يقابلوا الفعل بالمثل. فإني رأيت كثيرين من صغار الأطفال وعمرهم لم يتعد السادسة مقطوعي الرجل أو اليد في مستشفى الصليب الأحمر في بيشاوار. أما من كان قد تجاوز هذا العمر فلم يكن من الممكن نقله فوق الجبال ففقد دمه.

زيارة معسكر التدريب للجهة الوطنية الإسلامية في أفغانستان تركت أثراً بالغاً. فشيخ طريقة القادرية الصوفية، السيد أحمد غيلاني، قادنا شخصياً إلى مناطق القبائل. عشرة آلاف من أتباعه كانوا يقاثلون ضد المحتلين الروس، أحد قواده كان قبلاً قنصل أفغانستان العام في كراتشي، ومجاهد بسيط كان قبلاً يعمل كسائق سيارة نقل في مونخن بألمانيا. كان المجاهدون في أواخر الثمانينات من القرن الماضي أبطالنا. لم يكونوا إرهابيين. كان غيلاني يكافح ضد المحتلين والشيوعية الأفغانية وأيضاً في سبيل إسلام منفتح والحفاظ على ديموقراطية أساسية على مثال الجرجس، مستشاري الحكماء الأقدمين في البلد.

بعض قادة المجاهدين في ذلك الوقت، منهم النشيط قلب الدين حكمتيار، وأسامة بن لادن الذي كان في ذلك الوقت يعمل دون أن تكون له أهمية تُذكر، انقلبوا من أبطال إلى أعداء مريرين. هم يملكون فن الحرب، لا فن صنع السلام. وكلاهما على ما يظهر لم يتحرّيا إلا قليلاً جداً ما أراد النبي والسنة والقرآن. فانقلبوا بعد طول السنين في القتال إلى شخصين تملأهما المرارة ورفض المسيرة، وحتى النهم وراء التسلّط والعجرفة. ينقصهما رفق النبي وسماحته، والرحمة التي لا غنى عنها عند كل قائد مسلم حقيقي، والتي اشتهر بها أبطال مسلمون حقيقيون مثل صلاح الدين.

أتباعهما هم في نظري فاعلون وضحايا في الوقت عينه. هم أيضاً ضحايا الإغراء وجهال. أكثر المتطرّفين ضحايا غسل الدماغ ودعاية البغض من قبل المفسدين الذين يعملون كأدوات الشر. كثيرون منهم شبان منفردون منعزلون لا سند باطناً لهم ولا تقدير لشخصيتهم. إن

اختبار ستانفورد عن السجون برهن قبل أربعين عامًا أنه من الممكن في أيام قليلة أن يتحوّل أناس طبيعيّون لا يميلون إلى الأذى وصامدون نفسيًا إلى أشخاص يقتفون أفعالاً شرسة، عندما يُعطون سلطة غير محدودة على أناس آخرين يعتبرونهم أعداء لهم. هذا الميل كامن للأسف فينا كلّنا، المسلم أو المسيحيّ أو اليهوديّ. لذلك يكون حصر الشرّ فينا له الأويّة العليا.

نحن اليوم بحاجة إلى حوار عريض في الأخلاق، حتّى مع أشدّ أعدائنا. ليس هناك ما يمكن أن نضيّعه، بل هناك ما يمكن أن نكتسبه. أساسنا الأخلاقيّ الإيجابيّ أشدّ من بغضهم.

من هنا تتضح مثلاً أهميّة المفاوضات السياسيّة المباشرة حول السلاح في أفغانستان مع الطالبان، ولا يدور الأمر هنا فقط حول توزيع السلطة والتأثير، بل أيضًا حول القضايا الأخلاقيّة الإسلاميّة. ماذا تلقّنا أولى نساء النبيّ خديجة عن دور المرأة؟ كيف عامل محمّد نساءه؟ كيف يُعامل الأعداء بعد هزيمتهم، كما عامل النبيّ أهل مكة؟ ما هي حدود القتال وفقًا لقواعد القرآن، وهلمّ جرا. بالنسبة إلى هذه المواضيع الأخلاقيّة الهامّة يجدر أن يشترك فيها حول مفاوضات السلام فرق عمل خاصّة ومناقشات مفتوحة طويلة، مع إشراك علماء الفتاوى والإخصائيّين المسلمين.

نحن بحاجة إلى برنامج تربية شامل للمتطرّفين، أكانوا من يعبث بحرمة القرآن في الولايات المتّحدة أو إرهابيّين في السعوديّة أو باكستان. فلا يكفي أن نعاقبهم على جرائمهم، بل يجب أن نلقّهم تعاليم القرآن والنبيّ الصحيحة. هناك حكومات عدّة تنظّم برامج إعادة تهذيب مرتكبي العنف لأسباب ينسبونها إلى الإسلام، مثل العربيّة السعوديّة والجزائر وسنغفورة. علينا أن نجفّف مستنقعات العنف المستند إلى الإيديولوجيا، وأن نسكّن تحمّس الناشطين ونردّ الموافقين إلى الطريق الصالح. في إطار برامج إعادة التأهيل هذه يؤثّر فيّ تأثيرًا جميلًا المزيج في المنهاج من تعليم دينيّ وإيجاد فرص عمل ومنازل وسيّارات، وإشراك الأسرة كلّها والمحيط الاجتماعيّ.

من علامات الأمل الجميل في الأفق هو التراجع الإيديولوجيّ عند مؤيّدين للعنف مرموقين بعد أن كانوا قد أكبوا على دراسة القرآن. من هذا الفريق المتنامي السيّد إيمان الشريف، أمير قديم لجماعة الجهاد المتطرّفة.

في كتابه الذي صدر عام 2007 يقدّم تفسيرًا ضيقًا للقتال ويحكم على "إراقة الدماء غير المحدودة". فالمدنيّون الأبرياء لا يجوز قتلهم. والمسلمون في البلدان الغربيّة لا يحقّ لهم أن يسيئوا استعمال حقّ الضيافة "بالقتل والتدمير"، لأنّ هذا لا يتفق وتصرّف النبيّ ومُط أفعاله. فهذا الذي كان قبلًا يشيد بالتطرّف أقنع بعض من كانوا قبلًا قواديًا بأن يدعموا تعليم

النبيّ المُسام. هذا الكتاب يبيّن أنّ المتطرّفين هم أيضًا قابلون للتلقّن وأنّ الإكباب الشديد على القرآن وحياة النبيّ محمّد قادر أن يفتح أعينهم وقلوبهم.

نحن بحاجة إلى جهاد يدعم الاحترام والسماحة في العالم الإسلاميّ، حتّى في العلاقة مع أهل الشيعة.

فحصر التطرّف بدافع إسلاميّ يحتاج إلى مخطّط فكريّ إسلاميّ عامّ، وإلى تلقين عناصر التعليم حول الرحمة والرفق والحلم والتناسب والاحترام والسماحة وحماية المدنيّين والنساء.

على النخبة في البلدان الإسلاميّة قبل كلّ شيء أن يصحّحوا صورة العنف المنسوبة إلى القرآن ويبيّشروا علنًا بالقرآن الصحيح. فالصورة الخاطئة لهذا الدين العظيم هي الأوكسجين الذي يُضرم شعلة الإرهاب.

يجب على أكبر عدد من السياسيّين في البلاد الإسلاميّة أن يدافعوا عن النبيّ وتعاليمه الحكيمة، فلا يبقى ذلك محصورًا بفتاة عمرها 15 سنة في باكستان. من المخجل في حقّ قادة رفيعي الدرجة ووزراء وأمراء وأئمّة، أن تكون فتاة أكثر شجاعة منهم. إنّي أدافع بطيبة خاطر عن النبيّ محمّد - ولو أنّي كاثوليكيّ ملتزم - لأنّي فهمتُ أهدافه الأخلاقيّة الرفيعة. ولكن ألاّ يجدر أن يفعل ذلك المسلمون الذين يزيد عددهم على مليار نسمة، هم ونخبتهم؟ لماذا لا ينهضون ويكافحون في سبيله وضدّ المتشدّدين؟ لماذا يتكون المجال لجماعة القُساة القلائل؟ كان الأمير حسن بن طلال الأردنيّ على حقّ عندما اقترح عقد ندوة سنويّة في موسم الحجّ إلى مكّة يعلن فيها على صورة شوري ممثّلون عن جميع المذاهب الإسلاميّة موقفهم من موضوع سوء استغلال الإسلام من قبل المتشدّدين. من مكّة يجدر أن تنطلق إشارة واضحة إلى المؤمنین البالغ عددهم أكثر من مليار، إشارة لم تُسمّع حتّى الآن إلّا في إطار آراء الآحاد المعروفة. مكّة هي المكان الصحيح والحجّ الوقت المناسب للعودة إلى تعليم النبيّ الحقيقيّ.

يمكن التقدّم خطوة أبعد: من يدعي أنّه يحقّ قتل المدنيّين باسم الله والقرآن الكريم أو قتل غير المشتركين في النزاع، يحقّ عزله من أمة المسلمين المؤمنین إمّا نهائيًا وإمّا إلى مدّة معيّنة. إنّه لا يقوده الله، بل الشيطان. فهو يهزأ بالقرآن وينبغي أن يُعامل وفقًا للشريعة الإسلاميّة.

من المستطاع في الإسلام أن يعلن أنّ شخصًا معيّنًا أم فرقة معيّنة لا يُعدّان من المسلمين، أو أن يُحكم على شخص بقرار من العلماء أو المفتي. مثل هذه الأحكام يمكنها أن تحدث أثرًا رمزيًا كبيرًا. ولكن من يحكم في ما هو صحيح وما هو باطل؟ فإنّ الإسلام يتفرّع إلى أكثرية سنّيّة تبلغ 85 بالمئة مع مذاهبها الأربعة الحنفيّ والمالكيّ والحنبليّ والشافعيّ، وإلى أقلّيّة شيعة.

في الإسلام السُّنِّي مؤسَّستان مُمكنهما دراسة هذه القضايا: فريق علماء الأزهر الشهير، ومجمع الإفتاء الأعلى في منظمة الدول الإسلاميَّة. وعند الشيعة يجدر أن يتكلَّم في الأمر واحد من آيات الله العظمى المشهورين.

هذه المرافق السنِّيَّة والشيعيَّة الثلاثة ينبغي لها في فرقها الخاصَّة أن توضح بطريقة منتظمة الموقف الذي يجب اتِّخاذه تجاه سوء استعمال الإسلام في خدمة الإرهاب، وفي الأحوال الفرديَّة أن تأمر بالفتاوى اللازمة لاتِّخاذ الإجراءات المفيدة.

ولأنَّ الجرائم الإرهابيَّة يماثل بعضها بعضًا، يكون من الممكن لهذه المرافق صاحبة القرار أن تحكِّم بسرعة في القضايا المتشابهة، وتضع بذلك علامات تأييد شديدة للسماحة والاحترام والمحافظة على قواعد الجهاد في العالم الإسلاميِّ.

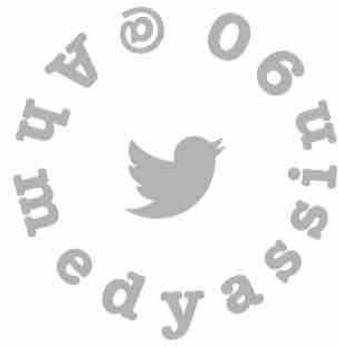
وتحوَّل إلى ذلك هؤلاء الذي يمجِّدون أنفسهم كأبطال الإسلام إلى ما هم عليه في الواقع: مجرمين وخطاة يستهترون بالقرآن. بذلك تنزع عن الإرهاب الأوكسجين والأبَّهة وهالة الأبطال.

مثل هذا الحصر يردُّ قبل كلِّ شيء المقلِّدين والجهَّال البسطاء عن سلوك سبيل الشيطان. بهذا يمكن إنقاذ حياة البشر.

وبهذا يدافع المسلمون عن النبيِّ والكتاب الكريم.

ويقودون الخراف السوداء الضائعة إلى حظيرة الحلم والسلام.

أجل، بهذا يكرِّمون الله الرحيم.



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل الثاني

مسيرة أُلْفَي سنة للوصول إلى التعليم الديني المسيحي حول السّماحة

هو عيد الفصح في الفاتيكان بروما عام 2013. تحت القبة الضخمة في كاتدرائية القديس بطرس يحتفل البابا المُنتخب جديدًا فرنسيس بقدّاسه الأوّل هناك. فإنّه لا يحقّ إلّا لرئيس الكنيسة الجامعة أن يحتفل على المذبح النحاسي تحت القبة المهيبة وعلوّها 136 مترًا صمّمها ميكل أنجلو. أستطيع أن أراقبه بدقّة إذ كنتُ جالسًا في صفّ واحد بعد الكرادلة تحت قبة الكاتدرائية شديدة الأثر. عشرون كردينالاً في ملابس حمراء يجلسون صامتين على صفّين من الكراسي حول المذبح والأب الأقدس. يجلس وراءهم أكثر من ثلاثين أسقفًا، والسلك الديبلوماسي وراهبات وضيوف ذوو رتبة رفيعة. آلاف المؤمنين يملأون الكنيسة الضخمة المكرّسة لخدمة الله والتي ترمز إلى وحدة الكنيسة الكاثوليكية. هي جماعة مؤمنين يربو عددهم على مليار شخص. تلتقي في باحات الكنيسة الفخامة الكنسية والإيمان العميق. البابا فرنسيس يريد أن يبعد الكنيسة من الزخرف ويعيدها إلى قرب الناس قريبًا أشدّ. هو راعٍ للنفوس متواضع في ثياب بيضاء. أوّل بابا من أميركا الجنوبيّة. فجأة انطفأت جميع الأنوار، وفي ظلمة تُوحى بوقوع حدث روحيّ ساد سكون مليء بالانتظار. بحركة احتفالية يسلم الحبر الأعظم شعلة للكهنه الذين يرافقونه. وهؤلاء يوزعون النور على المؤمنين الكثيرين الذين كانوا يحملون بأيديهم شموعًا وينتظرون حضوره وإنارة الكاتدرائية المظلمة. وكمثل بحرٍ من الشُعَل ينتشر بهدوء بلغت النار إلى المؤمنين. من البابا إلى الأسقف، من الأسقف إلى الراهبة، من الراهبة إلى السائح الكوريّ المندهبش - هي سلسلة من الإيمان لا تنتهي. نور ومحبة، إيمان ورجاء، هي جماعة أناس فرحين من جميع بلدان العالم. بعد ذلك تصدح الترانيم الغريغورية التي تحرك قلوب البشر وتنعش فيهم شعورًا عميقًا بأشكال التفكّر. والبابا فرنسيس يحذّر في عظته أنّه "إن غاص في الظلمة الله وقيمه والفرق بين الخير والشرّ، لم تعد جميع الأنوار التي تقدّمها لنا مثل هذه القدرة تقدّمًا، بل صارت خطرًا يهدّدنا ويهدّد العالم. إنّ الإنسان المعاصر يعرف الكثير الكثير عن الأمور الماديّة، ولكنّه لم يعد قادرًا على اكتشاف الله والخير".

كان ذلك قدّاسي الخامس في الفاتيكان. كلّ مرّة أمّدي بقوة وهدوء وتفانٍ. فجوّ التأمّل الهادئ يحرك في أفكاراً تطلّ في سياق العمل اليوميّ غائصة في الرأس، أمّا الآن فهي تصل مزدحمة إلى القلب.

نحن البشر لسنا فحسب مجرد أناس اقتصاديين وماديين متفوقين. بل فينا أيضاً نفس معرّضة للجروح.

فلا يسيرنا العقل فقط، بل العواطف أيضاً، الجيدة والردئية، الحبّ والبغض.

وهناك أيضاً أشخاص يجتدون قواهم في خدمة محبّة البشر، ويكونون بذلك أملاً بالحصول على عالم أفضل وأكثر إنسانيّة.

لا يصحّ أن نقدّر السماحة والاحترام بمجرّد العقل والفهم، بل علينا في الوقت عينه أن نشعر بهما ونمارسهما. فهاتين النظرتين فقط، نظرة القلب ونظرة العقل، يمكن فهم الحياة البشريّة على أرضنا المتنوّعة وتنظيمها تنظيمًا كريماً.

مغروس فينا بذاران متخالفان، بذار الرحمة وبذار القسوة، بذار الحبّ وبذار البغض، بذار الصالح وبذار السيئ. بغضّ النظر عن هذا نحن نؤمن بما نصلي لأجله ونعتبره ذا أهميّة.

إنّ مؤسسي الأديان العالميّة الكبرى وأنبياءها دعوا دائماً في بشارتهم إلى الخير وإلى مكافحة السوء. كانوا على يقين من وجود الأنانيّة والشرّ في الإنسان. فمبادئ إيمانهم تطالب بحياة مرضية لدى الله. وتدعو إلى التواضع ومراعاة شؤون الفقراء والمستضعفين. هل سمعناهم؟ أم نسينا نصائحهم وبشاراتهم الرشيدة؟

ما هو موقفنا الشخصي اليوم كبشر؟ هل نصب كياننا البشريّ وفسنا وحبنا في نقطة الوسط من حياتنا؟ أم نجتمع فقط خيرات ماديّة، ونتنعم بحياة رفاهة خالية من المعنى، بالرقص حول عجل الذهب في أشكاله من الألبسة والسيارات وآلات الهاتف؟

إنّ الماديّة المتعاطمة تسيطر على العالم الغنيّ المؤلّف من مليار نسمة، فيما مليار آخر من الفقراء عليه أن يجهد يومياً في طلب الأرزّ والماء والخبز. من جهة احتفالات واستهلاك، ومن جهة أخرى الجهد في طلب العيش. الملابس والسيارة والتلفون هي صارت أوثاننا في عالم الاستهلاك الرأسمالي. نحن نكثر من تمجيدها كساحرات السعادة. هي أعراض جميلة، ولكن هل تجعلنا حقاً سعداء؟

جشع بلا حدّ احتلّ أيضاً البلاد النائية. يزداد ازدياداً متكاثراً عدد الأشخاص الذين لا يوفّرون من مواردهم لاقتناء أسباب الرفاهية، بل يستهلكون بالدين وبواسطة بطاقات القروض التي تسهّل بها الشركات الكبرى اقتناء المال.

الدول المهتمة بالشؤون الاجتماعية تعدّ برفع مقدار العناية والمؤهلات، وذلك بديون يزداد دوماً تصاعدها، وتحملّ وفاء الدين الباهظ الأجيال الصاعدة.

هل نستهلك نحن بدون وعي كافٍ وندفع بأنفسنا إلى التهلكة؟ هل هذا لبّ حياتنا العصرية؟ ألا ينقص هنا شيء بشريّ من شأنه أن يجلب السعادة؟

اليوم يُعدّ الناجح المنتصر بلا هوادة بطل الساعة، لا الذي يخدم بتواضع. فصاحب الملايين يتلقّى الإعجاب في مشاهد التلفزيون الهزيلة، لا الأمّ التي تُعنى بأولادها عناية مليئة بالتضحية، أو الممرضة في قطاع العناية الفائقة. اهتمنا بالسيارة الفخمة بدلاً من محبة القريب؟ والثياب الفاخرة بدلاً من العطف على البشر؟

نحن نعتني بالبيئة. وهذا حسن. ولكن كيف نهتمّ بتعاضدنا الإنسانيّ؟ وبنفوسنا المعرضة للجراح؟

من يهتمّ بالتعاضد الدوليّ بيننا، وبصنع السلام، وتنمية الاحترام والسماحة؟

إنّ الكردينال برغوليو - الذي انُخب في وقت لاحق بابا روما - قال في حديث له مع الرايّي أبراهام سكوردا: "الحوار ينبع من موقف الاحترام للأشخاص الآخرين. فيكون في القلب مجال لموقف الآخر وآرائه واقتراحاته. علينا أن نقدّم حرارة إنسانية¹³⁸ - في تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2012 دعا يهوداً ومسلمين ومسيحيين إلى لقاء بين الأديان وصلاة من أجل السلام في الشرق الأدنى في كاتدرائيته في بوينس أيرس في الأرجنتين. وهو يعتبر نفسه باني جسر بين الأديان، وفي اتجاه غير المؤمنين.

في كوبا الشيوعية ذكر سلفه البابا بندكتس السادس عشر في 26 آذار (مارس) عام 2012 جذور الكثير من المشاكل: "تقوم الصعوبات الاقتصادية على أزمة نفسية وأخلاقية عميقة، تقضي على أخلاق الإنسان وتسلمه إلى طموح وأنانية بعض المتسلطين. إنّ التقدم الحقيقي يحتاج إلى أخلاقيات تنصب الإنسان في نقطة الوسط، وتلتفت إلى حاجاته الحقيقية، خصوصاً

¹³⁸ . راجع:

Sobre el cielo y la tierra : Leo D. Lefebure : Pope Francis and Interreligious Relations, parlamentofreligion.org, 16 March 2013.

إلى ما يوافق أبعاده العقلية والدينية¹³⁹. هناك حاجة في سبيل تجديد العالم إلى أشخاص صالحين لهم فناعات أخلاقية ثابتة وقيم أساسية رفيعة.

إني أشكر للبابا بندكتس والبابا فرنسيس وقوفهما كمنارتين ثابتتين لا تضلّان في خدمة الأخلاقيات العالمية، في وسط بحرٍ محيط من المواقف السطحية ومن المادية المتعاطمة، وذكرهما المتواصل للأسس الأخلاقية لنظام عالمي صالح.

وفقاً لنظرتي المسيحية تنبع المطالبة بالسماحة تجاه الأديان والأقليات والأعراق الأخرى من صورة الإنسان في العهد الجديد من الكتاب المقدس. إن المسيحية نعرفها اليوم دين المحبة الأخوية والحوار والتصافي مع الأعداء. ورد مثلاً في إنجيل متى عن كلمات المسيح: 5: 44-43: "سمعتم أنه قيل: أحبب قريبك¹⁴⁰ وأبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وصلّوا لأجل الذين يضطهدونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات".

ولكن هناك في الكتاب المقدس أيضاً بشكل مفاجئ بعض الجمل التي تدعو إلى العنف، وهذا يبعث على الارتباك.

ففي العهد القديم في "نشيد الظفر لموسى" في سفر الخروج 15: 3-4، 6-7: ورد ما يلي: "الربّ رجل حرب... مركبات فرعون وجيشه في البحر ألقاها... يمينك يا ربّ، تحطّم العدو، ... تطلق سخطك فكالقش يأكلهم". ويشوع بن نون يمدح في خطابه الأخير في سفر يشوع 23: 10: أن "الربّ إلهكم هو المحارب عنكم كما قال لكم". وأضع يشوع المنطقة كلها (10: 40)، وجاء وصف كيف فعل ذلك في الفصل 10: 37: "واستولوا عليها (حبرون) وضربوها بحدّ السيف، هي ومملكتها وجميع مدنها وكلّ نفس فيها، ولم يُبقِ منهم باقياً...".

في سفر تثنية الاشتراع، الفصل بعنوان "الحرب والمحاربون" يُحمد الله كالذي يحارب مع الشعب: "إنّ الربّ سائر معكم ليحارب أعداءكم عنكم ويخلصكم" (20: 4). وهناك تعليمات أوضح: "وإذا تقدّمت إلى مدينة لتقاتلها فادعها أولاً إلى السّلم... وإن لم تسلمك، بل حاربتك فحاصرتها وأسلمها الربّ إلهك إلى يدك، فاضرب كلّ ذكّر بحدّ السيف. أمّا النساء والأطفال، والبهائم وجميع ما في المدينة من غنيمة، فاغتنمها لنفسك" (20: 10-14). "أما مدن تلك

¹³⁹. عظة في سانتياغو كوبا في 26 آذار 2012، في النشرة الألمانية لجريدة L'osservatore Romano، 6 نيسان (أبريل) 2012، ص 9.
¹⁴⁰. في سفر الأحبار 19: 18.

الشعوب التي يعطيك الرب إياها ميراثًا، فلا تستبقي منها نسمة، بل حرّمهم تحريمًا..." (20: 16-17).

هل هذا حتّ على عدم الإنسانيّة وحتّى على قتل شعب في الكتاب المقدّس؟ هذه الجُمْل، إن اتُّخذت وحدها دون قرائنها، تكون كتبرير لقتل غير المؤمنين على يد المسيحيّين، وحتّى لقتل الشعوب.

وفي العهد الجديد أيضًا نعثر على بعض الإشارات إلى استعمال العنف. ورد في إنجيل متى يسوع المسيح: "لا تظنّوا أنّي جئت لألقي على الأرض السلام. إنّني ما جئت لألقي السلام بل السيف" (متى 10: 34). "لقد جئت لألقي على الأرض نارًا... أوّظنّون أنّه السلام ما جئت لألقيه على الأرض؟ أقول لكم: لا، بل هو الشقاق" (لوقا 12: 49 و51). وعندما طرد يسوع الباعة من الهيكل استعمل هو نفسه العنف. (راجع يوحنا 2: 13-17).

عندما سألتُ بعض اللاهوتيين عن معنى هذه الآيات الماثلة إلى العنف التي تقلقنا اليوم، وهي واردة في الكتاب المقدّس الذي ينادي بالسلام، جاء شرحهم، أنّ هذه المقاطع من الكتاب المقدّس تصير مخالفة للسماحة عندما تُفصل عن قرائنها في النصوص. يسوع كان يعيش ويتكلّم بأمثال. لذلك لا يجوز فهم كلماته هذه حرفيًا، بل تجب مراعاة مجمل القرائن.

بهذا تتضح قاعدة أساسية في تفسير النصوص الدينية: لا تقتلج أبدًا بعض الأقوال من مجمل النصوص، وإلا يحدث تحريف لمعنى القول أو رده إلى نقيضه. فالأمر يتعلّق دومًا بالتعليم الكبير وبالخطوط العريضة للكتب المقدّسة، لا ببعض المقاطع المفردة.

إنّ المتشدّدين أهملوا تكرارًا هذه المبادئ، فكان ذلك سببًا أساسيًا لأمواج عدم السماحة في جميع الأديان وعلى مدى جميع القرون في تاريخ البشريّة. فالمغالون في غيرتهم والقُساة هم خطر داخليّ كبير على تعليم الله الصافي الصحيح، تعليم المحبّة والسماحة.

إنّ القاعدة الذهبيّة للسماحة المسيحيّة ترد في إنجيل متى من العهد الجديد: "كلّ ما تريدون أن يفعل الناس لكم فافعلوه أنتم لهم. فذلك هو الشريعة والأنبياء" (متّى 7: 12). هناك مديح لصانعي السلام الرحماء وداعمي العدل: "فلمّا رأى (يسوع) الجموع صعد في الجبل وجلس فدنا إليه تلاميذه ففتح فاه وجعل يعلمهم قائلاً:

طوبى للفقراء بالروح، فإنّ لهم ملكوت السماوات.

طوبى للودعاء، فإنّهم يرثون الأرض.

طوبى للباكين فإنهم يُعزّون.

طوبى للجوع والعطاش إلى البرّ فإنهم يُشبعون.

طوبى للرحماء فإنهم يُرحّمون.

طوبى لأنقياء القلب فإنهم يُعابنون الله.

طوبى لصانعي السلام فإنهم أبناء الله يُدعون.

طوبى للمضطهدين من أجل البرّ فإنّ لهم ملكوت السماوات.

طوبى لكم إذا أهانوكم واضطهدوكم، وافترّوا عليكم كلّ سوء من أجلي، فافرحوا وابتهجوا فإنّ أجركم عظيم في السماوات. إنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء الذين قبلكم. (متى 5: 1-12).

في شهر تشرين الأوّل (أكتوبر) عام 1992 سلّم البابا يوحنا بولس الثاني إلى المؤمنين "التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة" كوثيقة إيمان ملزمة. فيه يعترف اعترافاً واضحاً بكرامة الإنسان التي لا تقع تحت تصرف الحكّام المدنيّين، ويرفض كلّ إجحاف بالحقوق. إليك بعض ما ورد في هذا الكتاب¹⁴¹:

- رقم 1929: لا يمكن بلوغ العدالة الاجتماعيّة إلّا باحترام كرامة الإنسان السامية. فالشخص هو غاية المجتمع القصوى.

- رقم 1930: يقتضي احترام الشخص البشريّ احترام الحقوق الناتجة من كرامته بكونه خليفة. وهذه الحقوق سابقة للمجتمع ومفروضة عليه. وهي الأساس الشرعيّ لكلّ سلطة. فإذا ازدرأها المجتمع، أو أبى الاعتراف بها في تشريعه الوضعيّ، فهو يقوّض شرعيّة الأخلاقيّة الخاصّة. وبدون هذا الاحترام لا تستطيع السلطة أن تستند إلّا إلى القوّة أو العنف لتحصل على طاعة رعاياها. يعود إلى الكنيسة أن تذكّر الناس ذوي الإرادة الصالحة بهذه الحقوق، وأن تميّزها من المطالب التعسّفيّة أو الباطلة.

- رقم 1931: يميّز احترام الأشخاص من خلال احترام المبدأ: ليلتزم الإنسان باعتبار القريب، أيّاً كان في غير استثناء، كذاتٍ أخرى له. وليحسب حساباً، قبل كلّ شيء لوجوده

¹⁴¹. راجع: التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، المكتبة البولسيّة / منشورات الرسل، جونية - لبنان 1999، ص 561-562.

وللوسائل الضرورية التي يتمكن معها من العيش الكريم. "وليس من تشريع يستطيع بذاته إزالة التخوفات والأحكام السابقة ومواقف الكبرياء، والأثرة التي تعيق إنشاء مجتمعات أخوية حقًا. ولن تتوقف هذه التصرفات إلا مع المحبة التي تجد في كل إنسان قريبًا أو أخًا".

- رقم 1933: ... تعليم المسيح يصل إلى حدّ اقتضاء مغفرة الإساءات. وهو يوسّع وصية المحبة، التي هي الوصية الجديدة، إلى جميع الأعداء. فالتحرر بحسب روح الإنجيل لا يتلاقى مع الحقد على العدو بوصفه شخصًا، بل مع الحقد على الشر الذي يصنعه عدوًا.

- رقم 1934: بما أنّ جميع البشر قد خلُقوا على صورة الله الأوحد، وحُصِّوا بنفس عاقلة واحدة، فهم ذوو طبيعة واحدة وأصل واحد، وهم يتمتعون إذن بكرامة متساوية.

كل أشكال الإجحاف والإقصاء ضدّ حقوق الشخص الاجتماعي والثقافية، أكان ذلك بسبب الجنس أو العرق أو اللون أو المقام الاجتماعي أو اللغة أو الدين، يجب التغلّب عليها وتنحيها، إذ إنّها تخالف مقاصد الله.

السماحة المسيحية تعني احترام خليفة الله والاعتراف بحقوق الإنسان التي لا يمكن انتزاعها. فمن يقبل إنسانًا ويقدره بالرغم من جميع الفوارق، فهو يجد الله. على الإنسان المؤمن أن يحترم مواضع الضعف، إذ إنّها متأية من الإنسان كخليفة نتجت من مخطّط الله، ولأنّ الفوارق في الفكر والمحبة والعمل ناتجة من إرادة الخالق.

1. وصية محبة القريب

لدينا مرساة أخرى فائقة الأهمية، مرساة للسماحة واحترام الآخرين، هي تعليم المسيحية حول محبة القريب.

الرسول بولس وجّه في آخر رسالته الأولى إلى أهل كورنثس تحريضًا للجماعة هناك بجملة ملحة: "ليجر كل شيء عندكم في المحبة" (16: 14). وكان في الفصل 13: 7 قد كتب في المحبة أنّها "تتغاضى عن كل شيء، وتصدق كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبّر على كل شيء" (13: 7).

في نشيد المحبة في رسالة بولس إلى الكورنثيين - وهي أحب شيء إلي في الكتاب المقدس -
يعتبر من بين الفضائل الإلهية الثلاث الإيمان والرجاء والمحبة، أن المحبة هي أعظمهن¹⁴².

"لو كنت أنطقُ بألسنة النَّاسِ والملائكة، ولم تكن في المحبة، فإنما أنا نحاسٌ يطنُّ، أو صنجٌ
يرنُّ. ولو كانت لي النبوة، وكنت أعلمُ جميعَ الأسرارِ والعِلْمِ كُلِّهِ، ولو كان لي الإيمانُ كُلُّهُ حتَّى
لأنقلُ الجبالَ، ولم تكن في المحبة، فلستُ بشيء. ولو بذلتُ جميعَ أموالِي [إحسانًا]، ولو
أسلمتُ جسدي لأحرق، ولم تكن في المحبة، فلا أنتفعُ شيئًا.

المحبة تتأني وترفق؛ المحبة لا تحسد؛ المحبة لا تتباهى، ولا تنتفخ؛ لا تأتي قباحةً، ولا تطلبُ
ما لنفسها؛ لا تحتدُّ ولا تظنُّ السوء؛ لا تفرحُ بالظلم بل تفرحُ بالحق؛ تتغاضى عن كل شيء،
وتصدقُ كل شيء، وترجو كل شيء، وتصبرُ على كل شيء.

المحبة لا تسقط أبدًا....

الآن يثبتُ الإيمانُ والرجاءُ والمحبة، هذه الثلاثة؛ لكن أعظمُ المحبة.

وجاء كذلك في إنجيل مرقس عن الوصية العظمى: "فأحب الربَّ إلهك بكلِّ قلبك وكلِّ
نفسك وكلِّ ذهنك وكلِّ قدرتك. والثانية هي: أحب قريبك مثل نفسك. ولا وصية أخرى
أعظم من هاتين" (12: 30-31، قابل في العهد القديم سفر الأخبار 19: 18 و34).

وورد في إنجيل مرقس 12: 28-34 ما يلي:

وإذني إليه أحدُ الكتبة، وكان قد سمعهم يُباحثونه ورأى أنه قد أحسنَ في الردِّ عليهم،
فسأله: "أي وصية هي أولى الوصايا جميعًا؟" فأجاب يسوع: "الأولى هي: اسمع يا إسرائيل، إنَّ
الربَّ إلهنا ربُّ أحد. فأحب الربَّ إلهك بكلِّ قلبك وكلِّ نفسك وكلِّ ذهنك وكلِّ قدرتك.
والثانية هي: أحب قريبك مثل نفسك. ولا وصية أخرى أعظم من هاتين".

فقال له الكاتب: "حسنٌ، يا معلّم. لقد أصبت إذ قلت: إنَّه الأحد ولا آخر من دونه. وإنَّ
محبتَه بكلِّ القلب وكلِّ الذهن وكلِّ النفس وكلِّ القدرة، ومحبة القريب مثل النفس، لأفضلُ
من جميع المحرقاتِ والذبائح". فلمَّا رأى يسوعُ أنَّه أجاب بحكمة قال له: "إنَّك لستَ ببعيدٍ
من ملكوتِ الله".

¹⁴². ننقل النصوص هنا عن ترجمة العهد الجديد للأب جورج فاخوري البولسي، الطبعة الثلاثون، منشورات
المكتبة البولسية، جونية - لبنان 2000.

يرى البرفسور أرئلد أنغيند أن وصية محبة القريب هذه ومطلب القديس بولس لهما أهمية القرار بالنسبة إلى المفهوم المسيحي للسماحة. فالمطلب القائل "اعملوا كل شيء بمحبة" يجب أن يفهم كمجمل الوصايا ويساهم بشكل جوهري في تثبيت السماحة وكرامة الإنسان. من هنا تصدر النصيحة: أحب الإنسان، وأبغض أفعاله السيئة. هذا منطلق السماحة المسيحية، فيجب أن يحتفظ الآخر رغم خطاياها وحياده بحقه في الحياة¹⁴³.

ما من دين آخر كرس قواه لنشر المحبة والمصالحة في العالم كله مثل الدين المسيحي والكنيسة الكاثوليكية بقيادة الأبرار العظام البابا يوحنا بولس الثاني (من 16 تشرين الأول (أكتوبر) 1978 إلى 2 نيسان (أبريل) 2005) والبابا بندكتس السادس عشر (من 19 نيسان (أبريل) 2005 إلى يوم استقالته في 28 شباط (فبراير) 2013) والبابا فرنسيس حاليًا.

2. فرنسيس: مجدّد ليق

إن البابا فرنسيس وجه إلى أساقفته وكهنته في 24 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2013 رسالة رسولية بعنوان "فرح الإنجيل"، حرّض فيها مجدّدًا على السماحة والاحترام: "لا يكمل الله عن منح الغفران، إمّا نحن نكلّ عن طلب رحمته. فالذي طلب منّا أن نغفر "سبعين مرّة سبع مرّات" (متّى 18: 22) هو مثال لنا. هو يغفر سبعين مرّة سبع مرّات". ويشير البابا إلى قول القديس توما الأكويني الذي وصف الرحمة بأنّها أعظم فضيلة: "إنّ الرحمة هي بحدّ ذاتها أعظم الفضائل. فإنّ من الرحمة أنّها تفيض على الآخرين وأيضًا - وهذا أكثر - أنّها تساعد الآخرين في ضعفهم. ذلك هو عمل المتعالي. لذلك تُنسب الرحمة إلى الله كصفة ذاتية، وهذا يعني أنّ قدرته تتجلّى فيها في أكثر الأحيان".

يطلب البابا فرنسيس من المؤمنين أن يذكروا تحريض الرسول بولس الموجه إلى كلّ واحد منّا: "لا تغلب للشرّ، بل اغلب الشرّ بالخير" (روما 12: 21). - وأيضًا: "لا نفضل في عمل الخير" (غلاطية 6: 9). ويذكر البابا بأنّ أرضنا تخصّ البشريّة كلّها، لا الأغنياء فحسب.

تروق لي طريقة البابا الجديد اللبقة، الذي برساليته "نور العالم" و"فرح الإنجيل" يمثّل كنيسة قريبة من واقع الحياة ونشطة.

¹⁴³. راجع:

Arnold Argenendt, Toleranz und Gewalt. Das Christentum zwischen Bibel und Schwert, Münster 2007, 95-96.

يمدح البابا فرنسيس التعدّد في الأرض: "التعدّد جميل عندما يقبل أن يدخل في مجال التصالح. وحتى أن يعقد نوعاً من معاهدة ثقافة تقود إلى تعدّد متصالح، كما عبّر عن ذلك أساقفة الكونغو: "تعدّد الإنثيات هو غنانا... بالوحدة فقط وبفضل توبة القلوب والتصالح نستطيع أن نساهم في تقدّم بلدنا".

3. بندكتس السادس عشر وقدرة المحبّة

إنّ العلامة الألمانيّ البابا بندكتس السادس عشر يكرّر في مواظبه نداءه بتقدير الخير في الإنسان وبضرورة البحث عن الله في عالم يغوص أكثر فأكثر في الماديّة. لقد كتب بخطّ يده على مدى سنين ثلاثة مجلّدات نفيسة عن "يسوع الناصري"، فيها يسرد تاريخ رجل هو وفقاً للإيمان المسيحيّ ابن الله الذي جلب نوراً ورجاء إلى عالم مظلم. كانت هذه وصيّة لاهوتيّ كبير من بفايريا (ألمانيا)، خليفة الرسول بطرس. أحبّد قراءة هذه الكتب ليس فقط للمسيحيّين، إذ فيها تُرسم بدقائقتها صورة إله رحيم يحبّ جميع الناس.

جاء في كتاب البابا بندكتس أنّ الله هو الرحيم وأنّ الظلم والشرّ يجب الاهتمام بهما والتغلّب عليهما. هذه وحدها رحمة حقيقية¹⁴⁴. جميع الناس قد خطئوا وهم من ثمّ بحاجة إلى رحمة الربّ ومحبّة المصلوب¹⁴⁵. والمحبّة التي تقوم بخدمة الآخرين متجدّرة في المسيحيّة¹⁴⁶. وهو يسرد النبيّ أشعيا (7: 56) الذي يتكلّم عن مستقبل يأتي فيه الربّ بجميع الشعوب إلى جبل قدسه ويفرّحهم في بيت صلاته¹⁴⁷.

ورد في كتابه المذكور، ص 60 ما يلي: "إنّنا نرى اليوم بقلق كم من أشكال سوء التفاهم أثقلت مسار القرون الماضية. ولكن التبصّر الجديد يمكنه أن يلاحظ أنّه بالرغم من كلّ الظلمات هناك بنوع متكرّر مطالع فهم صحيح. أودّ أن أشير إلى ما أودعه القديس برناردي كلارفو تلميذه البابا أوجانيوس الثالث بالنسبة إلى هذه النقطة. فقد ذكّر البابا أنّه لم يودّع العناية بالمسيحيّين فقط: إنّ عليك دنيّاً لغير المؤمنيين ولليهود وللإغريقيّين والوثنيّين¹⁴⁸.

¹⁴⁴. راجع:

Joseph Ratzinger Benedikt XVI., Jesus von Nazareth, 2. Teil, Freiburg 2010, 153.

¹⁴⁵. ص 172، راجع رسالة القديس بولس إلى أهل روما 3: 23-24.

¹⁴⁶. ص 150.

¹⁴⁷. ص 32.

¹⁴⁸. القديس برناردي 2، III/I، De cons.

إنَّ نقطة الدوران والمرساة للإيمان المسيحي هي المحبّة، كما شدّد عليه وشرحه البابا بندكتس السادس عشر في رسالته العامّة المهمّة "الله محبّة"، بتاريخ 25 كانون الأوّل (ديسمبر) 2005. فيها يسرد البابا من رسالة يوحنا الأولى 4: 16: إنَّ الله محبّة: فمن ثبت في المحبّة ثبت في الله، وثبت الله فيه". ويقول: "هذه الكلمات تعبّر بوضوح عن محور الإيمان المسيحي... وبالتالي كيف ترى الإنسان ومسيرته التي تنجم عن ذلك التصرّو... بذلك يستطيع المسيحي أن يعبّر عن اختيار حياته الأساسي... جمع يسوع وصيّة محبّة الله ووصيّة محبّة القريب اللتين يحويهما سفر الأخبار: أحب قريبك كنفسك (19: 18، راجع إنجيل مرقس 12: 29-31).

"في عالم غالبًا ما يقرن الثأر إلى اسم الله تعالى أو حتّى واجب الحق والعدل، نجد في رسالة المحبّة واقعةً عظيمةً ومعنىً عملياً جدًّا. لذلك في رسالتي الجامعة الأولى، أرغب في أن أتحدّث عن المحبّة التي يغمرنا بها الله والتي يجب أن نبلّغها الآخرين"¹⁴⁹.

يكتب البابا في رسالته الجامعة "الله محبّة" عن محبّة القريب (رقم 18، ص 176-177):

18: محبّة القريب، بالمعنى الذي حدّده الكتاب المقدّس على لسان يسوع، تظهر حينئذٍ ممكنة. فهي تقوم، بالطبع، على أن أُحِبَّ أيضًا، في الله ومع الله، الشخص الذي لا أقدره، أو حتّى الذي لا أعرفه. ولن يمكن أن يتمّ ذلك إلا انطلاقًا من اللقاء الحميم مع الله، لقاء أصبح شركة في الإرادة تنتهي بلامسة العاطفة. فأتعلّم إذ ذاك بأن أنظر إلى ذاك الشخص الآخر، ليس فقط بعينيّ وعواطفي، لكن من وجهة نظر يسوع المسيح. فصديقه صديقي. وما وراء مظهر الآخر الخارجي، يبرز انتظاره الداخلي لحركة حبّ، لحركة انتباه، لا أمنحه إيّاه فقط عبر منظمات أنشئت لهذا الغرض، قابلاً إيّاه لرّمًا، من باب الضرورة السياسيّة. أنظر وأرى بعينيّ المسيح فأستطيع أن أعطي الآخر أكثر بكثير من الأشياء التي يحتاج إليها خارجيًا: يمكنني أن أهبه نظرة الحبّ التي يحتاج إليها. هنا، يظهر التفاعل الضروري بين محبّة الله ومحبّة القريب، التفاعل الذي تشدّد عليه رسالة يوحنا الأولى. إذا كنت أفترق كليًا في حياتي إلى التواصل مع الله، فلن أستطيع أبدًا أن أرى في الآخر إلا الآخر، ولن أنجح في أن أتعرّف فيه على صورة الله. وإذا، بالعكس، أهملت تمامًا في حياتي الانتباه إلى الآخر، راغبًا فقط في أن أكون "تقيًا" وأتمم "واجباتي الدينيّة"، فحينئذٍ حتّى علاقتي مع الله تيبس. فتكون فقط "صحيحة"، ولكن خالية من الحبّ. فقط استعدادي للذهاب إلى ملاقة القريب، والإعراب له عن الحبّ، يجعلني أيضًا مرهف الحسّ أمام الله. وحدّها خدمة القريب تفتح عينيّ على ما

¹⁴⁹. نقل هذه النصوص من الترجمة العربيّة لرسالة البابا في مجلّة المسرّة: آذار - نيسان 2006، هنا ص

يصنعه الله من أجلي، وعلى طريقته هو في محبته لي. إن القديسين - لنفكرن مثلاً بالطوباوية تريزا دي كالكوتا - قد نهلوا من لقاءهم الرب في الإفخارستيا القدرة على محبة القريب بتجدد دائم، وبالمقابل اكتسب ذلك اللقاء واقعيته وعمقه، بالضبط بفضل خدمتهم الآخرين. محبة الله ومحبة القريب لا يمكن فصلهما، فهما وصية واحدة. إلا أنهما، كليهما، تحييان من محبة الله السبّاقة، الله الذي أحبنا هو أولاً. وهكذا، لم يعد الموضوع موضوع "وصية" تفرض علينا المستحيل من الخارج، بل على العكس من ذلك، اختبار حب، نابع من الداخل، حب، يجب من طبيعته، لاحقاً، أن يتقاسم مع آخرين. الحب ينميه الحب. الحب "إلهي" لأنه ينبع من الله ويوحدنا مع الله. ومن خلال مسيرة التوحيد هذه، يحوّلنا إلى "نحن" واحد يتجاوز انقساماتنا ويجعل منا واحداً، حتى يصير الله، في النهاية "كلّاً في الكل" (1 كورنثس 15: 28).

وفي رقم 28، أ، ص 183: "نظام المجتمع والدولة العادل هو واجب السياسة الجوهريّ. دولة لا تُسّاس طبقاً للعدالة، تقتصر على زمرة كبيرة من السفهاء، كما قال يوماً القديس أوغسطينس: "في الواقع، إذا فُقد العدل، فما الممالك سوى جماعات كبيرة من اللصوص"¹⁵⁰.

وأيضاً: ص 184، 185: "ما العدالة؟ تلك قضية تعني العقل العملي؛ لكن كي يستطيع العقل أن يعمل باستقامة، عليه أن يتنقى على الدوام، لأنّ عماء الأخلاقي، الناجم عن تجربة المنفعة والتسلط اللذين يبهرانه، هو خطر لا يمكن أبداً استئصاله كلياً... المحبة - كاريّاس - سوف تبقى ضرورية، حتى في المجتمع الأكثر عدلاً. لا نظام دولة عادلاً يمكنه أن يهشم خدمة المحبة. فمن يرد أن يتحرّر من المحبة يستعد للتحرّر من الإنسان بصفته إنساناً.

وأيضاً رقم 31، ص 189-190: "نشاط المحبة يجب أن يتمتّع بالاستقلال عن الأحزاب والمذاهبيات. فهو ليس وسيلة لتبديل العالم بطريقة مذهبية، ولا في خدمة استراتيجيات علمية، بل هو إطلاق عمل الحب في المكان والزمان المناسبين، الحب الذي يحتاج إليه الإنسان على الدوام.

هذا ما حرّض عليه هذا اللاهوتي الكبير وحرر الكنيسة القائد.

4. يوحنا بولس الثاني: بابا بولويّ يعزّز السّماحة

سلف البابا بندكتس السادس عشر المباشر وُلد في 18 أيار (مايو) 1920 في بولونيا وسُمّي كارول يوسف فويتلا. ومن عام 1978 إلى عام 2005 خدم على مدى 27 سنة كبابا باسم يوحنا بولس الثاني. كان بابا محبة القريب والتصالح والحرية في بولونيا. في سني شبابه كان يتمتّع

¹⁵⁰ .La Cité de Dieu, IV, 4

بإرادة صلبة، وكان كاثوليكيًا مؤمنًا وبولونيًا يساند وطنه في أشدّ عشرات سنواته المظلمة. مع أنّه قاسى البغض العميق والردّالة من جهة النازيين المتوحّشين والشيوعيين لعشرات السنين، صار بابا السّماحة والعطف الإنسانيّ، خاليًا من البغض ومليئًا بمحبّة الناس.

في كراكوفيا، قلب بولونيا الثّقافيّ، قاسى مع مواطنيه البولونيين كطالب مدّة ستّ سنوات عداوة النازيين القاتلة تجاه اليهود والبولونيين والكنيسة. شهد أعمالهم المرديّة في مُعتقل أوشفيتس القريب، ذلك الباب المنفتح على جحيم الإفناء. كان النازيون بعد استيلائهم على بولونيا عام 1939 يريدون في بادئ الأمر القضاء على جميع المثقّفين في المجتمع ومقامات الفكر. فكانوا يريدون بعد الظفر النهائيّ على الاتّحاد السوفياتي الذي كانوا يخطّطون له، أن يضمّوا البلد إلى ألمانيا الكبرى الشاسعة، فيحكم عرق الأسياد الآريّ جميع الشعوب من نهر الأودر إلى نهر الأورال. هذا كان مخطّطهم الجنوبيّ. كان البولونيون يُعتَبَرُونَ كأناس حقيرين وعمّال أرقّاء. فكانت النخبة البولونيّة المثقّفة ذات الأثر مع تجدّرها العميق في دينها، تُعدّ خطرًا دائمًا في نظر دكتاتوريّة النازيين التوتالتاريّة. فحكم على اليهود في شرقي أوروبا أنّهم شرّ عميق خالي الإنسانيّة يجب استئصاله، فدُجروا في مرافق معزولة، وقُتل منهم في بادئ الأمر مئات الأشخاص رميًا بالرصاص، ثمّ ملايين في معامل الموت في أوشفيتس ومايدانك وتربلينكا وسوببور وبلزك. أمّا الكنيسة فكان يُخطّط لها بعد الظفر النهائيّ في حقبة ثانية لاحقة، أن يُقضى عليها، ولو أنّ هتلر صبر عليها فقط في زمن الحرب لأغراض سياسيّة داخلية. فكان في مخطّط هتلر إفناء البولونيين واليهود والمناهضين السياسيين، ثمّ بعدهم إفناء الكنائس. دينه كان حقّ القويّ والنسل الآري، إيديولوجيا توتالتاريّة كبديل عن الدين، متجدّرة في عالم الآلهة الجرمانى. فكانت السّماحة والاحترام في نظره عبارة عن موقف ضعف.

شاهد كارول يوسف فوتيلا أعماق المبالغات العابثة بالإنسانيّة، وشدق الشيطان. أُغلقت أبواب جامعة في كراكو عام 1939 من قبل النازيين واعتُقل 183 أستاذًا. وكان الشابّ يعمل مُكرهًا في مقلع حجارة ومعمل كيميائيّ. فأنقذ نفسه هكذا من التهجير إلى ألمانيا. دخل عام 1942 في المدرسة الإكليريكية الكبرى السريّة التي لاقت بعد شهر آب (أغسطس) عام 1944 ملجأ في منزل رئيس أساقفة كراكو، آدم اسطفان سببها.

توفّي كثيرون من الكهنة والراهبات في مُعتقل أوشفيتس الذي يبعد عن كراكو مسافة بعض الكيلومترات، وكان بينهم الأب الفرنسيّ مكسيميليان كولبه. كان ذلك عن ظنّ حدوث محاولة هرب، في 29 حزيران (يونيو) 1941، ففُصل في قبو الجوع عدّة رجال للقضاء عليهم. ولمّا شرع واحد منهم اسمه فرنسيسك غايوفنيسك يشهق بنحيب صارخ، طلب الكاهن أن

يؤدّن له بأن يؤخذ بديلاً عنه. فسجن 14 يوماً في قبو الجوع المخيف وقُضي عليه أخيراً بإبرة قاتلة. في عام 1982 طوّب البابا يوحنا بولس الثاني الأب كوله بصفته شهيداً قديساً، وذلك بحضور الرجل الذي كان هو قد أنقذ حياته.

لم يكن عام 1945 عام التحرّر للبولونيين، بل عام تبديل المحتلّين. فبعد النازيين التوتالتاريين جاء الشيوعيون الملحدون التوتالتاريون والمحتلون السوفيات، الذين اضطّروا البولونيين للنزوح من شرق البلد. كلا الفريقين كان يبغض الكنيسة لأنها كانت تنازعهم على مطالبتهم التوتالتارية بالسلطة على البشر. وتبشّر بخلاف إيدولوجيا البغض والسلطة الكاملة، بمحبّة جميع الناس ومحبة الله.

لم ينزلق كارول فوتيلا في بولونيا في جحيم عدم الإنسانيّة الممتدّة عشرات السنين، إلى المرارة وحبّ الثأر، ولم ينزل به صقيع العواطف، بل صار كامل السنّ مفكّراً رقيقاً بالناس وعميق الإيمان. اكتشف وعاش قدرة المحبّة والإيمان، وجاهد كلّ حياته لمزيد من الإنسانيّة والاحترام والسماحة.

في مدّة عمله كرئيس أساقفة جديد على كراكو ابتداءً من عام 1964، وقبل كلّ شيء كبابا ابتداءً من عام 1978 جاهد بحزم ضدّ الكفّار الجدد. فحرّض في الوقت نفسه على المصالحة مع الألمان، وكأول بولونيّ على سُدّة البابويّة نشط عزم وفكر الكنيسة البولونيّة، وزعيم العمّال لخ فاليسا مع نقابته العماليّة المستقلّة، كما نشط كلّ الشعب البولونيّ المؤمن. دام ذلك حتّى عام 1989، حين دخلت الحرية لأول مرّة إلى بولونيا. زياراته الشهيرة إلى وطنه ملأت ملايين من البولونيين حماساً. فبقدرة الإيمان نشطوا "ريح التغيير" في أوروبا الشرقيّة كلّها. شجّع البابا الناس لأن يجاهدوا في سبيل نظام جديد حرّ عادل، وضدّ الكابيتين التوتالتاريين، ولأن يخرجوا في مظاهرات إلى الشارع.

ليس هناك من عمل طويلاً مع كارول يوسف فوتيلا وعرفه جيّداً مثل الكردينال الحاليّ ستانسلاو دزيفيس، الذي زرته شخصياً في مقرّه الأسقفّي في كراكو. كان فوتيلا قد عاش في هذه القاعات في المدرسة الإكليريكيّة الكبرى السريّة. صادف دزيفيس لأول مرّة فوتيلا عام 1966 وأصبح أمين سرّه. وبعد انتخاب البابا الجديد اصطحبه يوحنا بولس الثاني إلى روما، حيث كان له كرئيس أساقفة خادماً أميناً حتّى وفاته في نيسان (أبريل) 2005. في السنة نفسها لحق من كان مثلاً له على كرسيّ الأسقفية في مدينته العزيزة كراكو. وقد ذكر لي "أنّ البابا يوحنا بولس الثاني كان يعيش في الله ومع الله. كان يبحث في حياته اليوميّة عن الله،

ويزيد في سعادة الأشخاص من حوله، ويتحدّث إلى كل واحد منهم، لاسيّما الشبيبة. لم تكن فقط شخصيته الكبيرة، بل أيضًا حياته في الله، ما جعله قويًا شديد التأثير.

بصفته مدافعًا عن حقوق الإنسان ضدّ الشيوعيّة المتعسّفة والملحدة، كان منتصبًا كالصخرة في مجرى الأمواج. يُحكى عن يوسف ستالين أنّه طرح سؤالاً خطابيًا: كم لدى الفاتيكان من كتبية عسكرية؟". بالنسبة إلى وضع بولونيا لم تنتصر عام 1989 الدبّابات والجنود، بل الشجاعة الناقفة إلى الحرّية، مدعومة في البلد بسلطة أخلاقيّة، سلطة البابا البولونيّ وقائد الكنيسة. ولكن كان حتّى على البابا أن يدفع ثمن نشأته. فبتحريض من منظّمة الخدمات السريّة السوفيّاتيّة بقيادة يوري أندروبوف وبموافقة القمّة السياسيّة لأمين السّرّ العام في الاتحاد السوفيّاتيّ ليونيد بريجنيف، حُطّط أن يقوم أحد المجرمين بقتل البابا في ساحة القديس بطرس بروما. إذ كانت الشيوعيّة تلجئ إلى كلّ وسيلة ممكنة في كفاحها في سبيل احتلال بولونيا. وكالمعتاد في مثل هذه الأحوال دُبّرت هذه الضربة بواسطة المباحث السريّة الصديقة، أي هنا المباحث البلغاريّة والألمانيّة الشرقيّة الشيوعيّة، وباشتراك عدد من الوسطاء، ذلك لمحو الآثار المشيرة إلى موسكو. ثمّ نُشرت أخبار مزيّفة، مثل تلك المدّعية أنّ عمليّة القتل صدرت مباشرة من منافس للبابا في الفاتيكان. بذلك لم يعد المجرم يستطيع أن يحدّد بدقّة من أوكل إليه بتنفيذ الأمر. وجدوا قاتلاً لا هوادة له في صفوف جماعة "الذئاب العُبر" في تركيا. أعداء هؤلاء المتعصّبين المتشدّدين هم قبل كلّ شيء الأكراد والأرمن واليهود والمسيحيّون. فأطلق المسلم التركيّ محمّد علي أغشا في 13 أيار 1981 (مايو) ثلاث رصاصات على البابا. فجرحته إحدى الرصاصات جرحًا بليغًا. ولكنّه كما بأعجوبة، لبث حيًّا وزار ذلك الذي أراد قتله في سجنه ونال العفو عنه في إيطاليا.

في بولونيا منارة أخرى، هو لخ فاليسا، وقد أُتيح لي أن أتناول معه طعام العشاء في كراكو. هو مؤسس النقابة الحرّة "سولدارنُش"، وزعيم ثورة عمّال الميناء في دانتسغ عام 1980. نال جائزة نوبل للسلام عام 1983، وكان من عام 1990 إلى عام 1995 رئيس الجمهوريّة في بولونيا. يروق لي أن أ طرح سؤالاً: من تغلّب على الشيوعيّة في أوروبا: أكان قائد جيش أو أستاذ جامعة أو وزيرًا أو دبلوماسيًّا غربيًّا؟ دبلوماسيًّا غربيًّا؟ جواي المطرد: لا، كان عامل كهرباء مجهولًا في دانتسغ، رجلًا بسيطًا كأمثاله في الشارع، نشأ في بيئة فقيرة، ولكن، كما قال يومًا مرشدي الدكتور فريتس كرامر: المهمّ هو فهم بشريّ سليم وشجاعة كبيرة في سبيل الحرّية، شجاعة لا تجدها عند أكثر المتأرجحين من أصحاب الفكر. فقليل من الصمود لا يضرّ تجاه

المتسلطين. ثم إن فاليسا مؤمن عميق الإيمان. ومرساته الأخلاقية هي صورة مريم العذراء على جانح صدرته - هي هدية من البابا يوحنا بولس الثاني.

"نحن بحاجة إلى قيم مشتركة في عالمنا الشمولي، وإلى تضامن جديد بواسطة القيم: هذا ما قاله هذا الرجل، الشخصية الشهيرة الثانية في بولونيا بعد الحكم الشيوعي. وقال أيضاً: "لم ينبئ قائد في العالم من قبل، بما حدث في بولونيا وأوربا في الثمانينات. حلم تحول إلى حقيقة. إن والدي لم يكن يصدق أنها لم تعد تقف معسكرات بولونية على حدود ألمانيا، كما كان الوضع في السنين المئة الماضية". وبالنسبة إلى الجار الآخر الكبير إلى جهة الشرق كان عند فاليسا رأي جلي: "إن الروس هم أنفسهم ضحايا الشيوعية، وهم الآن الراحون من "نسمات التغيير". هذا يفهمه غرباتشوف، وهذا كان يعرفه بوريس يلتسين. لكن للأسف لا يفهم ذلك فلاديمير بوتين".

في لقاء فلورنسا عام 1995 أوجز لخ فاليسا وصيته بالكلمات التالية: "إن السبيل الوحيد إلى عالم موحد يسود فيه العدل والحرية هو التضامن والحوار والأخوة الشاملة. علينا أن ننفذ عنّا التوق إلى السلطة والفائدة والرفاهية. علينا أن نبدلها باستعدادنا للمشاركة والتعاون بروح الاحترام والثقة المتبادلين. يجدر بنا أن نسلّم أمرنا إلى هذه الفكرة العظيمة الحميدة، فكرة تضامن الأسرة البشرية جمعاء. هذا سيساعدنا على نقض الحواجز من الجدران وفتح الأبواب على مستقبل أفضل أكثر عدالة، في سبيل التصالح والسلام"¹⁵¹.

عندما سألت الكردينال دزيفس في حديثنا حول السماح عن موقف البابا يوحنا بولس الثاني من المسلمين، قصّ عليّ زيارته لدمشق. هناك حيّاه العلماء المسلمون في الجامع الكبير داعين إياه "شيخنا المفتي الكبير". فالمستقبل متعلق بإمكانية الخوض في الحوار البناء مع الإسلام ومن اكتشاف قيم مشتركة. هناك صرح البابا بأنّ البحث عن الجذور المشتركة هو ما تفرضه الساعة.

كان يعتبر المواقف الإنسانية تعني وجود جماعة لا تميّز بين فئات الناس. فالاختلافات ينبغي أن تؤدّي إلى تنشيط الأسرة البشرية. على كلّ شخص أن يفهم قيمة التعدد البشري ويحترمه¹⁵².

¹⁵¹. Sant' Egidio : Internationales Friedenstreffen in München 2010, 8

¹⁵². World Day of Peace, January 1, 1989

أكد الكردينال أنه "توجد عندنا في بولونيا قيم نشارك فيها الآخرين". مدح رئيس الأساقفة ألفونس نوسل من أوبلن / أبولي، داعيًا إياه صديقه الطيب، الذي ساهم مساهمة مهمة في المصالحة بين البولونيين والألمان.

5. رئيس الأساقفة ألفونس نوسل: في سبيل مصالحة حقيقية "بقلب مفكر وذهن محب"

ألفونس نوسل ممثل عظيم للكنيسة الكاثوليكية. كان أول لقاء لي معه في مركزه الأسقفى في أوبلن/أبولي في سيلازيا العليا في شهر أيلول (سبتمبر) 1989. فيه نار متوقّدة، وقلب ملتهب وفهم براق. مع الأيام تمكنت بيننا صداقة خالصة. عمّد ابنتي كيارا، التي أهديتها هذا الكتاب، في مونخن، واحتفل في شتاوفن في مقاطعة برايسغاو باليوبيل الذهبي لزواج والدي، اللذين طردا عام 1945 من برسلاو، فوجدا في الغابة السوداء موطئًا جديدًا، وأخيرًا قام بمراسيم دفن والدي عام 2003.

اشتهر رئيس الأساقفة من وراء الحدود عندما احتفل في 12 تشرين الثاني (نوفمبر) 1989 بقُداس المصالحة بين الألمان والبولونيين بحضور المستشار الألماني هلموت كول وأول رئيس وزراء غير شيوعي في بولونيا هو تداوس مازوفسكي. آلاف من سكّان سيلازيا العليا الألمانيّين التّسب حيّوا في ذلك الوقت الزائر من ألمانيا ببناء "هلموت"، الذي كان إلى ذلك في حينه صديقًا لرئيس الأساقفة نوسل. قمتُ بتنظيم إرسال مباشر بشبكة التلفزيون الثانية الألمانيّة. كانت المباحث السريّة، وكانت لم تزل تعمل باتجاه الشيوعيّة الوطنيّة المغاليّة، تُلخّ عند ذلك على المطران ألفونس نوسل أن يُعرض عن المبادرة المألوفة في القُداس الكاثوليكيّ عن تحيّة السلام للزعيمين السياسيّين. أجابهم نوسل: "هذا لا أستطيع أن أقرّره بنفسي. ولكن اتّصلوا بالفاتيكان واحصلوا على إذن بذلك. أستطيع بطبيعة خاطر أن أطلعكم على رقم الهاتف". هكذا انطلقت الخطوة الثانية للمصالحة بين الألمان والبولونيين، مع مساهمة رئيس الأساقفة هذا كصانع سلام.

كان عدم الثقة لا يزال شديدًا يغذّي ناره الشيوعيّون والوطنيّون المغالون البولونيّون. لا أزال أذكر حادثة وقعت على هامش استقبال المستشار الألمانيّ في فرسوفيا. حَضَرَ عندها فريقًا الأشراف البولونيّين والألمان. كان من بينهم ممثلان للأقليّة الألمانيّة في سيلازيا العليا، هما يوهان كروول وابنه هنريك، الذي بعد ذلك مثّل من عام 1991 إلى عام 2007 مقاطعة أوبلن / أبولي في مجلس النوّاب البولونيّ. وقف هذان الشخصان السيلازيان المتأصّلان في منطقتهم والشديدا العزيمة، كشخصين ضائعين في القاعة. لذلك سألتُ كاهنًا وطنيًّا متعصّبًا، كان

معرف بطل الحرية لخ فاليسا من دانتسخ، هو المونسنيور هنري يانكفسكي: "هل تحدّث يوماً بهدوء مع ممثل للأقلية الألمانية في سلازيا العليا؟"، وقدّمت له المواطنين كليهما. اكفهر وجهه، ولكن لم يكن ليستطيع أن يتجنّب مقابلة مثل هذه. فتحدّث الكاهن لأول مرّة مع ألمان من بلده، لم يكن يطمئنّ إلى مقابلتهم. فقلتُ: "حسنٌ أن تكلموا الآن الواحد منكم الآخر".

بالتعاون مع فلاح بسيط اسمه توماس سيخون وبمساندة رئيس جمعية المزارعين الألمانيّة، قسطنطين فون هيرمن، الذي رافق المستشار الألماني، أطلقت مؤسسة "جمعية المزارعين السلازيين". فمنتج الأفلام الألماني هورست فندلاند من بحيرة شتارنبرج، أهدانا خمسة عشر جراً والمال الضروري لانطلاق جمعية لها ثلاثة آلاف عضو ومصنع حليب خاص.

كان عام 1989 عام المصالحة الثاني في مرحلة العداوة الطويلة المتوارثة المزعومة بين الألمان والبولونيين. كان حجراً جديداً في بناء المصالحة. كان المستشار الألماني فيلي براندت بركوعه الشهير أمام نصب معسكر الحجر في فرسوفيا وإبرامه المعاهدات الشرقية، قد وضع علامات الاتجاه. بذلك تمّ عملياً الاعتراف بالحدود عند نهري الأودر ونايسي. والجمهورية المتّحدة الألمانيّة تخلّت عن المناطق الألمانيّة الشماليّة القديمة. وكان عام 1989 اعتراف بولونيا بالأقلية الألمانيّة في سلازيا العليا، التي كانت تعد مئتي ألف شخص. حتّى ذلك الوقت لم يكن هناك في المدارس تعليم اللغة الألمانيّة. وكان البولونيون ذوو النسب الألمانيّ عرضة للاحتقار والتجاهل والتحقية وفقدان الثقة.

فبجهد كبير توصل رئيس الأساقفة ألفونس نوسل إلى أن يؤدّن لسكان سلازيا أن يحتفلوا بالقدّاس بلغتهم المحبوبة. والآن همجرى المصالحة وضمّ بولونيا إلى الأسرة الكبيرة أسرة الدول الأوروبيّة الديمقراطيّة، وذلك في آخر مدى عند دخولها في الاتّحاد الأوروبيّ في أوّل أيار (مايو) 2004، صاروا مواطنين مرحّباً بهم ونالوا الحقوق نفسها كسائر المواطنين. فالاتّحاد الأوروبيّ يحمي جميع الأقليات في أوروبا، ويعترف بالوحدة في التعدّد.

إنّ البولونيين ساهموا مساهمة عظيمة، ويستطيعون أن يفتخروا ببلدهم. عندما زرت موطن والديّ مدينة برسلاو مع فرقة الموسيقى "العقارب"، تحمّست عند اختباري الحياة الفنيّة الزاهرة، في تلك المدينة الجميلة جدّاً عند نهر الأودر. الآن صرنا نحن الألمان والبولونيين في نهاية المطاف أصدقاء.

لنعد إلى قدّاس المصالحة عام 1989. حدث ذلك عن طريق الصدفة. كان ألفونس نوسل هو المحرّك. وكنتُ أنا بصفتي مساعداً لبرنامج الأخبار في التلفزيون الثاني الألمانيّ قد سافرت

من أجل المراسلة إلى سيلازيا العليا وتحديث إلى الأسقف في أوبلن. فقصص علي أن أهل سيلازيا يكونون سعداء إن جاء المستشار الألماني يزورهم في جبل القديسة حنة. فلما نصبت آلة التصوير نصحت له أن يوجه الدعوة بواسطة التلفزيون مباشرة إلى هلموت كول. فسجلنا الدعوة الرسمية في فلم: "سيدي العزيز المستشار، نوجه إليك دعوة قلبية إلى زيارة سيلازيا العليا في جبل القديسة حنة".

هذه الجملة حرّكت عن صدفة أخرى المواقف كلها. ففي اليوم الذي حدث إرسال مساهمتي في برنامج الأخبار، تلقيت هاتفًا من دائرة المستشار. كان المتكلم إدوار أكرمان مدير دائرة وسائل الإعلام. فطلب إلي أن أرسل المحادثة مع الأسقف نسول بدون اقتطاع شيء منها إلى دائرة المستشار. فإن هلموت كول كان قد سمع الدعوة في المساء السابق، وطلب إلى معاونيه أن يقوموا بتدبير الأمر. ولكن بما أن جبل القديسة حنة كان في التاريخ مَثَقلاً لكونه موضع التقاتل بين الألمان والبولونيين، اختارت مراسيم البولونيين والألمان بعد مناقشات عديدة مكاناً أقل عرضة للمناقشة: هو مقام كرايسأور في سيلازيا السفلى. من خطرته له الفكرة في ذلك؟ كان مجدداً ألفونس نوّسل.

في كرايسأور كان يعيش أحد المقاومين الألمان الشريف جيمس مولتكه الذي أعيد عام 1945. كان عشرون من المقاومين النشيطين وعشرون آخرون مساندون لهم يريدون إسقاط التسلّط النازي. مرماهم كان إقامة دولة ديمقراطية عصرية في ألمانيا تحمي الأفراد. حلقة التداول في كرايسأور كانت تضم أربعة فِرق من المجتمع الألماني: الأشراف (وهم مولتكه، يورك، تروت، آينزديل، وهافتن الذي كان مساعداً لرأس المؤامرة ضد هتلر شتاوفنبرغ)، وديموقراطيون اجتماعيون (مثل رايففاين، ميرندورف، ليبر، هاويخ)، وبروتستانت (بولخاو، شتلتر، غرستماير الذي صار بعد ذلك رئيساً لمجلس النواب)، وكاثوليك (مثل روش، كونغ، لوكاشك، فان هوزن، بيترس، وقبل كل شيء دلب صاحب التأثير الواسع). كانت كرايسأور إذن تضم عناصر ألمانيا الجديدة الصالحة والتمسكة بالديموقراطية بأشكال متنوعة. ومُقام اللقاء كان في عام 1989 الموضع الكامل لانطلاق جديدة في أوروبا حرة مع ممارسة الاحترام المتبادل والسماحة تجاه مؤمني الأديان الأخرى والأقليات الإثنية. وبيّنت كرايسأور بوضوح شديد أي دور مركزي يقوم به رؤساء الأديان والأديان في سبيل المصالحة وبناء مجتمع إنساني.

كرّس ألفونس نوّسل كل حياته لهذه المهمة، فزرع السلام والمصالحة وأسعد أناساً كثيرين في سيلازيا والمهجرين مثل والدي. من عام 1977 إلى توديعه من المنصب عام 2009 كان

يعمل كأسقف في أوبلن. هو البرهان الحيّ لأنّ السلام بين الأعداء الألدّة أمر ممكن، ولكنّه لا يهبط من السماء، بل يجب تحقيقه بخطوات صغيرة كثيرة.

سيلازيا هي لي نوعاً ما وطن وتاريخ الأسرة، إذ إنّ والديّ، والديّ كريستا ماريّا هغمان (عائلتها تدعى نيستروي)، ووالدي جورج غوتتر هوفمان نشأ في برسلاو وليغنتس. في عام 1945 وفقاً لمعاهدة يالطا وبوتسدام التي عقدتها الدّول الظافرة، طُرِدَا مع اثني عشر مليوناً آخرين من الألمان من المناطق الألمانيّة الشّرقية. وكما هو الوضع لدى ملايين المهجّرين في العالم كلّهُ، أمّهما فقدان وطنهما المحبوب، خصوصاً والدي. والأسقف نوّسل صالحهما مع هذه الواقعة.

كان نوّسل يعمل في الجامعة الكاثوليكيّة الشهيرة في لوبلين. هناك تعرّف إلى كارول فويتبلا، وكان تقديره له كبيراً. كان فوتبلا الذي صار بعد ذلك كردينالاً في كراكاو، قد اشترك بقدر وفير في تحرير الرسالة الراعويّة المشتركة للأساقفة البولونيّين والألمان، عام 1965. بعد ما عانوه من الاحتلال الألمانيّ والتهجير طلبوا السماح ودعوا شعبهم إلى المصالحة. كانت هذه أوّل خطوة جريئة للابتعاد عن العداوة والتوجّه إلى الصداقة. فصارت السنوات 1965 و1970 و1989 أعواماً نيّرة للمصالحة المسيحيّة.

مع أنّ صديقه البابا كان يودّ بطيبة خاطر أن يعيّنهُ كردينالاً يدعوه إلى روما كرئيس الدائرة البابويّة لتعزيز وحدة المسيحيّين، حفظ نوّسل الأمانة لوطنه. وكان ذلك بركة. فإنّه صالح هناك الناس، وشفى جراحاً عميقة وتعاطى العِلْم، الذي كان يهواه. مجموع مؤلّفاته أربعة عشر كتاباً ثميناً، منها "السعادة في المحبّة. التفاتة إلى حياتي (عام 2010). ومساهمته في إحلال التصالح شهد لها بنيله جوائز كثيرة، منها جائزة القديس أولريخ (عام 1993)، وجائزة أوغسبرغ في السلام (عام 1997)، وجائزة الثقافة من مقاطعة نيدر ساكسن (عام 2001)، وجائزة السلام الألمانيّة (2010). هناك كتابان صدرا من جامعة أوبلن مقدمة معايدة "الرئيس الأساقفة ألفونس نوّسل. عن حياته وفكره ونشاطه" (أوبلن 2012). مجلّدان يقعان في ألف صفحة، يعرضان الوثائق عن العمل الواسع لفاعل السلام هذا.

إنّ معرفته الفريدة للمسيحيّة وللجراحات الأخلاقيّة في بولونيا من جرّاء حربين عالميتين، والاحتلال من قِبَل حكومتين توتاليتاريّتين كافتريّن، والهرب والتهجير وكبت الأقليّات، وإلى ذلك معرفته بالسلام الذهبيّة للوصول إلى التصالح والصداقة، كلّ هذا يجعل منه "بطلاً من أبطال السماحة". اشتغل طول حياته في سبيل رسالة المسيحيّة بأن تحوّل الأعداء إلى متنازعين، والمتنازعين إلى أصدقاء.

إنّ باني الجسود السيلازي هذا حارب مدّة حياته كلّها الوطنيّة والإيديولوجيا المعاندتين، وذلك "بقلب مفكّر وفهم محبّ". عندما وُهب وسام الشرف الألماني الكبير مع نجم، سرد رئيس الجمهورية هورست كولر مواطنه السيلازي يوسف فون أَيْخِنْدَرْف: "حيث يقف الملتهب حماسة، هناك هي القمّة". ثمّ أضاف: "إنّ سيلازيا لديها منذ سنين كثيرة مثل هذه القمّة".

6. شرائع التسامح المسيحيّة

من المحادثات مع رئيس الأساقفة نوّسل وممثلي الكنائس في بلدان مختلفة تبرز صورة واضحة لعناصر سياسية مسيحيّة في سبيل السلام، لشرائع التسامح التي يؤيّدونها المسيحيّون. يبيّن ألفونس نوّسل بوضوح أنّ التحمّس للخير وحده يمكنه أن يجرّ الناس التعبين أو الخائفين أو المخذولين إلى السبيل الذهبيّ. يقتضي ذلك وجود نار باطنة يمتدّ فعلها إلى الخارج وتجعل قلوباً أخرى تضطرم وتُشعّ.

إنّ العبارات التالية موحاة إلى حدّ بعيد من عظاته:

السلام الحقيقيّ يفرض أن نفهم أنّ المصالحة تشفي الماضي السيّئ. علينا أن نحزّر تفكيرنا من الأحكام المسبّقة، وأن نلقي عنّا الأحكام المسبّقة، ونكافح ضدّ طغيان الإيديولوجيا والعداوة المأساويّة والتجاور المؤسف. يجب أن تُزهر وحدة صادقة حيث كان في الماضي مجرد الوقوف جنباً إلى جنب. مواقف وأفكار عدائيّة يجب أن تحلّ محلّها الإرادة الطيّبة المشتركة والصدّاقة.

سياسة القوّة هي زيادة ضروريّة لسياسة السلام هذه، ولكن فقط عندما تساعد على الدفاع عن حقوق الإنسان والكرامة الإنسانيّة، وتصدّ قوى الشرّ. هي مسموح بها فقط لأجل المحافظة على السلام. وحدها لا تكفي سياسة القوّة، لأنّ مفعولها محصور جدّاً وقد تقود في الاتّجاه الخاطئ. عليها أن تخضع لأوليّة "القلب المفكّر والذهن المحبّ".

علينا أن ندعم تعاليم السلام المسيحيّة بصوت جهير، لكي يمكنها أن تؤدّي مفعولها في جميع البلدان والثقافات والأديان. بهذا فقط نستطيع أن نُقصي جذور الإرهاب والحرب والتهجير العميقة وأن نبني عالمًا يقلّ فيه البغض والعنف.

سياسة السلام المسيحيّة تحتوي على الأمور التالية:

علينا أن نعتبر عدوّنا نفسه شخصاً وجاراً له كرامته الفرديّة. فيجدر حتّى بالنسبة إلينا أن نلاقيه بقلب منفتح وأن نعرض عليه أن نسلّم معه طريق المصالحة ونقوم بانطلاق جديدة.

سياسة المصالحة الحقّة بين الناس هي وحدها يمكنها بشكل مستديم أن تأتي بالسلام وتضع الأساس لسلام دائم بين الأخصام القدماء.

سياسة القوّة هي أحياناً للأسف المساندة اللازمة لسياسة السلام هذه، عندما تساعد على ضمان حقوق الإنسان وكرامة الإنسان، وضبط قوى الشرّ.

أمّا مجرد اللجوء إلى سياسة القوّة فلا يكفي: فائدتها وحدها قصيرة المدى، هي بحاجة ماسّة إلى "قلب يفكر وذهن محبّ" لكي تقود الإنسان في عمق ذاته الباطنة إلى السلام مع الخصم والدخول إلى مستقبل أفضل يسود فيه سلام أوسع.

يجب علينا أن نرفع صوتَ هذا التعليم المسيحيّ الأساسيّ المهمّ بنوع خاصّ عن السلام، وأن ندعمه بنشاط تجاه جميع البلدان والثقافات والأديان. بهذا فقط نتمكّن من إقصاء الجذور العميقة التي تنبت الإرهاب والحرب والتهجير، وإقامة سلام حقيقيّ مع انخفاض بالبغض والعنف.

ينبغي لنا أن نتنشل النفس البشريّة من حفرة عميقة مليئة بالأفكار العدائيّة، وأن نشفيها ونحرّرها.

آراء مسبقة وأساليب فكر عدائيّة، هذه يجب خرقها.

علينا أن نعفو ونصفح. بهذا فقط نصل إلى العدل والسلام.

العدل يحتاج إلى روح وقلب. لا يُفرض علينا أن ننسى ما حدث، بل أن نصفح ونبحث عن قاعدة جديدة للمشاركة السلميّة. بذلك نحرّر ذواتنا أيضاً بوضع حدّ لدوامة البغض والعداوة والحرب.

لنفسح لعدونا القديم مجالاً ليكتشف في ذاته قوى لم يكن يعيها حتّى الآن، لكي يصير من تلقاء نفسه إنساناً رقيقاً أفضل وأشدّ ميلاً إلى السلام، ويتحوّل بالتغلّب على نفسه من عدوّ إلى صديق.

يجدر بنا أن لا نكتفي باحتمال الآخر متسامحين، بل علينا أن نقبله مع كلّ الصفات التي تفرّقه عنّا.

في عالمنا المتنوّع الألوان بسكانه البالغ عددهم الآن سبعة مليار شخص، يختلف أفكارهم وثقافتهم، علينا أن نتعلّم بقلب مفكر أن نعامل بعضنا بعضاً معاملة سمحة.

ليس من أحد عدوّاً لي، لمجرد أنّه يختلف عنّي.

النخبة في جميع بلاد هذه الأرض عليهم أن ينشروا في جماعاتهم السماحة والاحترام تجاه الأديان والأقليّات الإثنيّة والأعراق.

نحن بحاجة إلى نظام جديد شامل يتعدى كثيراً الحدود والثقافات الخاصة يؤمن قدرًا أكبر من الحرية والسلام والتضامن الإنساني والاحترام.

كل إنسان يحتاج إلى سماحة في قريتنا العالميّة.

فنحن إن كنا مسيحيين أو مسلمين أو يهودًا أو بوذيّين أو هندوسيين، علينا أن ننزع من صفوفنا البغض والإيديولوجيات ونهب معًا لعالمنا حريّة أوسع وتصالحًا أعمق وبذلك نجعله أهلاً لأن نحبه.

هنا يمكننا أن نتلقنّ الدرس من تعاليم أوغسطينوس وتعاليم الحكمة عند توما الأكويني وإراسمُس الذي من روتردام حول "السماحة السلميّة"، وأيضًا من تاريخ أوروبا، وإن لم يكن تاريخ السماحة فيها تاريخًا سهلًا قط.

بواسطة الكرم والمعونة يجدر بنا اليوم أن نفتح قلوب الذين كانوا أمس خصومنا.

الوطنية وأيضًا الإسلام بإيمانه العميق هما نتيجة المحبّة لا البغض.

مجرّد الوطنية والتسلّط المطلق في السياسة والدين يناقضان الشعور الإنسانيّ، ويقودان دومًا إلى البغض والتهميم وأخيرًا إلى الحرب في الداخل والخارج. مظاهر التنظيف العرقي والتهميم تُنتج آثارًا ضدّ الإنسانيّة، مهما كان ادّعاء أسبابها. الناس لهم حقّ بوطنهم. التهميم ينزع جذورهم.

والإرهاب هو أيضًا ثمرة المغالاة المتسلّطة والإيديولوجيا الغائصة البصر.

إنّ الفكرة المنيرة عن المحبّة المسيحيّة يجب الآن أن تتصدى في العالم كلّه وعلى جميع المستويات تصديًا فعّالًا لظلال البغض، وأن تحصره وتنفيه.

علينا أن نعمل بنشاط على إلقاء ممرّ نارٍ للمحبّة والتسامح بين الأكثرية الكبيرة من الناس المسلمين والأقلية من مضمي نار الإيديولوجيا وأدواتهم الإرهابية.

حصرهم بوسائل السلطة وبشرع الشعوب مبرر أخلاقيًا وضروريّ، لأنّه بهذا فقط يمكن منع انتشار المزيد من البغض وتسميم العلاقات بين الناس.

لماذا يوجد لجميع النزاعات والحروب مخططات دقيقة لتدخّل القدرة العسكريّة، ولا توجد على وجه الإطلاق تقريبًا مخططات للتصالح بين فئات الناس المتعادية؟

سياستنا الخارجية ومخططات السلام الشاملة المتداولة، أليس أن فعلها قصير المدى وهي سوف تخفق من باب الضرورة، لأنها تميل عن جلب السلام، وهو الغرض المتأصل أعمق التأصل في ذات الإنسان، ولأنها تنقصها الروح ونواة المصالحة؟

هناك معلومات إيجابية عن المصالحة الناجحة بين أعداء سالفين، مثل المصالحة بين ألمانيا وأصدقائها وشركائها الحاليين مثل فرنسا وبولونيا. لماذا لا نقلها لمعالجة نيران المنازعات الدامية الحالية، مثلاً في فلسطين وإسرائيل، في سوريا والعراق، والكونغو والقوقاز، أو في باكستان والهند؟

علينا بنوع خاص أن نحقق سياسة السلام المسيحية في تربية أولادنا. ينبغي في جميع بلدان هذا العالم أن تبدل التربية على البغض بالتربية على المصالحة. إن استخدام أطفال وشباب كجنود أو فدائيين يبيّن عمق سقوط أصحاب الإيديولوجيات الذين يدفعونهم إلى ذلك، ويجب أن يُدان أشدّ الدينونة من قبل جميع المسؤولين.

وسائل الإعلام تقع عليها في مجتمعنا العلميّ الشامل مسؤولية خاصة عن المصالحة. فلا يمكنها أن تتصلّ منها لصالح الترفيه السطحيّ أو في سبيل الحصول على أكبر عدد ممكن من المتفرّجين وعلى ربح أكثر. لا يجوز لها من بعد أن تكون مجرد ناقل لأقوال دوامة البغض والعنف، بل عليها أن تفسح مجالاً أوسع لأزهار التصالح الرقيقة وأن تصوّر العالم كما هو في الحقيقة: عالم مليء بالرجاء.

مع المصالحة والمسؤولية يجدر بنا الآن كحركة سلام جديدة موحاة من المسيحية دون أن تكون محصورة بالمسيحيين، أن نوقف دوامة البغض والعنف ونحاول أن نقوم بانطلاقة جديدة في سبيل مستقبل يسود فيه السلام بشكل أوسع.

هذه التعاليم المفرحة والصالحة من قبل سياسة السلام والتصالح الحالية تبلورت مؤخراً من تاريخ للكنيسة دام ألفي عام وكان كثير الجوانب. في الكنيسة الكاثوليكية ألقى المجمع الفاتيكاني الثاني عام 1965 الأساس الجديد للحرية الدينية وللحوار الداعي إلى المصالحة مع أتباع الأديان الأخرى.

7. ظلال الماضي الطويلة

إنَّ المواطن المعاصر تبدو له المسيحية والسماحة كوجهي قالب واحد. الباباوات الثلاثة في جيلنا يدعون إلى التصالح مع اليهود والمسلمين وإلى تعاون أشدَّ مع الكنيسة الأرثوذكسية والبروتستانت. هذا لا يعني أنَّ أشكال الاختلاف يغطّيها الصمت. الأمر هو أنَّ الجميع يتبادلون التسامح والاحترام بالإيمان بالله الواحد الكبير. وذلك احترامًا للخليقة وممارسة للرحمة ومحبة البشر.

ولكن متى بادر الفاتيكان بالدعوة إلى السماحة؟

إنَّ المجمع الفاتيكاني الثاني (1962 - 1965)، الذي اشترك فيه 2500 أسقف من 133 بلدًا، حرَّر في وثيقته حول الحرية الدينية في الكنيسة الكاثوليكية بشكل رسمي فكرة دين المحبة والسماحة. كان يوسف راتسنغر أستاذ لاهوت فتيًا ومستشارًا لرئيس أساقفة كولونيا الشديد الأثر الكردينال فرنيغس أحد المصلحين لدى كرسي بطرس. فالمصلحون من ألمانيا وهولندا انتصروا في النهاية في المجمع مقابل كرادلة الإدارة الفاتيكانيّة المحافظين. وكان أكثرهم إيطاليين.

قبل زمان الإصلاحات والعودة إلى لاهوت المحبة في القرن العشرين مضت قرون مظلمة طويلة من عدم التسامح تجاه جميع أتباع الأديان الأخرى. منها أعوام الحملات الصليبية ضدَّ الإسلام، وإحراق الساحرات، ومحاكم التفتيش الضارية، ونزع حقوق اليهود، والحروب الدينية ضدَّ البروتستانت. كان البابا يشترك في لعبة التجبر هذه. فبعد قرون طويلة من إعمال الفكر والتوعية تغلَّب التسامح والاحترام في داخل الكنيسة الكاثوليكية.

في أوَّل المطاف كان المسيحيون تحت سلطة المملكة الرومانيّة أقلية تحتاج إلى السماحة، أقلية قاست الاضطهاد المرير. بذلك مرّت المسيحية من مدّة دامت ثلاث مئة سنة كانت ترغب فيها في الاعتراف بها والتسامح، إلى مدّة دامت ألف سنة سادت فيها تعاليم متنافسة تتأرجح بين عدم السماحة والتسامح، ووصلت في العصر الحديث إلى الجذور المتسامحة.

عندما يندد الناس اليوم في الولايات المتحدة أو أوروبا المتأثرة بالمسيحية بالإسلام المتطرّف والفدائيين المسلمين، فإنهم ينسون غالبًا أنَّ المسيحية مرَّ عليها زمن طويل جدًّا لتتحوّل من دين يطالب لنفسه بالمطلقية إلى دين يقول بالسماحة والاحترام، ولتعود إلى توجّه واضح نحو زمن انطلاقة الإيمان ونحو الله.

لنلق نظرة سريعة على تاريخ المسيحيين الكثير التحوّل على مدى ألفي سنة، وذلك بالنسبة إلى التسامح تجاه أتباع الأديان الأخرى.

في تعبيرنا الدينية نستعمل اليوم مفاهيم مثل "الغرب المسيحي". ولكن المسيحية نشأت بالفعل في الشرق، في تلك المنطقة المباركة التي بشر فيها جميع أنبياء اليهود والمسيحيين والمسلمين، والمسيح ابن الله. والنبى محمد نفسه عاش على بُعد بضعة مئات الكيلومترات إلى الجنوب في مكة والمدينة. فليست المسيحية غريبة، بل شرقية في منشأها. هذا يقرب المسيحيين بشكل كبير من اليهود والمسلمين. هم ينتسبون جميعهم إلى منطقة جغرافية واحدة. وفي الكتاب المقدس يسود في آخر الأحيان الشعور والفكر اليهودي والشرقي.

إنّ الكتاب المقدس له جزآن: العهد القديم والعهد الجديد. يرتكز العهد القديم على الإيمان اليهودي. أمّا نشأة المسيحية فانطلقت جغرافياً من بيت لحم وأورشليم القدس في الشرق، وانتشرت من هناك ديناً جديداً في القرون الثلاثة الأولى على يد مئة جيل. من فلسطين بلغ الإيمان إلى البلدان المجاورة: إلى سوريا ومصر والمنطقة العربية. أمّا ثقافتها فقد لحقت بآثار الرومانيين وبلغت بذلك إلى روما وإلى المقاطعات الخاضعة لسلطة الرومانيين.

حتى القرن الرابع كان تنظيم الجماعات المسيحية خاضعاً لثلاث عواصم متجاورة: أنطاكية (وهي اليوم مدينة في تركيا)، والإسكندرية في مصر، وروما في إيطاليا. أمّا القسطنطينية والقدس فلحقا بعد ذلك كمراكز أسقفية هامة. من خمسة أساقفة بالغي الأهمية كان يقطن أربعة في آسيا الصغرى (اليوم في تركيا)، التي بذهنيّتها وروحانيّتها وإيمانها بالله وتعاليمها الحكيمة القديمة، أثّرت شديد الأثر في تحسين تعليم المسيحيين الجديد. فقدت المسيحية تأثيرها في الشرق عند انهيار الإمبراطورية البيزنطية، التي أضعفها الفرسان الصليبيون "باسم الله".

الرسولان بطرس وبولس حدّدا بمواعظهما التفسير الصحيح لتعليم الرب يسوع. في المسيحية الأولى كانت تسود تعددية واسعة في التعليم المسيحي، مزيج من فرائض ملزمة وفرائض غير ملزمة لأعضاء الجماعة.

إنّ نصّ الكتاب المقدس الذي نعرفه اليوم نشأ من مجموعة نصوص كتبت بلغات مختلفة، وانتشر عندنا في الغرب بواسطة الترجمة اللاتينية الأولى للقدّيس إرونيمس في القرن الرابع. جمع النصوص القديمة المكتوبة باللغات العبرية واليونانية القديمة واللاتينية التي كانت منتشرة في بقاع البحر المتوسط. كُتبت مثلاً إنجيل متى في سوريا القديمة، وإنجيل مرقس في روما وإنجيل

يوحنا في أفسس. بذلك كان التعليم المسيحي في القرون الثلاثة الأولى ذا صبغة متعددة، ولم يكن بعدد قد أثبت في صيغة واحدة. فكانت أشكال تفسير مختلفة تتنازع الاعتراف من قبل الكنيسة. ولم ينته النزاع إلا في مجمع نيقية عام 325، الذي وضع تعليمًا مسيحيًا موحدًا.

على مدى ثلاث مئة سنة جاهد المسيحيون في سبيل البقاء في محيط معادٍ لهم وفي سبيل النهوض كدين يعتمد بالسماحة والاحترام. كانت الدولة الرومانية قد وحدت مناطق البحر المتوسط، ثم أتاحت السماحة الدينية لدى الرومانيين في البدء شروطًا جيدة لنشاط الرسل التبشيري الواسع ولانتشار المسيحية. فسافر الرسول بولس في ثلاثة أسفار رسولية إلى معظم قطاعات المنطقة الشرقية من المملكة الرومانية، قبل أن يقبض عليه ويُرسل إلى القيصر في روما وفقًا لحقه كمواطن روماني. لبث المسيحيون أعوامًا طويلة أجنب وغرباء، وفي نظر أصحاب السلطة في روما ميالين إلى المشاغبة، إذ إنهم كانوا يعارضون وحدة التصرف في عبادات الدولة في المملكة الرومانية.

كان عالم عبادة الآلهة متسامحًا من باب المبدأ. ولكن لم يكن جائزًا التشكيك في وجود آلهة الدولة وبذلك في الدولة عينها والقيصر. فمن كان لا يزيد عن إيمانه الخاص العبادة الرسمية في الدولة، كان يُتهم بأنه يرفض الأمانة تجاه القيصر والدولة. كان من المفروض أن يكون المرء أمينًا للدولة، ولكن عبادة الآلهة إلى جانب إكرام المسيح كان يناقض المبدأ القائل بأنه لا يوجد إلا إله واحد. يصف معلم الكنيسة القديم ترتليان الوضع بأن المسيحيين كانوا يُعدّون في المملكة الرومانية أعداء للدولة، "إذ إنهم كانوا لا يقربون للقيصرة عبارات التكريم، عبارات لا معنى لها كاذبة ومتجاوزة للحد"¹⁵³.

لذلك كان المنتظر أن تصطدم مع الوقت المسيحية المتنامية المؤلفة فوق كل شيء من الطبقات الاجتماعية الضعيفة بمطالب الدولة. فأول اضطهاد كبير للمسيحيين بدأ كما هو معروف على عهد القيصر نيرون (54-68). كان المحرك الحريق الكبير في مدينة روما عام 64، الذي حطّم ثلث المباني. أكبر خطباء روما وأحد المستشارين كرنيليوس تاسيتس (58-120) جاء على ذكر الدواعي التي سافت إلى أول اضطهاد للمسيحيين، ووصف كيف اختبر ذلك الرومانيون في زمانه: "لذلك لوضع حدّ للتهامس (بأن القيصر هو نفسه أمر بإضرام النار)، نسب نيرون الجريمة إلى الذين كان بسبب أعمالهم القبيحة يدعوهـم "شعب المسيحيين"، وأخضعهم لقصاصات مختارة. إن الذي نُسب إليه هذا الاسم، المسيح، كان قد

¹⁵³ Tertullian, Apologeticum 34, 35 in www.tertullian.org

أُعدم في عهد طيباريوس من الوالي بنطيوس بلاطس. ولكنَّ هذا الإيمان الزائف المكبوت حاليًا لم ينشأ فقط في اليهودية، موطن هذه الخزعات، بل وصل أيضًا إلى روما. وفي أثناء إعدامهم رُمُوا بالسخرية بأنَّ ألبسوا جلود حيوانات بريّة فقطعتهم الكلاب أو علقوا على الصليب أو أُعدموا حريقًا بالنار، أو اضطرّوا لأن يقبلوا الحريق لإنارة الليل عندما يميل النهار"¹⁵⁴.

بلينيوس بصفته موفدًا لإدارة مقاطعة بثنيا والبنطس في آسيا الصغرى (اليوم شمالي تركيا)، يذكر "أنَّ هناك إيمانًا زائفًا مُعدّيًا، اسمه المسيحية، قد بلغ إلى القرى، ففرغت هياكل العبادة"¹⁵⁵.

"كنتُ أعامل الذين وُشي بهم أنَّهم مسيحيون على النحو التالي: كنت أسألهم هل هم مسيحيون. فإن أقرّوا بذلك، هدّدتهم بعقوبة الإعدام وأعدتُ السؤال مرّة ثانية وثالثة. فإن أصرّوا على إقرارهم أمرتُ بالذهاب بهم إلى الإعدام. فكنْتُ لا أرتاب أنَّهم مهما أقرّوا به، يستحقّون العقاب لمجرّد إصرارهم وتصلّبهم العاصي... ومع ذلك فيبدو من الممكن حصرهم وإفناؤهم".

في عهد القيصر داقبوس (249 - 251) انطلقت أول حملة مننظمة منتشرة في الأباطورية كلّها لاضطهاد المسيحيين. كان يبغى بذلك الحصول على رضى الآلهة لتقوية الدولة وردّ الأعداء من الخارج. فأمر القيصر بإقامة الذبائح العلنية لآلهته. فعوقب رفض ذلك بضبط الأملاك والجلد والسجن وحتىّ الإعدام.

أمر القيصر ديوقليتيانوس (284-305) بالاضطهاد المننظم ضدّ أعداء دين الدولة. ففي مرسوم نشره في 23 شباط (فبراير) 303 أمر بهدم الكنائس وحظر إقامة الحفلات الدينية. إذ ذاك فقد المسيحيون حقوقهم القانونية ووظائفهم وكراماتهم. وفي فريجيا أُحرقت مدينة جميع سكانها مسيحيون، "لأنّهم اعترفوا بالمسيح ورفضوا أن يقدّموا الذبائح للآلهة" (عن المؤرّخ أوسابيوس).

هذه الاضطهادات تمّ القيام بها بقساوة مختلفة ووفقًا لتوزيع الصلاحيات في المملكة. فتضاءلت القسوة عند استقالة القيصر ديوقليتيانوس عام 305.

القيصر غاليريوس (305 - 311) أنهى بمرسوم نيكوميديا في نيسان 311 اضطهاد المسيحيين، إذ كانوا قد صاروا في المملكة الشرقية أقلية مهمّة، أراد أن يحقّق اندماجها. فجاء

¹⁵⁴ Publius Cornelius Tacitus, Sämtliche erhaltene Werke, Essen 2004, 611

¹⁵⁵ رسالة رقم 96 إلى القيصر تريانوس:

August Aranzén : Kleine Kirchengeschichte, Herder 2005, 34.

السماح بإعادة بناء الكنائس وبإقامة الأعياد المسيحية، وحرّر المسيحيين من فريضة تقديم الذبائح لآلهة المملكة في أعياد الدولة البالغ عددها 45. فصارت المسيحية "دينًا مُباحًا"، يسمح به القيصر لأول مرة.

عامين بعد ذلك أعلن القيصران قسطنطين (المملكة الغربية) وليكينوس (المملكة الشرقية) في اتفاق ميلانو عام 313، أن "المسيحيين وكلّ من سواهم من الناس لهم الاختيار أن يعتنقوا الدين الذي يريده كل واحد ويجلب لنا جميعًا رضى الآلهة السماوية".

حرية الدين العامة هذه للمسيحيين ولأتباع الآلهة الرومانية القديمة دامت 67 عامًا فقط. ففي عام 380 ظفرت المسيحية على دين الدولة الروماني القديم. في 27 شباط وقّع قيصر الشرق الروماني تيوضوسيوس الأول (347 - 395) في تسالونيكي بحضور قيصر الغرب الروماني فالنتينيانس الثاني (371 - 392) وشقيقه مُشاركه في السلطة غراتيانس، المرسوم الموجه إلى "جميع الشعوب". فأعلنت المسيحية دين الدولة وجاء حظر الممارسات الوثنية مع التهديد بالعقاب: "جميع الشعوب التي نحكمها حكمًا رقيقًا معتدلاً، عليهم... أن يعتنقوا الدين الذي نقله الرسول الإلهي بطرس إلى الرومانيين... والذي يعترف به اعترافًا واضحًا حبر دمشق وكذلك أيضًا بطرس أسقف الإسكندرية".

"هذا يعني أننا، وفقًا لأمرٍ رسوليّ وتعليمٍ إنجيليّ، نُؤمن بالله واحد، أب وابن وروح قدس، بجلال واحد وثالوث واحد. فالذين يتبعون هذا القانون يجوز لهم فقط أن يُدعوا مسيحيين أعضاء الكنيسة الجامعة. أمّا الباقون، الذين نعلن أنّهم حقًا مجانين وشاردو العقل، فعليهم أن يتحمّلوا خزي التعليم المتأثي من البدعة، وفي النهاية يحقّ أن ينالهم أولًا العقاب الإلهي، وبعد ذلك عقابنا العادل، الذي أوكلنا به القضاء السماوي".

في عام 342 جاء حظر تقديم الذبائح. وفي عام 346 أُغلقت هياكل الأصنام. ومن عام 381 فما بعد جاء قرار منعهم في المملكة، وقام اضطهاد أصحاب الإيمان المختلف. في عام 391 أحرق معبد "سرافيوم" في الإسكندرية، وفي عام 394 لحق ذلك منع الألعاب الأولمبية، وإغلاق معبد الكهانة في دلفي، واحتفالات الأسرار في إلوزيس.

إنَّ اتِّخَاذَ المسيحية كدين الدولة دحرت الدين الروماني المتداول منذ القدم إلى خارج القانون كأمر معادٍ للدولة. فقلَّب التعامل وقام بدل السماح عدم التصبر على الدين القديم. فالانتماء إلى المسيحية صار كما كان الوضع بالنسبة إلى عالم الآلهة بروما. حدث هذا في المنطق نفسه الذي ساد ثلاثة قرون قبل ذلك: فمن لا يعترف بنفسه أنه مسيحي، يعادي الدولة والقيصر. بهذا بدأت حقبة عدم التسامح الطويلة في تاريخ المسيحية، الذي ساد من عام 380 إلى عصر الحداثة في أوروبا وفي المستعمرات الجديدة. التعاليم المغايرة لوحقت كوثنية وهراطقة، وذلك أحياناً من قبل الدولة. هنا انبسطت الجذور الرومانية للتطور غير المتسامح لدين الدولة المسيحي على مدى ألف وخمس مئة عام. من هنا كان تصارع الأديان مرتقباً. فقام في المقدمة تبشير غير المؤمنين وتوطيد السطلة ودحر المنافسين في الإيمان.

فانطلق كفاح الكنيسة "ضدَّ الوثنيين" على مدى قرون. لا جرم أن التبشير في سبيل قضية أفضل، كان بلا شك أمرٌ حميد. ولكن كانت فيه جذور العنف ضدَّ أناس لم يريدوا بالسرعة المطلوبة أن يتبعوا الكلام الجديد الصادر من الإله المسيحي. فكان من بينهم اليهود، ومن عام 630 أتباع الإسلام الجدد. بدأ زمان توتاليتارية الكنيسة بمطالبة مطلقة بامتلاك الحقيقة بدون تسامح ولا احترام تجاه غير المؤمنين وأتباع الأديان الأخرى. أعدم بعد ذلك آلاف باسم الرب. فغارت عظة يسوع على الجبل ووصية المحبة في النسيان، وقام تجاهلها وتحتيتها. فالمسيحية الأوربية بقيادة البابا ظهرت على مدى قرون محمّلة بمطالبها المطلقة.

كان اليهود قد حُمّلوا في عهد المسيحية الأولى مسؤولية موت المسيح، فدُحروا واضطهدوا وأعدموا في حملات عدائية. نشر جورج قرم لائحة مضايقات اليهود في الغرب المسيحي التي تطوّرت على مدى قرون في أماكن مختلفة. منها عزلهم عن الوظائف العامة، وحظر بناء مجامع جديدة أو زيارة الجامعات، وتناول الطعام مع اليهود، والأمر بتعليق إشارات على ثيابهم تدلّ عليهم، وحمل قُبعات يهودية، والإكراه على تقبل المعمودية¹⁵⁶.

على مدى قرون عديدة استعمل سيف الحُرْم الحادّ ضدَّ مسيحيين ذوي إيمان مختلف. فالمطالبة باقتناء الحقيقة مطالبة شاملة سمّ على مدى قرون المجادلة الصريحة حول الإيمان

¹⁵⁶. راجع:

Georges Corm, Contribution à l'étude des sociétés multi-confessionnelles, Paris 1971, 115-122.

الحقيقي، وجلبت في النهاية الضرر على مصداقية الكنيسة. مارتن لوتر (1483-1546) انتقد في بادئ الأمر فقط التجارة بالغفرانات. وأخيراً بعدما سُئِنَ به من قِبَل روما بكونه مهرطقاً، طالب بإصلاح كامل للكنيسة الكاثوليكية. فكانت نتيجة المطالبة بالمطابقة لصالح الإدارة انفصال الكنيسة البروتستانتية.

تمَّ انتقاء آيات مفردة مُنتزعة من قرائنها من العهد القديم والعهد الجديد واستُعملت بدون حقّ كتبرير لعدم السماحة والمطالبة بها ضدّ الوثنيين والهرطقة واليهود والمسلمين، دون ربطها بالقرائن الكاملة التي تؤيّد محبة القريب والعدالة. بل اتُّخذت كأنّها ذات قيمة مطلقة. منها من العهد القديم الآيتان التاليتان: "لا يَكُنْ لك آلهة أخرى تجاهي" (الخروج 20: 3، وأيضاً تثنية الاشرع 5: 7). - والآية التي تُعرف أكثر: "عيناً بعين وسناً بسنّ" (الخروج 21: 24).

كان شعار الحملات الصليبية "الله يريد ذلك" - أكان الله يريد ذلك فعلاً؟ أول الضحايا كان اليهود في مقاطعة الرين في شباير وفورمس بألمانيا، وبعد ذلك المسيحيين البيزنطيين، وأخيراً المسلمين في الأراضي المقدسة.

المدن المسيحية البيزنطية في فلسطين اجتاحتها حملة صليبية، ونهبها الفرسان الصليبيون باسم الله، وأعدموا سكّانها البيزنطيين المسيحيين. كانت تلك أيضاً حرب لاكتساب السلطة بين روما وبيزنطية. فكان همّ الفرسان متوجّهاً بنوع أقلّ إلى الإيمان الحقيقي الصالح، من توجّهه إلى الذهب والذخائر والسلطة والقطاعات الجديدة والشهرة. كان هذا عيباً شديداً على المسيحية والبابا، مُدح كآته عمل بطولي كبير. إنّ الفرسان الصليبيين لوثوا في القرن الحادي عشر بمغلاتهم وقسوتهم صورة الكنيسة في الشرق. كما أنّ أسامة بن لادن وإرهابيين من السعودية رسّخوا اليوم بجرائمهم في 11 أيلول (سبتمبر) 2001 صورة الإسلام المنتشرة في الغرب. الفريقان كانا يُعدّمان أتباع الأديان الأخرى، بحجة أنّ الله يريد ذلك.

كانت سنة 1099 قمة فساد الإيمان المسيحي، وشعلة الشرّ باسم الخير، وتحوّلاً في تاريخ الشرق والغرب، وعيباً تاريخياً امتدّ أثره أطول من ألف عام. فتح الفرسان الصليبيون مدينة القدس- ولكن كيف؟ أعدموا 30 ألفاً من السكّان، عشرة أضعاف ما قتل إرهابيو القاعدة بعد ذلك بألف سنة وسنتين في نيويورك. - قتلوا عزلاً جميعهم بلا رحمة: نساءً وأولاداً وأطفالاً وشيوخاً، مسيحيين بيزنطيين ويهوداً، ومسلمين في أكثر الأحيان. كان الصليب يظهر على سلاحهم وأعلامهم، وكان الشيطان في قلوبهم.

عام 1204 نشر الصليبيون الخراب في القسطنطينية الجميلة، ذلك المركز المُشعّ للملكة البيزنطية. كسروا عاصمة المسيحيين الشرقيين وبذلك - ويا لها من مهزلة في التاريخ وقلب رسالتهم المزعومة رأسًا على عقب - مهّدوا للإسلام الطريق لفتح تلك المدينة والقضاء على المسيحية البيزنطية في آسيا وانتشار الإسلام عن طريق البلقان إلى أوروبا إلى أبواب فيينا - ذلك كله، طبعًا باسم الله والمسيحية. مسيحيون ضدّ مسيحيين، كما هو الوضع اليوم في الإسلام بين أهل السنة وأهل الشيعة. لم يحترموا شيئًا من المقدّسات. نقضوا الحجارة الثمينة من مذبح الربّ وسلبوا أجمل وأكبر بيت من بيوت الله في ذلك الزمان، الذي هو اليوم جامع الحكمة الإلهية (الآجيا صوفيا) في إسطنبول.

مات أكثر من خمسة ملايين شخص في جنون الحروب الصليبية. فقُضي في سكرة السيف المشهور على الثقة والسلام بين الجماعتين المسيحيتين، وبين المسيحيين واليهود، وبين المسيحيين والمسلمين. إنّ هذه الأفعال السيئة التي ارتكبت باسم الله لا تزال حتّى اليوم تُلقى ظلالها الطويلة.

تحدّثت عن ذلك الوقت مع سموّ الشريف أوتو فون هابسبورغ. فأشار إلى أنّ المسيحيين في القرون الوسطى لم يكونوا يعرفون شيئًا يذكر عن المسلمين، فيما كان المسلمون يعلمون الكثير عن المسيحيين. فالجذور الثقافية لأوروبا المعاصرة كان منبتها المنطقة الساحلية من البحر المتوسط في أوروبا الجنوبية، وأيضًا في آسيا وأفريقيا الشمالية. وحتّى اليوم لا يزال ما تعرفه أوروبا عن الإسلام ضئيلاً جدًّا. فعلى المسيحيين والمسلمين أن يعودوا ويتذكروا جذورهم المشتركة.

في مطلع القرن الثالث عشر حدث استعمال جديد مشوّه في الكنيسة، ما يُدعى "محاكم التفتيش"، الذي دام حتّى آخر القرن الثامن عشر، وعامل أصحاب البدع والساحرات المزعومين بأقصى الجلد وأبشع الإعدام. فمحاكم التفتيش الإسبانية، التي كانت قاسية بنوع خاصّ، راحت ضحيتها مئات الألوف من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية وكانوا مبدئيًا قد نالوا النجاة، ومن المسلمين المدعوّين موريسكوس. وهنا أيضًا أُعدم مسيحيون على يد مسيحيين باسم المسيح. ما أشدّ العَبَث بالدين!

جرى ذلك التبرير المسيحيّ المختلق لاضطهاد الساحرات على أساس جُمَل من الكتاب المقدّس انتزعت من قرائنها واعتُبرت على وجه الإطلاق. جاء في سفر الخروج 22: 17: "ساحرة لا تُبق على قيد الحياة". وفي إنجيل يوحنا 15: 2 و6: "كلّ غصنٍ فيّ لا يأتي بثمر ينتزعه... إنّ من لا يثبت فيّ يُطرح خارجًا كالغصن فيببس، ثمّ تُجمع الأغصان وتُلقي في النار فتحترق".

هذا الجنون كان متأثراً من إيمان الناس الخاطئ المنتشر بالشیطان وأعدائه، كالساحرات ومن الخوف من الإغراء النسائي، ومن البحث عن المجرمين الذين يجرون الجوع والأمراض المتفشية. أضرمت الكنيسة ولكنها لم تقم بشيء لوضع حد للجلد المرير وإعدام الجماعات من الأبرياء. طال حريق الساحرات الهمجي مدة 500 سنة، وأعدم فيها أكثر من 80 ألف امرأة باسم الإيمان المسيحي. هذه علامة مخزية على ثوب المسيحية الأوروبية.

في المستعمرات أعدم الإسبان والبرتغاليون الذين فتحوا أميركا الجنوبية مئات الألوف من السكان القدماء، وعاملوا غير المعمدين كأشخاص أذل من الإنسان. فهدمت ثقافتهم. لم يكن هذا مدعاةً للافتخار بالنسبة إلى الاحترام والسماحة تجاه الثقافات الأخرى.

لم يكن كل شيء قاسياً وسيئاً في عالم القرون الوسطى المسيحي. فالراهبات والكهنة عملوا خيراً جزئياً واهتموا بتضحية بالناس وجلبوا لهم التعزية. وقامت أيضاً أصوات من الكهنة تنتقد العنف. كانت تلك الأيام مطبوعة على القسوة وفقدان الإنسانية، كانت أيام صراع لا ينتهي في سبيل السلطة. فلم تكن البابوية فقط حامية الإيمان الأسمى، بل كانت أيضاً مركز السلطة الديني. في ذلك كانت عظمتها، وفي الوقت نفسه ضعفها. كان البابا والكرادلة حوله يمارسون السياسة. ولكن السلطة المطلقة تفسد الأخلاق وتُخضع لفقدان الثقة. هذا صحيح حتى بالنسبة إلى الفاتيكان والكرادلة في كل العالم، فانجر ظل طویل شديد السواد كغيمة عاصفة ضخمة فوق البلدان الخاضعة للصليب.

إن اضطهاد أصحاب البدع غير المؤمنين من عام 380، وإعدام اليهود والمسلمين وحتى المسيحيين البيزنطيين على يد الحملات الصليبية، وهدم المملكة المسيحية الشرقية، ومحاكم التفتيش وإحراق الساحرات، وإفناء السكان القدماء في أميركا الوسطى والجنوبية، إفناء قاسياً، ونشر سوق الرقيق التي كان الإنسان بضاعتها، والحروب الدينية الدامية، كل هذه لم تمنعها وتحاربها الكنيسة الكاثوليكية بل في كثير من الأحيان مُدحت وشجعت، وأحياناً احتُملت فقط. كان بإمكان الباباوات بالتهديد بالحرم أن يضعوا حداً للقتل. ولكنهم لم يفعلوا. هل كان الغرض في ذلك الوقت يبرر الوسائل؟ أي الإكراه بالسيف على الإيمان؟ كانت عظة المسيح على الجبل والتعليم الأساسي عن القربى الإنسانية كانت على مدى 1500 سنة ضحية النسيان يغطيها الغبار في محفوظات الفاتيكان.

لم يكن ذلك، كما قال رئيس الأساقفة ألفونس نوسل، إيماناً صحيحاً، بل إفساداً للإيمان بإخضاع الكنيسة للإيديولوجيا. لا يجدر بنا أن نشير بإصبعنا إلى الكنيسة الكاثوليكية، بل أن

نستخلص الفائدة لأجل اليوم والغد. هل فعلنا ذلك؟ هذه الحقبة السيئة المظلمة الطويلة في تاريخ المسيحية لم تعد حاضرة في ذهننا اليوم. لكنّها تشير وتحذّر، مبيّنة كيف أنّ الغرض الخيّر يمكن أن يتحوّل إلى شرّ، عندما يبرّز الهدف الوسائل ولا تُنصب كرامة الإنسان منصباً قائماً على وجه الإطلاق.

من كان عامِل التحوّل الحاسم في التفكير؟ كيف عادت روما إلى الإيمان الحقيقي كما في عظة المسيح على الجبل؟

8. مؤيّدو إعادة توجيه الفكر إلى محبّة الله للبشر: مصلحون شجعان للإيمان الحقيقي

يعتري الأديان الفساد عندما تنقص أتباعها الرّفعة والجودة والإنسانيّة التي سادت عند أنبيائهم. همّ البعض منهم يدور حول السلطة الدنيويّة أقلّ منه حول الإيمان. هم أناس ضعاف لهم حميّة في بطنهم ويمثّلون عن حسن نيّة ما يدعون أنّه التعليم الصافي. ومواعظهم تقع في دوامة المطالبة بالمطلقيّة وإثبات الحدود وتصير أكثر حدّة وأقلّ سماحة وأقلّ إنسانيّة. إلى أن مارسوا خلاف ما علّمه أنبياءهم.

لذلك يحتاج كلّ دين إلى أناس شجعان يزيحون عن التعليم الصحيح الصافي غبار النسيان ووسخ سوء التفسير والانجرار إلى الإيديولوجيا. فالأمر لا يدور حول ما هو جديد أم قديم، وما هو تقدّمي أم محافظ، بل حول الحقيقة لبّ الإيمان.

بعد قرون مظلمة من المعاناة نشأت المسيحيّة العصريّة المتسامحة، حين عاد الإنسان فوّض هو وكرامته التي لا تمسّ ومسؤوليّته الشخصيّة، وأقيمت آيات الكتاب المقدّس الداعية إلى السلام ووصيّة المحبّة في نقطة الوسط من اللاهوت. مفكّرو الكنيسة والأساقفة، والفلاسفة والسياسيون عادوا فاكتشفوا اللبّ الأصيل للإيمان المتسامح.

النقطة الجامعة المركزيّة كانت صورة الإنسان الإلهيّة. فمحبّة الإنسان المختلف هي أيضاً محبّة الله، لأنّ الله خلقه على صورته. فهو ينعم بكرامة يريدّها الله غير خاضعة للتجريح.

جاء في سفر التكوين 1: 26-27: فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم. - 9: 6: من سفك دم الإنسان سفك دمّه عن يد الإنسان، لأنّه على صورة الله صنّع الإنسان.

ثم أعلنت وصية المحبة: فالفضيلة المنسية غالبًا مع أنها وصية المسيحية القديمة، فضيلة
السماحة حددها بولس الرسول بدقة: "المحبة تصبر على كل شيء" (1 كورنثس 13: 7). وأيضًا:
"احملوا بعضكم أثقال بعض" (غلاطية 6: 2).

بهذا انصهرت المسيحية وحقوق الإنسان معًا بعد منازعة إيديولوجية طالت قرونًا. ففي
زمان النهضة التقى الطرفان في مشاركة سياسية مثمرة.

فساعد على مدى قرون مئات من الفلاسفة واللاهوتيين التعليم المسيحي عن محبة
القريب على اختراق الحواجز.

أود أن أذكر بالبعض القليل منهم، لأننا ندين لهم باسترجاع المسيحية الحقّة الجيدة.
غريغوريوس النيصي (توفي عام 394) كان واحدًا من الأولين. لم يكن يريد أن يُستري أي
إنسان بالمال، وقد خُلق على صورة الله، وحرّم في القرن الرابع الرّق والعبودية.

وفي القرن الحادي عشر اعتبر بُرخارد فون فورمس (توفي عام 1207) خلق الإنسان على
صورة الله أمرًا شاملًا، ونسبه أيضًا إلى غير المسيحيين كاليهود والوثنيين. فكان يقول في
مواعظه أن من يقتل واحدًا منهم، فقد مَحَا أيضًا صورة الله والأمل بالارتداد في المستقبل.

والبابا غريغوريوس التاسع (توفي عام 1241) أصرّ على وجوب معاملة اليهود معاملة
عادلة، لأنهم يملكون صورة المخلص وخُلقوا من باري الكلّ.

فرنسيس دي فيتوريا (توفي عام 1546)، أحد أهمّ ممهّدي السبيل لحقّ الشعوب العصريّ،
دافع عن الإنديو المضطهدين مبرهنًا على أنهم أيضًا مشابهُون لله. لذلك لا تستطيع الوثنية ولا
الخطيئة أن تمسّ كرامتهم¹⁵⁷.

حرية الدين والمعتقد قام بنشرها كثيرون من اللاهوتيين. كان أول مدافع معروف عن
المسيحيين القدماء وأحد آباء الكنيسة لكتانسيوس (250-325) يقدّم البرهان التالي: "إنّ الدين
هو قبل كل شيء أمر يتعلّق بالقرار الحرّ. فلا يمكن أن يُكره أحد على إكرام شيء لا يريده"¹⁵⁸.

¹⁵⁷.Arnold Angenendt, Toleranz und Gewalt, Münster 2007, 111.

¹⁵⁸.Epitome divinarum institutionum 49, 2

أهمّ معلّم للكنيسة والفيلسوف أوغسطينوس (354-430) يقول في مواعظه، "لا يقدر الإنسان أن يؤمن إلا عن حرية القرار"، - "لا شيء بهم سوى اعتناق الإيمان عن إرادة حرّة". - "كلّ إنسان يؤمن بالله في قلبه، يفعل ذلك عن إرادة حرّة"¹⁵⁹.

تبعه في ذلك أيضاً توما الأكويني (1224-1274)، أشدّ اللاهوتيين تأثيراً في القرون الوسطى المبكرة: "من غير المؤمنين من لم يعتنقوا أبداً الإيمان كالثوثيين واليهود. هؤلاء لا يجوز إكراههم على اعتناق الإيمان، لأنّ الإيمان أمر يتعلّق بالإرادة الحرّة"¹⁶⁰.

قبل 500 سنة نصب المؤلّف الألماني غير المشهور يوحنا رُيخلين (1455-1522) من بفرتههايم ذاته مدافعاً عن اليهود وكتبهم. كان قد أثر فيه وطبعه ليكون دلاً ميراندولا (1463-1494)، الذي كان في بروجيا يدرّس تلاميذه اللغات العربيّة والعبريّة والكلدانيّة. هذا المؤلّف الألماني، أحد المسيحيّين الأوائل غير المنتسبين إلى الدين اليهودي، كان قد بدأ بدراسة الكَبالَة، وحرّض على ترجمتها إلى اللغة اللاتينيّة، لغة المثقّفين في ذلك العصر. نشر فيلسوف النهضة تصوّره للعالم في كتاب عنوانه "كرامة الإنسان". كان يحلم باجتماع علماء كبير، يُقدّم فيه الدليل على التوافق الأساسي بين جميع التعاليم الفلسفيّة والدينيّة، فكان بذلك شبه مبشّر سابق بشرائع السماحة والاحترام الإنسانيّة. وفي عام 1505 في جوّ ذلك الزمان المُعادي لليهود، دافع يوحنا رُيخلين عن التلمود وعارض إحراق كتب يهوديّة. كان مؤسس الجامعة في توبنغن، الشريف إبراهيم إم برت، قد طرد في عام 1477 جميع اليهود من المدينة، إذ نُسب إليهم جلب الطاعون، وتسميم الآبار والقرايين وأيضاً قتل الأطفال في طقوس دينيّة. أمّا رُيخلين فقد وضع للقيصر مكسيمليان الأوّل تقريراً قانونياً نُشر بعد ذلك في كتاب عنوانه "لعبة العين"، وقَدّم في هذا التقرير دليلاً على أنّ اليهود، لكونهم يخضعون للمملكة الرومانيّة المقدّسة، تحقّق لهم الحماية من قِبَل القيصر، وأنّهم ينعمون بحقوق سائر المواطنين عينها. كان الرأْي السائد لدى المحامين يعتبرهم في ذلك الوقت أفراداً خاضعين للسلطة لا حقوق لهم. فوجد في الكتب الكَباليّة وثائق سابقة وتفسير مهمّة بالنسبة إلى المسيحيّة عن العهد القديم والعهد الجديد، أي ما يشبه ديناً أساسياً انطلقت منه المسيحيّة، لذلك كان يقول إنّ العمدات على سبيل الإكراه أمرٌ مرفوض. فعلى كلّ جامعة أن توظّف مدرّسين لتعليم الدراسات العبريّة. في عام 1520 قامت روما بتنفيذ قرار ضدّ رُيخلين ومنعته من نشر آرائه المساندة لليهود. ولكنّ البابا لاون العاشر،

¹⁵⁹.Arnold Angenendt, 236.

¹⁶⁰.Thomas von Aquin, Summa theologica II-II, 10, 8 ; Angenendt 238.

الذي كانت في نهاية الأمر له السلطة بامتحان جميع الكتب وإعطاء الموافقة على طبعها في المملكة الرومانية المقدسة، سمح لأول مرة بطبع التلمود البابلي. بذلك كان الكتاب بحماية البابا غير المباشرة، ولم يكن من الممكن إحراقه.

إرْسَمُس من روتردام (1466-1536) كان كاهناً كاثوليكياً ومثقاً ذا تأثير بليغ في هولندا، تخطى موانع عصره بمجادلة حرة حول الحرية الدينية. مؤلفاته الغزيرة تشمل 150 كتاباً. وفي ألمانيا يُعدُّ أُلرِخ فون هوتن (1488-1523) أحد مصلحي الكنيسة والنقاد الحاديين للكنيسة الكاثوليكية. عندما طُلب بالحكم على مارتين لوتر، قال: "ألا يعلمون أن ريح الحرية تهب؟". وهذه الجملة صارت في زمن طويل بعد ذلك الوقت، شعار الجامعة ستانفورد الشهيرة في باولوا ألتو.

كتب جون لوك (1632-1704) في أمستردام في شتاء عام 1685/1686، رسالته الشهيرة حول السماحة. فيها يصف السماحة كعلامة الكنيسة الحقيقية، وعدم السماحة كمخالفة لوصية يسوع في المحبة. فعلى الكهنة ليس فقط أن يمارسوا السماحة، بل أن يفرضوها أيضاً على من هم مؤمنون عليهم. فتعليم يسوع يمنع الإكراه على قناعات دينية، فتنبت من ذلك وصية الحرية الدينية.

في صلح فستفاليا رُكزت العلاقة بين الدولة والدين على قاعدة جديدة. فالدولة لا يحق لها أن تتصرّف ككنيسة، ولا الكنيسة كدولة. قال يسوع: "مملكتي ليست من هذا العالم" (يوحنا 18: 36). فمعاهدة الصلح بين الكاثوليك والبروتستانت منحت الدينيين المسيحيين الحقوق عينها.

إنَّ المفكرين الأوائل الكبار وضعوا أساس عودة التفكير في الكنيسة إلى محبة القريب والاحترام تجاه الاتجاهات الدينية الأخرى وتجاه حرية المعتقد. السماحة المسيحية والاحترام تجاه ذوي الإيمان المختلف، والناس المنتمين إلى أعراق أخرى والأقليات الإثنية، هذه تنبع من الإيمان بأنَّ الإنسان خُلِق على صورة الله. فمحبة البشر هي أيضاً محبة الله. فمن يُسيء معاملة الناس، يرتكب إثمًا تجاه الله. ومن يخطأ ضدَّ الإيمان عينه يعاقبه الله، لا البشر كتمثلي الله.

انطلاقة العلمانية فصلت الكنيسة عن الدولة، ومكّنت الطرف الكنسي من أن يوجّه الفكر تمامًا إلى تعليم الله. لم تكن مواظ يسوع المسيح قد تغيّرت بل التنبّه البشري وتفسير الكهنة والأساقفة.

زمن النهضة الثقافية في أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر تحوّل إلى محرّك شديد للسماحة والحرية في أوروبا. تحرّرت أوروبا من عقائد قديمة. ألغيت محظورات أو تمّ مجددًا اكتشاف الكتاب المقدّس والتفكير في نصوصه. وتمّ تجاوز الحرية الدينية، وفُصل الآن بين

الإيمان والسياسة، وبين السلطة والصليب. فمفكرو ذلك العصر مثل فولتير ومونتسكيو وجان جاك روسو، وإيمانويل كنت، وداود هيوم، وجون لوك، ويوحنا غوتفريد هردر، وغوتهولد إفرائيم لسنغ نشروا قبل كل شيء حرية المعتقد. وبعض أصحاب السلطة مثل فريدرخ الكبير وافقوا معهم على ذلك. عنه نُقل القول الشهير: "كل واحد عليه أن يصير سعيداً على طريقته". دعا البروتستانت المضطهدين في فرنسا إلى مملكته الفقيرة بروسيا ومنحهم حمايته الملكية.

انتشرت ربح الحرية في البرجوازية المتقوية وبين مثقفي أوروبا على مدى قرنين. فمثل الأكسجين للنبات أو الخميرة لعجين الخبز نشأ من هذا كله جو يساند حرية التعليم والبحث والعلم، مما أوصل البلاد في القرن التاسع عشر إلى قمة التقدم التكنولوجي.

جشع الاستعمار وفورة الوطنية في القرن التاسع عشر قاما بتشريح أوروبا، وانتهيا بها إلى حربين عالميتين. ولكن عندما أنشئ الاتحاد الأوربي بسكانه البالغين 500 مليون مواطن، العائشين بالسلام والحرية والرفاهية، تم الوصول في أوروبا إلى الوضع التي اشتاقت إليه النهضة منذ عدة قرون. فالآن يسود هناك أيضاً التسامح والاحترام تجاه الأديان والأعراق والأقليات الإثنية الأخرى.

في 28 تشرين الأول (أكتوبر) 1965 قرّر المجمع الفاتيكاني الثاني في روما موقفًا جديدًا إيجابيًا من الإسلام. جاء في البيان "علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية"، رقم 3:

"وتنظر الكنيسة أيضًا بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحي القيوم، الرحمن القدير الذي خلق السماء والأرض، وكلم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله وإن خفيت مقاصده، كما سلم الله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه. وإنهم، على كونهم لا يعترفون بيسوع إلهًا، يكرمونه نبيًا، ويكرمون أمه العذراء مريم، مبهلين إليها أحيانًا بإيمان. ثم إنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعد ما يُبعثون أحياء. من أجل هذا يقدرّون الحياة الأدبية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم، خصوصًا".

وجاء في الدستور العقائدي "الكنيسة"، رقم 16: "إن تدبير الخلاص يشمل أيضًا أولئك الذين يؤمنون بالخالق، وأولهم المسلمون الذين يعلنون أنهم على إيمان إبراهيم، ويعبدون معنا الله الواحد، الرحمان الرحيم، الذي يدين الناس في اليوم الآخر".

وفي 30 تشرين الثاني 1979 أشار البابا يوحنا بولس الثاني في أنقره إلى أن الإيمان بالله الذي يشهد له أنساب إبراهيم: اليهود والمسيحيون والمسلمون، يكون مستديمًا عندما يصل إلى أعماق الحياة. فهو الأساس الأكيد للكرامة والأخوة وحرية الإنسان، ومبدأ الاستقامة والموقف الأخلاقي. فالإنسانية تبدأ مع الاعتراف بالخالق الواحد. "نحن عائلة واحدة، ومواضع الاختلاف ينبغي أن تعتبر كسبًا. السماحة ترتكز على معرفة الواقع. هناك فوارق في الدين والمواطنة والعرق. قد يؤدي هذا إلى خلق توترات. علينا أن نقبل بذلك. الأمر الحاسم أن نعتز بالآخر بكل اختلافه. بهذا الاعتراف الجذري فقط نستطيع أن نقاوم التجربة التي تجرنا إلى جعل الآخر هدفًا للبغض والخوف وأشكال الظنون. السماحة الحقيقية ترفض احتقار الآخر، كما ترفض تصويره صورًا خيالية. هي تطلب قبل كل شيء أن نصغي ونراقب، أكثر مما أن نتكلم ونحكم"¹⁶¹.

¹⁶¹. راجع:

Thomas Michael S.J., « Tolerance : A Christian Perspective, in : Co-Existence between Religions - Reality and Horizons. A Consultation between Pontifical Council for interreligious Dialogue and World Islamic Call Society », November 22-23 1990, in : ACIS, Christian - Muslim Dialogue, 27 ss.

في الاستقبال العامّ في 6 أيار (مايو) 1999 شرح البابا يوحنا بولس الثاني ما يلي: "نحن نعترف فرحين بالقيم المشتركة التي نتقاسمها مع الإسلام. نحن نؤمن معاً بالإله نفسه، الله الواحد، الله الحيّ. الله الذي خلق العالم ويريد أن يقود خلايقه إلى الكمال".

في 12 أيلول (سبتمبر) 2006 ألقى البابا بندكتس السادس عشر في ريغنسبورج / راتسبون خطاباً لقي انتباهاً كبيراً، وقامت ضده موجة استنكار. سرد قولاً للأمبراطور البيزنطيّ مانويل الثاني باليولوجس، أدلى به في محادثة مع عالم فارسيّ، وانتقد فيه كيف فرض النبيّ محمّد على المسلمين أن ينشروا الإيمان بحدّ السيف.

يجب هنا التنبيه لما يلي: كان رأي القيصر على ضلال كما جاء في تحليلنا المستفيض في القسم المخصّص للإسلام. فالنبيّ محمّد والقرآن يرفضان الإكراه في الدين. بالعكس كان يجب على القيصر البيزنطيّ أن يتألّم من أن يرى بعض المسيحيّين يفضّلون العيش تحت سلطة الإسلام الأكثر سماحة، على العيش تحت سوط القسطنطينيّة. فمن يتأمل في صور الأباطرة البيزنطيّين القدماء في كنيسة "الحكمة الإلهيّة" (أغيا صوفيا)، يلاحظ أنّ هؤلاء الأباطرة كان لهم موقف متكبر من الإيمان ومن دورهم. فإنّهم صوّروا أنفسهم وزوجاتهم مع هالة القداسة كقدّيسين إلى جانب الله.

أمّا ما سرد البابا فقد ساق إلى سوء تفاهم، بأنّ البابا قد وافق على رأي الأمبراطور. فلتوضيح الأمر عبّر البابا بندكتس السادس عشر في 25 أيلول "لجميع المسلمين عن احترامه الكامل العميق"، وأكد أنّه يجب أن تسود "السماحة والتقوى أمام ما هو مقدّس لدى الآخرين".

بعد هذا الحادث المؤسف انطلق عام 2006 حوار عميق مثمر بين الفاتيكان والإسلام. فكتب الكردينال برتوني رئيس الإدارة، في 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 2007، إلى الأمير غازي بن محمّد بن طلاف ردّاً على الرسالة المفتوحة التي أنشأها مع عدد من كبار العلماء المسلمين وعنوانها "كلمة سواء":

"فيما لا نريد أن نتجاهل ما يفرّقنا كمسيحيّين ومسلمين أو نقلّم منه، نستطيع بل يجب علينا أن نتنبّه لما يجمعنا، أعني الإيمان بالله الواحد الأحد، الخالق الربّانيّ وديان الجميع الذي، في آخر الأزمان، سيدين كلّ إنسان بحسب أعماله. إنّنا لمدعوون جميعاً إلى التسليم الكليّ له وإلى الخضوع لمشيئته القدّوسة.

بالعودة إلى مضمون الرسالة العامّة "الله محبّة" عجب قداسته كلّ الإعجاب بالاهتمام الذي حُصّ به في الكتاب المفتوح الوصيّة المزدوجة: محبّة الله ومحبّة الناس".

وذكر الكردينال مَطْلَع حَبْرِيَّة البابا بندكتس السادس عشر وسرد قوله: "إني على يقين تامّ أنه يجب أن نعزّز قِيَم الاحترام المتبادل والتضامن والسلام... إنّ حياة كلّ كائن بشريّ مقدّسة، أكانت للمسيحيّين أم للمسلمين. إنّ لدينا مجال عمل نشعر أنّنا فيه متّحدون للقيام بخدمة القِيَم الأخلاقيّة الأساسيّة"¹⁶².

الأساس المشترك للحوار هو إذن احترام كرامة الإنسان. والمعرفة الموضوعيّة لدين الآخر، والمشاركة في الاختبارات الدينيّة، والعمل المشترك على تعزيز الاحترام المتبادل وتقوية استعداد التقبّل في الجيل الفتّي.

وفي الصلاة الملائكيّة نهار الأحد في 21 آذار (مارس) 2010، قال البابا بندكتس السادس عشر: "الله يريد لنا الخير والحياة فقط. فبالجوء إلى سرّ المصالحة (سرّ الاعتراف) يحرّرننا من الشرّ بمحبّته الرحيمة".

ستبقى دومًا فوارق بين الإسلام والمسيحيّة. فلا يدور الأمر حول تسوية التعاليم والممارسات وموافقتها، بل حول البحث المشترك عن قطع الذهب للاحترام المتبادل والجدور المشتركة في تعاليم الله. ما هي في نظرة المسيحيّة أهمّ الأمور المشتركة الخمسة بين الإسلام والمسيحيّة؟ أولًا: الصلاة إلى الله نفسه. ثانيًا: احترام الإنسان كخليقة الله. ثالثًا: الفريضة الناتجة من الكتب المقدّسة لممارسة القيم المشتركة. رابعًا: لا إكراه بالنسبة إلى قناعات أتباع الأديان الأخرى. خامسًا وأخيرًا: الإيمان باليوم الآخر.

وجاءت كقمة حوار صادق الزيارة الأولى لعاهل سعوديّ للبابا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2008. فقدّم له كهديّة الضيف سيفًا مطليًا بالذهب، بما يحوي ذلك من معانٍ. فدعا الملك عبد الله العزيز آل سعود إلى حوارٍ أخويّ جدّي. فكان العالم الإسلاميّ مضطرًا لإبداء الرأي والتوضيح حول إيمانه والقضايا المشتركة. بذلك نشأ من سوء تفاهم مؤسف كما بأعجوبة ازدياد في التفهّم والاحترام بين الفاتكان والعالم الإسلاميّ، بفضل العاهل السعوديّ، "بطل السماحة" الجديد.

كتب البابا فرنسيس في رسالته "فرح الإنجيل": "لا يجوز لنا أن ننسى أنّ المسلمين "يعتقدون إيمان إبراهيم ويعبدون معنا الله الواحد، الرحيم الذي سيدين البشر في اليوم الأخير". - "إنّ كتب الإسلام المقدّسة حافظت على أجزاء من العقيدة المسيحيّة. فيسوع المسيح

¹⁶² راجع النصّ كلّه في: عادل تيودور خوري: في سبيل توثيق أواصر القربى بين المسيحيّين والمسلمين، المكتبة البولسيّة 2011، ص 95-97.

ومريم العذراء يكرّمونهما إكرامًا عميقًا. ومما يثير الإعجاب أن نرى كيف يتمكن أشخاص، شبّان وشيوخ أن يقيموا الصلاة يوميًا ويشاركوا بأمانة في مراسيمهم الدينية". وهو مقتنع من "أنّ الإسلام الحقيقي وتفسيرًا موافقًا للقرآن يقاومان كلّ عنف"¹⁶³.

وجاء أيضًا في الرسالة عينها، رقم 250، أنّ الحوار بين الأديان شرط ضروريّ للسلام في العالم، ولذلك هو فريضة للمسيحيين كما هو فريضة أيضًا للجماعات الدينية الأخرى. هذا الحوار هو قبل كلّ شيء حوار الحياة. بذلك نتعلّم كيف نقبل الآخرين باختلافهم عنّا في كياناتهم وفكرهم وطريقة عيشتهم وتعبيرهم. من هنا يسعنا أن نتحمّل معًا مسؤوليّة خدمة العدل والسلام، ممّا يجب أن يصير ميزانًا أساسيًا لكلّ تبادل.

¹⁶³. رسالة "فرح الإنجيل" رقم 252، 253.

الفصل الثالث الدِّين اليهودي والسَّماحة

القدس هي لي مدينة السَّماحة والاحترام، ولكنَّها مغمورة تحت طبقة كثيفة جدًّا من التَّجبر الإيديولوجي. هناك تتنفس الحجارة وتروي قصة تاريخٍ يمتدُّ على ثلاثة آلاف سنة. في هذا المكان المقدَّس يمتزج الشرق والغرب، والثقافات الإسلاميَّة واليهوديَّة والمسيحيَّة، هناك يفتتح الرجاء والأمني. هناك عاش كبار الدِّين العالميين اليهوديِّ والمسيحيِّ. يرد اسم أورشليم في العهد القديم من الكتاب المقدَّس 662 مرَّة. حسب الإيمان اليهوديِّ اجتاح الملك داود أورشليم قبل 3 آلاف سنة وكلَّها عاصمة مملكته. والملك سليمان (حول 973 - 944 قبل الميلاد) ابن داود بنى أوَّل هيكل، خرَّبه وأتلفه بعد ذلك نبوكدنصر ملك بابل. وفي عام 586 خرج اليهود إلى المنفى البابليِّ. ثمَّ جلب انهيار المملكة البابليَّة ونهوض الفُرس أملاً جديداً لليهود. فسمح لهم الملك كيروس الفارسيِّ بالعودة إلى وطنهم. ولدى وصولهم إلى أورشليم أعاد هؤلاء اليهود العائدون الهيكل، ودُعي الهيكل الثاني. أمَّا الملك هيرودوس الذي حكم في أورشليم تحت إمرة المملكة الرومانيَّة من عام 37 إلى 4 قبل الميلاد، فقام بتكميل هذا الهيكل تكميلاً رائعاً. ولكنَّه بعد قيام نهضة معاكسة هدمه الرومان عام 70 بعد الميلاد. فلم يبقَ منه سوى بقايا الحائط الكبير، فصارت مقاماً مركزياً للدِّين اليهوديِّ.

يقول المعتقد المسيحيُّ أنَّ المسيح جاء قبل ألفي سنة إلى هذه المدينة. وهناك في المكان المدعو "عليَّة صهيون" أقام العشاء السريِّ مع تلاميذه. هنا جُلد يسوع معاقبَةً له على تعليمه، وسار على درب الآلام حاملاً الصليب إلى أكمة الجلجلة. وهناك مات.

المسلمون يكرِّمون بعد المدينتين المكرَّمتين مكَّة والمدينة، القدس كالمدينة المكرَّمة الثالثة: في مطلع الإسلام كان المسلمون مدَّةً طويلة يصلُّون وقبِّلُتهم القدس، إلى أن وجَّه القرآن بعد الهجرة القبلة إلى الكعبة في مكَّة. وفي إحدى الليالي، ليلة الإسراء، ارتقى النبيُّ محمَّد المعراج من القدس إلى عند الله في السماء. أمَّا المسجد الأقصى في القدس فقد بناه الخليفة عمَّر عام 638 بعد الميلاد، بعد أن فتحت كتائب المسلمين المدينة. وفي عام 691 شيَّد الخليفة عبد الملك بن مروان "قبَّة الصخرة"، في الموضع الذي كان الهيكل اليهوديِّ من قبلُ قائماً فيه، وحيث توجد "سُرَّة العالم" إلى يومنا هذا. ذلك الحجر الذي فيه، وفقاً للتقليد اليهوديِّ الإسلاميِّ، خُلِق

العالم. بهذا يكون أن الإسلام يعترف مجدداً اعترافاً قوياً بهذا الموضوع المقدس المشترك بين اليهود والمسيحيين والمسلمين، وبتراث الأنبياء في الأرض المقدسة.

تسحرنى مدينة القدس القديمة الصغيرة، كما تسحر الزوار الكثيرين في الأرض المقدسة. هنا تلتقي أديان عالمية ثلاثة على مساحة تعدّ بعض الكيلومترات المربّعة، بما فيها كنيسة القيامة للمسيحيين، وقبة الصخرة للمسلمين وحائط المبكى لليهود. هناك عند هذا الجدار الغربي من جبل الهيكل يقف اليهود المؤمنون، ويصلّون ويدخلون أوراقتاً تحمل أمانيتهم بين الحجارة الضخمة. هناك ينتصب جدار فخم وفي تضاعيفه تُتفّ ترمز إلى الحياة.

هنا يهتز الإيمان بالله الواحد. أنا أودّ أولئك الرجال المؤمنين ذوي اللّحى الطويلة، وكتب الصلاة في أيديهم، وهم يكرّمون بصلواتهم ذلك المكان محطّ أشواقهم. وعلى أيّ حال ترى المؤمنين بالله الأتقياء يشعّ منهم الرّفق والانسراح. أكثرهم أناس صالحون رفقاء، ليسوا متطرّفين أو متعصّبين، أكانوا يهوداً أم مسلمين أم مسيحيين في الأماكن المقدسة الكثيرة في مدينة القدس.

لقيتُ في ربيع عام 2009 مفتي القدس الكبير، محمّد أحمد حسين، عند صديقي الشيخ مبارك النهايان في قصره بأبو ظبي على مائدة الجمعة مع موفدين كثيرين تابعين لحركة حماس. هذا رجل حكيم طيّب المعشر، كان يرتقب بسرور زيارة البابا بندكتس القرية إلى مدينته. استقبل البابا في 12 أيار 2009 في باحة المسجد على جبل الهيكل. وفقاً لكلمات البابا تلتقي في القدس سُبُل الأديان الموحّدة الكبرى الثلاث. كلّ منها يؤمن بالله الواحد وينتمي إلى إبراهيم نسيبهم المشترك. وأكّد البابا أنّ "هذا المكان المقدس حافرٌ لنا للقيام بحوارٍ مُخلص وبناء عالم يسود فيه العدل والسلام".

في أثناء الندوة الكبيرة لأيام الشرق في طنجة بالمغرب تناقشتُ مع وليم صوملي، الأسقف المساعد الكاثوليكيّ للبطريركية اللاتينية، حول العيش المشترك بين الأديان. هذا المسيحيّ الفلسطينيّ لم يكن حتّى ذلك الوقت قد صادف أحد السياسيين الكبار في الحكومة الإسرائيليّة. فشكا أنّ الناس لا يعيشون معاً في المدينة المقدسة، بل قبل كلّ شيء جنباً إلى جنب، وكلّ واحد يسير في سبيله.

إنّ الأعلام الكثيرة لدولة إسرائيل مع نجم داود المعلّقة في المدينة القديمة وحول حائط المبكى تزعجني، إذ ليس لها مبرّر في المدينة القديمة المقدسة. هي هناك مجرد علامة تشير إلى واقع الاحتلال وتعادل نوعاً من التحدّي. وفقاً لقوانين الأمم المتّحدة تُعدّ المدينة القديمة التي كانت تحت إدارة الأردن، موضعاً محتلاً. لا جزءاً من دولة إسرائيل. هذا الموقف تؤيّد جميع

الدول الأعضاء في الأمم المتحدة تقريبًا، وكذلك الفاتكان. القدس لا تخص أيًا من الأديان وحده ولا أية دولة، بل تخص ثلاثة مليارات من المؤمنين أتباع الأديان التوحيدية الثلاثة، اليهود البالغ عددهم 13.4 مليون في العالم كله، وكذلك أيضًا المسيحيين، وعددهم ملياران، والمسلمين وعددهم مليار ونصف. ينبغي لهم جميعًا بسماحة واحترام متبادل أن يقدروا بسلام قيمة مركز الأديان العالمية هذا، بدل أن يتشاجروا حول السيادة الأرضية فيه.

من الواجب أن تصير المدينة القديمة تحت رقابة الأمم المتحدة موضعًا محايدًا للتصالح وللحوار الإيجابي بين الأديان، يشرف على إدارته ممثلون عن الأديان الثلاثة. إن قرار التقسيم الأول من قبل الأمم المتحدة بتاريخ 29 تشرين الثاني (نوفمبر) 1947 (قرار 181)، كان قد حدّد للقدس ومحيطها مثل هذا الوضع الخاص. ولا أزال أعتبر هذا القرار حكمًا قابلاً للتنفيذ. ولا يزال البابا يؤيّد على الصعيد الدبلوماسي.

إنّي أخالف حامل جائزة نوبل الذي أحترمه إيلي فيزل، إذ أيد في حملة صحفية بتاريخ نيسان (أبريل) 2010، المطالبة اليهودية بأورشليم ذاكراً في دلائله، "أنّ أورشليم تُذكر ستّ مئة مرّة في الكتب المقدّسة، ولا تُذكر مرّة واحدة في القرآن. فحضورها في التاريخ اليهودي حضور مرغم. هي ملك للشعب اليهودي. هي أكثر من مدينة، هي ما يجمع اليهود بشكل يصعب شرحه. لأول مرّة يستطيع اليوم اليهودي والمسيحيون والمسلمون أن يصلوا بحرية في أماكنهم المقدّسة. ويستطيعون أيضًا أن يبنوا بيوتًا في كلّ مكان. يجب أن تبقى أورشليم عاصمة اليهود الروحية، لا رمزًا للألم والمرارة، بل للثقة والرجاء."

في المدينة القديمة ينبغي أن لا ترفرف أعلام دول، أكانت أعلام المنطقة الفلسطينية المستقلة أو أعلام دولة إسرائيل، بل فقط أعلام الأنبياء ورموز الله للأديان الثلاثة التي تربطها قرابة خاصة بعضها ببعض.

تحركّ مشاعري قصة القائد الإسرائيليّ أوزي نركيس (1925-1997)، الذي اجتاح في حرب الأيام السبعة عام 1967 مع كتائبه مدينة القدس القديمة. على صورة مشهورة نراه مع وزير الدفاع في ذلك الوقت موشي ديّان ورئيس الجيش إسحاق رابين في المدينة القديمة بعد زمن قصير من اجتياحها. عندما طالب رابين يهودي أن تُهدم المساجد القائمة على جبل الهيكل، وبدا كأنه يعرّض للخطر مقدّسات المسلمين، قال له القائد إمّا تتخلّى أنت عن هذا أو ألقيك أنا في السجن. في عام 1948، في الحرب بين العرب وإسرائيل، التي تبعتها إعلان استقلال إسرائيل، وجد نركيس مصحف القرآن الخاص للقائد الفلسطينيّ عبد القادر الحسيني الذي

قُتِلَ في المعركة حول القدس. أراد أن يُعيد المصحف الكريم ملك العائلة إلى ابن الحسيني فيصل. ولكن هذا رفض أن يتناوله من يد قائد إسرائيلي.

بطيبة خاطر أذكر صديق الناس الأسطوريّ وأشهر مختار لمدينة القدس تدّي كولك، الذي طبع جوّ المدينة من عام 1965 حتى 1993، بسحر المعاملة التي ورثها في فيينا (النمسا) وبالاحترام. كان أحبّ إليه أن يحوّل المدينة إلى قطاعات مستقلّة للجماعات الشعبيّة المختلفة، تقوم بإدارة مؤسّساتها، وتنظّم فقط اشتراك الجميع في الماء والكهرباء. في آخر حياته الحكيمة الطويلة ساند تسليم القدس الشرقيّة التي تقطنها أكثرية عربيّة إلى الفلسطينيين، وقاوم التأثير المتنامي من قبل المستوطنين المتشدّدين في القدس وفي البلد كلّه.

ينمو عدد المتطرّفين والجانحين إلى التعالي والبغض في الأرض المقدّسة أيضًا، من كلا الطرفين، لدى اليهود والمسلمين على السواء. الخرائط الرسميّة والرايات لدى الفلسطينيين تتجاهل دولة إسرائيل التي اعترفت بها الأمم المتحدّة، والتلفزيون والكتب المدرسيّة تمدح العنف وتشيد بالانتحاريّين فتعدّهم شهداء وأمثلة للشبيبة، مع أنّ القرآن لا يسمح بأي حال باستعمال القنابل ضدّ المدنيين. ولكنهم يعتمدون على إلههم المزعوم، إله البغض، بدل الإله الحقيقيّ، إله محبّة القريب والرحمة والاحترام. فهم يسيئون إلى الله ويسوقونه أمام سيّارات قتالهم. وبواسطة تهجماته الصاخبة يتمتّعون بصيت أكبر من واقعهم.

يعيش في الضفّة الغربيّة المحتلّة وفي القدس الشرقيّة نحو 500 ألف إسرائيليّ، هم أقلّ من عشرة بالمئة من مواطني إسرائيل اليهود البالغ عددهم 5.8 ملايين نسمة. كان في الماضي من المهمّ استملاك الأراضي وتحصين المواقع الخارجيّة للدفاع مقابل المشاة المهاجمين والمصفّحات. أمّا اليوم فالاستكشاف العصريّ بواسطة الأقمار الصناعيّة، والمروحيات الفارغة من الأشخاص، والقذائف البعيدة المدى والطائرات يمكّن الدولة من أن تعلم من بعيد مواقع الهجوم وتحاربه باكرًا وبنوع شديد. لذلك لا يفيد اليوم إسرائيل، كما كان الوضع في الماضي، احتلال الأراضي لحيازة عمق استراتيجي وللقيام بالدفاع. المفيد اليوم هو التصالح الحقيقيّ مع الجيران. إنّ النتائج المشؤومة المتأثيّة من الإعراض عن التصالح، بيّنها ممثّل سياسة ألمانيا الخارجيّة من عام 1871 إلى 1945. فالتأمّل بالمصالح المشتركة في الاتحاد الأوروبيّ، والمصالحة الحقّة مع فرنسا منذ الخمسينات من القرن الماضي، وأيضًا تبادل الاتفاقيّات المتغلّبة على التشجّع مع بولونيا وسواها من بلدان أوروبا الشرقيّة اعتبارًا من عام 1970، هذا كلّه جلب على مهل سلامًا حقيقيًّا لأوروبا الوسطى. فيجدر بدولة إسرائيل أن تأخذ العبرة من ذلك، وكذلك القول عن الفلسطينيين. المتطرّفون لا تردّهم سوى سياسة إنسانيّة من كلتا الجهتين.

إنَّ رئيس الوزراء الإسرائيليَّ إسحاق رابين أُلجئ إلى أن يضحّي بحياته عقابًا على إرادته الفطنة والشجاعة لعملية السلام. فالوطنيُّ المكابر إيغال أمير أطلق النار القاتلة على حامل جائزة نوبل للسلام وبطل حرب الستة أيام، وذلك لأسباب دينية سياسية. بهذا العمل أراد أمير، كما قال، أن يتمَّ "مشيئة الله". كان السبب معاهدة السلام في أوسلو (النرويج)، التي جاء في إطارها أن جميع مناطق الضفة الغربية وغزة يجب تسليمها إلى الحكومة الفلسطينية الجديدة المنشأ. لذلك وُصف رابين بمضطهد يهدّد بالخطر حياة اليهود. لذلك صحَّ على رابين تطبيق الشريعة اليهودية عن المضطهد، التي تفرض قتله فوراً¹⁶⁴.

قبل ذلك بسنة ونصف، في 25 شباط (فبراير) 1994، ويقع فيه عيد لليهود، وفي أثناء شهر رمضان عند المسلمين دخل في ساعات الصباح متطرّف يهودي مغارة المكفيلة في حبرون / الخليل. وهي قبر إبراهيم أبي الآباء، مقدّس عند اليهود والمسلمين والمسيحيين على حدّ سواء. هناك قُبرت أيضًا امرأته سارة، وأيضًا إسحق وزوجته رفقة ويعقوب وزوجته ليئة. فالمتسلّل المسلح باروخ غولدشتاين، الذي كان يقطن في مستوطنة قرية عربا القريبة، أطلق النار على المسلمين الكثيرين الذين كانوا مجتمعين هناك لإقامة صلاة الصبح وعبادة الله، الإله المشترك. فخلال دقائق قلائل قُتل 29 فلسطينيًا و150 آخرون، منهم عدد كبير من الأولاد، أصيبوا بجراح بعضها ثقيلة. أمّا رئيس الوزراء في ذلك الوقت رابين فقد ندّد بفعل غولدشتاين أمام مجلس النواب الإسرائيلي (الكناست)، وصرّح لياسر عرفات زعيم الفلسطينيين آنذاك: "إنّي لا أجد كلمات تعبر بشدّة كافية عن غضبي". فإنّه يشعر بصفته إسرائيليًا بالخجل العميق. وحكمت أكثرية تعدّ 79 بالمئة من الإسرائيليين على فعلة غولدشتاين، التي مدحتها أقلية متطرّفة (تعدّ 4 بالمئة) وأشادت بها كعملية بطولية.

لم تكن هذه الفعلة الدامية الوحيدة التي شهدتها مدينة حبرون / الخليل. قبل ذلك بخمس وستين سنة هاجم هناك رعا عراب متعصبون بيوت ومجمع الجماعة اليهودية الصغيرة وأردوا قتلى 67 يهوديًا. إنّ هذا المقام المقدّس المشترك مُلّطخ بالدم.

هذا مع أنّ مغارة الكفيلة المشتركة في حبرون / الخليل توحد الأديان الثلاثة: فهناك كنيسة من عهد الصليبيين، إلى جانبها (للمسيحيين) ومسجد مع منارتين (للمسلمين)، ومجمع (لليهود). فالأفضل أن يكون هذا المكان رمزًا للقرى وأن يذكّر المؤمنين بالله الواحد وبالأمر المشتركة.

¹⁶⁴. راجع:

Karen Armstrong, Im Kampf für Gott. Fundamentalismus in Christentum, Judentum und Islam, München 2007, 490.

ولكن أعمال الاستفزاز على يد المتطرفين بقيت واردة. ففي نهاية عام 2007 خرب مستوطنون إسرائيليون أملاك فلسطينيين وتعدوا أيضاً على قبور إسلامية، بعد أن أمرت المحكمة العليا الإسرائيلية بإفراغ منزل في المدينة كان المستوطنون قد احتلوه. يعيش في الجزء القديم من مدينة الخليل ثمانمائة مستوطن متطرف فقط، ما يعني اثنين بالمئة من سكان المدينة، على الجيش الإسرائيلي أن يقوم بحمايتهم وبذلك يشكّل عبئاً على الحياة اليومية في صفوف السكان العرب فيها. إلى ذلك يُعامل بالتكريم قبر قاتل الجماعة غولدشتاين، في قرية عربا القريبة.

في عام 2010 أعلنت الحكومة الإسرائيلية عزمها على ضمّ ضريح إبراهيم إلى لائحة الكنوز الثقافية الإسرائيلية. كانت هذه الخطوة تماثل خرقاً لحقوق الشعوب في المنطقة المحتلة، وعدّها المسلمون والمسيحيون تحدياً. فمنذ التحاق فلسطين عضواً في اليونسكو، يعود حقّ المحافظة على الضريح إلى نطاق مسؤولية المنظمة الفلسطينية المستقلة. فالواضح أنّ مدينة الخليل أصبحت بوتقة تجمع المتعصبين الإسرائيليين. ولكنّه من الأفضل والواجب أن تصير مثل المنطقة القديمة في القدس، في نظر اليهود والمسيحيين والمسلمين معاً رمزاً للإيمان. لا يجوز لنا أن نخضع كعبيد للمتطرفين القلائل، أكانوا عرباً أم يهوداً، بل علينا أن نحصرهم في حدودهم وندعو إلى ممارسة الاحترام المتبادل. فالمتطرفون لا محلّ لهم عند ضريح إبراهيم، لأنّهم يلوّثون شرفه والمكان المقدّس ببغضهم وجهلهم وتعسفهم.

إنّ الرائي السامي الشديد الأثر في إسرائيل يونا متسغر يشكو من أنّ بني إبراهيم، اليهود والمسيحيين والمسلمين، يقتل بعضهم بعضاً، بدل أن يجلسوا إلى طاولة واحدة، كما لو كان إبراهيم، مثل أيّ والد آخر، ينتظر ذلك من أولاده. أكان فضّل إبراهيم أحد أبنائه على الآخرين وأعطاه كلّ شيء؟ أكان وقف إلى جانب أبناء قتلة، أم إلى جانب فاعل السلام؟

"أبونا إبراهيم"، هكذا يدعو اليهود بفائق الاحترام. "أقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك"، هكذا قال الله لإبراهيم في سفر التكوين (7:17) ويبدأ نصّ العهد الجديد في إنجيل متى (1:1) بهذه الجملة: "كتاب ميلاد يسوع، ابن داود ابن إبراهيم". أمّا مولد إبراهيم فكان حسب المؤرّخين في بلد أور قديم بقرب بابل (في العراق اليوم)، سنة 2166 قبل الميلاد.

يصف الإسلام نفسه بأنّه ملة إبراهيم، ويمدحه في 245 آية من آيات القرآن الكريم. حسب إيمانهم كان هو من شيّد الكعبة، قلب أقدس جامع إسلامي في مكة. ويُعدّ ابنه إسماعيل مع أبنائه الاثني عشر جدّ المسلمين. أمّا الابن الآخر لإبراهيم فهو إسحق، وإسحق وابنه يعقوب هما

أبوا أسباط إسرائيل الاثني عشر، التي نشأت منها المسيحية. هذه عشيرة وأسرة كبيرة على رأسها إبراهيم الأب الكبير القديم.

إن عدد القتل المفجع في الخليل / حبرون، والقضاء على إسحاق رابين يُظهران أن مأساة إسرائيل تتمثل بعرق شرير باسم الإيمان اليهودي. بهذا يثير المتطرفون ذلك البغض ضد الفلسطينيين كما ضد سياسيين إسرائيليين متوجهين إلى التصالح، ومستعدين باسم السلام أن يتقاسموا الأرض المقدسة بين اليهود والمسلمين. ولكن تشبث الفرق المتطرفة بالبغض والعنف باسم الكتب القديمة واندفاعهم في شعور كبرياء متعالية يمنعان الأخذ بالاحترام والتسامح تجاه من يخالفهم في تفكيره. هذا سُم لإسرائيل ولحمالة السلام في الأرض المقدسة. فالبغض الذي تثيره أقلية بين الإسرائيليين والعرب، وأيضاً سياسة الاستيطان الإسرائيلية في مناطق فلسطينية يؤدبان إلى تعطيل حقوق الفلسطينيين. إن ميك دافيس، رئيس شورى القادة اليهودية في بريطانيا، يخشى أن تتحول دولة إسرائيل إلى دولة شعوبية. فالمتوطنات، حسب قول دافيس، ليست مساهمة إيجابية، بل هي حمل على عاتق الشعب اليهودي.

ليس المتشددون هم أولاد إبراهيم الحقيقيين، ولا عندهم إيمان صحيح. هؤلاء المتطرفون ناشرو صورة مفعلة عن صورة "إسرائيل الكبير"، يجذبون بتوفير مساكن رخيصة مهاجرين فقراء إلى الضفة الغربية المحتلة. بهذا يستخدمون أناساً فقراء مؤمنين بدون رفق لمساندة مشروع سياسي. فالأكثريّة الصامتة التي تعدّ أكثر من خمسة ملايين يهودي ميّال إلى التصالح يُقبض عليها كرهائن من قبل هذا الفريق العالي الضجيج من المتشددّين، الذين يطالبون لمصلحتهم بمناطق فلسطينية، حتّى خارج حدود إسرائيل المحدّدة عام 1949. يأتي هذا الفريق الصغير الشديد التطرف في صفوف المستوطنين البالغ عددهم نصف مليون شخص في الضفة الغربية المحتلة وفي القدس الشرقية، بسلام حقيقي ومصالحة، أم فقط بالفشل والبغض، وأخيراً بالعنف؟ هل يؤمنون بقاء دولة إسرائيل أم هم يقضون بالمنشار على شجرة المصالحة والسلام؟ أم يكن اليهود هم الذين قاسوا سوء المعاملة وخسران الوطن على مدى ألفي سنة؟ فاليهود ذهبوا ضحية المنادين بالبغض والمتعصّبين، وقُتلوا باسم دين معين أو إيديولوجيا، وشردوا من وطنهم الأوربي.

من جهة مقابلة يطلب بعض الفلسطينيين المتطرفين مثل حركة حماس الاستيلاء على كلّ الأرض المقدسة، وينفون حقّ الوجود لدولة إسرائيل. في دولتهم، إن قامت، يتحوّل اليهود إلى أناس من طبقة ثانية. وفي برامجهم التلفزيونية يُمدح إرهابيون فجروا حافلات المدارس وقتلوا النساء والأطفال، كأنهم أبطال ينبغي التمثّل بهم. والفلسطينيون يحتاجون أيضاً إلى تصالح

حقيقيّ ورجوع عن الفكر العدائيّ. إنّ تصرّف هؤلاء المتطرّفين الفلسطينيين والإسرائيليين القلائل يطيح بحركة السلام والتصالح الممكنة في الأرض المقدّسة منذ عشرات سنين كثيرة.

في عام 2001، عندما انفجر مجدّدًا قتال بين الجيش الإسرائيليّ وفلسطينيين مسلّحين، قدّم الحكم الخبير في الأزمات، الكردينال روجه إتشيجري من الفاتكان إلى بيت لحم المحاصرة، لينهي التجاذب بين الإسرائيليين والفلسطينيين عند كنيسة المهدي. قال: "إنّ معنى كلمة سلام كما وردت في الكتاب المقدّس يحتاج إلى قدرة تصوّر غزيرة، وتفكّر عميق وشجاعة وإيمان واضح حقيقيّ. فهو يتطوّر بالتحوّل في قلوب الناس وأذهانهم، وبالتربية التي تظهر الاحترام في كثير من أمور الحياة الصغيرة"¹⁶⁵.

1. البحث عن مؤيدي التصالح الشجعان في الأرض المقدّسة

إنّ العرب بغالبيتهم لا يصفحون عن اليهود أنّهم هجّروا ما يقارب سبعمائة ألف فلسطيني من وطنهم، ولا يفرّقون بين دولة إسرائيل والدين اليهودي، مع أنّ أكثر أتباع هذا الدّين يعيشون خارج هذه الدولة. هذا الدين الذي يضم 13.4 ملايين عضو، هو أصغر الأديان العالميّة، ومعظم المنتسبين إليه يعيشون في دولة إسرائيل (5.9 ملايين) والولايات المتّحدة الأميركيّة (5.3 ملايين). أمّا الباقيون فموطنهم قبل كلّ شيء في الاتحاد السوفياتي القديم وفي أميركا الجنوبيّة.

ينقص إسرائيل مؤيّدون للتصالح عظام شجعان وقادرون على الإقناع، ومخطّطون للسلام. بعض السياسيين الحاليين يخشون الأقلّيّة وأحداث الانتخابات المقبلة. وغيرهم يظنّون أنّ البنادق والطائرات تكفي لضمان أمان البلد، ويساندون كأفضل حلّ قيام دولة إسرائيل الكبيرة، دولة قويّة لا تميل إلى المصالحة.

هناك واحدٌ تجاسر في عام 2000 في محادثات السلام "كامب دافيد" وتقدّم كثيرًا في اتجاه السلام، ثمّ تراجع، هو أيهود باراك. كان رئيس القوّات العسكريّة (1991-1994)، وحاز على أعلى وسام لقوّات الدفاع الإسرائيليّة وصار بعد ذلك رئيس الوزراء (1999-2001)، ووزير الدفاع (2007-2013)، وهو محنّك لبق. زرته في مقرّه العصريّ الجميل في تل أبيب.

¹⁶⁵.In : Saint' Egidio, Internationales Friedentreffen, Dezember 2010, 7

هناك يستقبل ضيوفه ويعزف على شرفهم بمهارة وجودة على بيانو جميل جداً. تناقشنا حول إمكانيات التصالح في الأرض المقدسة وحول شرائع السماحة. هو كان في محادثات كامب دافيد عام 2000، قد اقترح أن يُعاد إلى العرب 98 بالمئة من المناطق التي تحتلها إسرائيل، بما فيه القدس الشرقية. وهذا الاقتراح لا أزال أعتبره السبيل الوحيد للبلوغ إلى السلام. إن السياسة الإسرائيلية ينقصها للأسف مخطط عام وأيضاً منقذون مقتنعون من قضيتهم. فلعل السياسيين الذين يجنحون إلى السلام يتحفظون من تقديم عرض كبير مثمر بسبب تصرف باراك. فهذا اضطر أن يرى كيف انهارت محاولات السلام في كامب دافيد في زمن الانتفاضة الثانية عام 2000 وذهبت ضحية النيران. عندما زرنا معاً عام 2006 هنري كيسنجر في مكتبه بالشارع الخامس في نيويورك، دار حديث السياسيين فقط حول مجرد قضية انسحاب المستوطنين من الضفة الغربية، وسحب ممكن للحدود. وعندما اقترحت أن أهم قضية هي قضية المصالحة الحقّة وإطلاق استراتيجيّة مزدوجة تعتمد على القوّة والتراخي، حدّق بي كيسنجر وباراك باستغراب.

إن ذهنيّة الخنادق المتسلّطة في السياسة الإسرائيليّة ومهادنتها المفرطة مع المتشدّدين تتطوّر أكثر فأكثر إلى حائط مسدود ومسقط تنحّ لجميع الإسرائيليين. إسرائيل بحاجة إلى استراتيجية مزدوجة تجمع بين البواشق والحمام، بين البندقية وأغصان الزيتون، بين القوّة والمصالحة. على سياسة جيّدة أن تضمن أمان البلد على أساس مقدّرات عسكرية كافية، وفي الوقت أن تمدّد يد المصالحة. فكلّ حذف لإحدى العمليّتين يتبيّن مع الوقت أنه قصير النظر وغير ناجح. فسياسة المصالحة يجب أن تُنصّب عموداً له مبرّه المماثل إلى جانب قوّة الجيش والشرطة. بدونها تقوم سياسة البلد على أساس خاطئ، وتجاهه الفلسطينيين بموجاتها المتكرّرة بالنسبة إلى بناء مستوطنات وسوى ذلك من المقرّرات.

لدينا الآن أوّل أمثال إيجابيّة للتصالح وإشارات إلى ممارسة الاحترام. إن متحف تل أبيب للفنون العصريّة ينظّم منذ سنين عديدة مدارس رسم للأولاد من العرب واليهود، فيتعرّف هؤلاء هم وأهلهم، بعضهم على بعض ويخرقون الحواجز الاجتماعيّة بين هذين الشعبين. عندما أحرق متشدّدون في آذار (مارس) 2011 مسجداً في قرية عربيّة تدعى طوبا سانغريا في الجليل، أسرع رئيس الدولة الإسرائيلي شيمون بيرس مع رئيسي الرابّين سلومر أمر ويونا متسجر، إلى هناك، وندّد بهذه الأعمال تنديداً شديداً، إذ إنّها موجهة ضدّ الأخلاق وضدّ روح إسرائيل. هذا ما أكده بيرس. ووزير الدفاع إيهود باراك وصف ذلك عملاً إجرامياً يضرّ بدولة إسرائيل.

هناك أمثلة أخرى سارة لمشاريع موجهة إلى تحقيق المصالحة. منها "فرقة السلام"، هي فريق نسائي لكرة القدم مؤلف من ست لاعبات فلسطينيات وست لاعبات إسرائيليات. - مدير الجوقات الموسيقية المشهور عالمياً، دانيال بارنبويم نظم أوركسترا عظيمة مع شبان من جزءي الأرض المقدسة، وأيضاً من عدة بلدان عربية. - "السينما لأجل السلام": هذا مسرح أسانده أنا، في جنين في الضفة الغربية، عليه أن يجلب فن السينما ويطلق محاولات المصالحة في سبيل إحلال السلام في هذه المنطقة. في تلك المدينة حدثت قصة مؤثرة: في عام 2005 قتل الجيش الإسرائيلي هناك صبياً عمره اثنتا عشرة سنة. لم يكن ذلك عمداً، لأن الصبي كان يلعب ببندقية من البلاستيك. عن بُعد كبير لم يكن ممكناً التثبت من عمر الشخص ولا من نوع السلاح. والده، الذي قضى عدة مرات زماناً في السجون الإسرائيلية، روى لي في برلين 2011 كيف تمكّن طبيب إسرائيلي أن يقنعه أن يُهدي أعضاء من ابنه الميت لأولاد إسرائيليين - أولاد الأعداء - فيستطيعون بذلك أن يظلوا على قيد الحياة بقلب أحمد ابنه وكنيته. الفيلم الوثائقي "قلب من جنين"، الذي صوره منتج الأفلام الألماني مرقس فيتر والإسرائيلي لبور جلر عام 2008، يستحق من كل بد أن يشاهده الكثيرون.

إنّ والدة الرائي الكبير الأشكنازي الأوربي المنشأ إيونا متسغر (وُلد عام 1953 في حيفا) أصلها من المدينة الجميلة جداً برسلاو في سيلازيا، كما أنّ والدي كريستا-ماريا هوفمن، من عائلة نيستروي، ووالدي جورج غوتر فوممان، أصلهما من المدينة عينها.

والدا الرائي نجوا من الجنون العرقي النازي في الأعوام الثلاثين من القرن العشرين، إذ هاجرا إلى حيفا في فلسطين. وابناهما صارا كلاهما رابيين أحدهما واسمه جورج، صادفته مع زوجته في جنائن البهائين الساحرة في مدينة حيفا بشمال إسرائيل. وبالصدفة تحدّثنا عن جذور أسرتنا المشتركة. سألتني هل أنا نسيب الراهبة المشهورة في برسلاو واسمها يوليا هوفمن (قبرها موجود في المدافن اليهودية في المدينة). أنكرت ذلك وأشرت إليه أنّي مسيحي كاثوليكي ملتزم. "ولكنّ والديّ من برسلاو"، هذا ما قصصته عليه. عند ذلك ناولني هاتفه المتحرّك، وقد طلب الكلام مع والدته البالغ عمرها 90 عاماً والتي تعيش في حيفا. فتحدّثنا باللغة الألمانية مع اللهجة السيلازية عن مدينة موطنها في سيلازيا. وعندما زرتُ بعد ذلك والدي في شتافن من أعمال برايسغاو في ألمانيا، جرى حديث بين المرأتين الطاعنتين في السنّ اللتين فقدتا موطنهما، وتبادلنا الخواطر عن ذلك الزمان القديم الحلو. السيّدة متسغر اضطرت كيهودية إلى مهاجرة برسلاو. ووالديّ الألمانيان طردا من وطنهما عام 1945. جدّي نيستروي خبأ هناك في منزله لبضعة أيام عائلة يهودية صديقة من أمام النازيين. ووالدي لم يُسمح لها آنذاك أن تذهب إلى المدرسة لكي لا

تقص عن غير عمد شيئاً عن ضيوفنا. منذ عام 1945 ألحقت المدينة دولة بولونيا باسم فروسلاف. هناك تقص المقبرة القديمة والمجمع الفخم الذي أُعيد ترميمه عن التاريخ اليهودي الطويل. بعد أعوام طويلة مُرّة تصالح أخيراً الأعداء الدائمون القدماء، الألمان والبولونيون. والمهجرون الملايين الذين طردوا من وطنهم صرّحوا في وقت مبكر جداً وبطريقة مثالية أنهم يعرضون عن العنف والثأر وعن العودة إلى وطنهم. والآن يعيش الألمان والبولونيون متّحدين في إطار الاتحاد الأوروبي والناتو. جنباً إلى جنب. هي علامة عظيمة للأمل حتّى بالنسبة إلى الأرض المقدّسة، تبرهن كيف يمكن إحلال السلام بين من يُعتبرون أعداء لدودين.

إنّ الرابّي متسغر يدعو منذ 2004 إلى إنشاء معهد ديني "للأمم المتّحدة" في القدس، يعزّز البحث عن طرق مشتركة لتأمين الاحترام في المدينة المقدّسة. أنا أعتبر هذه فكرة ممتازة. وفي آذار (مارس) 2008 ساند مؤتمر العاهل السعودي للحوار بين الأديان. وهو يقول: "كلّ مبادرة تمنع حصول إراقة الدماء والإرهاب، تحظى ببركتي". فلأنّ كثيرين من الإرهابيين ينسبون أفعالهم إلى فرائض الدين، تستحقّ مثل هذه المبادرات، كما يقول، المديح دائماً. هذا يدعو إلى التفاؤل.

2. السماحة والاحترام في العقيدة اليهودية

إنّ الدين اليهودي أساس المسيحية، كما هو أساس الإسلام، ففي هذين الدينين اللاحقين كثير من أوجه الإيمان اليهودي المشترك، وجذور لاهوتية وشيخ النسب المشترك إبراهيم الخليل. فالمسيحي المؤمن والمسلم الموقن عليهما من ثَم أن يحترما هذه الجذور اليهودية القديمة، وإلا فهما يتعديان معطيات دينهما الخاص. هذا ما صرّح به لي نائب رئيس مؤسسة قطر في الدوحة. أكّد أنّ كلّ مسيحي وكلّ مسلم هو أيضاً يهودي شيئاً ما.

في اليهودية منطلقات لا يمكن إلاّ بصعوبة توفيقها مع الاحترام والسماحة: هناك الإيمان الصامد أنّ اليهود هم "شعب الله المختار". و"أفضل شعب في العالم". من هنا يستخلص بعض المتطرّفين حقّ التعالي على غيرهم من البشر جميعاً، ويقدّرون أنفسهم كأفضل الناس، ولذلك يجوز لهم أن يفرضوا على الآخرين الفرائض.

لا يسعني أن أوافق على هذا التفسير الضيق. وإن كان يُفهم بشرياً، إلاّ أنّه خطأ لاهوتياً. فإنّ الله حسب النصوص قد اختار دوماً الأشخاص الذين يقومون بمهام خاصة في سبيله وعليهم أن يحققوا عمله، كما برهن إبراهيم عن ذلك. هذا ليس حقاً متعالياً على الآخرين، بل

واجبًا خاصًا لممارسة الإيمان بالله وعمل الصالحات. فمن هو "مختار" من قِبَل الله عليه أن يمارس بنوع خاصّ الاحترام تجاه خلائق الله الآخرين ولا يجوز أن يتخذ مظهرًا لا يحترم أحدًا ومليئًا بالعنف، إذ إن هذا يعادل إهانة الله.

في الغرب المسيحيّ درج القول "إن الشرف قرض". فالمختار هو حامل فرض بشكل خاصّ. عليه أن يخدم النظام الإلهي، الذي نصفه أدناه انطلاقًا من الشرائع اليهودية، أن يخدم، لا أن يتسلط. هذا يتطلب منه تواضعًا واتزانًا وإيمانًا حقيقيًا. من هنا ينبغي أن يوصف صانعو السلام والمدافعون عن السلام دفاعًا مترنًا، "مختاري الله"، لا المتطرفون الخالون من السماحة. لأنّ هؤلاء بسبب أعمال عنفهم قد خسروا كلّ منزلة أخلاقية وكلّ تبرير لادّعائهم بالتفوق.

عندما أُعلن تأسيس دولة إسرائيل عام 1948 قوبل الشعب اليهودي لأول مرة منذ ألفي سنة بالسؤال: كيف يريد كأكثرية حاكمة في الدولة أن يمارس السماحة تجاه الأقليات، في هذه الحال تجاه المسيحيين والمسلمين. على مدى آلاف السنين كان اليهود أقلية صغيرة تحتاج إلى قبول الأديان الأخرى. أما الآن فكان الدين اليهودي مضطرًا لأن يناقش كيف يريد أن يحترم الدينين اللاحقين، المسيحية والإسلام، كجزء من الأسرة البشرية.

إن إعلان استقلال إسرائيل، الذي وُقِع عليه في 15 أيار (مايو) عام 1948، يؤكّد أساس الدولة الجديدة المتسامح: "إنّ دولة إسرائيل سوف تسير إلى الأمام في تطوير البلد لصالح جميع سكانه. فهي قائمة على قاعدة الحرية والعدالة والسلام كما عيّن ذلك أنبياء إسرائيل. وسوف تؤمّن المساواة الكاملة في حقوق جميع السكان الاجتماعيّة والسياسيّة بقطع النظر عن الدين والعرق والجنس فإسرائيل تؤمّن حرية المعتقد والضمير واللغة والتربية والثقافة، وحماية الأماكن المقدّسة التابعة لجميع الأديان. وسوف تُراعي بدقّة مبادئ قرار الأمم المتّحدة". - بهذا تعترف دولة إسرائيل اعترافًا واضحًا بحريّة الدين والمساواة بين جميع المواطنين.

وفي دساتير إسرائيل يرد تثبيت هذه المثلّ التابعة للأمم المتّحدة. ورد هناك ما يلي: "إنّ غرض الدساتير هي حماية كرامة الإنسان وحرّيته". فالمحكمة العليا قد قامت انطلاقًا من هذه القواعد الواضحة، في قرارات كثيرة وبنوع شجاع وقوي، بالمدافعة عن حقوق الأقلية العربية ضدّ مطالب المستوطنين، فكانت بذلك كحافظ مثاليّ للاحترام.

إنّ أجمل مطالبة بالاحترام والسماحة توجد في التلمود البابليّ: "في ذلك الزمان حضر شخص غير يهودي إلى هَلَل وقال له: "أريد أن أصير يهوديًا بشرط أن تعلّمني التوراة كلّها وأنا أقف على رجل واحدة. أجاب هَلَل: ما تكرهه، لا تفعله لغيرك. هذه هي التوراة كلّها، وما عدا

ذلك فهو مجرد شرح. فاذهب وتعلم ذلك". فبالنسبة إلى الراي هـل، الذي كان عائشاً نحو عام 10 بعد الميلاد، تحتوي هذه الجملة على ماهية الاعتراف بالدين اليهودي. بهذا تتجلى التوراة، والتعليم اليهودي، كمدافعة في سبيل تعايش سلمي بين الشعوب.

هناك فرض موجه إلى اليهود وإلى المسيحيين أيضاً: "أحب قريبك حبك لنفسك" (الأخبار 19: 18؛ إنجيل متى 22: 39). فيسوع اليهودي، عندما طالب أن "أحب قريبك لنفسك"، قد سرد طبعاً آية من التوراة وأدخلها في جملة الوصايا المسيحية.

توجد موزعة على كتب اليهودية تحريضات على السماح والاحترام تجاه أتباع الأديان الأخرى وفرق إثنية أخرى. فأساس التعليم اليهودي هي التوراة، المؤلف من كتب موسى الخمسة. وهي مع الكتب الأخرى تؤلف الكتاب المقدس اليهودي. وتفاسير التعاليم المتضمنة هناك توجد في الميشنا والتلمود. ومجموعة الوصايا والمحظورات المذكورة في تلك الكتب تسمى متزوا. والترات يعرف 613 وصية تضم 365 محرمة (على عدد أيام السنة) و248 وصية.

أشهر الوصايا التي يمكن أن تُعدّ بالنسبة إلى البشرية كلها فريضة العمل الأخلاقي الأشدّ فاعلية، هي الوصايا العشر التي حسب التقليد اليهودي تلقاها موسى من الله على جبل سيناء (راجع نصّها في سفر الخروج 20: 2-17).

إلى جانب الترتيبات التي تخصّ الشعب اليهودي وحده، يشير العهد القديم أيضاً إلى وصايا جامعة، لا تخصّ اليهود فقط. هذه الوصايا تُدعى "وصايا نوح" وجاء نصّها في سفر التكوين 9: 6. نوح هو هنا رمز للبشرية كلها، لأنه عاش حسب الكتاب المقدس قبل إبراهيم، الذي يُعدّ أول يهودي. المُراد هنا واضح: أن يكون المرء إنساناً، هذا يتقدّم على كونه يهودياً. نصّ إحدى هذه الوصايا المفروضة على جميع البشر هو التالي: "من سفك دم الإنسان سفك دمه على يد الإنسان، لأنه على صورة الله صنع الإنسان".

إنّ تقدير الإنسان هذا مستقلّ عن إيمانه وعضويته الإثنية. جاء في كتاب بيرك آفوت 3: 14: "قال راي عقيب: تجب محبة الإنسان، لأنه خُلق على صورة الله". صورة الإنسان هذه أساس الوصية اليهودية التي تدعو إلى المسامحة تجاه جميع الآخرين.

إنّ اليهودي الحكيم موسى بن ميمون (1135-1204) قال في موعظة له في القرن الثاني عشر: "من يتخذ السبع (وصايا نوح الذي جاء ذكرها) ويرغب أن يسلك بموجبها، يكون أحد الأتقياء في شعوب العالم وله نصيب في العالم الآتي. هذا يصحّ في الذي يتناولها ويعمل بها، لأنّ

الله أوصى بها في التوراة وأعلن على لسان معلّمنا موسى أن ذريّة نوح فُرض عليهم العمل بهذه الوصايا".

وفي الميшна يحرض معلّمان حكيمان:

- العالم يرتكز على ثلاثة أشياء: على الحقّ وعلى الحقيقة وعلى السلام. (قول ربّان شيمون بن غملييل 1: 18).

- ليكن شرف قريبك عزيزاً عليك مثل شرفك أنت (رأبي أليعازر 2: 15).

وورد في التلمود تحريض للناس (تلمود بفلي شبات):

- ما تبغضه أنت، لا تفعله لقريبك (رقم 31).

- ما يدافع عن الإنسان هما التوبة والأعمال الصالحة (رقم 32).

- كثيرٌ من النزاع يهّب في بيت الإنسان بسبب البغض الذي لا سبب له (رقم 72).

وفي العهد القديم نصوص يُقال عنها إنّها تخصّ فقط بني إسرائيل، ولكنها تحتوي على تعليم في السماحة عامّ شامل. فتجد في كثير من الآيات تحريضاً على الشعور الإنسانيّ والاحترام:

- (الربّ) يحبّ البرّ والحقّ (مزمو 32/33: 5)

- جانب الشرّ واصنع الخير (مزمو 33/34: 15).

- الله في جماعة الله قائم، في وسط الآلهة يقضي. "إلى متى بالظلم تقضون ووجوه الأشرار تُحابون؟ احكموا للكسير واليتيم وأنصفوا البائس والفقير، نجّوا الكسير والمسكين وأنقذوه من أيدي الأشرار..." (مزمو 81/82: 1-4).

- لا تُدسّ على قريبك شرّاً، وهو ساكنٌ معك آمنّاً (أمثال 3: 29).

- إن جاع عدوك فأطعمه خبزاً، وإن عطش فاسقه ماء. فإنك تركم على هامته جمرّاً، والربّ يجازيك (أمثال 25: 21-22).

- عرفتُ كلّ ما خفي وكلّ ما ظهر، لأنّ مهندسة كلّ شيء علمتني، وهي الحكمة. فإنّ فيها روحاً فطناً قدوساً، وحيداً متشعباً لطيفاً، متحرّكاً ثاقباً طاهرّاً، واضحاً سليماً محبّاً للخير حادّاً، حرّاً محسنّاً محبّاً للبشر (الحكمة 7: 21-23).

- المحبّة لا تفنى إلى الأبد، والرحمة تستمرّ إلى الأبد (ابن سيراخ 40: 17).

- أزيلوا شرَّ أعمالكم من أمام عيني، وكفُّوا عن الإساءة. تعلّموا الإحسان والتمسوا الحقَّ،
أعينوا المكبوتين وأنصفوا اليتيم وحاموا عن الأرملة (أشعيا 1: 16-17).

- وأجعل قضاءك سلامًا، ومن طُغَاتِكَ بِرًّا (أشعيا 60: 17).

- لأني أنا الربُّ محبُّ الحقِّ، مبغض النهب والظلم (أشعيا 61: 8).

- أطلبوا الخير لا الشرَّ لتحَيِّوا (عاموس 5: 14).

- قد بين لك أيُّها الإنسان ما هو صالح، وما يطلب منك الربُّ. إنَّما هو أن تُجْريَ الحكم
وتحبَّ الرحمة، وتسير بتواضعٍ مع إلهك (ميشا 6: 8).

- من يُقابِل بالإحسانات يلقاها في سُبُلِهِ، وفي يوم سقوطه يجد سَنَدًا (ابن سيراخ 3: 31).

- لا تتذلَّ للإنسان الأحمق، ولا تُحابِ وجه المقتدر. جاهد عن الحقِّ حتَّى الموت، والربُّ
الإله يُقَاتِلْ عنكَ (ابن سيراخ 4: 27-28).

- اغفِرْ لقريبك ظلمه، فإذا تضرَّعتْ تُمحي خطاياك (ابن سيراخ 28: 2).

في كثير من الوصايا توجد فرائض مفردة عديدة عليها طابع القرون الماضية. وإلى جانبها
نصائح تعزِّز السماحة:

- أن لا يحاول أحدٌ أن يقتل قريبه.

- أن لا يغتاب أحدٌ قريبه.

- وأن لا يثأر أحدٌ لنفسه.

- وأن لا يُضمِر البغض.

في تاريخ اليهود يوجد اختبار تردّد على أجيال كثيرة، هو العيش كأقليّة مضطهدة في بلدان
عديدة من هذه الأرض. فأوّل لقاء باختبار الغربية حين نزع بنو إسرائيل إلى مصر. هذا يتردّد
في وصايا كثيرة في العهد القديم من الكتاب المقدّس، وكذلك هو في تفاسيره، وقبل كلّ شيء في
وصيّة محبّة القريب، وأنّ عليهم أن يحبّوا الغريب. إنّ اختبار الغربية في مصر في التعليم
اليهوديّ حجر الأساس للسماحة والاحترام تجاه أتباع الأديان الأخرى والأقليّات الإثنيّة، كما
ينبغي أن يصحّ اليوم في العلاقة بالعرب.

- إذا نزل بكم نزيل في أرضكم، فلا تظلموه. وليكن عندكم النزيل المُقيم فيما بينكم
كابن بلدكم، تحبّه حبّك لنفسك، لأنكم كنتم نُزلاء في أرض مصر. أنا الربُّ إلهكم (الأخبار 19:
34-33).

- فأحبُّوا النزِيل، فإنَّكم كنتم نُزلاء في أرض مصر (تثنية الاشتراع 10: 19).
- والنزِيل فلا تظلمه ولا تضايقه، فإنَّكم كنتم نُزلاء في أرض مصر (خروج 22: 20).
- شريعةٌ واحدة تكون لابن البلد والنزِيل النازل فيما بينكم (خروج 12: 49).
- ولا تضايق النزِيل، لأنَّكم تعلمون ما في نفس النزِيل، فإنَّكم كنتم نُزلاء في أرض مصر (خروج 23: 9).

- إنَّ الربَّ إلهكم هو... الإله العظيم... محبُّ النزِيل، يعطيه طعامًا وكسوة. فأحبُّوا النزِيل، فإنَّكم كنتم نُزلاء في أرض مصر (تثنية الاشتراع 10: 17 و18-19).

إنَّ الرائي الرَّئيس الحكيم في تل أبيب، الذي كان الرائي الأعلى لجماعة اليهود الأشكنازين (الذين أصلهم من أوروبا) في دولة إسرائيل، مئيرلاو، نجا هو وحده مع أخيه من كلِّ العائلة من معسكر النازيين بوخنفالد، فقال بعد زيارة لمعسكر أوشفتس - برکناو عام 2009: "رأيتُ هناك كلمة نُقِشت على جانب نافذة: هي "ثأر". عند ذلك تلقَّيتُ خبراً من حفيدتي من إسرائيل قالت فيه: لقد ولدتُ لك الآن حفيداً". هذا هو ثأري. هذا هو جوابي. وهذا هو حلي. أن أعيش وأدع الآخرين يعيشون، وأن نعيش معاً بصداقة ومحبة وسلام¹⁶⁶.

فريضة السلام والعناية بالعلاقات مع المسلمين والمسيحيين، مع العرب والفلسطينيين، هذا هو إيمان يهودي حقيقي. أمَّا اليهودي المتشدّد التي يخالف ذلك، فهو يشمت بالله وبوصاياه. إنَّ الأكثرية الصامتة عليها أن تعبّر عن هذا اليقين بنوع أشدّ ممّا حدث حتّى الآن، وأن تحصر الأقلية الداعية إلى العنف. بهذا فقط يصير سلام حقيقي مستديم في الأرض المقدّسة بين اليهود والمسلمين ممكناً، على أساس هذه المبادئ المتسامحة في الدين اليهودي، التي تتلاقى مع قواعد السماحة الذهبية في الإسلام.

¹⁶⁶.Sant' Egidio, Internationales Friedensstreffen, München 2010, 21.

الفصل الرابع الهندوسية والسماحة الكبيرة

كنتُ في سفر أتفقّد فيه آثار السماحة. فقممتُ بزيارة لأكبر تاجر هنديّ صاحب المليارات العديدة موكش أمباني في بنايته الشاهقة الخاصّة، بمدينة مومباي. انتقلتُ بصحبة المرشد الشهير سادغورو جاغي فازودف لتناول طعام العشاء في حديقة المبنى. وتحدّثنا عن روح الهند. فأقنعني المرشد بعلمه وعباراته الواضحة وإيمانه الروحيّ ذي الجذور العميقة. فلولا لحيته ولباسه الهنديّ، ولو أنّه ارتدى طقمًا لما كان اجتذب الأنظار من بين كبار التجّار. فهو يوعي، وروحانيّ ورايّ وشاعر، هو روح الهند في رجل حكيم، وهو مرشد روحيّ للنخبة الجديدة الثريّة. بعد ذلك التقينا مجددًا في نيو دلهي بندوة اللقاء الاقتصاديّ العالميّ، حيث التقى أصحاب القرار من الهند بأرباب عمل آتين من كلّ العالم. يؤثّر في كيف ترى أرباب العمل الهنود لا يزالون متجدّرين تجدرًا عميقًا في إيمان وعادات بلدهم. كيف يجمعون بين تاريخ الهند منذ أكثر من 3 آلاف سنة والرأسماليّة الكاسحة على مثال ولّ ستريت الأميركيّ. إنهم يرسلون أولادهم إلى ستانفورد أو هارفرد في أميركا، ولكنّ قلوبهم تبقى في الهند. هذا يختلف عمّا يجري عند الصينيين الذين يعبدون العجل الذهبيّ وصار لهم المال بديلًا لدينهم. بعد أن أمست شيوعيّة الدولة منذ 1978 قشرةً بلا لبّ.

سادغورو أنشأ مؤسسة إيشا، التي لا تدعم دينًا معيّنًا، بل تريد أن تهتمّ على أساس شامل بقيم وحكميات العالم الباطنة. مليونان يمارسون حكمياته التي تطوّرت على مدى قرون في الهند على أساس اليوغا والروح. ففي القمّة العالميّة للسلام من الأمم المتّحدة وفي اتّحاد رؤساء الأديان والقوادر الروحيين يدعم هو الحوار بين الأديان انطلاقًا من نظرة هندية. بمناسبة تكريمه بجائزة إنديرا غاندي قال عام 2008: "لماذا نحن بحاجة إلى السماحة؟ كلّ واحد يفكر أنّ الآخر على ضلال ويجب أن ننحيه. ولكن في الحقيقة لا يعرف بعضنا بعضًا معرفة كافية. علينا أن نخلق السلام في أنفسنا، قبل أن نتوجّه إلى الخارج. كلّ ما نراه في الخارج ليس هو سوى تصوّر في ذهننا الصغير. لذلك علينا في البدء أن نتأني ونعامل جارنا المجهول برفق أكبر ونتعرّف عليه".

هذا الانتفاح الهندي والتأني والتسامح الواعي تجاه الآخر الغريب نشأ في عملية اختمار دامت آلاف السنين مُزجت فيه ثقافات وأديان ولغات وأساليب تفكير مختلفة. الهند هي عالم صغير متعدّد الثقافات في سكانها البالغ عددهم مليار شخص. فكلّ واحد منهم ينتمي إلى أقلية بالنسبة إلى مجموع السكّان. هناك في هذا البلد 23 لغة مهمّة، و22 ألف لهجة موزّعة على المناطق. وحتىّ اللغة الرسميّة الهنّدي، لا يفهمها إلاّ 40 بالمئة من السكّان. ومثل هذا العدد يُعدّ من بين الذين لا يحسنون القراءة والكتابة. 20 بالمئة فقط هم هندوسيون. وأكثر من 180 مليون مسلم لا يزالون يعيشون في الهند بعد انفصال باكستان المسلم.

لا يستطيع أحدٌ أن يعيش في الفسيفساء الثقافيّة في الهند دون أن يكون لديه موقف روحيّ منفتح. مثل هذه السماحة الأساسيّة لم تكن على مدى قرون معروفة في أوروبا فريسة المنازعات. هناك قام أولاً تنازع بين المتسلّطين، ومنذ القرن التاسع عشر تنازع بين الشعوب حول السلطة. وأميركا استوطنها المهاجرون بحدّ البنادق، وطُرد الهنود من مستوطناتهم القديمة منذ آلاف السنين، ودُحروا في مجمّعات ضيقة. نحن جميعاً يمكننا أن نتعلّم الكثير من التعايش في الهند.

إنّ نظريّة السماحة في الهندوسيّة، تقوم على عدّة مبادئ:

ليست هناك عقائد إيمان وتعاليم دينيّة ملزمة للجميع. المهّمّ القاطع هي صفة الحياة الأخلاقيّة. لذلك لا معنى في نظر الهندوسيّ للمناقشات الدينيّة المعروفة في المسيحيّة والدين اليهوديّ والإسلام حول السؤال من هو على حقّ في تعاليمه.

الحياة المقبولة أخلاقياً تتوجّه بمقتضى فرائض أخلاقيّة معيّنة، وهذه تضمّ جميع الفرائض المُلزِمة: الاستقامة، وعدم التعديّ على أحد، وعدم السرقة، والنقاوة، وعدم الحسد، وعدم الكراهية، وضبط المشاعر. تُزاد إلى ذلك الفرائض التابعة للطبقة الخاصّة ولدرجة العُمر.

كلّ واحد هو صانع سعادته، وعليه أن يهتمّ هو نفسه بخلاصه. هذا يتعلّق بالكرّمان (قانون مجازاة الأعمال) وبالأفعال الشخصيّة.

كلّ إنسان يسير في دائرة تتألّف من ولادات عديدة، ويخلق بذلك هويّته الخاصّة بنفسه. فالشخصيّات المختلفة تسير في سُبُل مختلفة. وليس من واجبات الدين أن يخلّص كلّ فرد من الأفراد. فالخلاص يتأتّى للفرد عن سبيل حياته الصالح.

تنوّع الأديان أمرٌ واقع ولا ينتهي عملياً. ولا يمكن فهمه بواسطة عقل الإنسان المحدود. فالهندوسي يرى أنّ جميع الأديان طرق مختلفة للفهم الفردي والحياة الفردية. هذا يجب أن نقبل به، لا أن نحاربه.

يقول كريشنا في "نشيد بهاغافاد غيتا": "من يأتي إليّ عن أيّ طريق كان، فأنا أمدّ له يدي". لا يوجد في الهندوسية كتاب مقدّس واحد يحتوي على الفرائض، كما هو الحال عند اليهود والمسيحيين والمسلمين، بل هناك مجموعة شعائر حرّة. فعبادة الله في جميع الأديان تُعتبر متعادلة وإيجابية، لا نوعاً من التسابق. ولا يعدّ الهندوسي نفسه متفوّقاً دينياً. فالنزعة الأصولية والتعصّب غير واردة لديه عملياً.

لذلك لم يحصل في الهند أبداً اضطهاد للجماعة اليهودية الصغيرة القائمة هناك منذ ألفي سنة، والتي مُنحت في مملكة كوشين الهندوسية حتّى مقاطعةً يديرونها هم بأنفسهم. وعندما جاءت الديانتان الجديدتان، المسيحية والإسلام، إلى الهند، قوبلت هذه العقائد بلطف وسماحة على غرار سُبل جديدة للبلوغ إلى الكمال. فالهند كانت منذ ألفي سنة تمارس الحرية الدينية.

ولكن تهبّ هناك من وقت إلى آخر موجات من العنف من قبل أصوليين هندوسيين يهاجمون المسلمين والمسيحيين. هؤلاء لا يعبرون تعبيراً صحيحاً عن دينهم بل هم نتيجة سياسة بغض وطنيّة من قبل أقلية صغيرة.

إنّ الهندوسية تعدّ اليوم أكثر من 900 مليون عضو، خصوصاً في الهند وبنال وسري لانكا، وهي ثالث الأديان الكبرى في العالم.

قام الفيلسوف الهندي سوامي فيفكائنندا (1863-1902) بتمثيل الهندوسية في برلمان الأديان العالمي، الذي انعقد بمناسبة المعرض العالمي في شيكاغو (الولايات المتحدة الأمريكية) عام 1893. قال في خطابه: "إني فخور بأن أكون عضواً في دين لقن العالم السماحة والتقبّل العامّ. نحن لا نؤمن فقط بسماحة تمتدّ إلى العالم كلّه، بل نقبل أيضاً جميع الأديان ونعتبرها حقيقة. فالتعليم الرائع في كتاب "الفيتا" يقول: من يأتي إليّ عن أيّ طريق كان، فأنا أمدّ له يدي. جميع الناس يجاهدون في سبيلهم، الذي يؤدّي في النهاية إليّ". - لذلك كتب في إعلان إيمانه "أنّ جميع الناس يحقّ لهم الاحترام عينه".

إنَّ أوَّلَ رئيسِ هندي للوزراء، جواهرلال نهرو مدح في كتابه الصادر عام 1946 بعنوان "اكتشاف الهند" هذا المفكر الكبير: "فيفكأنندا كان متأسلاً في الماضي"، يفتخر بتراث الهند، ولكنّه كان أيضاً عصرياً في أسلوبه بمعالجة مشاكل الحياة، كان جسراً بين ماضي الهند وحاضرها".

إنَّ مؤسس الهند مهاتما غاندي روى أنَّه وسَّع إيمانه الهندوسيِّ بمحبته للأديان الأخرى كأنَّها أديانه الخاصَّة. فنظَّم اجتماعات صلاة مشتركة بين الأديان، استعملت فيها نصوص متَّخذة من كتب أديان مختلفة. فكان لا يعدُّ أي سبيل طريقاً مُفضَّلاً إلى الله. ينبغي لكلِّ واحد أن يظَلَّ دين أبائه وأمّهاته ويحاول أن يصير هندوسياً أو مسلماً أو مسيحياً أفضل. "لا يجدر بنا أن نحول هندوسياً إلى مسيحيِّ، ولا مسيحياً إلى مسلم، بل يجدر بنا أن يصير كلُّ واحد منَّا عضواً أفضل في دينه". هذا قاله في جماعة الأديان الدوليَّة في سَرماتي عام 1926.

كان يطالب باكتشاف التعاليم الحكميَّة من جديد، التي تناهض في كلِّ حين العنف والتنحية وتجنُّد العدل والاحترام. وفي عام 1919 حرَّض غاندي هندوسيِّ ومُسلمي الهند قائلاً: نشهد أمام الله، هندوسيِّين ومسلمين، أنا سنتصرَّف كأولادٍ أبوين مشتركين، وأن لا نفرِّق بين أحد، وأن تكون هموم أحدا هموم الآخرين، وأن نساعد بعضنا بعضاً. سوف نحترم دين الآخر وعواطفه وممارساته الدينيَّة. وستتجنَّب كلُّ عنف باسم الدين".

كان يعتبر "فرصاً دينياً لكلِّ إنسان مثقَّف أن يقرأ جميع الكتب المقدَّسة". فمن يسعى وراء السلام، عليه أوَّلاً أن يبدأ بذلك مع الأولاد.

كان غاندي يحتقر المتطرِّفين بأشكالهم كلِّها. في عام 1948 قُتل غاندي، تلك الشعلة الهنديَّة، شعلة السماحة، على يد إرهابيِّ هندوسيِّ متشدِّد، شكاه بأنَّه بحواره بين الأديان وسماحته التي يمارسها، يخون لبَّ الهندوسيَّة. ولكن شعلة السماحة لا تزال حيَّة في الهند.

سري رافي سَنكر هو معلِّم معروف للهندوسيَّة، يساند مشاريع اجتماعيَّة كثيرة بواسطة مؤسَّسته في سبيل الحياة. فهو يصف دينه "كأقدم دين على الأرض. نحن نعرف إلهاً واحداً بأسماء مختلفة، إله المحبَّة. فيجدر بنا أن ننتقي الخير في جميع الأديان. جهلنا للكتب المقدَّسة عند جيراننا يجلب لنا النزاعات. الله ليس مفهوماً غامضاً، هو اختبار القلب. في آسيا الشريقيَّة ستَّة أديان: الهندوسيَّة، البوذيَّة، السيخ، الجاينيَّة، الطاويَّة، الكنفوشيانيَّة. منها جميعاً تستطيع الأديان الغربيَّة أن تتعلَّم. هنا يختلف الدين الواحد عن الآخر، ولكنّه لم تقم بينها نزاعات شديدة".

الفصل الخامس البوذية والدالاي لاما اللين الجانب

قداسة الدالاي مدح الهند بلد إقامته في المنفى، عندما سألته عن السماح. "وجد عالم هناك قرية مسلمة عدد سكانها ألفا شخص، ومعهم فقط ثلاث عائلات هندوسية. فكان الواحد منهم يعامل الآخر بلطف، ولم يكن الهندوسيون خائفين. هذه هي الهند. لا شك أن هناك مشاكل من وقت إلى آخر. هذا أمر طبيعي. ولكن المهم هو الشعور بأنهم جميعًا إخوة وأخوات. عرفت الهند مدة أطول من ألف عام تناغمًا دينيًا. فلماذا لا يمكن أن يتحقق مثل هذا في مناطق أخرى من الأرض؟"

التقينا في فيسبادن / ألمانيا في شهر آب (أغسطس) 2011. فرييس التيباتيين الأكبر يتسم ويقابل كل أحد بانفتاح ولين. فهو يعيش السماح، ولا يكتفي بالدعوة إليها. ويذكرنا دومًا بمسؤوليتنا: "نحن بشر متماثلون ونقتسم أرضنا الزرقاء عيناها". لذلك علينا أن نقبل بوجود اختلافات بين الأديان والشعوب، وأن ننحّي جذور العنف وملاً الخندق الذي يفصل بين الفقير والغني.

عندما سألته كيف يمكن أن ندفع إلى الأمام شرائع السماح تجاه الأديان والأقليات الإثنية، أجاب: "إني أكرّر القول بأن المفهوم القائل بوجود حقيقة واحدة ودين واحد هو تناقض بحد ذاته. هذا مهم ومفيد بالنسبة إلى الأفراد عينهم. أما بالنسبة إلى وجود جماعات وأديان مختلفة وأكثر من سبعة مليارات نسمة فإن مفهوم وجود دين واحد حقيقي بعيد عن الصحة. في واقع الحياة لدينا أديان مختلفة، ولا توجد هناك حقيقة واحدة فقط. من المنظار الشخصي يتبين أن كل شيء حولنا له أهميته، وأن هناك أيضًا حقيقة واحدة. ولكن عندما ننظر إلى الناس الكثيرين على اختلافهم في القيم والاختبارات المتنوعة، لا يكون ما سبق وصفه مقنعًا. فإنها توجد دومًا حقائق وأديان كثيرة. وهذا حسن."

إن قداسته ينصح للوصول إلى تفاهيم أفضل وتطوير لمزيد من السماح، بممارسة أشد للعلاقات البشرية مع الثقافات والأديان الأخرى، فينمو التعارف والتقدير المتبادل في القرية الشاملة. من هنا ينشأ تفهم أعمق واحترام متبادل. كل واحد ينبغي له أن يتعلم من الأديان

الأخرى، من المسيحيين والمسلمين واليهود والهندوسيين والبوذيين. "فمعرفة عميقة للقيم هي أساس الاحترام المتبادل. نحن البوذيين نسعى دائماً إلى أن نعرف أكثر عن الاحترام المتبادل وممارسة السماحة والعطف. بعض الأصدقاء المسيحيين أدخلوا هذا في دينهم. بذلك تطوّر معاً صداقة إخوة وأخوات على الأرض". هذا ما صرّح به الدلاي لاما أثناء الحديث.

الرّفق والصفح والانشراح وتهذيب النفس والصدق: هذه قيم مشتركة بين جميع الأديان. فعندما يتحدّث الناس بعضهم مع بعض ويتكلّمون عن اختباراتهم، ينشأ بينهم الانشراح وتهذيب النفس والرّفق، وبذلك أيضاً وبشكل عفويّ السماحة والصفح.

من المؤثّر أنّ الدلاي لاما لا يبغى كسب أحد ليعتنق البوذية. فلا يبشّر، بل يؤيّد مدّة حياته كلّها أساساً عريضاً للقيم المشتركة بين جميع الأديان، وللشعور الإنسانيّ العامّ، وإلى ذلك للمعاملة الأدبيّة الواضحة لكلّ إنسان. بهذا هو "بطل السماحة" الشامل، لا فقط ممثّل للثبّت ووطنه.

هو يرى "أنّ جميع الأديان تحمل في حناياها البشارة عينها: المحبّة والرحمة والصفح. هذه الفضائل الثلاث ينبغي أن تكون جزءاً من حياتنا اليوميّة. لا نستطيع أن نقول إنّ جميع الأديان متساوية. فالأديان المختلفة لها أيضاً آراء مختلفة. ولكن ليس هذا هو الأمر الجازم. إنّ إنّها جميعاً تريد أن تُصلح العالم وتزيد سعادة البشر. فبواسطة شروحات فلسفيّة ومبادئ فكريّة وعقائديّة مختلفة تسعى الأديان كلّها إلى البلوغ إلى الهدف عينه".

السلوك الأخلاقيّ يعني في نظره أن لا يُعاق الإنسان في التماسه الفرديّ الحرّيّة والسعادة والفرح، بل أنّ يُدعم في ذلك، على أن لا يحقّ له بدوره في ملاحقة هذه الأهداف أن يعطلّ جهود جاره. "نستطيع أن نبني عالماً أفضل، إن قام كلّ واحد بفهم واستعمال طاقاته الخاصّة وثقته بمواهبه".

إنّ حكمة الدلاي لاما حول التصرف في الحياة ورؤيته عن تعايش مليء بالاحترام قد لخصّها في المبادئ التالية التي يبشّر بها تكراراً في تعابير مختلفة:

السعادة تتأتّى من المزايا الروحيّة كالمحبّة والتسامح، التي تزيد سعادتنا. كن متأدّباً إن استطعت، وإنك لتستطيع ذلك دوماً. لا تحلّ السعادة من قبيل ذاتها وحدها، بل يجب جلبها بالأعمال. الاستعداد الباطن الصالح مهمّ جدّاً. والقلب الخيّر قدر الإمكان. من هنا تنتج السعادة والانشراح لك وللآخرين. المحبّة والإحساس ليسا من أسباب الزينة فقط، بل هما من باب الضرورة. فبدونهما لا تستطيع البشريّة أن تعيش. ساعد الآخرين في الحياة اليوميّة، إن استطعت. وإن لم تستطع فتجنّب على الأقلّ أن تلحق بهم الأذى. إن عزمت على أن تجعل

شخصاً آخر سعيداً، فتصرّف بإحساس، وإن أردت أن تكون أنت سعيداً، فمارس أيضاً الإحساس. "علينا اليوم أن نمارس مسؤوليّة عالميّة، ليس فقط بين شعب وشعب، بل بين إنسان وإنسان، وننتقل من الإنسان إلى سائر أشكال الحياة"، هذا ما دعا إليه.

بالنسبة إلى نقطة واحدة يدعو الدلاي لاما إلى ممارسة البساطة في الإيمان: "ديني بسيط جداً. ديني هو التأدّب، وفلسفتي هي التأدّب. لا نحتاج إلى هيكل، ولا إلى فلسفات معقّدة. فإن فهمنا وقلبنا هما هيكلنا".

عندما صادفتُ الدلاي لاما عام 2006 لأول مرّة في بوينوس آيرس، ذكر لي أنّ هذا الموقف يجب أن يتخذ حتى تجاه الأعداء: "يجب علينا أن نحافظ في كلّ حالة على السلام في فكرنا". وروى عن راهب تيباتي "قضى 18 عاماً مُعتقلاً في سجن صينيّ مع 3 آلاف راهب سواه، بعد أن استولت الجمهورية الشعبيّة الصينيّة على بلده عام 1958. فلم يكن يعتبر الحبس أمرّ الشدائد، بل خوفه من أن يفقد صبره تجاه الحراس الصينيين. "فممارسة السماح يقوم فيها عدوك بدور أفضل المعلمين". إنّ بودا قال في تعليمه: "من يسيء معاملة المذنب، هو أكثر الاثنين ضرراً".

ليس الدلاي لاما هو رمز الإيمان، بل التعليم البوذيّ نفسه الذي يحيا في كلّ من يكون مقتنعاً به.

في الهند سرتُ على آثار بودا وزرتُ المقام الشهير دهامكا قرب فارانازي أقدم مدن الهندوسيين في قرب نهر الغانج. قادي إلى هناك غيشه لهاكدور، مدير المكتبة في دهارماسالا، مركز الحكومة التيباتيّة في المهجر. شرح لي خلاصة البوذيّة. كان بودا يهتمّ بصحة جميع الخلائق وتعليمه يقوم بتقبّلها. فالفوارق في العرق أو الدين تتراجع قيمتها مقابل هذه الوظيفة ولا تعود لها أهميّة. في الأصل نحن البشر كلّنا متساوون. فعندما نولد لا يكون لنا بعدُ دين، بل حاجة إلى محبة وعناية. لذلك يجدر بنا في عمرنا المكتمل أن نبحت عنهما ونمارس التسامح والاحترام المتبادلين.

دخلنا معاً هيكل ماهوبودي في المدينة المقدّسة بود غايا في أقصى شمالي الهند على مقربة من حدود نيبال. هو واحد من أربعة أماكن مقدّسة، تذكّر بحياة بودا. هناك في ذلك الموضع تعلّم التأمّل ونال في القرن السادس قبل المسيح الاستنارة.

كان أميراً متنعمًا، ثمّ عندما بلغ عمره 25 عامًا غادر قصره الأمين وتعلّم في الخارج أن يعرف معاناة البشر البسطاء. نتجت معاناتهم من عدم الحصول على أمانهم. فاستنتج أنّه عندما يقلل

المرء من عدد أمانيه تصغر معاناته. ثمّ تعلّم أنّ الطرفين المتقابلين: الغنى والفقر، لا يُسعدان أيّ إنسان، بل سلوك "الطريق المتوسّط". وهذا الطريق يمكن على أفضل حال أن يتلقّنه المرّيد بالتفكير والاستراحة بواسطة التأمل. بهذا يصير كلّ واحد تدريجيّاً إنساناً أفضل وأكثر سعادة. من هذا ألف بوذا تعاليمه. فصار عنده، كما لم يحدث في أي دين آخر، اعتبار السماحة والاحترام قيمة مركزية في العقيدة البوذية التي يتبعها الآن 350 مليون شخص.

كان بوذا يعلم في القرن السادس قبل المسيح: "من يتأمل في شجر أو عشب، يكتشف أنّ هناك منها أجناساً كثيرة جدّاً. هذا يصحّ أيضاً في الفراش والحشرات والسمك والطيور. فإن تأملت بالبشر، لا أجد أنّ هناك أنواعاً كثيرة منهم. في الواقع يشبه بعضهم البعض الآخر مع ما هناك من فوارق طفيفة. وأكثر الفوارق عند البشر تتعلّق بالأخلاق والعادات"¹⁶⁷.

كان بوذا يطلب أن يُحكم في الناس حسب أفعالهم. يجب أن نعلّمهم أهميّة الصبر والسماحة وتجنّب العنف. أمّا فكرة التقمّص وعودة الولادة فتخفّف من حدّة التفكير في الإنسان وتهدّئ من عزم ضروة إكراه الناس على الارتداد إكراهاً متعصّباً. فمن لم يصلح مسلكه في هذه الحياة، قد يستطيع أن ينجح في ذلك في حلقة الحياة اللاحقة. فليس هناك مقام نهائيّ في السماء أو في الجحيم، بل لا نهاية روحية عالميّة للإنسان.

في التركيبة المركزية لمفهوم "الطريق المتوسّط" يحدث تخفيف من كلّ أنواع التطرّف. فالتساهل والاستراحة أمران مهمّان. الحقائق تكون نسبية وعديدة، والفوارق تُقبل كأمر واقع¹⁶⁸.

في النظرة البوذية ينشأ التسامح والاحترام من المعاملة الأدبية والإنسانية من قبل جميع الناس على قدر الإمكان، ومن القبول بالاختلاف في الحياة والمعتقد، ومن التخلّي عن إقناع رسوليّ وإكراه على اتّخاذ ممارسات وتحريمات دينية. مثل هذا الموقف يمكن التمرّن عليه وتقويته بواسطة التأمل.

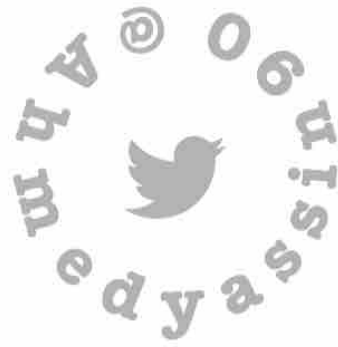
¹⁶⁷. في مجموعة Majjhima Nikaya.

¹⁶⁸. راجع:

القسم الثاني

ميثاق الأمم المتحدة وسنة السّاحة

في صيف عام 1945 كان العالم قابلاً على أنقاضه. كان خمسون مليون شخص قد فقدوا حياتهم في مكافحة هتلر والنازيين في أوروبا والتجبر المتسلط من جهة القيادة اليابانية. كلتا الحكومتين كانت تسمّهما قساوة بلا رحمة تجاه شعوبها الخاصة كما تجاه الأعراق الأخرى والأقليات الإثنية. فاليابانيون أخضعوا بلا هوادة كوريا والصين. والإعدام الجماعي كما في معامل الموت ضدّ ستة ملايين يهودي في معسكرات النازيين، لا لسبب إلا لأنهم يعتقدون ديناً آخر، كان أعمق هوة من قبل ما عُرف من شغف الإعدام، وتشجيعاً بالفكر. فالنازيون لم يكونوا قد نسوا الله فحسب، فإنهم كانوا يبغضونه هو والكنيسة، لأنهم كانوا يريدون أن يكونوا هم موضوع العبادة. والوطنيون اليابانيون اعتبروا أنفسهم عرق سلاطين آسيا. وكانوا يحتقرون بكبر الطريق الوسط الذي تدعمه البوذية والشتوية. فكان دينهم الكاميكا، أي الانصباب على التهلكة. وأعداؤهم، وهم توتاليتاريون مثلهم، الصينيون تحت سلطة ماوو والروس بقيادة ستالين، كانوا هم يفكّرون تفكيراً عدّميّاً، لا رحمة فيه ولا سماحة تجاه الآخرين. فمن التوتاليتارية والعدمية وإيديولوجيَّاهما الوطنيّة والشيوعيّة والنازية لا ينمو تسامح واحترام تجاه الأديان والأقليات الإثنية. هي مجرد أديان سياسيّة تعزّز عدم التسامح المتواصل والمشوّه.



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل الأوّل

ميثاق الأمم المتّحدة أساس نظام السّماحة العالميّ

اجتمع في مدينة سان فرنسييسكو في الولايات المتّحدة الأميركيّة ممثلو خمسين دولة وحاولوا أن يبنوا على أنقاض الحرب العالميّة أساسًا جديدًا لعالم يسود فيه السلام والتسامح. فقرّروا في 26 حزيران (يونيو) 1945 ميثاق الأمم المتّحدة. فصار هذا لنا جميعًا دستور السلام والتسامح، الذي انضمت إليه حتّى الآن 192 دولة.

"نحن شعوب الأمم المتّحدة إذ نحن عازمون على تجنب الأجيال المقبلة جَلَدات الحرب التي جلبت مرّتين في مدّة حياتنا على بلادنا ألمًا لا يوصف، وأن نقوّي من جديد إيماننا بحقوق الإنسان الأساسيّة، وبكرامة وقيمة الشخصيّة البشريّة، وبالمساواة بين الرجل والمرأة، وبين جميع الشعوب كبارًا أو صغارًا، وأن نخلق الشروط الكافية للحفاظ على العدالة واحترام الواجبات الناجمة من معاهدات أو مصادر أخرى التابعة لحقّ الشعوب، وأن نعزّز التقدّم الاجتماعيّ ومستوى معيشة أفضل في حرّية أوسع، ونمارس في سبيل هذه الأغراض السّماحة ونعيش معًا بسلام كجيران صالحين، وأن نوحّد قوانا للحفاظ على السلام العالميّ والأمان الدوليّ، ونقبل مبادئ ونُدخل طرائق لنضمن أن لا يُلجأ إلى عنف السلاح لحماية المصلحة المشتركة، وأن نلجأ إلى مؤسّسات دوليّة لتعزيز تقدّم الشعوب الاقتصاديّ والاجتماعيّ. قرّرنّا أن نتعاون في جهودنا لتحقيق هذه الأهداف".

من هنا انطلقت سفينة العالم في الاتجاه الصحيح، تقودها البلاد الديمقراطيّة، ويلاحقها بعيون مرتكبة المتسلّطون التوتالتاريون في البلاد الشيوعيّة في موسكو وبكين، ومن الدكتاتوريين الصغار الكثيرين في الكرة الأرضيّة. كان ذلك إعلان حرب على تجرّ الدولة، واعترافًا لصالح مفهوم الحرّية والديموقراطيّة. فبإيحاء من قِبَل زوجة رئيس الدولة السيّدة إليانور روزفلت وبدافع شديد من جرّاء أهوال الحرب العالميّة الثانية، أقرّت الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة في 10 كانون الأوّل (ديسمبر) عام 1948 "التصريح العامّ حول حقوق الإنسان"، جاء فيه تحديد أدقّ لاحترام كرامة الإنسان التي لا تُنزع منه، ووُضعت فيه الدولة بخدمة الإنسان، لا الإنسان - كما هو الواقع في الأنظمة التوتالتاريّة - تحت هراوة المقتدرين.

جاء في مقدّمة التصريح ما يلي:

هما أنّ الاعتراف بالكرامة الطبيعيّة وبحقوق المتساوية التي لا تُنتزَع لدى جميع أعضاء الجماعة البشريّة هو أساس الحريّة والعدل والسلام في العالم،

وهما أنّ عدم الاعتراف والإجحاف بحقوق الإنسان يقودان إلى أفعال بربريّة تملأ ضمير الناس تكرُّهًا، وهما أنّه قد نُوه بأنّ عالمًا فيه ينعم البشر بحريّة الكلام والإيمان وبالتخلّص من الخوف والضيقة يُعدّ أرفع مرمى للإنسان،

وهما أنّه من الضروريّ حماية حقوق الإنسان بواسطة سيادة القانون، لكي لا يُكره الإنسان على اللجوء إلى أقصى الوسائل للقيام ضدّ الطغيان والكبت،

وهما أنّه من الضروريّ تعزيز تطوير علاقات صداقة بين الشعوب،

وهما أنّ شعوب الأمم المتّحدة شدّدت مجدّدًا على كرامة وقيمة الشخص البشريّ وعلى تساوي الحقوق بين الرجل والمرأة، وقرّرت أنّ تعزّز التقدّم الاجتماعيّ وإقامة شروط حياة أفضل في حريّة أوسع،

وهما أنّ الدول الأعضاء قد تعهّدت، بالتعاون مع الأمم المتّحدة، بأنّ تساند الاحترام العالم والممارسة لحقوق الإنسان والحريّات الأساسيّة،

وهما أنّ فهمًا مشتركًا لهذه الحقوق والحريّات له أهميّة كبرى للوفاء التامّ بهذا التعهّد،

تعلن الجمعيّة العامّة أنّ هذا التصريح العامّ حول حقوق الإنسان يعبر عن المثال المشترك التي على جميع الشعوب والأمم أن يبلغوا إليه، لكي يتنبّه كلّ فرد وجميع مرافق المجتمع دومًا لهذا التصريح ويسعوا بواسطة التثقيف والتربية أن يعزّزوا احترام هذه الحقوق والحريّات، ويضمنوا بوسائل مطّردة وطنيّة ودوليّة الاعتراف العامّ والحقيقيّ بها وممارستها من قِبل شعوب الأمم الأعضاء، كما من قِبل المناطق الخاضعة لسلطتها".

في البنود الأولى تمّ توضيح حقوق الإنسان الأساسيّة:

بند 1: "جميع الناس وُلدوا أحرارًا متعادلين بالكرامة والحقوق لهم موهبة الفهم والضمير، وعليهم أن يلتقوا بعضهم ببعض بروح الأخوة".

بند 2: "كل شخص له أن يطالب بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا التصريح دون أي فرق ينجم عن العرق ولون البشرة، والجنس واللغة، والدين، والرأي السياسي أو سواه، والمنشأ الوطني أو الاجتماعي، والملك، والولادة وما سواها من المراتب. ثم إنه لا يجوز التفريق على أساس المنصب السياسي أو القانوني أو الدولي العائد إلى البلد أو المقاطعة التي ينتمي إليها الشخص، أكانت هذه مستقلة أم تخضع لإدارة غريبة، أكانت لها حكومة خاصة أم كان استقلالها محصوراً".

بند 3: "كل إنسان له الحق بالحياة والحرية وأمان شخصه".

كان ذلك مثالياً بشكل كبير ومنطقاً جيداً. جاءت التعابير واضحة جليّة. من هنا كان من الممكن أن تصير الأمم المتحدة موطن الحرية وحقوق الإنسان، ومشعلاً للحرية. ولكن تمّ أيضًا قبول بلدان في مجمع حقوق الإنسان، لم تكن مستعدة لممارستها. فتحوّل التصريح في بلاد الأعضاء الدكتاتورية إلى قشرة لا لب فيها وإلى مهزلة في سياسات السلطة. فالعضو المؤسس الاتحاد السوفياتي في حكم يوسف ستالين والجمهورية الشعبية في الصين التي استلمت عام 1971 مجلس الجمهورية الديمقراطية الصينية (تاوان)، صارا عضوين دائمين في مجلس الأمن للأمم المتحدة مع حقّ الفيتو. فاستطاع البلدان اللتان تحكمهما دكتاتورية شيوعية أن يعطّلا كل قرار كان يخدم تنفيذ تصريح الأمم المتحدة، ولا يخدم مصالحهما. وتمكّنت دولة صربيا من عام 1991 إلى 1999، من العودة إلى قتل مسلمين في البوسنة، لأنّ موسكو كانت قد مدّت يدها لحماية الدكتاتور ميلسفتش. فاضطرّ الاتحاد الأوربي في النهاية، عام 1999 وذلك بدون تكليف من الأمم المتحدة، أن يضع حدّاً للعنف العسكري. ففي الأحوال التي كان يجب على مجموعة الأمم أن تتدخل بسبب خرق عريض لحقوق الإنسان، كان يأتي رفض متتابع. هذا كان الخطأ الحاسم. فالأمم المتحدة قلعت بنفسها قدرتها على التدخل السياسي، وتحوّلت إلى لعبة لتأمين مصالح الحكومات الكبيرة. فقدت هالتها وكثيراً من مصداقيتها.

بالرغم من الغم والغضب واليأس حول انعدام الأفعال الناجمة، يلبث تصريح الأمم المتحدة مرآة يخشاها الظالمون الصغار والكبار. فإنهم يخسأون مقابل هذا التصريح. وتبدو معالمهم البشعة. فهو شوكة في بدن الشر، وعلامة توجّه للعوامل الديمقراطية في البلد، ومشعل الأمل. هذا اتّضح بنوع خاص في التغيرات التي حصلت في أوروبا الشرقية.

جاءت بعد ذلك اتفاقيات دولية أخرى تطالب بالاحترام تجاه البشر. ففي 19 كانون الأول (ديسمبر) عام 1966 أُقرّت "المعاهدة الدولية حول الحقوق المدنية والسياسية" من قِبَل الأمم المتحدة. ففرضت 167 بلداً على نفسها حماية واسعة لمواطنيها.

وحتى الدكتاتورية الحديدية في ألمانيا الشرقية نشرت في صحيفتها القانونية معاهدة ضمان الحماية هذه من قِبَل الأمم المتحدة. وبعد التحوّل السياسي كان الممكن بالنظر إلى هذه الفرائض القانونية في ألمانيا الشرقية أن يُحاكَم أمام القضاء سياسيو الدولة الشيوعية وأعضاء الجيش الشعبي ويُحاكَم عليهم. فهناك العَجَب: ألمانيا الشيوعية تعترف بحقوق الإنسان وتلتزم باحترامها دولياً وسياسياً التزاماً قاطعاً وتسحر لنفسها جنة رائعة، وهي في الواقع العملي لا تسير وفقاً لهذه القواعد. وحتى لا تحاول أن تفسح للناس مجالاً أوسع لحرّياتهم. فهذا الجهل والتعجرف من قِبَل السلطة تحوّلًا بالنسبة إليها إلى هاوية. فالدكتاتورية هذه تحجّرت وانفجرت أخيراً من الداخل عام 1989، لأنّ الناس طالبوا الآن بما وعدتهم به الدولة الشيوعية في قوانينها. كانت القيادة قد التزمت بوثيقة الأمم المتحدة وبقرارات الندوة الأوربية الختامية في هلسنكي، ولكنها تجاهلتها. بذلك فقدت قدرتها على التحسين والمرونة ومصادقيتها في عيون مواطنيها وعيون العالم الخارجي. فهي تنادي بالتقدّم على مسرح الأمم المتحدة والندوة الأوربية كمن يلعب تمثيلية. هذه كانت مأساة ضياع الإنسانية في ألمانيا الشرقية.

إنّ وثيقة الأمم المتحدة المُتَقَنَة السُّبُك تذكر في مقدّمتها بكرامة الإنسان وبالقوق التي لا تُنزع "التي تكوّن أساس الحرية والعدالة والسلام في العالم". وهي تذكر "مثل البشر الأحرار الذين ينعمون بالحرّيات المدنية والسياسية". فالدولة وفقاً لميثاق الأمم المتحدة ملتزمة "بتعزيز الاحترام والحماية لحقوق الإنسان وحرّياته".

في البند 2 (1) تلتزم كلّ دولة مشتركة وفقاً لهذه المعاهدة أن توفّر لجميع البشر بغضّ النظر عن العرق ولون البشرة والافتناع السياسي أو سواه، والمنشأ الوطني أو الاجتماعي، والملك والولادة وما سواها من الأمور، أن توفّر لهم الحقوق المعترف بها في هذا الميثاق وأن تحترم هذه الحقوق.

وفي البند 1 (2)، (3) تلتزم الدول بإدخال هذه الحقوق في القوانين الوطنية وبتأمين حماية قانونية فعّالة لذلك. ولا يجوز حصرها إلا من باب الضرورة العامة. ولكن لا يجوز أن تخالف قواعد الحقّ الدولي ولا أن تحتوي على تضييق ناتج فقط من اعتبار العرق ولون البشرة والجنس واللغة والدين والمنشأ الاجتماعي (بند 4).

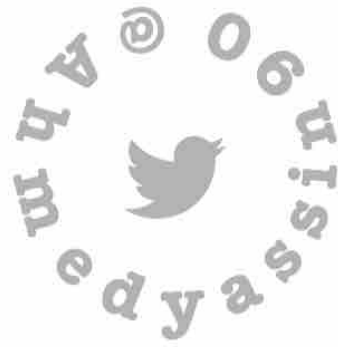
والبند 9 يفرض أن "كل إنسان له حق في الحرية". والبند 12(2) يقول: "كل شخص حرّ بأن يغادر كل بلد، حتى بلده الخاص".

البند 18 يشدّد على حرية الدين: "كل إنسان يحقّ له أن ينعم بحرية الفكر والضمير والدين. هذا الحقّ يضمّ حرية اعتناق دين أو نظرة إلى العالم وفقاً لاختياره، أو حرية تقبلها، وحرية ممارسة دينية أو نظرية وحدة أو جماعة آخرين، وذلك علناً أو على انفراد، بالاحتفال الدينيّ والاتباع والممارسة والتعليم". وتتعهّد أعضاء هذا الاتفاق أن تحترم حرية الوالدين، وحرية الوكيل في بعض الأحوال، في أن يوفّروا لأولادهم التربية الدينية والأخلاقية وفقاً لقناعاتهم الخاصّة.

البند 19: كل إنسان له الحقّ في أن يعبر دون ممانعة عن رأيه. كل إنسان له الحقّ أن يبدي رأيه بحرية. هذا الحقّ يحتوي على حرية البحث عن معلومات وأفكار من أي نوع كان ومن وراء الحدود، وذلك شفويّاً أو كتابةً أو طباعة، وبشكل أعمال فنية أو بأيّ وسيلة أخرى يختارها، وعلى حرية تقبل ذلك والإدلاء به".

البند 26: "جميع الناس متساوون أمام القانون، ولهم الحقّ بدون أي إجحاف في الحصول على الحماية عينها من جهة القانون. والقانون يحظر في هذا الشأن كل إجحاف ويضمن لجميع البشر الحماية المماثلة والفعّالة ضدّ أيّ إجحاف يحصل على أساس العرق ولون البشرة والجنس واللغة والدين والقناعات السياسيّة أو سواها، والمنشأ الوطنيّ أو الاجتماعيّ، والملك والولادة وما سوى ذلك من الظروف".

البند 27: "في الدول التي توجد فيها أقليّات إثنية أو دينية أو لغوية، لا يجوز أن تُرَفَض للأشخاص المنتمين إلى هذه الأقليّات إمكانيّة تذوّق ثقافتهم الخاصّة في شراكة مع أعضاء جماعتهم، أو الاعتراف بدينهم الخاصّ وممارسته أو استعمال لغتهم الخاصّة".



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل الثاني

تصريح اليونسكو حول السماح عام 1995

في وثيقة موثقة جدًا وضّحت الأمم المتحدة معايير السماح في الجماعة العالميّة في: "تصريح اليونسكو حول مبادئ السماح"، بتاريخ 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1995. فكان هذا نجمًا ساطعًا في سماء البشريّة. في المقدمة وصفت الأمم المتحدة السماح بأنّها شرط ضروري للسلام ولتطوّر الشعوب.

البند 1: يحدّد ما يلي: "السماحة تعني الاحترام والتقبّل والاعتراف تجاه ثقافات عالميّة وأشكال تعبيرنا وممارستنا لوجودنا البشريّ بكلّ غناه وتعدّده. ويحصل تعزيزها بالعلم والانفتاح والتواصل، وبحريّة الفكر ومقرّرات الضمير والإيمان. السماح توافق من وراء الفوارق. ليست هي مجرد فرض أخلاقيّ بل هي أيضًا ضرورة سياسيّة وقانونيّة. السماح فضيلة تمكّن من الحصول على السلام، وتساهم في التغلّب على ممارسة العنف بواسطة ثقافة السلام."

لكنّ السماح لا تعني التراجع والاستكبار أو غضّ الطّرف. السماح هي قبل كلّ شيء استعداد فاعل يستند إلى الاعتراف بحقوق الإنسان العامّة وبحريّات الآخر الأساسيّة. فيجب أن تُمارس السماح من قبل الأفراد والجماعات والدول (1: 2).

"السماحة هي حجر الزاوية الذي يربط ما بين حقوق الإنسان والتعدّد (وأيضًا التعدّد الثقافيّ)، والديموقراطيّة ودولة القانون. وهي تحتوي على إقصاء كلّ تشبّث بفكرة أو سلطة، وتشدّد على القواعد المذكورة في الوثائق الدوليّة حول حقوق الإنسان" (1: 3).

"وبالاتّفاق مع احترام حقوق الإنسان لا تعني السماح الممارسة تحمّل الإجحاف الاجتماعيّ ولا الإعراض عن القناعات الشخصية أو إضعافها. هي بالنسبة إلى كلّ فرد حريّة اختيار قناعاته، وفي الوقت نفسه الاعتراف بالحريّة عينها لدى الآخرين. السماح تعني الاعتراف بالواقع القائل بأنّ جميع الناس، طبعًا مع جميع الفوارق في المظهر والوضع واللغة وأشكال التصرف والقيّم، يحقّ لهم أن يعيشوا بسلام ويلبثوا على حالهم. ومن ذلك أنّه لا يجوز لأحد إكراه الآخرين على تبني آرائه" (1: 4).

البند 2 يقول في عرضِ ناصع ما يلي:

"على صعيد نشاط الدولة تفرض السماح العدل وعدم التحيز في القانون وفي تنفيذ القوانين، وفي القضاء والإدارة، وهي تطالب أيضًا بأن يحظى كلُّ فرد بالحظوظ الاجتماعيّة والاقتصاديّة بدون تمييز. فإنّ الإقصاء والتأخّر قد يُنتجان الفشل والعداوة والتعصّب" (2: 1).
"من المهمّ جدًّا بالنسبة إلى العيش المشترك الدوليّ المتناغم أن يعترف الأفراد والجماعات والأمم بصفة البشريّة المتعدّدة الثقافات ويحترمونها. بدون سماحة لا يستقرّ سلام، وبدون سلام لا توجد ديموقراطية ولا تطوّر" (2: 3).

وفقًا للمقطع الرابع من البند 2 يظهر عدم السماح بشكل دَحْر الجماعات التي لا حماية لها، وإقصائها من الاشتراك الاجتماعيّ والسياسيّ، يصحبه العنف والإقصاء. فوفقًا لمقرّرات التصريح حول الأعراق والأحكام المسبقة ضدّ الأعراق، "يحقّ لجميع الأشخاص والجماعات أن تختلف عن الآخرين" (تصريح اليونسكو في 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 1978، البند 1: 2).

البند 3: يشير إلى الدنيا المُعوّمة: "في عالمنا الحاضر للسماحة أهميّة أكبر ممّا كانت عليه سابقًا. فالحقبة هذه من علامتها عوامة الاقتصاد، والتحرّك المتنامي بسرعة، والاتّصال والضمّ وعلائم التعلّق المتبادل، وحركات التحوّل الضخمة، وتهجير سكّان بلدٍ بكاملهم، وموؤ المدنيّة، وتغيّر الأصناف الاجتماعيّة. ومما أنّ كلّ جزء من العالم يحمل سمة التعدّد، يهدّد عدم التسامح والمشاجرة تهديدًا ممكّنًا كلّ منطقة. فهما لا ينحصران في بلادٍ فرديّة، بل يكوّنان خطرًا شاملًا".

السماحة ضروريّة في علاقات الأفراد بعضهم ببعض مثلًا في الأسرة والمجتمع. السماحة والانفتاح والقدرة على الاستماع والتضامن يجب أن تُلقّن في المدارس والجامعات، كما في الوسائل غير المرتبطة بالمدرسة، مثلًا في المنزل وفي مكان العمل. ووسائل الإعلام تستطيع أن تقوم هنا بدورٍ بناء، بإيجاد مجالات للحوار والنقاش الحرّين المنفتحين، ونشر قيم السماحة، والإشارة إلى أخطاء عدم الاكتراث تجاه توسّع فِرَق وإيديولوجيّات غير متسامحة (3: 2).

بند 4: 1: التنشئة هي أنجح علاج ضدّ عدم السماحة. فالتربية على التسامح هي من أهمّ أهداف التنشئة. لذلك من الضروريّ بالنسبة إلى التعليم حول موضوع السماحة أن تُنشر طرق تعليم منتظمة وعقليّة، توضح جذور عدم التسامح الثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والدينيّة، وبذلك تكشف عن الأسباب الأعمق للعنف والإقصاء. فسياسة التربية ومخطّطات التدريس عليها أن تقوم بمساهمة في نشر التفاهم والتضامن والسماحة بين الأفراد، كما بين الفِرَق الإثنيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والدينيّة واللغويّة، وبين الشعوب.

إنَّ التربية على السّماحة يجب أن تحاول منع قيام تخوّف من الآخرين وممّا يتبع من الميل إلى إقصائهم. فعليها أن تساعد الشّببية على تحصيل إمكانيّتهم على التّقييم المستقلّ، والتّفكير الناقد والقدرة على الحكم الأخلاقيّ (4: 3).

ويجدر الاهتمام بنوع خاصّ بتحسين تثقيف المعلّمين، وبرامج التّعليم، ومواضيع التّدريس وكُتّب التّعليم والوسائل الأخرى بما فيه أساليب التّدريس. الهدف هو تربية مواطنين يمارسون تفكيرًا متضامناً مسؤولاً، ويكونون منفتحين تجاه ثقافات أخرى تقدّر قيمة الحرّيّة، وتحترم كرامة الإنسان كما تحترم الفوارق السائدة بين الناس. وتكون قادرة على تجنّب النزاعات أو حلّها بدون عنف (4: 4).

البند 5: "نفرض على أنفسنا دعم السّماحة وعدم اللجوء إلى العنف ببرامج ومؤسسات مختلفة في نطاق التثقيف والعلم والثقافة والاتّصال." والبند 16 يعلن السادس عشر من تشرين الثاني "يوم السّماحة" العالميّ.

تصريح الأمم المتّحدة لا يصف السّماحة فقط بأنّها فريضة أخلاقيّة، بل أساس الدّول في سبيل السلام. هي كالشحم الذي يسهّل التعايش الصالح داخل وخارج المؤسسات الحكوميّة. فحيث لا تمارس سّماحة تجاه الأقليّات والأديان الأخرى، تكون هناك تصدّعات في كيان الدولة، تهدّد أيضًا استقرارها الداخليّ. من هنا يتّضح أنّ مفهوم السّماحة لدى الأمم المتّحدة يخالف كلّ حُكم توتاليتاريّ، يسود فيه دكتاتور وإيديولوجيا ودين سياسيّ، وبدل التعدّد مرُقّ موحد، وبدل الحرّيّة الكبت.

فالتسامح هو في نظر الأمم المتّحدة أساس الديموقراطيّة وحقوق الإنسان. وعدم التسامح في المجتمعات المتعدّدة الأساليب العمليّة والدينيّة والثقافيّة يقود آليًا إلى الإجحاف بحقوق الإنسان وإلى العنف والصراعات المسلّحة.

فالسّماحة تحتاج إلى حماية وتجهيز حقوقيّ بواسطة القوانين، التي تحمي أيضًا الأديان والأقليّات الأخرى.

والسّماحة بحاجة إلى تهذيب عميق يعتبر الآخر في غيريّته غنّي، لا خطرًا ممكنًا.

فيجب أن تحظى بحماية وسائل الإعلام التي تصل إلى عند الناس.

علينا أن نقوم بملايين كثيرة من الخطوات العمليّة في قرّانا العالميّة الكثيرة. السّماحة تنمو من تحت بأفعال جذريّة لا تُحصى في العالم كلّ، تنمو كزهرة شمسيّة.

بعد العمليّات الانتحاريّة التي ارتكبت في 11 أيلول (سبتمبر) 2001 زادت الأمم المتّحدة على قراراتها 52/53 بتاريخ 4 تشرين الثاني (نوفمبر) 1998 و113/54 بتاريخ 10 كانون الأوّل (ديسمبر) 2000، بمناسبة "عام الأمم المتّحدة في سبيل حوار الثقافات"، قراراً جديداً بتاريخ 24 أيلول (أغسطس) 2001، جاء فيه أنّ الحوار بين الثقافات عليه أن يطور قيماً أصيلة (بند 1)، ويعزّز السّماحة في العلاقات بين الناس والاحترام المتبادل، ويطور ميازين أخلاقيّة مشتركة وقيماً إنسانيّة شاملة (بند 2). فينبغي أن يتمّ الاعتراف بالتعدّد والرغبة فيه (بند 3). وقد عيّنت حكومات كثيرة ممثّلين خصوصيين لهذا "الحوار بين الأديان"، وهم يقومون بنشاط ممتاز.

الفصل الثالث

مبادئ في سبيل قوانين إسلامية حديثة

في السنوات التي تمتد بين 1945 و1995 ساد اتفاق عريض من قبل الدول الغربية بالنسبة إلى حقوق الإنسان وأشكال المطالبة بالسماحة والاحترام تجاه الأديان والأعراق والأقليات الإثنية، بأن هذه يجب اعتبارها شاملة وواسعة دون تضييق من جهة القوانين الوطنية. وبعد ذلك تكاثرت المحاولات في تخفيض إلزامية تنظيمات الأمم المتحدة هذه التي تنصب الإنسان في نقطة الوسط، وذلك لتصورات سياسية ودينية، وفي إخضاعها لقواعد دينية وقانونية. فيكون من ثم متاحاً فقط ما تقيمه الدولة أو الدين الحاكم من مقاييس.

في 5 آب (أغسطس) 1990 وافق وزراء الخارجية في الدول الإسلامية على "إعلان القاهرة حول حقوق الإنسان". من الأمور الإيجابية فيه أنه يشدد على أن جميع الناس يؤلفون أسرة واحدة، وأن جميع الناس متساوون (البند 1). ولكن النص يتكلم عن "خضوع لله". وفي البندين 24 و25 ترد المطالبة "بأن تخضع جميع الحريات" للشرعية الإسلامية باعتبارها المصدر الوحيد لتفسيرها". ونظمت رابطة العالم الإسلامي في شباط (فبراير) 2000 في روما اجتماعاً دولياً حول حقوق الإنسان في الإسلام وأكدت في الإعلان الختامي أن الإسلام كدين وشرعية هو الذي تفتتح معه الحياة البشرية.

والدستور المصري القديم من شهر كانون الأول (ديسمبر) 2012، الذي ألغى في حزيران (يونيو) 2013 بخلع الرئيس محمد مرسى وبُدل بعد استفتاء جرى في 15 كانون الثاني (يناير) 2013 بدستور جديد، يبين مثلاً لتخفيض إلزامية حقوق الإنسان الأساسية بواسطة عناصر إسلامية متشددة. فقام العزم على وضع دستور جديد يحمي بشكل أفضل حقوق المصريين. فالدستور الذي جاء من صنع الإخوان المسلمين عام 2012 لا يعترف بوضوح وجلاء بحقوق الإنسان التي لا تتزعزع وميثاق الأمم المتحدة. بسبب حصول الإخوان المسلمين على الأكثرية في الجمعية الدستورية وإضراب السياسيين المعتدلين تم هناك اتخاذ تعابير رخوة ميالة إلى النسبية. فأخضع الناس، كما حدث قبلاً على عهد حسني مبارك، للقانون المدني التابع للأكثرية في مجلس النواب وللشريعة كمصدر لإقامة الحقوق.

يقول البند 2: "إنَّ الإسلام دين الدولة ومبادئ الشريعة الإسلاميَّة هي المصدر الرئيسيُّ للقانون". - البند 25 يعلن "أنَّ حرِّيَّة الفكر والرأي يجب أن تُضمَّن". - البند 44 يحظر "شتيمة الأنبياء" (أنبياء جميع الأديان، أي أيضًا أنبياء اليهود والمسيحيين). - البند 31: يحظر "شتم الأشخاص واحتقارهم". - ماذا يحدث إن وصف أحدُ الرئيس بأنَّه دكتاتور: هل هذا يقود فورًا إلى تعطيل حرِّيَّة الرأي؟

إنَّ القواعد المتعلقة بحرِّيَّة الدين تمَّ من قِبَل الإخوان المسلمين تشديد تضييقها بالنسبة إلى الدستور القديم الذي كان يضمن حرِّيَّة الدين العامَّة. فبقيت في البند 3 فقط حماية "ممارسة الدين الحرَّة". والجماعات الإسلاميَّة الأخرى مثل أهل الشيعة والبهائيَّة المسلمين، الذين كانوا قبلاً يعانون من الاضطهاد في مصر، لم يعودوا يستطيعون أن يمارسوا دينهم. فالمشكلة الرئيسيَّة ليست الانتماء إلى الإسلام الذي هو، كما أثبتنا أعلاه، دين متسامح تجاه الأقليات الإثنيَّة وأيضًا تجاه المسيحيين الأقباط الذين يعدُّون 10 بالمئة من سكَّان البلد. المشكلة هي التفاسير المختلفة للإسلام التي يقوم بها المغالون في غَيْرتهم والمتطرِّفون، والسلفيون والإخوان المسلمون. فإنَّها تُعرِّض آراء تعليميَّة متعدِّدة حول الشريعة.

ألا يحقُّ مثلًا لأيِّ مسلم أن يعتنق المسيحيَّة، وإن فعَّل هل جزاؤه الإعدام، كما يطالب به بعض المتشدِّدين؟ ألا يجوز للبوذيين أن يبشِّروا بدينهم في مصر لأنَّهم ليسوا كاليهود والمسيحيين من أهل الكتاب، ولذلك يكون تبشيرهم دعوةً إلى عبادة الأوثان؟

وقضايا النساء أدخلها الإخوان المسلمون في الدستور بشكل حصريِّ. فالمرأة المصريَّة عليها في رأيهم أن تهتمَّ بالموعد والأسرة. ينبغي، كما تنصُّ عليه المقدِّمة رقم 3، أن تُقابل النساء بالإكرام، "وأن يؤمَّن وجود القيم الأخلاقيَّة وحمايتها" (البند 10). ماذا يعني هذا؟ إذ إنَّ مبدأ المساواة وفقًا للبند 11 من دستور عام 1971 قد سقط. وتشير منظمة مراقبة حقوق الإنسان إلى البند 30 الذي يرد فيه: "المواطنون متساوون أمام القانون وبالنسبة إلى حقوقهم وواجباتهم بدون إقصاء". البند 10 يذكر "أنَّ الدولة عليها أن توجد توازنًا بين واجبات النساء بالنسبة إلى عائلتهنَّ والعمل في المجتمع". تُذكر هنا الدولة، ولكن من هي الدولة؟ أهى المناظرة العليا على النساء، لا على الرجال؟ أيجب الآن على كلِّ امرأة مسلمة أن ترتدي الحجاب وتُبدي بذلك أنَّها تحفظ الأمانة للدولة؟ مَنْ يقضي في شرف المرأة، أهُم الشيوخ في مجلس النواب أم نساء شابات على ضفَّة البحر؟ أم أحد القضاة؟

البند 145 يَذكر "أنّه لا يجوز التوقيع على معاهدات دوليّة تناقض قواعد الدستور". هذا الحقّ هو من اختصاص رئيس الدولة وغرفتيّ مجلس النواب. ولكن ما يعني هذا؟ هل تكون قواعد ميثاق الأمم المتّحدة والتصاريح حول حقوق الإنسان مُلزِمة لأنّها لقيت من قبل الموافقة عليها؟ هل المساواة لدى المرأة وحرية الدين الكاملة - وهذان عنصران أساسيان لدى الأمم المتحدة - قد انتزعتا من أساسهما؟ ومن يقرّر ما يناقض الدستور؟

إنّ ميثاق الأمم المتّحدة لم يُخضع قيمه لتحفّظات اتجاه ديني في العالم، لا للكتاب المقدّس ولا للقرآن ولا للتوراة، وذلك عن وعي كامل لكي لا يقيدها بإحدى هذه الفرق. قيمة لها إلزاميّة مطلقة. لا يجوز لأيّ من القضاة أن يخفّف من إلزاميّتها أو أن يحصرها في نطاق واحد أو أن يضيّق مجالها. فحقوق الإنسان التي لا يمكن أن تضيع يجب أن تكون ملزمة بطريقة متشابهة في العالم كلّه، ولا يجوز أن تُخضع وفق الحاجة لتصرّف التفسير البشريّ بواسطة قوانين بلد معيّن أو موظّفيه أو محاكمه. وجاءت تكميلات واسعة في قرارات الأمم المتّحدة للأعوام 1945 و1948 و1966 و1995 فيها تفسح الجماعة العالميّة المجال الأوّلي لحماية حقوق الإنسان والسماحة حمايةً شاملة إلى أعلى درجة.

لصالح السماحة والاحترام وتعزيز السلام في العالم علينا أن ندفع كلّ محاولة تخفيض إلزاميّة هذه الحقوق، وأن نرسم خطّ دفاع أحمر لا يجوز تعديّه.

إنّ مجاهد المقاومة الفرنسيّ استفان هسل الذي كان في عام 1948 رئيس مكتب هنري لوجيه، سكرتير فرقة حقوق الإنسان، واشترك مباشرة بوضع نصّ "التصريح العامّ حول حقوق الإنسان"، كتب في محاولته العظيمة بعنوان: "تذكروا" ما يلي: "دار الأمر بعد الحرب العالميّة الثانية حول تحرير البشريّة تحريراً مستديماً من شبح التوتالتاريّة. لهذا الغرض كان من الواجب أن نتوصّل إلى أن يفرض أعضاء الأمم المتّحدة على أنفسهم احترام هذه الحقوق الشاملة، وذلك كسبيل لردّ الاستناد إلى السلطة الكاملة، التي كان يمكن أن تستخدمه دولة ما تسمح أن تحصل في أراضيها تعديّات ضدّ الإنسانيّة - كما فعل هتلر الذي بصفته سيّد بيته اتّخذ قرار إعدام شعب برّمته¹⁶⁹.

¹⁶⁹.Stéphane Hessel, Empört Euch !, Berlin 2012, 14

الدساتير الجديدة في العالم الإسلامي ينبغي لها أن تتبنى ميثاق الأمم المتحدة ومجموعة قوانينها حول حقوق الإنسان وأيضاً عناصر الإسلام الحقيقية الصالحة المتسامحة. والمصلحون يمكنهم أن يدخلوا فيها مثل التعابير التالية:

"بصفتنا أمة إسلامية في أكثريتها وامتثالاً لتراث النبي محمد، الذي كان دوماً متسامحاً تجاه الأديان والأعراق والأقليات الأخرى، وعامل نساءه دوماً باحترام كبير وكرامة، نقرّر هذا الدستور الجديد، الذي يخضع لوصية الإسلام الأساسية، وصية الرحمة على غرار الله تعالى.

"بانخراط بلدنا في مجموعة الأمم المتحدة نعتز بمبادئ ميثاق الأمم المتحدة لعام 1945، لاسيما في ما يتعلّق بما تذكر الأمم المتحدة من حقوق الإنسان التي لا تُنتزَع، ومن كرامة وقيمة الشخصية البشريّة، والسماحة تجاه جميع الأقليات، وحرية الدين والمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة.

"هدف الدولة بهذا الدستور هو في سياق تراث النبي بناء مجتمع متناغم مرتكز على الجلم والرحمة. وبذلك إقامة مجتمع متسامح حرّ لمواطنين سعداء.

"الإسلام يدعم، كما حدث في عصر النبي، السلام والحوار مع أتباع الأديان الأخرى. هدف القانون هو مجتمع متناغم سعيد حرّ متطلّع إلى المستقبل ناجح، كما كان الوضع في عهد النبي وفي عصر الإسلام الذهبي في القرن التاسع. من هنا يحصل تفتح الشخصية لدى الرجال والنساء بحريّة وكرامة، وتعزيز السلام الداخلي والخارجي وفقاً للظروف العصريّة الحاضرة.

"نحن نعتز بالمساواة في الحقوق بين الرجل والمرأة. إذ إنّنا نكرّم جميع النساء، استناداً إلى ذكرى أمّ الإسلام خديجة بنت خُوَيلد، أولى نساء النبي. رئيسة المشروع هذه برباطة جأشها ونجاحها ينبغي أن تصير مثلاً لجميع نساءنا المسلمات في البلد. ينبغي أن يعامل جميع الرجال نساءهم بالاحترام الذي عامل به النبي نساءه وبناته.

"على الأديان أن تدلّ الإنسان في إيمانه على أفضل سبيل إلى الله. لا إكراه في الدين. كلّ دين تجب معاملته بالحسنى، كما كان الأمر ساريّاً في عصر النبي. حرية جميع الأديان تحظى بالضمان.

"يتمّ الفصل بين الدولة والدين، كما حصل ذلك في مكّة على عهد النبي. الدولة تخدم دائماً الإنسان، لا بالعكس. الدولة ليست دولة إلهية، بل هي من صنع البشر وبذلك معرضة للخطأ. لذلك هي بحاجة إلى مراقبة وارتباط بحقوق الإنسان. وتقوم ضمانة توزيع السلطة بين

السلطة التشريعية (مجلس النواب)، والسلطة التنفيذية (الحكومة)، والسلطة القضائية (المحاكم)، كما تُضَمَّن حرية الصحافة وحرية الرأي.

"من الشريعة الإسلامية ومن حياة النبي وسنته، وأيضاً من تصريحات الأمم المتحدة حول حقوق الإنسان العامة تستطيع السلطة التشريعية أن تتخذ نصائح لإقامة تعايش صالح يعزز الأهداف المُفضَّلة لهذا الدستور الديمقراطي. فالدستور له دوماً الأسبقية.

"القوانين التي تأتي بتعديل في الدستور تحتاج إلى أكثرية الثلثين من الأصوات اللازمة لمشاريع قانونية. أما الأنظمة الدستورية المهمة التي تحدّد وجوب المحافظة على ميثاق الأمم المتحدة، وحماية حقوق الإنسان التي لا تُنزع، والفصل بين الدولة والدين، وتوزيع السلطة، واستقلال القضاء، وحرية الصحافة، فإنها تنعم بضمانة دائمة ولا يمكن إلغاؤها بواسطة أي قانون".

هذه هي بعض العروض في سبيل التعابير الممكنة في دساتير إسلامية جديدة.

إنّ النصوص المقترحة لدستور إسلامي ليس لها كما يزعمون طابع إسلامي مُقنع. هي تبدو لي سطحية مليئة بالفراغ ورجعية، ولا تسلك إلى عمق تعليم النبي محمّد. فتنشئ أنواع التوتّر بدل أن تأتي بمجتمع الحلم المتناغم. هذا كان السبب الرئيسي لإخفاق الرئيس محمّد مرسي والإخوان المسلمين في مصر. نصبوا الحواجز بدل أن يضمّوا. وقليلًا ما يطلبون الرحمة - وهي لبّ بشارة الله - وكثيرًا ما يفرضون خضوع البشر لسلطة الدولة وقوانينها. ولا يعطون النساء حقوق أمّ الإسلام خديجة. فلا تنعكس في المقترحات إرادة النبي والقرآن الحقيقية، بل تفسير بشري يميل إلى التضييق من قبل بعض السياسيين. فالإسلاميون المزعمون لهم نيّة صالحة، ولكنهم بالنتيجة يقطعون نفّس الإسلام والدولة، والرجال والنساء. فيخنقون الدولة الإسلامية بدل أن يسوقوها إلى الازدهار. هذا أمر مأساوي.

إنّ عالمنا الشامل يحتاج إلى مراسيم موحّدة عالمية لتنظيم التعايش، إلى "شرائع السماح". فالقواعد المذكورة في دساتير 195 بلدًا لا يجوز لها أن تفرض على الأقليات نظرة الأكثرية، أكانت مسيحية أم يهودية أم إسلامية. والدساتير الغامضة تعرّض البشر دومًا لعدم الأمان ولاستتار السياسة والشرطة والعدالة.

الدساتير غير الواضحة التي لا تتمسك بشريعة ميثاق الأمم المتحدة، تحوّل القيم العالمية والأخلاقيات العالمية إلى حجارة خراب. فهي تسلّم السلطة المطلقة إلى الدولة والأكثرية السياسية المتقلّبة. بهذا يركّزون إخضاع الإنسان. لذلك يجب على جميع الدساتير الإسلامية الجديدة أن تعترف بميثاق الأمم المتحدة وبحقوق الإنسان العامة، وذلك بدون تحقّظ.

نحن بحاجة إلى حقوق الإنسان العالمية التي تُمارس في جميع مناطق العالم، وإلى تعزيز حقوق أعضاء الأديان والأعراق الأخرى، والنساء، ضدَّ تعجرف تسلُّط توتالتاريّ. بذلك فقط يمكن في قريتنا الشاملة بدولها الكثيرة ومليارات مواطنين مختلفين، أن ننمّي السّماحة والاحترام ونتوصّل بذلك إلى محبّة الناس وإلى السلام.

بعد انفجارات الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) عام 2001 جدّدت الأمم المتّحدة قراراتها 52/53 بتاريخ 4 تشرين الثاني (نوفمبر) 1998، و113/54 بتاريخ 10 كانون الأول (ديسمبر) 2001: على حوار الثقافات عليه أن يطور قيماً أساسية (بند 1)، ويعزّز السّماحة في العلاقات بين الناس والاحترام، ويطور مقاييس أخلاقية مشتركة وقيماً إنسانية شاملة (بند 2). ويجب الاعتراف بالتعدّد والرغبة فيه (بند 3). كثير من الحكومات عيّنت سفراء إضافيين لحوار الثقافات هذا، يقومون بنشاط ممتاز.

القسم الثالث

النسبية الأخلاقية والمادية الضخمة

تهب أحياناً في قرنتنا العالمية ريحٌ جليديّة. هي عالم فارغ لا إله فيه، عالم النسبيّة الأخلاقية. هو يضع جميع القيم موضع التشكيك. فالإنسان يضحي عند ذلك مجرد غرض في يد المتسلّطين. كرامته الداخلية نسبية. وكلّ شيء نسبيّ.

إنّي أوافق على ما قاله البابا بندكتس السادس عشر من أنّ النسبيّة الأخلاقية أكبر خطر على البشريّة. ومرشدي الدكتور فريتس كرامر اختبر بنفسه هذا الخطر في ألمانيا تحت حكم هتلر، وجاهد "كمحافظ أمين للشعلة المقدّسة" مع الجيش الأميركيّ لتحرير وطنه من أدولف هتلر، ذلك القائل بالنسبيّة الأخلاقية والنظريّة العدميّة¹⁷⁰.

الدول التوتالتاريّة والدكتاتوريون هم أساتذة النسبيّة. هم يقتلعون الأخلاق ويدفنون كرامة الإنسان. فقد حوّل النازيون والشيوعيون في القرن العشرين في وقت قصير الحقّ إلى ظلم، والظلم إلى حقّ. حوّلوا الصالح إلى سيئٍ والسيئ إلى صالح مزعوم، لأنّ ذلك كان يخدم سياستهم. فهتلر وستالين وماو أقاموا شخصهم وإيديولوجيّة الدولة التوتالتاريّة موضع الله. فهُدّبت الشيوعيّة والنازيّة لتصير تعاليم إيمانٍ ودينًا. قاموا بالقتل دون تعكير ضمائرهم، فأعدموا ملايين كثيرة من الناس الأبرياء باسم نظامٍ سياسيّ يدّعي أنّه الأفضل. فكانت السماحة تجاه من يفكر تفكيراً يختلف عنهم أمراً غريباً عنهم. فضحّوا بمواطنيهم عن نهم وراء السلطة وعجرفة كثيرة في السلطة. أمسوا اليوم في أحضان التاريخ. ولكن نسبيّتهم الأخلاقية لا تزال حيّة في مملكة الدكتاتور في كوريا الشماليّة وفي أيديولوجيات توتالتاريّة مختلفة. هذه هي أعرض منازل النسبيّة.

¹⁷⁰. راجع:

Hubertus Hoffmann, True Keeper of the holy Flame, London / Berlin 2012.

في عالمنا الغربيّ السّمح يوجد نوع آخر، هم أصحاب النسبيّة المدنيّة الناعمة. يعيشون في نظريّة ماديّة صرف بدون مسؤوليّة أخلاقيّة. فالملابس الزاهية وأدوات الاتّصال والسيّارات الفخمة هي أوثانهم الجُدد. يعيشون في الفراغ الأخلاقيّ. هم نخبة لا تعي مسؤوليّتها. الاحتفالات حلوة، ولكن الإدمان عليها دون قبول مسؤوليّة في سبيل عالم أفضل، هذا قليل بالنسبة إلى قريتنا الشاملة الحسّاسة. يظنّ هؤلاء الناس أيضًا أنّ سعادتهم تنمو وفقًا لكثرة ما يملكون. ولكنّ هذا ضلال. فإنّ في الهند أو في أفريقيّا مناطق سكن بسيطة يرتفع فيها الضحك كثيرًا وهي أشدّ سعادة ممّا يحدث في منازلهم الفخمة.

إضافة إلى ذلك انتشرت في العالم منذ عام 1990 وما تبعه من تأثير شارع البورصة في نيويورك رأسماليّة جامحة، تتلاعب بكلّ ما يمكن ربح المال به. فهؤلاء الذين يدفعهم الجشع النّهم يقطعون بالمنشار الغصن الذي نجلس كلّنا عليه. لأنّهم يجازفون بمليارات للاستفادة من ديون الدولة والنقود والقمح والنفط. فلا يجلبون من بعد استقرارًا بل أزمات ضارية يمكنها أن تقتلع أسس العالم. هذا يدلّ على فراغ أخلاقيّ ونسبيّة أخلاقيّة. ولكن الاعتدال والشعور بالمسؤوليّة يحتاج إليهما قطاع المالّيّة، وليس فقط أنواع التجازف القصير المدى.

مثل هذا يصحّ أيضًا بالنسبة إلى السّياسيين. عدد الدول التي تعيش بالقروض ينمو وترتفع ديونهم إلى أرقام لم تكن معروفة حتّى الآن. فيجرّ المستفيدون من الديون موعد الدفع عن استهلاك الوقت الحاضر إلى جيل الأحفاد وأولاد الأحفاد.

ميخائيل غرباتشوف نفسه، السكرتير العامّ السابق للحزب الشيوعيّ في الاتّحاد السوفيّاتي، والذي أطلق عمليّة إصلاح الشيوعيّة عام 1985 ونال لذلك جائزة نوبل للسلام، يأسف هو أيضًا لضياح القِيم: "إنّ أشدّ علامة مرارة لعصرنا هو انتزاع جذور الإنسان الأخلاقيّة الذي بلغ حجمًا مُفجعًا. نحن نفقد قيمنا الروحيّة الأساسيّة التي بدونها تبدو حياة طبيعيّة مطابقة لطبيعتنا البشريّة غير ممكنة"¹⁷¹.

إنّ المستشار الألمانيّ السابق هلموت شميت تكلم في ندوة نظّمها "جماعة المشاركة في العمل" التي اشترك في تأسيسها، ومدح التصريح الذي نشره عام 1993 برلمان الأديان العالميّة، منه "الاعتراف الكامل بكرامة الإنسان، والحريّات التي لا تُنزع، والمساواة بين الجميع،

¹⁷¹. قالها في ميلانو 1993. راجع: Sant' Egidio, Internationales Friedenstreffen, München 2010.

وضرورة التضامن والتكافل بين جميع البشر والجماعات". وقال أيضًا: "نحن بحاجة إلى وعيٍ للمسؤولية ولأخلاقيات مُعوّلمة"¹⁷².

كلّما ازدادت الماديّة في مجتمعاتنا في جميع المرافق - من السياسيّين إلى المواطنين مرورًا بالمجازفين برؤوس الأموال - ضاعت فيهم الروح ووعي المسؤولية. لكنّ عالمنا لا يجوز أن يغرق في الأنانيّة المكافحة والماديّة والانتهازيّة والعدميّة.

نحن بحاجة إلى نار منيرة تعتمد على قيم شاملة نؤمن بها وندافع عنها. إلى شرائع السماء والإنسانيّة، وإلى أخلاقيات والتزام لدى النخبة. أجل نحن بحاجة إلى نخبة مسؤولة حقيقيّة.

بدون نخبة مسؤولة جديدة لا يمكن أن يحصل تقدّم صالح. نحتاج إلى شخصيات في جميع بلدان العالم تجاهد في سبيل عالم أفضل تسود فيه الحرّيّة وكرامة الإنسان، وحماية البيئة والسماحة.

هناك اضطراب يُنقص من قيمة الاحترام تجاه الأديان الأخرى والأقليات الإثنيّة والأعراق في عالمنا: هو كبرياء الفهم. كثيرون جدًّا هم أعضاء النخبة الذين يعشقون إمكانيّاتهم العقليّة. يريدون أن يفهموا ويحلّوا كلّ شيء وينفون شؤون الحياة التي لا يستطيعون فهمها وإدراكها. ولكنّ الأخلاقيات والفهم لا يمكن سبّكها وحسابها في معادلات رياضيّة أو عبارات فيزيائيّة.

هل أستطيع أن أدرك وأقيس كرامة الإنسان؟ لا، ومع ذلك هي موجودة.

كيف يمكن أن أقيس الحبّ الذي تدور حوله الحياة كلّها. والسعادة والانشرح؟ يمكننا فقط أن نشعر به.

أين تقع نهاية الكون وأين يقع بدوّه؟ ليس لدينا حتّى الآن سوى نظريّات. 80 بالمئة من الكون هي جَوْر سوداء تبتلع النجوم. ولا يعلم أحدٌ لماذا وإلى أين. كلّما ازدادت معرفتنا، اتّسعت الجور السوداء، حتّى بالنسبة إلى فهمنا.

هذا التصرُّو يؤلّم أذكّيانا المتفوّقين وأبطال العقل: هناك حدود لفهمنا البشريّ. إنّ آلات وعينا البشريّ لا تستطيع أن ترى وتشمّ وتشعر وتتألّم من جميع كلّ شيء. الصوّر والأصوات تطير في الفضاء. ونسمّي ذلك راديو وتلفزيونًا وهاتفًا متنقّلًا وشبكة اتصال. ولكننا لا

¹⁷².Helmut Schmidt 1996 : in www.interactioncouncil.org

نستطيع أن نصل إليها بحواسنا البشريّة. نحتاج لذلك إلى آلات ترجمة. وكذلك لا نقدر أن نضبط الكرامة والسماحة والاحترام والحبّ، ونقيسها. لا يمكننا سوى أن نوّمن ونشعر بإحساس القلب.

إنّ أسوأ الأمور ليس فقط ضياع الإيمان في مجتمعاتنا، بل أيضًا ميل الناس تحت تأثير الإذاعة وغسل الدماغ إلى أن يصدّقوا كلّ شيء مخالف للشعور الإنسانيّ ويخضعوا لإيديولوجيّة معيّنة. وصفت حنّة آرنت هذا "بسخافة الشرّ". كلّ مواطن، مهما كان راضيًا، يستطيع تحت تأثير النظريّة العدميّة أن يتحوّل إلى حيوان قتال. في كلّ واحد منّا يختبئ شيطان صغير شرّير. فالفراغ الأخلاقيّ هو تربة التطرّف والإرهاب وعدم السماحة.

نحن البشر نتوق توفّقًا شديدًا إلى معنى وقيّم. وعندما يخاطبنا أرباب الإغراء التوتاليّون، يتبع الكثير منّا طائشين تلك القدرات السيّئة. علينا أن نملأ هذه الحفرة السوداء بقطع الشعور الإنسانيّ التي نجدها في جميع الأديان.

بدون الإيمان بكرامة الإنسان وبكائن أسمى ندعوه الله، لا يمكن للعالم أن يدوم. ولا بدون رحمة تجاه الأشخاص المعرّضين للخطيأ.

نحن بحاجة إلى نخبة مسؤولة عالميّة تنتصب ضدّ النسبيّة الأخلاقيّة وتدعو إلى قدر أكبر من الاحترام والتسامح.

القسم الرابع حدود السماحة

بعض أصحاب الفكر يهزأون بالدعوة إلى سماحة أشدّ ويصفونها بأحلام التوافق. يكتب الصحفي الألماني اليهودي هنريك برودر في كتابه "نقد السماحة الصّرف" هازئاً، السماحة دليل إلى الانتحار عندما يكون المرء متسامحاً تجاه كلّ واحد وتجاه الجميع، وينطلق من تساوي القيمة بالنسبة إلى جميع أنماط الحياة، فيكون متسامحاً تجاه أناس وثقافات يملأها الشعور بتفوّقها الخاص¹⁷³.

أجل، لا شك أنّ السماحة لها حدود. مثل ذلك أننا نطالب بالحرية. ولكن لا بحرية لا حدّ لها تجلب الضرر على أناس آخرين. ننشر الإيمان، ولكن لا على حساب معتنقي إيمان آخر. فالخطوط الحمر تمتدّ حيث يهاجم التسامح والاحترام تجاه أناس آخرين. فمن يهاجم أشخاصاً بسبب دينهم أو انتسابهم الإثني أو عرقهم، وذلك بالكلام والأفعال يُبعد نفسه عن قوس السماحة. ولا يمكن أن يطالب بالتسامح تجاه عدم تسامحه. فهتلر وستالين وماو لا يجوز أن يترقّبوا معاملتهم بتسامح. تصطدم السماحة بحدودها حيث يُساء استعمالها كوسيلة لعدم التسامح. وأيضاً عندما تُداس بالأرجل حقوق الإنسان العامّة ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة. أمّا بشأن المتعصّبين المتشدّدين الذين يريدون أن يفرضوا بالعنف على الآخرين إيديولوجيتهم ومسلكتهم، فلا مجال للصبر عليهم، بل يجب ردّهم بإشارة وقف.

جميع أنواع الإيديولوجيات التوتاليتارية، أكانت دينية أم عرقية أم وطنية، يجب أن نحصرها ونكافحها بالأفعال، لأنّها تسلب الناس كرامتهم. فعندما يُنادى "مارس السماحة"، لا يعني ذلك فقط الصبر المحتمل والقبول بكلّ شيء، أكان خيراً أم سوءاً. هذا النداء هو المطالبة باحترام

¹⁷³.Henryk M. Broder, Kritik der reinen Toleranz, Berlin 2008,13-14.

كرامة الإنسان وكرامة الرجل والمرأة مع اختلافهم في الإيمان والحياة، والقيام بذلك. فيمكن الكلام عن السماح بالنسبة إلى كرامة الإنسان التي لا تُنتزَع.

هذه السماح الموجهة إلى المحتوى تضم احترام الإنسان بغض النظر عن إيمانه وعرقه ونسبه الإثني، لأنه، وفقاً لإيمان الأديان الكبرى، خلق الله البشر مختلفين بعضهم عن بعض. زد على ذلك أن المطالبة الكامنة في الأديان بالرحمة تدعو إلى ممارسة تصرف متسامح.

فعالم متسامح هو مجموعة أعضاء مختلفة تعدد سبعة مليارات من البشر، كما في لعبة متنوعة كبيرة شاملة.

فالبغض تجاه الأديان الأخرى والأقليات محظور، أما السماح الفاعلة فواجب.

السماحة تفرض التأني بين الحق والقيم الأخلاقية الخاصة وحقوق وقيم الآخرين. هي سبيل يقود من الأنانية إلى التعايش، ومن العدو إلى الفريق المضاد، ومن الفريق المضاد إلى الصديق.

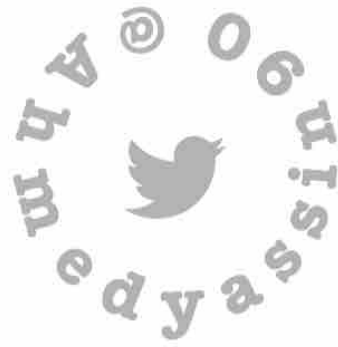
لا تعني السماح الاسترخاء في حقل السلام. فإنه يجوز لقمع عدم السماح استخدام السلاح. ولكن فقط للدفاع عن النفس. وإلا سلّمنا العالم إلى من لا يلوي على شيء، إلى العدميين التوتالتاريين أيًا كان نوع الإيديولوجيا لديهم.

من الضرورة ممارسة حوار متواصل وتعارف وبحث عن عوامل رقيقة لإحلال السلام.

تحدّث مع الكردينال فالتر كسبر حول النظرة المسيحية. هو يعدّ السماح احتراماً تجاه الآخرين، ولكن دون التخلي عن الإيمان الخاص. فيجب أن نرفض المعاملة التي تؤكد أن جميع الأمور متعادلة، وينبغي أن نحترم قريتنا مع اختلافه عنّا.

أما مجال وحدود السماح فيجب علينا أن نكتشفها في الحوار مع الأديان والثقافات الأخرى. البروفسور بكير كريلغا، الممثل الخاص لرئيس الوزراء التركي أردوغان لأعمال اتحاد الثقافات للأمم المتحدة، أكد في حديث أجراه في إسطنبول حول مشروع "شرائع السماح"، أننا لا نزال في مطلع مسيرة طويلة في سبيل الحوار المشترك والتعارف. وتقريره في التلفزيون بعنوان "الأنهار تسيل نحو الغرب"، يحدّث عن تطوّر الثقافة المشتركة في نطاق تركيا الحالي وفي الشرق الأدنى منذ ألفي سنة. وعندما عرض الفلم أكد رئيس الوزراء أردوغان أن العالم كلّهُ مكبّب على حوار دائم. والأستاذ كريلغا يأسف لأن يكون مثلاً تجدر الثقافة الغربية في الثقافات القديمة لا يخطر كثيراً بالبال في الغرب، ثقافات بلاد ما بين النهرين ومصر، والممالك الإسلامية.

إنَّ توصلنا إلى إحلال السّماحة والاحترام بقدر أوسع في قريتنا الشاملة:
يصير وطننا أعزّ علينا، وأكثر استئْهالاً للعيش الرضيّ، وأوسع حرّية، وأهنأ وأكثر ألواناً وأشدَّ
إيقاظاً للاهتمام.
ويضحى أولادنا أشدَّ سعادة.
وتقوم الدولة بخدمتنا، ولا نكون لها خدّاماً خاضعين.
وتكون تعاليم الأنبياء حافراً لنا، لا تهديداً لغير المؤمنين. ولا تكون الأديان أصحاب
السيادة، بل سُبُلًا للخلاص من وراء هذه الدنيا.



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

القسم الخامس

علم النفس والسّماحة

ينصح ألكسندر متشرلخ (1908-1982) في مقالة له حول "علم النفس والسماحة"، باستخلاص السماحة من مظاهر التصرف البشريّ الأساسيّة. فيسأل كيف يجب أن يكون وضع نفس إنسانٍ ما حتّى يتصرّف هذا بسماحة. فالسماحة في نظر هذا العالم المشهور في تحليل النفس ليست موهبة مثل تعاطي الموسيقى أو استعدادًا باطنًا، بل هي الموقف الشخصيّ الباطن من العالم ومن الوسط الذي يعيش فيه الإنسان. فالسماحة قريبة من الانفتاح على العالم والمقدرة على التعاطف والصبر، والقبول بأمر غريب لا أستطيع فهمه. ويرى العالم علاقة بين موقفين: "كما أعامل نفسي هكذا أعاملك"، و"كما تعاملني أنتَ أعاملك أنا"، أي تصرّف الإنسان الباطن مع نفسه. ويشير بذلك إلى الأنا وإلى محبّة الشخص لذاته.

كثيرًا ما ينتج من بغض الذات بغض الآخرين. وهذا مرتبط بأحكام مُسبقة أو بالاعتداد بالنفس تجاه شعوب أخرى. يتّضح بذلك أنّ أساس السماحة هو ارتياح القلب ومحبّة النفس. مشاعر المودّة تتوجّه حسب متشرلخ أولًا إلى ما هو معروف. والاشمئزاز يتطوّر بالعكس في ذواتنا تجاه ما هو غريبٌ عنّا. وهذه المشاعر السلبيةّ تشتدّ غالبًا أيضًا عن التحوّف من المجهول. وتنشأ السماحة عندما يتبع استعداده للانفتاح تجاه العالم ويكون على استعداد أن يكتشف عالمًا لا يزال غريبًا عنه. فالسماحة تتركز إذن على تنحية الحواجز وجهل الآخر، وعلى الحوار والمحادثة.

لأنّ الإنسان غالبًا ما يشعر بنفسه ضائعًا، تتطوّر فيه مخاوف. فيبحث لذلك عن موطن ديني. فلا يمكن أن يكون المرء متسامحًا بالمعنى العميق، إلا إذا شعر في نفسه بقوى الإيمان واعترف بها أيضًا، خلأً للعَدَمِيّة الأخلاقيّة. لذلك يجد الإنسان راحته في الإيمان. والسماحة لا يمكن تهذيبها إلا حيث يمكن ضبط الخوف العتيق، وحيث لا يتنامى هذا الخوف أو يستعمل من قِبَل خطباء البغض.

إنَّ سماحة صِرْفًا عن عدم اهتمام أو تقدير ليست سماحة بالمعنى الحقيقي، إذ إنها لا تكثر بالآخر وإيمانه.

فالتراجع عن العدمية والالتفات إلى الإيمان الحق الرحيم يمكنهما أن يكونا أساسًا للسماحة.

متشرف يطالب بسماحة الانفتاح على العالم.

كان الفيلسوف الأميركي الناقد للشؤون الاجتماعية إيرك هوڤر (1902-1983) في البدء عاملاً في بناء السفن وسعى إلى تثقيف نفسه. فهو يشرح نشوء عدم السماحة والتعصب قبل كل شيء من فقدان الشعور بالقيمة الذاتية ومن عدم الشعور بالأمان. "إنَّ القدرة على التفاهم مع الجار تتعلّق إلى حدّ بعيد بالطريقة التي تثبت تناغم المرء مع جاره. فالشخص الذي يحترم نفسه سيحاول أن يتحمّل نقائص الجار كما يحتمل نقائصه الخاصة". "مما يثير الانتباه هو أننا بالفعل نحبّ الجار كما نحبّ أنفسنا. ونصنع به ما نصنع نحن بأنفسنا. ونبغضه عندما نبغض أنفسنا. ونتسامح معه، عندما نتسامح مع أنفسنا. ونصفح عنه عندما نصفح عن أنفسنا".

الفيلسوف البريطاني برتراند رسل (1872-1970) اكتشف إلى ذلك اندفاعاً في الإنسان عن خوف كاندفاع قطع الغنم. وهذا يعامل بالقسوة أولئك الذين لا يُعدّون جزءاً من قطيعه الخاص.

من هنا تنتج مسؤولية خاصة لوسائل الإعلام والسياسيين والقادة الدينيين. فعندما يثيرون المخاوف، يضاعفون القدرة على عدم التسامح - كما لو كان ذلك تنبؤاً يرضي الأميال الخاصة.

لنخطُ أيضاً خطوة أخرى في قرار داخلنا وأعماق كياناتنا البشري وتاريخ الإنسانية. هل جينة عدم التسامح مغروسة فينا كخطأ في تخطيط نمط الإنسان؟ هل كان البشر الأقدمون قبل ما يقارب خمسين ألف عام في مراعي أفريقيا، وطن الإنسان العاقل، ربّما بحاجة إل مثل عدم السماحة هذه تجاه كل ما هو غريب ليضمنوا بقاءهم في الوجود؟ هل الخوف ممّا هو غريب متأصل في جيناتنا، وهل هو أيضاً آلية حماية ضرورية؟

إنَّ البحث العلمي المعاصر في أحوال الدماغ يبيّن بنوع متزايد كيف أنّ العوامل التي لا يضبطها الوعي تُدير سلوكنا. عوامل آلية تطلق بنوع لا نريده حركات مختلفة في علاقتنا مع الآخرين. إن كان الأمر على هذا الشكل فقد لا تنفع جميع الدعوات إلى استعمال العقل، ويجب علينا عند ذلك أن نفكّر في السماحة ونفهمها ليس فقط من نتاج الدماغ، بل أن نشعر بها بالقلب، أو كما عبّر عن ذلك صديقي رئيس الأساقفة ألفونس نوسل على طريقتة السيلازية، بمزيج من "قلب مفكّر وفهم محبّ".

في أعصابنا وإحساسنا أساس التفطن والبُعد المليء بالشك تجاه ما هو جديد وغير معروف. نحن لا نصير فوراً أصدقاء، بل علينا أن نجتاز قبل ذلك مرحلة الوصل بين الصديق والعدو، وأن نلتزم انفعالاتنا ونتعارف. فتكون الجولة الأولى مرحلة عدم السماح وعدم الاحترام، مرحلة التربُّص. نحن نختبر هذا لدى الأولاد الصغار الذين يكتسبون الألفة بعضهم مع بعض أولاً بتحفظ في حديقة الأطفال، ويراقبون بدقّة، وبعد ذلك بفضل التعارف يحترمون بعضهم بعضاً.

إنّ مرحلة التعارف هي جازمة بالنسبة إلى إقامة السماح. نحتاج لذلك إلى أكبر عدد ممكن من الإشارات الإيجابية. عند ذلك فقط تنشأ الثقة والاحترام والتسامح المتبادل. أو عند حصول اختبارات سيئة أولية ينشأ الفشل والبغض والعنف. كلا الأمرين يوجّهنا تماماً مدّة حياتنا. هي مرحلة تثبيت الإشارات المسلكية.

لدينا في هذا خبر إيجابي مهمّ: نستطيع بدافع اللطف وممارسة شرائح السماح تجاه الآخرين أن نتعلّم السماح من عمق داخلنا ونتمرّن عليها. علينا أن نعرف بعضنا بعضاً، ونتحدّث معاً، ونعي ونعلم أننا جميعنا إخوة وأخوات في القرية الشاملة، يستطيع أن يتراقبوا بعضهم مع بعض رفقّة حسنة. السماح أمرٌ يمكن أن نتعلّمه. وقبل كلّ شيء يستطيع الأولاد أن يتعلّموا بفضل التربية أن يتصرّفوا باحترام.

ولكن مخطّطنا الداخلي ينتج فينا عدم التسامح بسبب أنواع فشلنا. وحتى البغض يمكن اكتسابه وتلقّنه. لذلك كلّ واحد في القرية العالمية له مهمّة، هي أن يمارس سلوكاً لطيفاً بفضل التربية.

يجب علينا إلى ذلك أن ندرج عملياً عناصر عدم التسامح، وإلا سبّبت إشارات السلبية بشكل متزايد تصرّفات مضادة من نوع عدم التسامح. علينا أن نوقف الحركة الدائمة المتأتمية من عدم الانتباه للآخر ومن العنف. هذا لا نقوم به إلا بأعمالنا الصالحة، لا بكلامنا فقط.

تنشأ السماح من معرفة النفس خالية من الخوف ومن الاختبار الإيجابي في العلاقة بين الناس. أما عدم السماح فينجم عن الخوف والشعور بضالة القيمة الشخصية وعن اختبار التهديد والكبت.

لذلك يجب على سياسة فاعلة في سبيل السلام أن تحصر بكثير من آلاف الخطوات الصغيرة الحواجز وأن تنشّط ما هو إيجابي. علينا أن نتغلّب على عدم التزامنا. ومن الضروري والممكن أن تكون هناك سياسة فاعلة شاملة في سبيل السماح. فهذه تستطيع أن تغيّر العالم. بهذا تكون محبّة البشر والسلام ممّا يمكن تحقيقه.

هذه معرفة مهمّة بالنسبة إلى السلام والمحبة في قريتنا الشاملة.

أحد شروط الحصول على السماح هو قبل كلّ شيء وعيٍ صحيح للنفس. أمّا الارتباط الدائم في مركّبات النقص فهو ينشّط الخوف، والخوف يقود إلى الإغلاق على النفس في نظرة شخصيّة ضيقة إلى العالم، وإلى الدفاع عن النفس بواسطة أشكال التهجم.

أمّا الإرهاب والتوتالتاريّة فيمكننا على أحسن حال أن نحصرهما، عندما نوّكد لجميع الناس على اختلافهم كرامتهم والشعور الإيجابي بالنفس. وعلينا أيضاً أن نكافح التخوّف القديم والمشاعر السليّة، هذا قبل كلّ شيء في أنفسنا نحن.

ينبغي لنا أن نفتح الأبواب المغلقة بين الأديان والأعراف والأقليات والأكثريّات في كلّ بلد ونتعرّف بعضنا إلى بعض.

ونحن بحاجة إلى مُثّل عليا في ميادين الدين والثقافة والرياضة والسياسة. هؤلاء المُثّل يدعون إلى السماح ويسبقون بمثلهم الصالح.

ونحن بحاجة إلى مخطّط رئيسي لتقوية السماح فعلياً في كلّ بلد، وإلى ثورة ثقافيّة في سبيل التعايش، وإلى أخلاقيّات عالميّة جديدة، وإلى شرائع السماح.

القسم السادس

مبادئ لأخلاقيات عالمية

يدور الأمر حول مبادئ جديدة لقواعد أخلاقية عالمية مشتركة تركز على معطيات الأديان العالمية الكبيرة. وأولها جاء بها سياسيون وعلماء سبقوا فوضعوا أساس الأمور المشتركة. فهم كآلات تحطيم الجليد في خدمة السماحة، وضعوا الأسس العصرية لشرائع السماحة ولأخلاقيات عالمية. توجد هذه في كل بلاد الأرض وفي جميع الثقافات والنظريات الفلسفية. هي شرائع شاملة للسماحة.

قبل 2600 عام بشر أكبر فيلسوف صيني كونفوشيوس (551 قبل المسيح - 479 قبل المسيح) بالسماحة: "لا تفرض على الآخر إلا ما تتمناه لنفسك". هذه شريعة قديمة في تاريخ البشر عن السماحة، نجدها في جميع الأديان والثقافات.

في الملحمة الهندية الواسعة ماهابهارتا من القرن الرابع يرد ما يلي: "لا يجوز لأحد أن يفعل بالآخر ما يعتبره هذا بنفسه جرحًا. هذا هو التعليم باختصار".

وفي أشعار بوذية نشأت قبل آلاف السنين وعنوانها "دهامابدا" جاء ما يلي: "من يبحث عن السعادة، ينبغي له أن لا يجرح أحدًا، فيجد هكذا سعادته" (2-131).

في كتاب دابستان إي ديك ما يلي: "إن الطبيعة صالحة فقط عندما لا تحمّل الآخر ما ليس صالحًا للمرء نفسه" (95: 5).

المفكر الفارسي الذي وُلد في بلخ في أفغانستان، جلال الدين الرومي (1207-1273) يقول: "أذهب إلى جامع أو إلى مجمع يهودي أو إلى كنيسة مسيحية، فأرى هناك مذبحًا واحدًا".

فالأخلاقيات العالمية ليست إذن اختراع الغرب المسيحي، بل تتغذى من حكميات جميع القارات والثقافات.

في أوربا مهَّد لها تقبُّل الشعب كاتب فرنسيّ. في القرن الثامن عشر كان فولتير المؤلِّف الذي قرئ أكثر ما يكون ونعم بأغنى تأثير في مجال التنوير الأوروبي (1694-1778). هو يعدُّ السماحة نتيجة الحسِّ الإنسانيّ. جميع الناس هم من طبيعتهم ضعفاء وميالون إلى الخطيأ. فعلى كلِّ واحد أن يغفر للآخر حماقاته. هذا هو أول قانون الطبيعة. فالاختلافات الصغيرة الضئيلة في آخر الأمر بالنسبة إلى اللغة والعادات والآراء لا يجوز أن تقود إلى البغض والاضطهاد. مبادئه هي إذن بسيطة تمامًا: الضعف يطلب السماحة، والفوارق أصغر من الأمور المشتركة. في صلاة من أجل السماحة يعبر بدقّة وشعرياً عن نظرتة: "لا أعود أتوجّه إلى الناس، إليك أتوجّه، يا إله جميع الكائنات وجميع الأزمان. نحن خلائق ضعفاء ضائعون في غير المحدود، لا تنتبه لنا الأجزاء الأخرى في الكون، فإن أدن لنا أن نلتمس منك شيئاً، أنت الواهب كلِّ شيء، أنت الذي لا تتغيّر قوانينه الأبدية، نطلب إليك: انظر بعطف إلى أخطاء طبيعتنا، ولا تدع هذه الأخطاء تجلب علينا الشقاء. لم تهبنا قلباً لكي يبغض بعضنا بعضنا، ولا أيدياً لكي يكون علينا أن نخنق بعضنا بعضاً. هب لنا أن نتعاون على حمل ثقل هذه الحياة القصيرة الفانية. لدينا اختلافات صغيرة تحت أعطية أجسادنا الضعيفة، تحت لغاتنا غير المكتملة، تحت عوائدنا الهزيلة، وقوانيننا غير المكتملة، وآرائنا السفيهية، وتحت مقاماتنا التي نراها منفصلة وهي عندك متشابهة: فهب لنا أن لا تصير جميع هذه الفوارق الصغيرة في الذرات التي تُدعى بشراً، مدعاةً للبغض والاضطهاد. اجعل الذين يشعلون في وضح الظهر شموعاً لكي يكرموك، يحتملون أولئك الذين يكتفون بنور شمسك. واجعل الذين يسترون ثوبهم ملحف أبيض ليقولوا إنّه يجب أن نحبك، لا يحتقرون أولئك الذين يقولون القول نفسه تحت ملحف من صوف أسود. وهب لنا أن لا يكون هناك فرق بين أن يصلّي أحدٌ بسلسلة كلمات مركبة من لغة قديمة أو بسلسلة كلمات جديدة. يوجد أناسٌ ثوبهم مصبوغ صبغة حمراء أو بنفسجية ويسودون على جزء صغير من كومة صغيرة من ذرّة الغبار هذه، ويملكون بعض قطع مدوّرة من معدن معيّن: فاجعلهم ينعمون بدون ترفعّ بما يسمّونه عظّمة وغنى، واجعل الآخرين لا يحسدونهم. فأنت تعلم أنّه ليس في أباطيل هذه الحياة ما يستحقّ أن نحسد بعضنا بعضاً عليه وأن نفتخر به. فعسى جميع الناس أن يتذكروا أنّهم إخوة. وعساهم جميعاً أن يكرهوا كلّ تجرّ على النفس كرههم لسرقة الأزقة التي تسلبهم ثمار عملهم ونشاطهم الهادئ. فإن كانت مصائب الحرب لا يمكن تجنبها، فاجعلنا في ظلّ السلام لا نبغض ونهشم بعضنا بعضاً.

اجعلنا نستعمل برهة حياتنا على أنماط متشابهة، ونسبج جودتك بألف لغة من اللغات الأخرى المختلفة من بلد سيام إلى كاليفورنيا، جودتك التي منحتنا هذه اللحظة"¹⁷⁴.

طلعت من إنجلترا تحريضات أخرى على السماح. فالفيلسوف الإنجليزي والمفكر القائد لعصر التنوير جون لوك (1632-1704) كان له أثر على دساتير الولايات المتحدة الأمريكية والثورة الفرنسية. كتب ما يلي:

"إنّ السماح هي العلامة الكبرى لكنيسة حقيقية". فمن لا يرحم ويفرق بالناس وبغير المسيحيين، فليس مسيحياً حقيقياً. فلا يكون المرء مسيحياً إلا إذا كانت عنده محبة البشر"¹⁷⁵.

توما بين (1737-1809) المفكر بالغ التأثير وأحد مؤسسي الولايات المتحدة الأمريكية، كان له شعار لحياته: "العالم وطني وصنع الخير ديني".

الولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية الثورة الفرنسية صارا في حقل سياسة الدولة مثالين للبلدان العصرية المتسامحة.

من الأشخاص المختلفين الذين غرسوا في الأرض عكماً للسماحة يرى من بعيد وصاروا بذلك دعاءً لاحترام الآخرين، يعدّ في القرن التاسع عشر العالم الشامل والإنساني الممارس ألبت شفائيسر. وُلد عام 1875 في الأزراس واشتهر عالمياً بفضل عمله كطبيب في مستشفى في مدينة لمبريني من الغابون في إفريقيا. من أقواله: "عندي أنّ البشرية ليس لها مصير آخر سوى أن تصلح نفسها بفضل تفكيرها. فلائي أثق بقدرة الحقيقة والروح، أثق بمستقبل البشرية". هذا اللاهوتي البروتستانتي الحائز على جائزة نوبل للسلام عام 1953، دعا إلى اتخاذ إرادة في التقدّم شاملة وأخلاقية، تعتمد على قبول العالم والحياة. هذا نشأ في المسيحية باتخاذ أخلاقيات المحبة التي بشر بها يسوع المسيح. فعلى الإنسان أن يطور موقفاً جديداً من ذاته ومن العالم، وأن يُضحى شريفاً متحمساً وعميقاً. هذا ما أورده عام 1931 في كتابه: "من حياتي وفكري"¹⁷⁶.

شفائيسر يرى أنّ لبّ السلام كامن في إعادة التفكير في قدر أكبر من الإنسانية. إنّ العلاقات بين البشر غالباً ما تكون اليوم مطبوعة على العربة والبرودة، لأنّه لا أحد يتجرأ على أن يكون ودوداً كما هو فعلاً في داخله. فالتغلب على هذا الحاجز ينتج المودّة واحترام الحياة، ويقود

¹⁷⁴ .Voltaire, Recht und Politik (Schriften 1), Frankfurt/M. 1978, 238-239

¹⁷⁵ .راجع:

John Locke, A Letter concerning Tolerance, Amsterdam, in Winter 1685/1686

¹⁷⁶ .راجع:

Albert Schweitzer, Aus meinem Leben und Denken, Hamburg 1954, 128-129

الإنسان إلى العطف والضعفة. ويجب أن تنضم إلى ذلك فكرة احترام الحياة، والعزم على صيانة الحقيقة والصدق كأساس للحياة.

بعد الاختبارات المريرة في الحربين العالميتين الأولى والثانية بحث بعض الشخصيات في السؤال عن إمكانية تجنب مثل هذه الآفات في المستقبل بفضل الاحترام المتبادل. فتم اكتشاف السماحة كعنصر مهم من العوامل المرنة لصنع السلام في الداخل كما في الخارج.

مارتن لوثر كنج (1929-1968)، المجاهد الأميركي في سبيل حقوق المواطن، يطالب قائلاً: "علينا أن نتعلم أن نعيش معاً، أو نختفي معاً كحمقى".

القس الأميركي المشهور والمؤلف رالف سوكرمان (1889-1970) كتب ما يلي: "الشجاعة تُخضع للفحص عندما تكون أنت الأقلية، والسماحة عندما تكون أنت الأكثرية".

الفيلسوف الألماني تيودور أدورنو (1903-1969) عبّر عمّا يلي: "إن علامة الأشخاص المتحكّمين هي عدم تسامحهم تجاه تعدّد الشروح".

عبقري القرن ألبرت أينشتاين (1879-1955) يرى "أن القوانين لا تستطيع وحدها أن تضمن حرية الرأي. فلكي يستطيع كل امرئ أن يعرض آراءه دون التعرّض للقصاص، يجب أن ينتشر روح متسامح في السكّان جميعهم".

الصحفي الأميركي جيروم ناتانسون (1908-1975) فهم التقدير المتزايد لفوارق البشر كنمط ديموقراطي في الحياة. فعلى الناس ليس فقط أن يتعاملوا بالسماحة، بل أن يتعلموا أن يفهموا جوهر خبرة بشرية غنيّة.

الكاتبة الأميركية هلين كلر (1880-1968) صرّحت: "السماحة هي أكبر هبة للروح. فهي تفرض جهد الذهن نفسه الذي يفرضه حفظ التوازن على الدراجة. أسمى هدف لتربيتنا هو السماحة".

الناشط الفرنسي - الأميركي رنيه دوبو (1901-1982) قال في ملاحظة له: "إن تعدّد البشرية يجعل السماحة فضيلة، بل ضرورة للبقاء على الحياة".

في شهر شباط (فبراير) عام 2013 زرت مسكن الرئيس الأميركي السابق فرنكلين د. وزفلت (1882-1945) في مكان ولادته هايد بارك في القسم الشمالي من مقاطعة نيويورك. هذا مكان مهم بالنسبة إلى حقوق الإنسان. فإن زوجته إيليانور كانت تدافع بنشاط كبير عن حقوق المرأة، وكانت عام 1947 العضو الأشد تأثيراً في لجنة حقوق الإنسان. فالاعتراف

الصريح بالمساواة بين الرجل والمرأة في ميثاق الأمم المتحدة والتصريح الواضح في حقوق الإنسان عام 1948 يرجعان إلى فضل مساندتهما. قال زوجها: إن كان ينبغي أن يبقى التمدن قائماً، فعلينا أن نهذب إلتقان العلاقات البشريّة المتبادلة ومقدرة جميع الناس من أي نوع كانوا على أن يعيشوا معاً في عالم يسود فيه السلام. نحن ننتظر بفرح عالمًا تسود فيه أربع حريّات إنسانيّة مهمّة: حريّة النطق، وحريّة الرأي، وحريّة عبادة الله كلّ على طريقتة، والتحرّر من الرغائب والخوف".

في مطلع الستينات من القرن العشرين جاهد رئيس الولايات المتّحدة الشهير جون ف. كندي (1917-1963) في سبيل حقوق الأميركيين السود، الذين كانوا لا يزالون يعانون في جنوبي الولايات المتّحدة من الإقصاء. كان يقول: "لا يسعنا أن نغيّر الفوارق، ولكننا نستطيع أن نجعل العالم أشدّ أماناً للتعدّد". وقد حظي في ذلك بمساندة أخيه روبرت ف. كندي (1925-1968)، وهو عند ذلك وزير العدل: "إنّ جواب أميركا على أناس غير متسامحين هو التعدّد الذي أوحى تاريخ الحريّة الدينيّة عندنا. فكّل مرّة يساند إنسان مثله، تنتج من ذلك كومة رجاء. والكثيرون من هؤلاء يؤلّفون تياراً يدحر أقوى أسوار الكبت".

الرئيس الأميركيّ باراك حسين أوباما تصرّف دائماً في سياق هذا التراث تصرّفًا نشيطاً في سبيل الاعتراف بالتعدّد والسماحة الدينيّة. "إنّ المعارك التي ننهض إليها، هي ضدّ الجهل وعدم التسامح"¹⁷⁷. وقال أيضًا: "علينا أن نقود بمثّلنا، ولذلك فإنّ السماحة الدينيّة لها في الولايات المتّحدة هذه الأهميّة. ولا يجوز لنا أن نتخبّط بالجلد، فإنّنا بذلك فقط نحصل على سلطة أخلاقيّة تؤهّلنا لأن نتقد بلادًا أخرى بسبب عدم احترام الحقوق"¹⁷⁸.

وفي أوّل خطاب به بعد انتخابه رئيسًا صرّح في كانون الثاني (يناير) 2009 أمام محفل الكابيتول: "تاريخنا كبساط كثير الألوان ليس علامة ضعف، بل هو قوتنا. نحن شعب مؤلّف من مسيحيين ومسلمين ويهود وهندوسيين وغير مؤمنين. وفينا صبغة من كلّ ثقافة ولغة. وبالنسبة إلى العالم الإسلاميّ نبحت له عن سبيل جديد إلى الأمام يستند إلى المصالح المشتركة والاحترام. فأني قائد يهيّج الخصومات أو يلقي المسؤولية على الغرب فقط، فإنّ شعبه سوف يحكم فيه وفقًا لما سيّد، لا لما هدم".

¹⁷⁷. في خطاب حول مقاومة حرب العراق، 2 تشرين الأول (أكتوبر) 2002، نُشر في:

Newsweek special commemorative edition, 9 Februar 2008, 59.

¹⁷⁸. Barack Obama in Saddleback Presidential Forum, 16. August 2008

في حديث مع التلفزيون العربي "العربية" أكد أوباما في 27 كانون الثاني (يناير) 2009:
"بلغة الاحترام سوف نُعيد قيام الشراكة مع العالم الإسلامي".

في 19 حزيران (يونيو) 2013 سمعتُ الرئيس الأميركي أوباما أمام بوابة براندنبورج في برلين ينادي: "نحن نعلم عن خبرتنا الشخصية أن عدم السماحة يؤدي إلى الظلم، أكان ذلك على أساس الانتماء العرقي أو الدين، أو الجنس أو الشؤون الجنسية. جميع الناس بغض النظر عن منظرهم يجب أن يحصلوا على الحظوظ عينها. نساؤنا وبناتنا يجب أن تتسع لهنّ الإمكانيات عينها كما لرجالنا وأبنائنا. عندما نحترم إيمان الآخرين الذين يصلون في كنائس أو مجامع أو مساجد أو هياكل، نكون قابعين في أكبر أمان".

كان عبد الرحمن وحيد (1940-2009) مسلماً مؤمناً نشيطاً، دعا مدّة حياته كلّها إلى التزام السماحة، ودرح المتطرفين بوضوح إلى حواجزهم. في سنة 1999 صار أول رئيس منتخب بحريّة في أندونيسيا، ذلك البلد الذي يضمّ 237 مليون مواطن ويشكّل واحداً من أكبر بلدان إسلاميّة في العالم. جاء عنه: "إنّ من يدعي عني أنّي لستُ مسلماً بالقدر الكافي، فعليه أن يبدأ بتلاوة القرآن. إنّ الإسلام يؤيّد الانضمام والسماحة والمشاركة".

ليس عندنا سوى عدد قليل من العلماء الذين ينعمون الفكر العميق في صنع السلام ويعرضون اقتراحات عمليّة. منهم اللاهوتيّ الكاثوليكيّ الملتزم أستاذ جامعة توينغن هانس كونغ. في عام 1990 عرض ملحمته الشهيرة "مشروع أخلاقيّات عالميّة"، وهو أحد الأعمال الأساسيّة مع قواعد لالتزام السماحة والاحترام المبادل. الأديان في نظره هي حبال التحوّل في سبيل السلام العالميّ. فهو يبني أساساً جديداً ترتكز عليه قيم البشر المتوارثة المشتركة. وهو يرى أنّ الحوار أساسيّ، قبل كلّ شيء حوار القادة الدينيين.

مؤسسته التي عنوانها "أخلاقيّات عالميّة" تصف هدفه الكبير:

"أخلاقيّات عالميّة": هذا المشروع هو رؤيا تحوّل في الوعي شامل في مجال الأخلاق: البشر في العالم الواسع أو في الوطن أو في أماكن السكن، يحتاجون إلى تعايش سلميّ على أساس قيم أخلاقيّة ومقاييس ومواقف بدائيّة مشتركة. مثل هذه القيم موجودة في جميع تقاليد البشريّة الكبيرة الدينيّة منها والفلسفيّة. ليس من باب الضرورة أن نكتشفها من جديد، بل أن نجعل الناس يعونها من جديد، فإنّها يجب أن تُعاش وتسلّم إلى الأجيال الآتية. لذلك نحن بحاجة إلى حوار الأديان والثقافات، وخصوصاً إلى معرفة العناصر المشتركة في باب الأخلاق. وأيضاً إلى تربية على القيم تتعدّى حدود الثقافة الخاصّة. حتى على الأولاد أن يتلقنوا أنّ التعايش السلميّ

مرتبط على جميع الأصعدة بتنفيذ قواعد بدائية. ليس من مجتمع يستطيع أن يدبر شؤونه بدون أساس ملزم من القيم. منها وجود مؤهلات أخلاقية وثقافية متبادلة في القطاعات الاقتصادية. والعاملون في حقل التنافس الدولي بحاجة اليوم أكثر مما قبل إلى قواعد تتعدى الثقافات الخاصة، وسياسة دولية متأصلة في مجال الحقوق والأخلاق: فبدل التصادم العسكري يجب أن يقوم الجهد المشترك والانضمام".

إن برنامج "الأخلاقيات العالمية" يعود إلى مبادرة اللاهوتي السويسري أستاذ توبنغن هانس كونغ مع كتابه "مشروع أخلاقيات عالمية" (1990). "لا سلام بين الشعوب بدون سلام بين الأديان": هذه الجملة هي الفكرة الرائدة في نشاط هانس كونغ. بوحى "مشروع أخلاقيات عالمية" وافق في عام 1993 مجلس الأديان العالمية في شيكاغو على "التصريح حول أخلاقيات عالمية". لأول مرة في تاريخ الأديان الحديث تفاهم ممثلو جميع الأديان العالمية على عناصر أساسية لأخلاقيات مشتركة: هي مبدأ التعامل الإنساني، والقاعدة الذهبية في التعامل المتبادل، وواجب الحفاظ على عدم استعمال العنف، وعلى العدالة والصدق والشراكة بين الرجل والمرأة¹⁷⁹.

ندين لهانس كونغ بأنه ذكرنا بالمفهوم الأساسي لقاعدة ذهبية شاملة في التبادل:

- هي مثبتة في الهندوسية في ملحمة مهابهارتا 13: 114، 8: لا يجوز لأحد أن يتصرف حيال الآخرين تصرفاً لا يروق له هو نفسه. هذا هو جوهر الأخلاقيات.
- من أقوال الدين الهندوسي القديم الجاينية: ينبغي للإنسان أن يعامل جميع الخلائق في العالم كما يود أن يعامل هو نفسه.
- قال كونفوشيوس في أحاديثه: ما لم ترغب فيه أنت فلا تفعله لغيرك.
- في البوذية: إن كان هناك وضع لا يحلو لي ولا يفرحني، فلا يجوز أن يكون لغيري. وإن كان هناك وضع لا يحلو لي ولا يفرحني، فكيف يمكنني أن أعرض غيري له؟
- في اليهودية عن رابي هيلل: لا تفعل للآخرين ما لا تود أن يفعلوه لك.
- في الإسلام، في حديث عند النووي: لا يؤمن أحدٌ منكم إن لم يرد لأخيه ما يريده لنفسه.
- في المسيحية، في إنجيل متى عن يسوع المسيح: كل ما تريدون أن يفعله الناس لكم فافعلوه أنتم بهم (متى 7: 12؛ راجع أيضاً لوقا 6: 13).

¹⁷⁹ راجع: www.weltethos.org.

إنَّ مؤسَّسة هانس كونغ في سبيل أخلاقيَّات عالميَّة على حقِّ في أن نصبت في الوسط كرامة الإنسان التي لا تُمَسُّ. فبغضَّ النظر عن العرق والدين والجنس يجب أن يُعامل كلُّ إنسان من قبل الدولة وسائر البشر معاملة إنسانيَّة. من هذا أيضًا الصفح عن الأخطاء وممارسة المبدأ الدينيِّ في الرحمة. وتزيد المؤسَّسة على تحليلها المهمَّ المطالبة باحترام الحياة ومعاملة عادلة دون طمع وبصدق.

لا نستطيع إلا أن نوافق كونغ موافقة جليَّة، عندما يطالب بموقف روح جديد منفتح في سياسة الدُّول تجاه الأقليَّات والجيران. فالفرق في المواطنيَّة والعرق والدين لا يجوز من بعد أن تُعتبر خطرًا، بل أن تعدَّ كزيادة غنى ممكنة. فيجب إبدال العدوِّ الدائم بواسطة الفكر بشريك أو منافس. وأساس ذلك هي قيَمٌ مشتركة. هذا ما يعلمه كونغ¹⁸⁰.

هانس كونغ وُلد في سويسرا وهو أحد أهمِّ المفكرين حول نظام الأخلاق العالميَّة الجديدة الذي يستحقُّ أن نسعى وراءه. من عام 1960 إلى 1966 كان أستاذًا في اللاهوت في جامعة توبنغن. عام 1969 انتزع الفاتيكان منه الإذن بتدريس اللاهوت الكاثوليكيِّ. عن توصية منه عُيِّن اللاهوتيُّ الشاب يوسف راتسنغر عام 1966 أستاذًا في جامعة المدينة عينها. - هذا الكاتب الكبير كونغ، مؤلَّف كتب عديدة حول المسيحيَّة والإسلام، صار "بطلاً للسماحة" بعيد الأثر.

إنَّ نجم هانس كونغ طلع عندما دَبَّج نصًّا لقرار مجلس نواب الأديان العالميَّة الذي تمَّ الاتفاق عليه في 9 أيلول (سبتمبر) 1993 في شيكاغو. كانوا ستَّة آلاف مشترك، منهم مئتان يمثِّلون جميع الأديان، فاتفقوا في ساعة البشريَّة هذه الزاهرة على قرار أخلاقيِّ كامل شامل. يجدر أن يُقرأ هذا النص قراءة دقيقة، نصُّ السماحة والاحترام المتبادل:

انتقاد عالم ينازع والتزام أخلاقيَّات مشتركة. إنَّ العالم يتخبَّط في أزمة سياسيَّة. ولا توجد نظرة واسعة. الجميع في العالم متعلِّقون بعضهم ببعض. من هنا ينشأ احترام الناس والبيئة. البشريَّة هي أسرتنا. في تعاليم الأديان المختلفة توجد مجموعة مشتركة من قيَمٍ مركزيَّة تصلح كأساس للأخلاق العالميَّة. هذه الحقيقة المعترف بها يجب أن تمارس في الحياة بالقلب والفعل. كلُّ واحد يجب أن يفرض على نفسه احترام الفرديَّة والاختلاف وأن يعامل كلُّ إنسان معاملة إنسانيَّة. علينا أن لا نسمح لأن نظلَّ نحن أنفسنا أسرى ذكري البغض. بل يجب علينا أن نفتح

¹⁸⁰. راجع:

Hans Küng, Building an Open Mind, in : Toleranz, Vielfalt, Identität, Anerkennung, Alfred Herrhausen Gesellschaft, Frankfurt 2002, 153-154.

قلوبنا بعضنا لبعض وممارس ثقافة التضامن والمودة المتبادلة. ويفرض رؤساء الدين على أنفسهم أن يدعموا ثقافةً قيِّمها عدم العنف والاحترام والعدل والسلام.

وتشدّد الوثيقة على أنه يجب أولاً تغيير وعي الأفراد. فالأخلاقيات العالمية هي رؤية تدعم التعايش السلمي بين الشعوب والجماعات الإثنية والأديان المختلفة، وأساس أخلاقيّ لنظام أفضل. إنّ البشريّة لديها الآن ما يكفي من الموارد الاقتصادية والثقافية والعقلية لكي تُقيم نظاماً عالمياً أفضل. ولكن هناك عائق من قبيل إدارة سياسية متوسّطة القدرة ليس عندها الكثير من التبصّر والاستطلاع، وبسبب أجوبة قديمة عن مطالب جديدة.

- أيّ عناصر تتحد في الأخلاقيات العالمية؟ إنّ التصريح يذكر مجموعة مبادئ أخلاقيّة أساسية، كالتي نجدتها في وثيقة الأمم المتحدة:

من الضروريّ اللازم دعم حقوق الإنسان والحرية والعدالة والسلام والمحافظة على الأرض.

المبدأ الأساسي: "علينا أن نُعامل الآخرين كما نريد أن يعاملنا الآخرون".

زد على ذلك الالتزام بثقافة إقصاء العنف واحترام كلّ أنواع الحياة، وبثقافة التسامح والعيش بالصدق، وبثقافة التضامن، وبنظام عادل، وبثقافة التساوي بالحقوق والشراكة بين الرجل والمرأة.

بالنسبة إلى ثقافة التسامح يطالب قادة الأديان بوضع حدّ لتربّط المناسبات، والكذب والخداع، والإيديولوجيات وإثارة الشعب، وباكتساب وعي جديد للمسؤولية لدى وسائل الإعلام، وبتصرفٍ مُخلصٍ وعادل عند الناس¹⁸¹.

في 12 آذار (مارس) عام 1981 بمناسبة ذكرى مئتي سنة على نشر كتاب الفيلسوف الألمانيّ كانت عن "نقد العقل المحض"، تكلم المستشار الألمانيّ في ذلك الوقت هلموت شميت، وأشار إلى مبادئ الفيلسوف في كتابه "عن السلام الدائم". فقال إنّ موقفه من أخلاقيات البشريّة تنطلق من الحرية الأساسية للإنسان. فواجب إحلال السلام هو قاعدة أخلاقيّة مركزيّة، وواجب ممارسة القيم مرتبطة بالعقل الناقد. إحدى قواعد فكر كانت هو الأمر

¹⁸¹. راجع في هذه المقاطع:

Erklärung zum Weltethos, Parlament der Religionen, Chicago 4, september 1993, veröffentlicht in Deutsch von der Stiftung Welthethos, Tübingen.

الصريح القائل: "اسلك وفقاً للمبدأ الذي يجعلك تود أن يصير قانوناً عاماً للجميع". كان كانت يندر بأن السلام يجب صنعه، إذ إنه ليس وضعا طبيعياً¹⁸².

يشير هلموت شميت في مجموعة مقالاته بعنوان "الدين تحت المسؤولية" إلى إعلان بوتسدام حول السماح من قبل الملك البروسي فريدرخ الكبير. كان هذا قد استقبل في بلده البروتستانت أتباع الإصلاح الذين طردهم الملك الفرنسي لويس، وضمن لهم فيه حياة حرة مع الحريات الدينية. فالمستشار الألماني يطالب بما يلي: "علينا أن نرعى قناعات الإيمان لدى الآخرين ونحترمها، لاسيما عندما لا نستطيع أن نشاركهم إياها. نحن أولاد هذا العصر نقول: أنا أرى وأحترم ضميرك وقيمك الأساسية لأني أقدر كرامتك البشرية تقديراً كبيراً كما أقدر كرامتي الشخصية"¹⁸³. يسرد شميت للروماني مرقس أوراليوس قولاً جاء به قبل ما يقارب الألفي سنة: "جميع الناس أقرباء لي، من لحمي ودمي، وأيضاً من روحي. أنت نفسك بلا خطأ؟ اعتبر كم من الأمور تدين بها للآخرين".

المحافظة على السلام تقتضي ممارسة السماح، هذا ما قاله شميت أمام الممثلين الدينيين من ستين دولة إسلامية، وأشار في 24 تموز (يوليو) عام 1996 في القاهرة إلى اقتراحات مجمع العمل المتبادل في شهر أيار (مايو) في العام نفسه. علينا أن نتعلم أن نمارس السماح عن احترام. وكان شميت قد جاء في 22 آذار (مارس) 1996 أمام مجمع العمل المتبادل بالدليل التالي: "على الأديان المختلفة أن تتعاون بشدة كبيرة وتُقنع الدول والمنظمات المختلفة بالأخلاقيات الشاملة. وعلى المدارس ووسائل الإعلام أن تتبنى وتنشر اتفاق العالم الأخلاقي".

ويحرض هلموت شميت على وصف شرائع أخلاقية خاصة لوسائل الإعلام والمدارس والتجار والأحزاب السياسية وسواها من الجماعات المهمة، شرائع تقوم هي نفسها بتنظيم ممارساتها. وينبغي أن تُنشر بالإنترنت وغيره من وسائل النشر الحديثة مع وصفها بأنها أقوى عوامل التأثير. إن الأمور المشتركة بين الأديان العالمية هي أكبر مما يفرق. والتربية هي أفضل وسيلة لدعم السماح. أكد السياسي الخبير: "علينا أن نبدأ بما لدينا من الأساس الأخلاقي المشترك، لكي نحل القضايا الشاملة ونشيد نظاماً شاملاً أفضل، ونحصل على اتفاق في القيم والسلوك".

¹⁸². راجع:

Helmut Schmidt, Religion in der Verantwortung. Gefährdung des Friedens im Zeitalter der Globalisierung, Berlin 2011, 46-47, 65.

¹⁸³. في الكتاب المذكور قبله: ص 105.

مجمع العمل المتبادل وَصَّى عام 1996 باتِّخاذ مبدأين من إعلان الأديان العالميَّة في شيكاغو: كلُّ إنسان يجب أن يُعامل بإنسانيَّة، وعلى كلِّ شخص أن يتصرَّف دائماً تجاه الآخرين كما يودُّ أن يُعامل هو نفسه. ومن المدرسة إلى الجامعة ينبغي إغناء مواد التعليم بالقواعد الأخلاقيَّة الشاملة وبذلك دعم السَّماحة.

مجمع العمل المتبادل حُطِّط له وأنشئ عام 1983 على يد رئيس الوزراء اليابانيِّ السابق تاكيو فوكودا والمستشار الألمانيِّ السابق هلموت شميت معاً. في أوَّل أيلول (سبتمبر) 1997 نشر مجمع العمل المتبادل "مبادئ أساسية للتصرَّف الإنسانيِّ". في البند 1 جاء الاقتراح التالي: "كلُّ شخص أيّاً كان جنسه أو نسبه الاثني، أو مقامه الاجتماعيِّ، أو قناعاته السياسيَّة، أو لغته أو عمره أو شعبه أو دينه، مفروض عليه أن يعامل جميع الناس أن يساندوا كرامة جميع الناس الآخرين واحترامهم الشخصيِّ. - البند 4 يفرض على جميع الناس أن يتحمَّلوا المسؤوليَّة تجاه كلِّ شخص وفقاً للمبدأ القائل: ما لا تريد أن يفعل الناس بك، فلا تفعله أنت بأيِّ شخص آخر. - البند 15 يفرض على جميع ممثلي الأديان أن يدعموا السَّماحة والاحترام المتبادل بين جميع الناس.

في 21 أيلول 2001 وافق المجمع العام للأمم المتحدة على نظام مهمٍّ للمستقبل عنوانه: "نظام شامل للحوار بين الحضارات"، فيه إشارة إلى مبادئ الأمم المتحدة. بالرغم من عدم السَّماحة وأعمال التهجُّم كان هناك دائماً في التاريخ تعاون بناءً بين الحضارات. فيجب تعزيز السَّماحة واحترام التعدُّد على الأرض.

البند 1: يصف حوار الحضارات كمسار متوجِّه إلى ضمِّ القيم المشتركة وتلقيها المتبادل والاشتراك فيها. - البند 2 يذكر الأهداف بأنَّها تعزيز العدل والسَّماحة. ثقافات كثيرة تحتوي على تعاليم حكمة. فينبغي إيجاد قاعدة مشتركة وتطوير فهم أفضل للقيم الأخلاقيَّة المشتركة. - البند 4 يطالب بمساهمات عمليَّة على صعيد محليِّ ووطنيِّ ودوليِّ. في مجالات الثقافة والدين والتربية والإعلام والعلوم. - في البندين 5 و 7 تدعو الأمم المتحدة جميع العلماء والمفكرين والشبيبة إلى المساهمة في هذا العمل. وعلى الحكومات أن تدعم هذا الحوار وتساند المبادرات.

إنَّ هذه المحاولات الأولى لإيجاد أخلاقيَّة عالميَّة تؤكِّد وجود الإحساس المماثل والتفكير المماثل فينا. فمع وجود أديان وأعراف كثيرة مختلفة ومضيَّ آلاف السنين مع التطلُّورات الثقافيَّة في سبع قارات لبث البشر في قلبهم ونفسهم متشابهين.

السبب يكمن في طبيعة الإنسان ومخطَّط بنيته. جميعنا أتباع شجرة نسب إنسان عاقل. فقبل ما يُقدَّر بخمسين ألف عام هاجر أجدادنا المشتركون من أفريقيا واجتاحوا العالم كلِّه.

قَدِمَ أوَّلًا أجدادنا وجدّاتنا مرورًا بفلسطين إلى آسيا الصغرى وجنوبي أوروبا حتّى انجلترا وإلى القطب الشماليّ. نرح غيرهم مرورًا بفارس إلى أفغانستان والهند والصين. وقبل 20 ألف عام اجتازوا مضيق بيرنج، وكان في ذلك الزمان يمكن اجتيازه، إلى أميركا الشماليّة، وإلى بُعد آلاف الكيلومترات جنوبًا إلى رأس أميركا الجنوبيّة. قبل 10 آلاف عام فقط بدأ الناس يستقروّن ويبنون أوّل القرى والمدن. في الإنسان العاقل تكمن قدرة تناسل ضخمة. لذلك استطاع أن يجتاح العالم كلّهُ بدون سيّارة وقطار وطائرة وأن يبقى على قيد الحياة في الصحارى وفي مناطق الجليد، وأن يتغلّب على الطبيعة ويسود عليها.

نحن البشر آلة تفكير وإحساس من نوع خاصّ. فينا جميعًا يكمن الخير والشرّ. كما تكمن في الكون المادّة وضدّ المادّة. جميعنا نبعد 1500 جيل فقط من جدّنا القديم الذي من أفريقيا الشرقيّة. هذه سلسلة طويلة، ولكنها لا تزال تربطنا بشدّة إلى ماضيّنا البعيد. مقدّراتنا الهجوميّة حملتنا إلى نيويورك وبكين أو برلين. ينغرس فينا الشيطان والتهجّم الذي هو ضروريّ أيضًا لكي نستطيع أن نجتاح العالم.

مهيجو الشعب وأصحاب الإغواء التوتاليتاريّون يستطيعون أن يفتحوا عُلبه الشرّ والبغض في كلّ واحد منّا وأن يحوّلونا من أناس بسطاء إلى قتلة الكثيرين، كما تشهد بذلك الأمثلة التاريخيّة في دكتاتوريّة النازيين، وفي كمبوديا أو في الاتّحاد السوفيّاتي، شهادة واضحة للأعين.

أو نقرّر الالتزام بالخير. نحن أنفسنا هل نريد سلوك سبيل الخير. جميع القادة الدينيّين والأنبياء أعربوا عن توصياتهم في سبيل ذلك، منها القطع الذهبيّة من السماحة والاحترام.

بالرغم من جميع الفوارق الخارجيّة مقدّراتنا الوراثيّة هي كلّها متماثلة: عوامل الحياة فينا وإحساسنا وفكرنا وسلوكنا. نحن بشر. ولدينا من الداخل أيضًا أخلاقيّات.

جميعنا لدينا مهمّة هي أن نلجم الشرّ الهدّام فينا. وإلاّ هدمنا أنفسنا وجيراننا وبيئتنا.

نحن لا نحبّ ونبغض ونؤمن ونشعر ونفكر على نمط واحد، ولكن دائمًا على شكل متشابه وفقًا لمخطّط بناء الإنسان. من هنا تقوم الرغبة في الاحترام والسماحة الكامنة فينا. فيجب تنشيطها. وعلينا أن نتغلّب على القدرات المعاكسة الكامنة فينا، قدرات البغض وفكر التسلّط.

أغلبية الناس لديهم تصوّر ساذج من أنّ السماحة والاحترام المتبادل والسلام كلّ هذه تسود في القرية الشاملة على أنّها وضعّ طبيعيّ يظهر من ذاته ولا يحتاج إلى جهود خاصّة. هذا ليس من الصواب. إن لم نشط نحن، يصير الشرّ أقوى وتظلّ قوى الخير ضعيفة. لذلك علينا كلّ

يوم أن نشط ونكافح في سبيل عالم أفضل. التناغم في القرية العالمية ليس وضعًا طبيعيًا، بل يجب أن نجلبه دومًا من جديد. وذلك بفعل كل واحد منّا في مكانه في العالم. علينا أن نتغلب على نزاع الكسل في أنفسنا.

مقرّرات الأمم المتّحدة والمنظّمات المهمّة الأخرى، ومطالبة السياسيّين بممارسة السماح والاحترام ممارسة أشدّ تستحقّ الثناء. ولكن في الواقع لا تزال جماعة الداعين إلى السماح الصغيرة قابضة في إحدى الزوايا. هم منذرون قلائل وحيدون، ينتصبون مقابل الإدارات الكسولة المعادية للتجديد في وزارات الدفاع والخارجيّة. ومعظم السكّان يظّلون بدون تحرّك. أكثر السياسيّين يهتمّون خصوصًا بمناصبهم. وهم على كلّ حال شوكة في عين أصحاب الإيديولوجيّات التوتالتاريّة. ووسائل الإعلام لا تنشر عنها إلا القليل، لأنّ الأخبار السيئة وحدها تجلب انتباهها كالسحر.

إنّ أبطال السماح - من أمثال كونغ ونوسل وابن طلال - ليسوا للأسف سوى قلة. أموالهم في سبيل هذا العمل محصورة جدًّا ولا توافق أهميّتهم الخارقة. فإن لم نُعزّ انتباهنا فيصيب هؤلاء الصالحين من قبل السياسة غطاء رقيق من أشكال التكريم، ولكنهم يظّلون بالنسبة إلى التحقيق اليوميّ في نطاق السياسة الخارجيّة والأمنيّة، أمام أبواب موصدة. فها نحن ندعو ولكننا لا نشط إلا قليلًا في سياسة السلام.

قد أشار ميخائيل غلايس، المؤسس الملتزم لشبكة قضيّة السلام¹⁸⁴ إلى ثغرة في سياستنا في سبيل السلام: الجميع يعلمون كيف تُمارَس الحرب. ولكنّ القليلين يعلمون كيف يمكن صنع السلام والمحافظة عليه. فالعلم ووسائل الإعلام والسياسة موجّهة إلى الحرب. أمّا الأسلوب الطويل والمعقد لإحلال السلام فلا ينتصب في وسط الانتباه ولا هو قد تمّ درسه بشكل كافٍ¹⁸⁵.

لقد أنفقت الولايات المتّحدة الأميركيّة فقط لحربيّ العراق (800 مليار دولار) وللعمليات العسكريّة في أفغانستان (444 مليار دولار)، حتّى آذار (مارس) 2011 أكثر من 1200 مليار دولار¹⁸⁶. ولكن ما هو عدد المليارات التي أنفقت في العراق وأفغانستان لتعزيز القيم والسماحة والاحترام، وإحلال المصالحة القوميّة الضروريّة جدًّا بين فرق الشعب وبين أهل السنّة وأهل

¹⁸⁴ .www.peace-counts.org

¹⁸⁵ .Petra Gerster und Michael Gleis, Die Friedensmacher, München 2005, 197-198.

¹⁸⁶ . راجع:

Amy Belasco, The Costs of Iraq, Afghanistan, and Other Global War on Terror Operations Since 9/11, Congressional Research Service, March 29, 2011, 1.

الشيعة؟ أنفقت الولايات المتحدة حتى آذار 2013 791 مليار دولار لحماية أمن الوطن. ولكن كم أنفق من ذلك في سبيل تعزيز السماحة والاحترام في الداخل والخارج. هل كان ذلك 0.01 أو 0.1 بالمئة؟ ووزارة الدفاع الأميركية حُصص لها في ميزانية عام 2014 وحدها 618 مليار دولار.

إن مؤسسة شبكة الأمان العالمي المستقلة التي أسستها عام 2003¹⁸⁷ والتي تعدّ 21 قائد بحريّة وقائد جيش من بين أعضائها المستشارين، تعلّم بدقّة كبيرة: نحن دومًا بحاجة إلى قدرة كافية للدفاع، وهذا يكلف المال الكثير. فبدون صرف أموال في وسائل الدفاع نخلق فراغًا في السلطة، وتكون قوى الحرية لا عونًا لها، "والضعف المهيج" (كما قال فريتس كرامر) يُغوي آخرين لأن يهاجمونا"¹⁸⁸.

ولكننا نعلم أيضًا جيدًا أننا لا نستطيع بالوسائل العسكرية إلا جزئيًا وموقتًا أن نقيم وضعًا أوليًا للسلام. نستطيع أن نردّ بالتخويف وأن نحصر الشرّ، ولكننا لا نصل إلى جذور البغض. ننتصر عسكريًا في ساحة القتال. ولكن السلام الدائم ينشأ في قلوب وأذهان الناس. فبعد الانتصار يجب أن يبدأ عمل في سبيل التصالح يدوم عشرات السنين، عملٌ يحوّل الأعداء إلى خصوم والخصوم إلى أصدقاء.

لذلك نحتاج دومًا ولمعالجة جميع المنازعات إلى إستراتيجيات مزدوجة قائمة على حصر الشرّ وتعزيز المصالحة والانشراح.

مساندة السماحة والاحترام والتصالح في المناطق المتضرّرة يجب علينا من البدء أن نخطّط لها بالتزام ودقّة وأن نطبّقها كما نطبّق نشاطات عسكرية.

سياسة السماحة والمصالحة ليست سياسة ساذجة وقليلة الإدراك من قبل أناس صالحين، كهنة ودعاة سلام، بل هي مهمّة حقّة في سبيل السلام وجزء من كلّ سياسة خلاقة وفاعلة في سبيل الأمان.

أكثر الإستراتيجيات في سبيل الأمان والسلام لا تزال تستند تقليديًا إلى القوّة والدبلوماسية. نجاحها محدود بشكل واضح، ولكن التكاليف للهجوم العسكري والمحافظة على الأمان ضدّ

¹⁸⁷ .www.worldsecuritynetwork.com

¹⁸⁸ .راجع:

خطر الإرهابيين والمتطرفين، هي باهظة. منذ عملية الإرهاب في 11 أيلول عام 2001 أنفقت الولايات المتحدة أكثر من 7600 مليار دولار لحماية الأمان الداخلي والخارجي¹⁸⁹.

في أثناء اجتماع "القبة السوداء" عن مهاجمي مواقع الأنترنت كشف كيث ألكسندر مدير فرقة الأمان الوطني الأمريكي في 31 تموز (يوليو) عام 2013 عن أن إرادته أحببت حتى ذلك الوقت 54 هجومًا، منها 13 في الولايات المتحدة. هذا يعني مجموع نفقات مالية لجميع عمليات سياسة الأمان في الولايات المتحدة تبلغ 140 مليار دولار أو 584 مليار دولار عن كل هجوم تم إحباطه. هذا يدل على النفقات المالية الهائلة لرد هجوم إرهابي واحد، عندما يزداد عليها مجموع النفقات والاجتياحين في أفغانستان والعراق، والتخويف النووي لضبط خطر الإرهاب في العالم. فإن نظرنا فقط إلى النفقات التي قدرتها فرقة الأمان الوطني (وهي 635 مليار منذ 11 أيلول 2001)، نبلغ إلى نفقات قدرها 11 مليار دولار أمريكي، أي 48 مليارًا عن كل هجوم تم إحباطه.

علينا أن نزيد على سياستنا الأمنية والخارجية سياسة مصالحة بشرية عميقة تأتي بالسلام الدائم في البشر. نحن بحاجة إلى منطلق جديد بعيد الأثر: السلام بواسطة القوة زائد تصالح. السلام بواسطة القوة لا يزال لا غنى عنه. بدون سلطة تقع قوى السماح تحت تصرف إرادة غير المتسامحين وتكون سياستنا في سبيل السلام كنواة صالحة دون قشرة صامدة، وكلعبة في أيدي المتطرفين وعديمي الاحترام. ولكن بدون لآلئ السماح والاحترام والمصالحة تظل تلك القشرة القومية الثمينة فارغة لا معنى لها.

السلطان والتصالح يجتمعان معًا في استراتيجية جديدة مزدوجة قائمة على عمودين متساوين في الحقوق. نحن بحاجة إلى سياسة خارجية عصرية لبقة تضم العناصر الطرية في تشكيل السلام إلى سياسة فاعلة بعنوان "عالم رقم 3" كعمود ثانٍ. العناصر اللبقة يمكنها أن تساعد حتى على التوفير. إذ إننا بحُهد جليّ يمكننا أن نبلغ إلى قلوب وعقول الناس. العاملان: السلطان والتصالح، يجب أن يُخطط لهما منذ البدء باعتناء، ويُنسجا متداخلين، ويتوافقا ويمارسا على مدى طويل ويكون لهما التمويل الكافي. إستراتيجيات مجددة ومخططة على القدر الصحيح المزدوج من سلطان ومصالحة، وحدها تستطيع أن تجلب السلام الدائم إلى مناطق التنازع المختلفة في العالم.

¹⁸⁹ في حسابات مركز النفقات الأميركية يوزع المبلغ كما يلي: 5600 مليار لوزارة الدفاع، 1360 مليار لأفغانستان والعراق، 635 مليارًا للأمان الداخلي، 230 مليارًا للأسلحة النووية.

نحن بحاجة ماسة إلى توازن بين العوامل القاسية والعوامل اللينة في تحقيق السلام وإلى ممارسة جامعة. نحتاج أيضًا إلى برامج مليارات جديدة خلّاقة لتعزيز الاحترام والسماحة والتصالح.

ينبغي لنا أن ندخل حكميات مفكرين كبار في سياسة السلام اليومية. فقد أُنذِر ألبرت أنيشتاين عن "أن قدرة التصوّر أهم من المعرفة". وأيضًا: "لا يمكن حلّ المشاكل على مستوى الفكر عينه الذي سببها أصلًا". نحتاج إلى وعي جديد للعالم، وإلى سياسة طريّة فاعلة بعنوان "عالم رقم 3" تركز على التصوّر وقدرة الإبداع.

ينقصنا حتّى الآن وعي للمشكلة ومخطّط عمل. العناصر اللينة في عمليّة إحلال السلام ينقصها التمويل الكافي، ولا تزال قائمة في مؤخر العمل السياسي، سياستنا الخارجية والداخلية. أحيانًا تبدو كأنّها تغطية للضمير السيء ومجرد جزء من خطابات الأُحد والأعياد، بدلاً من أعمال أصحاب السياسة عندنا.

سياسة السماحة على مدى العالم يجب الآن أن تعامل حسنًا بطريقة عمليّة وملتزمة فيخطّط لها وتُمارَس وتُموّل كما هو الوضع بالنسبة إلى صيانة البيئة.

ينبغي لنا أن نخصّص في حسابات الدول لأجل الأمان الداخليّ على الأقلّ اثنين بالمئة لتعزيز برامج القضاء على التشنّد وبرامج المصالحة، وثلاثة بالمئة على الأقلّ للعمل في الخارج ولدفع أموال لمساعدة البلدان النامية، ودفعها في صندوق خاصّ "لتعزيز السماحة والتصالح الوطنيّ". بذلك ينبغي أن تموّل الأحداث المثالية في المناطق المتعبّة. ومجالس النواب يمكنها أن تُدخل هذا العمل الجديد في نطاق سياسة الشؤون الخارجية والأمان، في المشاورات حول الميزانية.

القسم السابع

شرائع السماحة مع وقائع مثاليّة

غالبًا ما يتخيّل لنا أنّ السماحة والسلام والمحبة تسود عندما نكتفي بضمّ أيدينا والامتناع عن العمل. غياب اندفاعنا ينجم عن الظنّ الخاطئ أنّ السماحة هي موقف طبيعيّ. لكنّ السماحة ليست وضعًا طبيعيًّا، بل يجب اكتسابها من جديد يوميًّا وفي كلّ مكان، كما جاء في تعبير محوّل من الفيلسوف إيمانويل كانت.

هذه المهمة تذكّرني بسؤال وجهته سيّدة من نيويورك إلى لوردٍ صادفناه معًا على عشاء في معهد كينغ في أوكسفورد. أرادت أن تعرف كيف يقوم الاهتمام بالعشب الأخضر الجميل في المعهد. أجاب اللورد: هذا بسيط جدًّا، يا سيّدي. عليهم فقط أن يقصّوه ويقصّروه كثيرًا مرّتين في الأسبوع، وأن يدحلوه مرّة، وفي فصل الصيف أن يرشّوا عليه السماد مرّة في الشهر، وأن يفعلوا ذلك مدّة 500 سنة". علينا أن نعتني بالسماحة ونمارسها يوميًّا في قريتنا الشاملة الصغيرة. بهذا المسلك الصعب يمكن أن تثبت رويدًا رويدًا على مدى عشرات السنين أخلاقيّات عالميّة جديدة مُعاشة من جذور عشبها، وأن تزهر المحبة والتناغم في قريتنا العالميّة. فإنّنا إن لم نعتنِ بعشب السماحة، يتوحّش ويتغلّب عليه زؤان البغض.

علينا أن نسقي يوميًّا أعشاب السماحة الناعمة ونعتني بها في واقع الحياة، لكي تظلّ خضراء وتنمو. ما يجب أن يكون نقطة الثقل في أخلاقيّات السماحة في القرن الحادي والعشرين هو القيام بالآلاف من أعمال الاهتمام بالعشب محليًّا وعلى شكل فسيفساء، ومن الأمثال الإيجابية كوسائل لتحقيق تعايش خير.

نحتاج إلى انطلاقة عالميّة جديدة، إلى تسونامي تدفع السماحة. في الوعي العالميّ، وفي الرأي العام لا يزال (بعد) هدف السماحة غائبًا. المحاولات الماضية ليست كافية حتّى الآن ومفاعيلها ضعيفة. نحن الآن في بدء الانطلاقة.

لا يستولي على برنامج العالم صانعو السماحة، بل خطباء البغض والمتطرفون القلائل، لأنّ الأكتريّة والنخبة في البلدان لا يقومون بمسؤوليتهم في سبيل تعزيز عالم متناغم، ويظلّون خامدين.

شرائع السماحة نشأت في السنوات الأخيرة من محادثات عديدة في العالم كلّه مع قادة دينيين وسياسيين وعلماء وسكّان يدعمون منذ سنوات طويلة التعايش السلمي في قريتنا العالميّة.

كثير من المحاولات الزاهية في سبيل السماحة هي نظريّة جدًّا. مطالب الأمم المتحدة السياسيّين تظلّ حبرًا على ورق، إن لم يطبّقها ويمارسها أناس يشعرون بالمسؤوليّة.

نحتاج إلى أحزمة تحويل فعّالة، تحوّل الأفكار الذهبيّة إلى وقائع. نحتاج إلى كثير من الجسور المحليّة السالكة بين الخطب الدينيّة ومطالب السياسيّين وبين الناس في أماكنهم.

نحتاج إلى أمثلة منيرة متعدّدة للسماحة في السياسة والعلم والثقافة والرياضة ووسائل الإعلام، وإلى مُثُلٍ للتصالح، وأكثر من ذلك إلى أبطال السماحة. من جميع أجزاء الأرض ومن جميع الأديان. بهذا فقط نستطيع أن نكسر في مناطق المنازعات في العالم درع عدم الثقة والبغض، ونحقّق سلامًا مستديمًا. المطالبة بمزيد من السماحة يجب أن تتحمّلها دوائر العلماء والسياسيين في مشاريع عمليّة.

شرائع السماحة هي تحريض على الفهم والدعوة الفاعلة في سبيل التسامح والاحترام تجاه الأديان والأعراف والأقليات الأخرى. إنّها تعوّل على هذه الفرق الثلاث، لأنّ فيها تبدو بشكل أشدّ حاجة ماسّة إلى قواعد في السماحة والاحترام.

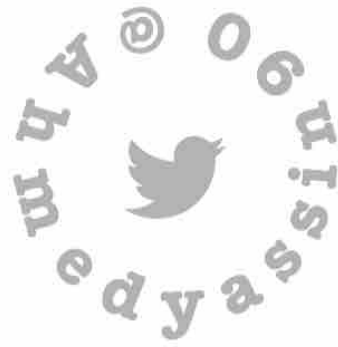
الشرائع يعبر عنها بطريقة شاملة، وتصحّ لجميع الناس: للمسيحيّين في كولونيا أو روما، كما للمسلم المؤمن في مكّة أو قائل، أو الهندي في مومباي.

تتوجّه الشرائع هذه إلى النخبة المسؤولة في بلاد الأرض البالغ عددها 193، التي كانت حتّى الآن في أكثر الأحيان راكدة تُفسح المجال للمتشدّدين. وتدعو إلى الإقبال على العمل وإلى موقف الشجاعة، دعوةً موجهةً إلى أكتريّة بورجوازيّة قابعة في أغلب الأحيان في مادّيّة بحتة.

بعد عرض شرائع السماحة لكلّ واحد منّا، تُعرض شرائع موجهة إلى جماعات مهمّة، لها تأثير كبير على تطوّر السماحة والاحترام على الأرض: هم النخبة، والمربّون والقادة الروحيّون والسياسيون. وفي الختام تُذكر أمثال تستحقّ الثناء من قطاع الرياضة البدنيّة وقطاع الثقافة. الشرائع الستون تُزاد عليها مئة من الوقائع المثاليّة. هذه القواعد هي مقترحات من العالم كلّه، يستطيع كلّ واحد أن يزيد عليها. تدلّ القارئ كيف نجح أشخاص في العالم كلّه بتحقيق المطالب

عملياً. هذا ينعش الأمل ويبين أنّ السّماحة يمكن البلوغ إليها. بهذا تقوم في الوقت نفسه إشارة إلى جسر يمكن اجتيازه من نظرية السّماحة المجردة إلى السلوك العمليّ. بواسطة سلسلة من ردود الفعل التي نطلقها نستطيع أن نجعل السّماحة تنمو أكثر فأكثر، وأن نُقصي الشرّ.

لا تدّعي شرائع السّماحة التالية أنّها دستور أخلاقيّ كامل. هي أوّل اقتراح عمليّ وتحريض على النشاط على مثال الوقائع المثاليّة. ينبغي أن تُكَمَل وتتطوّر. كلّ واحد يمكنه أن يلتحق بجماعة شرائع السّماحة على الفاس بوك وأن يدلي على موقعنا www.codesoftolerance.com بأفكاره واقتراحاته في سبيل شرائع إضافيّة للسّماحة وأن يذكر وقائع مثاليّة جديدة في البريد الإلكتروني [.info@codesoftolerance.com](mailto:info@codesoftolerance.com).



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل الأوّل

شرائع السماحة لكلّ واحد منّا

1. تقبّل نشاط السماحة. أدّ كلّ يوم بإشارات صغيرة تجاه أشخاص غريباء مساهمتك الشخصية في سبيل عالم أفضل، "بقلب يفكر ويهم يحب". ضع حَجْرَكَ الصغير في فسيفساء التسامح العالميّة، وأفضّ بذلك أنت نفسك على أرضك ولو بقدر قليل شكلاً إنسانياً. أعمالك الصالحة هي مثل نقاط ماء، إن انضمت إلى أفعال الآخرين الصالحة الكثيرة، ألّفت معها نهراً وفي النهاية مجرى عريضاً هداراً. لا تنتظر إلى أن تتحرّك حكومتك أو آخرون. كُن أنت نشيطاً وعامل الناس من حولك المنتمين إلى إيمان آخر وأقليّة وعرق آخر، دائماً بأدب خاصّ وباحترام وإنسانيّة. غادر الجماعة الخاملة والأكثريّة الصامتة. انشر دعاية في سبيل سماحة واحترام بقدر أكبر. لا تترك المجال للقلائل المتشدّدين وخطباء البغض. وقم بالمساعدة في بناء أخلاقيّات عالميّة جديدة، وشرائع السماحة ومحبة للناس ممارسة. اسلك وفقاً لقاعدة السماحة الذهبيّة الأساسيّة: عامل كلّ شخص كما تريد أن تُعامل أنت بكرامة وتغاض عن مواضع ضعفه وقناعاته. لأنك في أيّ وقت وفي أيّ مكان تكون أنت أيضاً أقليّة. عند ذلك تحتاج أنت أيضاً إلى تسامح واحترام تجاهك. لا تستطيع أن تطالب لنفسك بالتسامح، عندما لا تكون أنت نفسك متسامحاً. السماحة قطعة نقود بوجهين. قابل جميع الأولاد وكلّ الشبيبة باحترام ومودة. حدّثهم أيضاً عن ضرورة السماحة. فإنهم هم ملح الأرض ومستقبلنا عامل الناس دائماً وفي كلّ مكان معاملة إنسانيّة، وكن أنت نفسك كلّ يوم بفضل أفعالك الإنسانيّة الصغيرة أكثر إنسانيّة. اصفح عن الأخطاء الصغيرة وكن رحيماً. اقبل أن يكون الناس مختلفين جدّاً، وواجه بالتقدير تنوع البشر كأمر يغني حياتك الخاصّة. هذا مخطّط الله أن يكون هناك نبات وحيوانات وبشر على اختلاف كبير فيما بينهم

بالتصورات والعادات. تصوّر كم تكون أرضنا مُملّة إن وُجد فيها سبعة مليارات من أشخاص متشابهين، منظرهم وتفكيرهم وإحساسهم مثل ما أنت عليه.

6. كن حريصًا على قناعاتك، ولكن كن أيضًا لطيفًا جدًّا ومهذبًا، كي لا تجرح إحساسات غيرك.

7. كن متواضعًا، فإنّ الشمس لا تدور حولك، بل الأرض كلّها مع البشر تدور حولها.

8. كن متسامحًا محبّة لذاتك، فإنّ من يفعل الخير يصير هو نفسه إنسانًا أفضل وأشدّ سعادة. هذا يحزرك من ثقل البغض ويفتح قلبك. إن كنت أنت تحيا متسامحًا ومليئًا بالاحترام، تلقى من الآخرين هديّة اللطف والهناء.

9. لا تتسامح مع الآخر في وطنك تسامحًا متعمقًا فقط، بل تخطّ ذلك إلى أبعد. تأهّل به وتعلّم منه. ومارس المثلّ القائل: تمّتّع بالحياة ودع من سواك يتمتّع بها. بذلك تصير أنت نفسك إنسانًا أفضل وأشدّ سعادة.

10. اجتهد أن تعرف أديانًا وثقافات أخرى وطرق التفكير المختلفة في العالم. هذا غنّى لك، وتصير أنت أيضًا أكثر مهارة دوليّة ونشاطًا خلّاقًا ونجاحًا.

11. اهدم جدران عدم الثقة. بادر أنت إلى لقاء الغرباء. وأفسح لجميع الناس فرصة ثانية. اكبتّ الشعور السلبيّ القائم على البغض وطلب الثأر. حوّل أعداءك إلى خصومك، وخصومك إلى أصدقاء جُدّد لك. لا تظّل عنيدًا مريبًا وحيدًا. حرّر نفسك ومدّ للعدوّ القديم يد المصالحة. فالتصالح بلسم تستطيع أن تشفي به ذكريات سيئة وأن تحرّر نفسك.

12. كن سخيا قدر المستطاع لأنك بذلك تفتح قلب الإنسان شريكك وتجعله، ليس فقط هو وحده، بل أنت أيضًا أشدّ سعادة.

13. آمن بدينك ومجدّ إلهك وكرم دينك، ولكن لا تُكره أحدًا على ذلك. فإنّه لا إكراه في الدين.

14. جميع الأديان تفرض المحبّة والرحمة. من يقترف باسم دينه أفعالًا غير إنسانيّة، يشوّه إيمانه ويشتم إلهه.

15. عليك قبول الخلافات بين المسيحيين والمسلمين واليهود والبوذيين والهندوسيين. ابحث عن الأمور الجيدة المشتركة. لا تعتبر أبدًا المؤمن الآخر عدوًّا لك، بل دائماً مؤمنًا معك، يؤمن هو أيضًا بالله، ولكنّه يؤمن على غير طريقته.

16. التمس الله بواسطة الناس شركائك.

17. طالع واقبل قطع التسامح الذهبيّة في دينك، والتعاليم المدوّنة في الكتب المقدّسة عن محبّة البشر والرحمة. فُكّر وعِش كمؤمن صالح، لا كمؤمن شرّير.
18. لا تجرح أبداً كرامة البشر رفاقك لأسباب سياسيّة أو دينيّة. هنا يمتدّ حاجز أحمر.
19. كن أنت واثقاً من نفسك، فإنّ الذي يكون واثقاً من نفسه يمكنه وحده أن يكون متسامحاً. فتعلّم أولاً أن تعرف نفسك وتقدر نفسك. تغلب على مخاوفك وقلقك. انتصب وكن إنساناً واثقاً من نفسه يساعد الآخرين، كمنارة للسماحة.
20. تعلّم لغات جديدة واحترم العادات، إن كنت تعيش في بلدٍ ما كأقليّة. وكن فخوراً بأصلك وجذورك ووطنك الجديد.
21. جاهد بنشاط ضد قوى البغض والعنف المظلمة التي تريد أن تدمرّ قريتنا الشاملة. فلا مجال للتسامح تجاه عدم التسامح. كن شجاعاً. ولا تحوّل بصرك إلى جانب. كن أنت نوراً صغيراً للسماحة في جماعتك.
22. كافح دوماً بشجاعة ضدّ الأنظمة والإيديولوجيّات التوتالتاريّة وساند مبادئ وثيقة الأمم المتّحدة. الأنظمة التوتالتاريّة لا تتفق والسماحة تجاه التعدّد. وحدّها الدول التي تحقّقت فيها القواعد الأساسيّة لوثيقة الأمم المتّحدة، يمكنها أن تنشئ السماحة.
23. حبّ الوطن جيّد. ولكنّ الوطنيّة المتكبّرة الصرف والتعصّب المختال وبغض الأعراق المختلفة، كلّ هذا سمّ لبلدك. فإنّها تدرح بلدك في مواجهة وفي حرب.
24. الإرهاب الذي يجرح ويقتل بعنف المدينين، هو ثمرة إيديولوجيّات البغض. وليس له أيّ مبرّر. فإنّ الهدف لا يبرّر الوسائل، بل إنّ وسائل الإرهاب تمحو وجه الخير عن كلّ هدف مهما كان صالحاً.

وقائع مثاليّة

1. كيف أستطيع أن أبدأ؟ حلّل قبل كلّ شيء نفسك. ثمّ تلحق علاقتنا بالناس الآخرين. السماحة والاحترام يفرضان كأساس وجود توازن شخصي في الداخل، بعكس الفشل والبغض،

ووجود وعي للذات صحيح. ويساعد أيضًا الإيمان الحقيقيّ الصالح. فإنّ الذي لا يحتمل نفسه، لا يقدر أن يكون متسامحًا. والسلام يجب على كلّ واحد أن يجده أولًا في ذاته.

2. لا تُهَمّ الكلمات والمقاصد الكبيرة، بل الأفعال الصغيرة كلّ يوم. هي حجارة الفسيفساء الصغيرة لتعايش متناغم، التي تغيّر العالم: بسمّة ومساعدة صغيرة، أو دعوة لشخص غريب أو حديث لطيف. فالسماحة الصغيرة لها قيمتها: مليارات من الأفعال الصغيرة الصالحة تجعل العالم أصفى مودّة. فلو كان كلّ إنسان يقابل كلّ يوم غريبًا بلطف، لحصل من ذلك في 365 يومًا من قبَل 7 مليارات شخص ما يعادل ألفي مليار و555 مليارًا من حجارة الفسيفساء الصغيرة سنويًا. هذا يؤثّر أكثر بكثير من مقرّرات جديدة للأمم المتّحدة أو خطاب لرئيس دولة. بذلك ننشئ كلّنا معًا عالمًا متسامحًا.

3. يمكننا أن نتقرب بعضنا إلى بعض بواسطة أمور صغيرة مشتركة. في الإفطار في شهر الصيام رمضان دعت في عام 2013 في بريطانيا عائلات مسلمة كثيرة عددًا من مؤمني الأديان الأخرى في مدينتها إلى منازلها. ونظّمت بذلك حفلة تعارف. وقد نظّم هذا التعارف مؤسسة .Dine@Mine

الفصل الثاني شرائع السماحة للوالدين

1. عامل كل ولد كما تعامل ولدك الخاص - بكثير من الحب.
2. لا تربأ أحدًا من أولادك على البغض، بل لئن أحترام الحياة والإيمان والثقافات الأخرى. هب ولدك قيمًا لسبيله في الحياة: الاحترام والسماحة والعطف وحبّ القريب. علمه شرائع السماحة المذكورة الموجهة إلى كل شخص.
3. احرس ولدك من إغراءات خطباء البغض المتشددين، وقم أنت في وجههم بحزم.
4. ينبغي أن يربى أولادك على وعي الذات وفي الوقت عينه على الرفق، فإنه بهذا فقط يبدو التعايش ممكنًا.
5. ينبغي لأولادك أن يلعبوا مع أولادٍ ينتسبون إلى فرقٍ دينية أو إلى فئاتٍ إثنية أخرى، وأن يتعرّف بعضهم على بعض في المساكن وفي روضة الأطفال أو في المدرسة.
6. أولاد النازحين عليهم في وقت مبكر جدًا وبطريقة مسلية أن يتلقوا عناصر ثقافتهم الخاصة وعناصر ثقافة البلد المضيف وأن يتعلموا اللغتين كليهما كجزء من شخصيتهم الخاصة. وعليهم إلى ذلك أن يتعلموا لغة إضافية، لاسيما اللغة الإنجليزية. فإن اللغات الأجنبية جسور مهمة تمهد الوصول إلى ثقافات وذهنيات غريبة. والأمهات أيضًا ينبغي لهنّ أن يتعلمن لغة البلد ويعلمنها أولادهنّ الصغار. فعليهنّ تقع المسؤولية عن أولادهنّ، هل يكون هؤلاء منفتحين لتقبل ثقافة أخرى وأسلوب عيش آخر في وطنهم الجديد، أم يحيون منعزلين.

وقائع مثاليّة

1. ادعُ أيضًا أولادًا من أديان وأعراق أخرى إلى اللعب وخصوصًا في عيد ميلاد الأولاد، واطرح لأولادك الفوارق.
2. لا تحصر ولدك في فريقه الأخلاقي والديني، بل ابنِ جسورًا. ودعه يندمج في فرق الرياضة البدنيّة والشبيبة مع آخرين.
3. نظّم تمارين رسم مشتركة لأولاد من جماعات مختلفة، وساند عمليًا فرق الشبيبة.
4. اجعل ولدك فخورًا بجذوره ولغته ودينه، لا متكبرًا.
5. ساند بشجاعة في روضة الأطفال والمدرسة تعلّم الاحترام والسماحة وزيارة معابد صلاة أخرى. تدخّل إن تخيل لك أنّ أولادًا آخرين يعاونون الإقصاء.
6. أبرز بصفة والد في ساحة الرأي العام وساند مبادرات محلية تعزّز التعايش. إنّ مؤسّسة "أمّهات الحارة" تقدّم مثلاً في مُدن ألمانية مختلفة أسرًا من النازحين كمرشدات في منطقتهنّ، وتهيئ لهنّ المساعدة للتأقلم في الوطن الجديد (www.stadtteilmuetter.de).

الفصل الثالث

شرائع السماحة للمريين والمدارس

1. التربية أفضل سلاح ضدّ عدم التسامح. كلّما ازدادت قدرتنا على أن نعرف أنفسنا وعاملنا المتنوع وشركاءنا البشر من حولنا، كلّما ازداد فينا وعي ذاتنا وتواضعنا.
2. التربية على المحبة واللفظ والاحترام تجاه الوالدين والأصدقاء والأشخاص الآخرين تنتج السماحة. ينبغي لنا أن لا نكتفي بتلقين علوم المعرفة، بل أن نلقن أيضًا علم عاطفة القلب والمسؤولية.
3. تخطيط الله للتعدّد بين الناس وفي الطبيعة يجب أن يكون جزءًا من تدريس الأخلاق. فقيم الأخلاقيات العالمية وشرائع السماحة، وكذلك وثائق الأمم المتّحدة الأساسية والمؤتمرات المشتركة بين الأديان مثل مؤتمر شيكاغو 1993 ينبغي أن تكون جزءًا من برامج التعليم في المدارس. فغاية التربية ينبغي ألا تكون صهر الاختلافات وتسوية الشبيبة، بل العناية بالتعدّد.
4. يجدر بالمدارس أن تلقن معرفة أساسية حول الأديان والثقافات الأخرى، خصوصًا إن كانت هذه جزءًا من عالم الاختبار في الحياة لدى الشبيبة. فالتحدّث إلى ممثلين للأديان الأخرى والأقليات لا غنى عنه وينبغي أن يكون قسمًا من التدريس.
5. الكتب المدرسية يجب عليها أن تتضمّن مقولات مركّبة باعثناء، وينبغي أن لا تثير أحكامًا مسبقة ضدّ الأديان والأقليات الأخرى. عليها بالأحرى أن تبين ما هو مشترك وجيد.
6. اللغات مفتاح العالم. فعلى المدارس ليس فقط أن تلقنها تلقينًا آليًا فقط، بل أن تطوّر الإحساس تجاه العادات والتصرّفات الأخرى. جميع الطلاب ينبغي أن يتقنوا قدر الإمكان استعمال اللغة الانجليزية، لكي يكتشفوا العالم بالأسفار واستعمال الانترنت. ثمّ إن برامج تبادل الطلاب لها أهمية خاصّة بالنسبة إلى فهم للعالم منفتح.
7. في المدرسة وفي فرق العمل ينبغي للطلاب أن يتعلّموا كيف يواجهون النزاعات بطريقة سلمية، وكيف يتحمّلون مسؤوليات.

1. إنّ لجنة الكتب المدرسيّة الألمانيّة - الفرنسيّة نالت دعمًا من قِبَل المعهد الشهير، معهد جورج إكّرت للبحث الدوليّ في الكتب المدرسيّة في بروانشفايك. وفحصت الكتب المدرسيّة في البلدين المتعاديّين قبلاً ألمانيا وفرنسا. فأسقطت فيها أحكام مسبّقة ضدّ البلد المجاور وتمّ تحرير تاريخ أشدّ موضوعيّة لخدمة الطلّاب. والمعهد المذكور يدعم أيضًا بلادًا أخرى في وضع برامج تعليميّة موزونة (www.gei.de).

2. "المعهد العالميّ للاختلاف" التابع للمنظمة الأميركيّة ضدّ الإساءة إلى الصيت يساند برامج مختلفة في عدّة بلدان تدعم التفهّم للتعدّد (www.adl.org).

3. في شماليّ إيرلندا تبذل المبادرة المدعوّة "التربية على التفاهم المتبادل" جهودًا في سبيل المصالحة بين الأولاد البروتستانتيين والكاثوليك. وفي عام 1990 بمناسبة إصلاح للتثقيف أُدخل هذا البرنامج في المدارس. (www.ulst.ac.uk).

4. في عام 1919 تمّ في هولندا تأسيس "الفريق الدوليّ للمصالحة" (IFOR). هذه المنظمة العالميّة تنشر في 53 بلدًا الدعوة إلى تصالح محسوس وتفاهم. من المشاريع الكبيرة مجمع المصالحة في كلّ أفريقيا، والمبادرة الشرق الأوسطيّة في سبيل عدم العنف وأشكال الديموقراطيّة.

5. إنّ الفرق المختلطة اليهوديّة العربيّة الثابتة لحركات "الصوت الواحد" في رام الله وغزّة وتل أبيب تدعم المصالحة في الأرض المقدّسة. بالاتّفاق مع وزارة التربية الفلسطينيّة أطلقت هذه المنظمة مسابقة في الإنشاء اشترك فيها أكثر من ألفي طالب. كان الموضوع هو التالي: "تصوّر المستقبل الجميل في فلسطين عام 2018". وفي إسرائيل أيضًا نُفّذت بالتعاون مع وزارة التربية مسابقة في الإنشاء وصف فيها أولاد إسرائيليّون تصوّراتهم لمستقبل سلميّ (www.onevoicemovement.org).

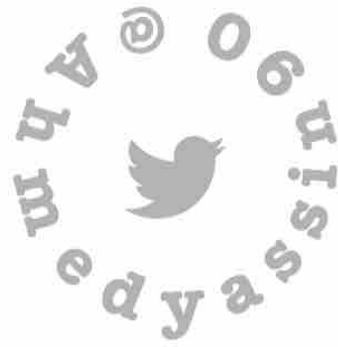
6. نشرت في ألمانيا عدّة كتب تدريسيّة تساند التفهّم للأديان الأخرى. منها: "كيبا وكأس وقرآن. التلقّن بين الأديان مع شهادات من الأديان العالميّة"، و"سبُل إلى النور. الأديان العالميّة"¹⁹⁰.

7. "تعليم السماحة": هي مجموعة مواد ومجلّة للطلاب الأحداث من أمباما في الولايات المتّحدة. فيها يأتي الكلام عن التطرف والأحكام المسبقة تجاه الآخريه. وتدلّ على طرق التربية على السماحة (www.tolerance.org)

8. في إنجلترا تقوم مؤسّسة بالدعاية لأساليب التسامح وعددها 88. (www.toleranceinternational.org)
"وبرنامج تقبل السماحة للشبيبة" يعلم شباناً وشابات عن الكفاءات الأخلاقيّة والثقافيّة.

¹⁹⁰. راجع:

Clauss Peter Sajd, Kippa, Kelch, Koran. Interreligiöses Lernen mit Zeugnissen der Weltreligionen, München 2010. – Werner Trutwin, Wege zum Licht. Die Weltreligionen, Düsseldorf 1996.



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل الرابع شرائع السماحة للقادة الدينيين

1. قادة الأديان المختلفة يتحملون مسؤولية خاصة جداً عن دعم الاحترام المتبادل والتقدير الواجب تجاه طرائق دينية أخرى وأقليات إثنية وأعراق أخرى. إن الوثيقة النهائية لمؤتمر الأديان العالمي المنعقد في شيكاغو عام 1993 باشتراك ستة آلاف موفد كانت دليلاً مهماً على السبيل إلى تعايش مليء بالاحترام. فافتراحاتها ينبغي أن تُمدّها حياة كلّ قائد ديني في موطنه.

2. يجب أن يحتلّ الإنسان كخلقة الله موقف الوسط في مجال الدين، فمؤسسو جميع الأديان العالمية دعوا دائماً إلى احترام هذه الخليفة. فمحبّة البشر هي مقياس كلّ محبّة لله. وكرامة الإنسان لا تُمسّ.

3. المغالون والمتشدّدون الذين ينظرون من علّ إلى الآخرين ويدعون إلى التصادم، لا يجوز أن يكون لهم مُقام في الكنائس والمجامع والمساجد. فإنّهم يدنّسون بالبغض الكلمات المقدّسة. "السلام عليك".

4. كلّ مسلك الإنسان وخطاياها خاضعة لوصيّة رحمة الله. الله وحده، لا الإنسان، يدين الخطأة. فأبي إنسان ينصب نفسه مكان الله كديان أعلى للخطأة، يكون قد جاوز حدود دينه.

5. ينبغي للقادة الدينيين أن يدعموا بمثلهم الصالح وبشجاعة التعليم الصحيح الصالح، وأن يدعوا إليه بنشاط ويعاملوا كلّ شخص معاملة إنسانية مليئة بالاحترام. حيث تسود مخالفة المعاملة الإنسانية، تجب أيضاً الإشارة الواضحة إلى ذلك.

6. يجب توسيع الحوار بين الأديان وممارسته في أماكن السّكن. بذلك ينشأ الفهم، ومنه الثقة والمعاملة الإنسانية.

1. في عام 2010 أُلقي بقرب المدينة المقدّسة بيت لحم حريقٌ في مسجد. واحتُرقت نسخ من مصحف القرآن الكريم. فقام الرابي اليهوديُّ فرومان من مدينة تقوع الإسرائيليّة وأهدى إمام المسجد نسخة من القرآن كعلامة احترام وتضامن.

2. ألبانيا هي البلد الوحيد في أوروبا الذي فيه أكثرية مسلمة. كان هذا البلد عام 1945 الدولة الوحيدة في أوروبا التي عاش فيها ونجا من اليهود عدد أكبر ممّا كان فيها قبل بدء احتلال البلقان، على يد النازيين. نازحون يهود من اليونان وسلوفاكيا والنمسا وجدوا هناك مخابئ عند المؤمنين المسلمين ونجوا من الجنود والشرطة السريّة النازيّة. في ذلك الوقت كان عدد سكان ألبانيا 800 ألف شخص، منهم 70 بالمئة مسلمون و20 بالمئة مسيحيّون أرثوذكسيّون، و10 بالمئة مسيحيّون كاثوليكيّون. لم يكن في البلد سوى 200 يهوديٍّ عندما تدفّقت من النازحين اليهود أعداد تعادل عشرة أضعاف هؤلاء السكّان. فنجا جميعهم. كانت الأسر المسلمة تخبئ اليهود رغم الخطر على حياتها في منازلها. لماذا؟ نظلة ألا الذي خبأت أسرته عددًا من اليهود، يروي عن ذلك في كتاب المؤلّف نورمَن غِرْشمان: "مسلمون أنقذوا يهودًا في الحرب العالميّة الثانية". كان الألبانيّون يمارسون شرعة الشرف المرتكزة على دينهم ووطنهم. وعدوا اليهود بشرفهم أن يحاموا عنهم، وعاملوهم في الأيام الصعبة كأعضاء في أسرهم الخاصّة. خاطر البلد كلّه بحياته الشخصية في سبيل اليهود الغرباء. العلّامة المسلم كُجتم تشيفاجي أتى بشرح لذلك: "إنّ والدي الذي وُجد أهلاً لأن يحامي عن عائلات يهوديّة كثيرة، قال إنّ الله مهّد له الفرصة لأن يمارس إيمانه الإسلاميّ، أي الجُود كفضيلة إسلاميّة". وصرّح حمدي ميتشي: "لم يأخذ أحد مالا. نحن مسلمون صالحون. إنّ الله مكّننا من أن ننقذ يهودًا. كلّ حياة ثمينة وعطيّة من الله. فإنّ إنقاذ حياة هو هبة من الله. استقبلنا اليهود وفقًا لشرعة الشرف عندنا". - وروى صادق كلاجا، الذي كان عمره آنذاك 12 سنة، عن أبيه أنّه قال له: "إن دقّ أحدُ عندك الباب فالتزم المسؤولية، يا بُني. هذه أخلاق قرآنا وتراث ألبانيّ صالح".

3. يعيش في البلد الأفريقيّ كامرون عشرون مليون شخص. منهم 70 بالمئة مسيحيّون، و20 بالمئة مسلمون. هناك يسود وفقًا للتراث تسامح كبير. عندما هدّدت في أيّار (مايو) 2004 جماعة من الإسلاميين المتشدّدين قُرَى مسيحيّة، اجتمع أشراف المسلمين والمسيحيّين معًا ودّعوا في جماعاتهم إلى احترام الآخرين.

4. المنظمة الكاثوليكية للعلمانيين سانت إيجيديو أُسست عام 1968 في روما. اليوم يعمل 50 ألف متطوع منها في 73 بلدًا في العالم. في موزامبيك توّسطت المنظمة بعد 17 سنة من الحرب الأهلية راح ضحيتها مليون قتيل، إلى عقد معاهدة صلح. - ومنذ لقاء السلام بين الأديان في أسيزي عام 1986 تعقد منظمة سانت إيجيديو كل سنة لقاءات سلام تؤكّد المسؤولية المشتركة عن قيام أخلاقيات عالمية على أساس قيم دينية (www.santegidio.org).

5. الأسقف أنبا داميان، الأسقف العام للكنيسة القبطية الأرثوذكسية في ألمانيا، ورئيس مجلس الأساقفة الألمان، رئيس الأساقفة الدكتور روبرت تسوليتش دَعَا معًا إلى صلاة مسكونية من أجل السلام في مصر. فساعة الصلاة المركزية، التي اشترك فيها رئيس أساقفة برلين الكردينال رايتَر ماريا فولكي، والأسقف الدكتور مرقس دروغي من الكنيسة البروتستانتية، أُقيمت في 22 آب (أغسطس) عام 2013 في كنيسة القديس أنطونيوس والقديس شنودا القبطية الأرثوذكسية في برلين.

6. من عام 1962 إلى عام 1965 اجتمع عن دعوة من البابا يوحنا الثالث والعشرين، ليتداولوا في قضية التجديد، 2500 أسقف ليقوموا بأعمال المجمع الفاتيكاني الثاني بروما. في جو المشاركة الأخوية هذه والانطلاقة إلى مستقبل أفضل، اتفق الأساقفة البولونيون والألمان على عملية تصالح فريدة المشهد. أَلْفُوا رسالة رعائية مشتركة تليت في جميع الكنائس الكاثوليكية في بولونيا وألمانيا. الجملة الحاسمة كانت التالية: "نحن نغفر ونطلب المغفرة". كانت تلك خطوة شجاعة، خصوصًا من قِبَل الأساقفة البولونيين. في بولونيا كان الشيوعيون التوتاليتاريون يحافظون على صورة عدائية عن ألمانيا تبريرًا للكبت والخضوع تحت سلطان الاتحاد السوفياتي. كان هتلر قد كبت البولونيين على أنهم بشر منحطون وأعدم كثيرين منهم في السجون، منهم عدد كبير من الكهنة الكاثوليكيين من أمثال الأب مكسيميليان كولبه أو الراهبة إديت شتاين. كان يعيش في ألمانيا اثنا عشر مليون نازح كانوا قد خسروا وطنهم في سيلازيا وبروسيا الشرقية وبومرن، منهم والداي كريستا-ماريا هوفمان من عائلة نيسستروي، وجورج غونتر هوفمان من برسلاو.

في نظر المهجرين كانت هذه المقاطعات التي كانت منذ أكثر من قرون ألمانية لا تزال تحت "إدارة بولونية"، كما نصّت عليه معاهدة بوتسدام وحسب اتفاقية القوّات المنتصرة. في وثيقة المهجرين الألمان للخامس من آب (أغسطس) 1950 كان المهجرون قد تخلّوا علنًا عن أخذ الثأر والمجازاة واستعمال العنف، وجاء بعد عشر سنين من ذلك رسالة شجاعة للأساقفة وضعت أساسًا آخر للمصالحة الألمانية البولونية. وفي عام 1970 تلت ركعة المستشار الألماني فيلي

براندت أمام التمثال التذكاري لانتفاضة فرسوفيا، وعقدت المعاهدات الشرقية، وفي 12 تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1989 احتفل رئيس الأساقفة ألفونس نُسول مع رئيس الوزراء البولوني تداوس مازوفياكي والمستشار الألماني هلموت كول بقداس المصالحة التاريخي في مقام كريساو في بولونيا. بفضل مسار مؤلم دام عشرات السنين معتمد على التجرد والمصالحة تحوّل الذين كانوا حتى عام 1989 أعداء في أول مرحلة إلى خصوم حذرين (حتى 1989) وأخيراً إلى شركاء وأصدقاء في منظمة الدفاع الأوربيّة (عام 1999)، وفي الاتحاد الأوربي (2004). مثل هذه الأعجوبة نجحت في المصالحة بين الدّ الأعداء القديمين فرنسا وألمانيا. الأساقفة الكاثوليك قدّموا أنواعاً من التأييد المهمّ لخطويّ السلام التاريخيّتين.

7. في تمّوز (يوليو) 2006 تجمّع فريق من المتشدّدين اليمينيين في المدينة الصغيرة ملتبرج على نهر الماين قرب فورغسبورج في ألمانيا. عند ذلك أمر الكاهن الكاثوليكيّ الشجاع بأن تُقرع أجراس الكنيسة إلى أن اضطروا بعد 20 دقيقة إلى العكوف عن إعلاناتهم. الحزب اليمينيّ NPD قدّم شكوى ضده، ولكنّ المدّعي العامّ أوقف التحريّات في الأمر. وفي عام 2008 عين البابا بندكتس السادس عشر ذلك الشجاع أسقفًا مساعدًا في أبرشيّة فورسبورج.

8. في مومباي الهندية أعدّ مدير مؤسّسة الأبحاث الإسلاميّة، الدكتور زاكر نعيك، في تشرين الثاني (نوفمبر) 2008 ندوة سلام. وأكّد أمام المسجد الكبير في مكّة، الشيخ عادل القلباتي، في خطبة الجمعة أنّ الإسلام ليس سالكًا في نزاع مع الأديان الأخرى، فعلى المسلمين أن يحافظوا على الصبر في البلدان العلمانيّة. وقال الدكتور نعيك: "الإرهابيون لا دين لهم". ومفتي البنجاب، فيصل رحمان قاسمي، حرّض المشتركين على أن يظلّوا يحاربون الإرهاب.

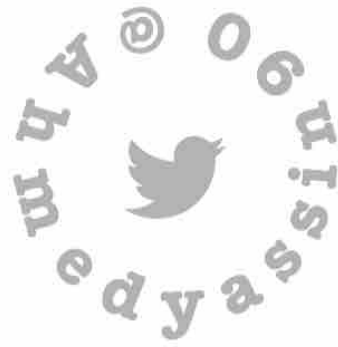
9. في تشرين الثاني 2007 قام الملك عبد الله بصفته ملكًا على العربيّة السعوديّة وخادم الحرمين الشريفين مكّة والمدينة، بزيارة للبابا بندكتس السادس عشر في الفاتيكان. كلاهما تحدّثا عن مساهمة المسيحيّين الإيجابيّة في ذلك البلد المتأصل في الإسلام. وارتأيا أنّه يجب تنشيط الحوار بين الأديان لتعزيز السلام والعدل والقيم الأخلاقيّة... والعاهل السعوديّ أطلق لقاءات مهمّة بين الأديان في إسبانيا ومكّة، وأسّس عام 2012 في فيينا بالنمسا "مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدوليّ للحوار بين الأديان والثقافات"، الذي يضمّ في مجلس المشورة ممثلين عن الأديان العالميّة الخمسة. (www.kaiciid.org)

10. أطلق البروفسور هانس كونغ "معهد الأخلاقيّات العالميّة" (www.weltethos.org) في توبنغن بألمانيا. وأسّس الأمير حسن بن طلال في عمّان بالأردن "المعهد الملكيّ للدراسات

حول الأمور المشتركة بين العقائد (www.riifs.org). كلاهما قاما بمبادرات ممتازة وفعّالة لتعزيز السماحة والاحترام تجاه الأديان الأخرى. هناك معاهد أخرى ومبادرات شخصية تسير على خطى هذين المثالين الممتازين للحوار بين الأديان.

11. عاصمة ألمانيا برلين أعدت في آب (أغسطس) 2012 "ليلة الأديان الطويلة". فكانت كنائس ومساجد ومجامع، وهياكل بوذية وهندوسية مفتوحة للزائرين أيًا كان انتماءهم الديني، الذين تمكّنوا بذلك لأول مرة أن يحصلوا على انطباع شخصي عن إمكانية العبادة وطقوس مواطنين أتباع أديان أخرى.

(www.langenacht-derreligionen.de)



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل الخامس

شرائع السماح لوسائل الإعلام والصحافيين

ابنتي كيارا عمرها 11 سنة. عندما أجلس معها لنشاهد الأخبار في التلفزيون، ينهال علينا سيلٌ لا ينتهي من الأخبار السلبية. بعد ذلك تُعرض أفلام سلسلة أميركية رخيصة تسود فيها على الشاشة مطاردات وإطلاق الرصاص والعنف. وفي الأنترنت يقدّم لك عالم العنف دون تمحيص. بذلك تتدفّق على أولادنا يومياً سيول من مظاهر العنف وعدم المراعاة. أيمر هذا بدون أثر على تلك النفوس الصغيرة ومشاعرها؟

في عام 1993 جاء في تصريح شيكاغو حول الأخلاقيات الشاملة الانتقاد التالي: "إنّ وسائل الإعلام تنشر دعايات إيديولوجية بدل أن تنشر أخباراً منتقاة، وأخباراً باطلة بدل أن تنشر أخباراً صحيحة، وتدعم مصالح تجارية بدل أن تدعم الحقيقة".

"الأخبار السيئة هي وحدها الأخبار الجيدة": لا شيء يصف إفساد نظامنا الأخلاقيّ مثل هذه الجملة. وهي خصوصاً في وسائل الإعلام، التي تنشر يومياً صوراً عن الأحداث السياسية العالمية، تطوّر مُربع. فالإعلام يهبط إلى مستوى السلعة، ويكون اهتمامه موجّهاً فقط إلى الربح الإعلامي. فيدور الأمر حول عدد القراء وعدد النسخ، بدل أن يدور حول الحقيقة والموضوعية. فالخبر عليه أن يسري في السوق. ويصير العنف أداة دهشة للجموع، وتسويق الهول مبدأ الإعلام. خصوصاً بالنسبة إلى جوّ الهجمات الإسلامية المتطرّفة، يؤلّف الإرهاب ووسائل الإعلام توافقاً شنيعاً. فالإرهابيون أمّلهم أن يحصلوا بقتل الجماعات على انتباه أشدّ ما يكون الانتباه، والإعلاميون أمّلهم أن يحصلوا بأخبارهم المأساوية حصّة من السوق أكبر ما يمكن أن تكون الحصّة.

إنّي بصفتي مُراسلاً سابقاً للتلفزيون الألمانيّ الثاني ومحزراً حرّاً على مدى سنين طويلة، مقتنع من أنّنا نقف اليوم في نقطة تحوّل. مستوى الإعلام، حتّى في التلفزيونات الرسمية، صار مائلاً بشكل كبير إلى مجال العنف. فنحن من جديد بحاجة إلى مسؤولية أكبر لوسائل الإعلام في سبيل عالم أفضل.

إنَّ التمسك التقليديّ بالأخبار السيئة قد غالى في التشبث. فاليوم تبدو أخبار جميلة صالحة عن تصرف إنسانيّ أشدّ مجلبة للانتباه من تبادل الرصاص للمرّة المئة أو من مُصاب يُعرض دوّمًا بالصور عينها القابلة للتبديل.

هذا النوع من نشر الأنباء القديم سهل لا مطلب له، وهو أيضًا في الواقع مُضجر. إنَّ الصحفيّ يمكنه أن يركز على الأخبار السيئة الكثيرة التي تقدّمها منظمات الإعلام، وأن يقوم بمهمته دون أن يلجأ إلى كثير من التفكير وإلى وسائل كثيرة. ويظلّ الباقي مادّة للإعلام عن الرياضة البدنية وأحوال الطقس.

في الأنترنت ينشأ توجه جديد إلى خلق مزيج توازن من خير وشر. وتصرّف طالبي الفائدة يتغيّر. كلّ صديق في الفيسبوك يمكنه في باب "ما هو رأيك" أن يعرض قصصه وصوره وأفلامه الخاصة أو أن يستمدّ محتويات مختلفة من آخرين. وبكيس الزرّ "أودّ هذا" يعبرون للأصدقاء عمّا يروق لهم. وما يلفت الانتباه هو أنّ الأخبار السيئة ليست هي الأكثرية، بل الأخبار السارة. فالذين يستعملون الفيسبوك يظهرون في الواقع فقط عالمهم الجميل المليء صحّة: أناسًا يعيدون ويضحكون في أجمل بقاع العالم، وكلابًا وهررًا، وأطفالًا، وطعامًا لذيذًا أو نوصًا مُفرحة. لا تجد هناك صور مأسّ لا نهاية لها. وفي موقع يوتيوب أيضًا تسود الأفلام المضحكة، لا العنف. فالفيسبوك وأمثاله من الشبكات الاجتماعيّة الأخرى والمواقع في الأنترنت تبين بوضوح أنّ الناس لا يعيرون انتباههم فقط لما هو رديء، بل لما هو شخصيّ وإنسانيّ أو هزليّ.

إنّ الروايات تنشأ في البدء في رؤوس الصحفيين. فهم لا يمكنهم أن يجدوا إلاّ ما بحثوا عنه. فإنّ وجّهنا رادارنا الصحفيّ فقط إلى المعائر والحروب والحوادث، فإنّنا لن نرى سوى هذه الأمور السليّة.

مسؤوليّة الصحفيين تبدأ عند كلّ واحد بمفرده. فينبغي لمجالس التحرير في اجتماعاتهم أن يبحثوا عن قصد عن مواقع مثاليّة من السماحة والاحترام، ويعدّوا لها منزلة في الصحافة، ويصوّروا بذلك العالم كما هو فعلاً: سيئًا وصالحًا.

عام 1978 التقيتُ بصفتي صحافيًا بهيلين توماس (1920 - 2013)، السيّدة الكبيرة في فريق الصحافة بالبيت الأبيض، عندما كان جيمي كارتر رئيسًا للولايات المتحدة. كنّا نتجادل بعد 30 سنة في دُبّي حول أخلاقيّات الصحافة. قالت: "الصحافيّون لديهم الإمكانية الضخمة لأنّ يرى العالم كما هو. فمهمّتنا أن نخبر عن الحقيقة. فإنّنا إن نحن توجّهنا فقط إلى الأخبار

السيئة، نضج كثيرًا من القصص الصالحة التي لها مسحة إنسانية". فدعت إلى أنه يجب التداول بالكلمات بحذر أكبر. وإلا يقوم بسرعة كبيرة استعمال أشكال محدّدة في الصحافة، وضياع تحليل مميّز.

على الصحافة أن تنشر الأخبار عن سوء استعمال السلطة، والمعائر والحرب والعنف، لأنّ هذه هي أيضًا جزء من الواقع. ولكن ينبغي لها في الوقت عينه ألا تنسى العالم المزهر الجميل، عالم التعايش السلمي والمصالحة. فنشر أخبار متعادل توافق أخلاقيّة الصحافيّ الذي يقيم وزنًا لمسؤوليته، ويوافق الحقيقة. ويصل أيضًا إلى قلوبنا أكثر من ترداد أخبار العنف بشكل مستديم.

1. نحن بحاجة إلى تحوّل في وعي الصحافيين. ينبغي لهم أن لا يفهموا أنفسهم في الدرجة الأولى كمحرّرين ناقدين وبذلك سلبيين، بل كأشخاص متعلّقين بالواقع وصادقين يروون قصصًا شقيقة. هذه القصص قد تكون إيجابية أو سلبية. ولكن البحث المتطرّف عن المعثرة التالية وشهرة المكتشفين تحوّل النظر عن أخبار كثيرة صالحة بالفعل. فالتشبّث بحرائق الغابات، وهبوط الطائرات، والحروب والمظاهرات أمر بسيط، ولكنّه يتضاءل الاهتمام به في التسابق مع ما يُعرض في الآلات الإلكترونيّة.

2. نحن بحاجة إلى تحوّل خطوة خطوة في عمل الصحافيين، فيبتعد عن صحافة العنف المنقّر، ويؤنّجه إلى صحافة شرح أسباب النزاعات. فالصور المخيفة لها في هذا العمل دور أساسي، إذ إنّ مفعولها العاطفيّ يكشف للوعي عمّا يختبئ وراءها. هنا يجب على وسائل الإعلام أن تصرّ على كشف الحقيقة، وتساءل وتوقظ الوعي. في هذا التصرّف المشترك تحصل وسائل الإعلام في إثبات الرأي العام على مفعول واقعيّ يخفّض الأثر، وتحوّل من نافذة للعنف إلى وسيلة لإخماد العنف.

3. حلقات التحرير في الصحافة ينبغي لها أن تُدخل في نظام التأليف الفريضة التي تؤدّي إلى البحث عن قصص إنسانية إيجابية، قصص التصالح والاحترام والسماحة، وتفسح لها مجالاً مناسبًا في صفحات الأخبار. فمن الممكن أن يكون النصّ على الشكل التالي: "إنّ الصحافيين يلتزمون بمبادئ ميثاق الأمم المتّحدة ويبحثون أيضًا عن روايات إنسانية عن التصالح والسماحة والاحترام المتبادل. بهذا فقط يُضمن نقل الأخبار الصحفيّة المتوازنة، ويتمّ تجنّب تشويه الواقع".

4. كل محرر ينبغي له في تقاريره أن يدخل أيضًا أمثالا عن السماحة، وبدلاً من وصفٍ أسود - أبيض، روايات متعددة الألوان. فلا يجوز استعمال مقصّ يبعد من الرأس جميع العناصر الإيجابية، لكي تظهر الرواية بمظهر النقد الصارم.

5. مخططو البرامج يمكنهم في الوثائق وأفلام التلفزيون والسلاسل أن يضطلعوا بواجبهم بالنسبة إلى تحرير متوازن، وأن يفحصوا أيضًا هل نُشرت بعدد كافٍ روايات صالحة.

6. الناشرون وفرق الإدارة في محطات التلفزيون عليهم أن يتناقشوا مع فرق التحرير حول المبادئ الأخلاقية، ويُقرّوا هذه المبادئ.

وقائع مثالية

1. مجلس الصحافة الألمانيّ قد سبق فنشر في عام 1973 قواعد لتعزيز نشر للأخبار متوازن. ففي البند 1 جاء ما يلي: "احترام الحقيقة والمحافظة على كرامة الإنسان والإعلام الحقيقي للرأي العام. هذه هي أعلى وصايا الصحافة". - بند 10: "تتخلى الصحافة عن شتيمة القناعات الدينية أو المتعلقة بوجهة نظر إلى الكون أو الأخلاقية". - بند 12: "لا يجوز إقصاء أحد بسبب جنسه أو عاقبة فيه أو انتمائه إلى فئة إثنية أو دينية أو اجتماعية أو وطنية".

2. دار النشر الألمانية باسم أكسل شبرنغر في برلين تفرض على جميع المحررين عند قبولهم، أن يعملوا في سبيل ألمانيا كبلد حرّ يسوسه القانون، له اقتصاد اجتماعيّ مستند إلى السوق. وفي سبيل اتحاد أوروبا، والمصالحة بين الألمان واليهود، وضدّ التوتالتارية. فأصحاب دور نشر أشدّاء يحدوهم شعور بالمسؤولية يستطيعون أن يفرضوا على محرريهم تعزيز القيم الأساسية.

3. يمثل "اتحاد الصحفيين العالمي" أكثر من 500 ألف صحفي. وهو يُهدي جائزة السماحة. هذه تريد أن تعزّز السماحة والتفاهم المتبادل بفضل تحرير أخبار ممتاز في وسائل الإعلام، وأن تُثني على تحرير متوازن (www.ifj.org).

4. "حوار وسائل الإعلام الشامل" ينشر كلّ سنة أخبارًا عن عدم السماحة وأنواع هضم الحقوق (www.intermedialdialog.org)

5. إنّ كتاب الصحفيين بترا غرستر وميخائيل غلايس بعنوان "صانعي السلام" يدور حول أناس ينتمون إلى مناطق نزاع مختلفة ويساندون بنشاط ونجاح قضية التصالح والسماحة

ويفهمون استعمال فنّ صنع السلام. يحتوي على أمثلة صالحة كثيرة. جُمعت في العالم كلّه بمبادرة من مؤسّسة "حسابات السلام".

6. "السينما من أجل السلام" تنظّم مآدب فاخرة في برلين ومدنٍ أخرى، تكرم خلالها أفلام وممثّلون يدعمون المصالحة والسلام في العالم كلّه.

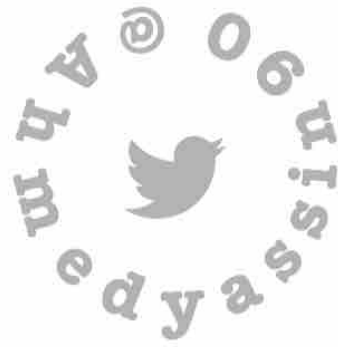
(www.cinemaforpeace-foundation.com). وهناك في جنين في الضفّة الغربيّة بفلسطين قاعة سينما أساندها أنا شخصياً، وتدعى "سينما في سبيل السلام". تعرض أفلاماً مليئة بالفنّ ومبادرات للمصالحة والسلام لهذه المنطقة المليئة بالعنف. في هذه المدينة الفلسطينية رمى عام 2005 جنديّ من الجيش الإسرائيليّ عن خطإ الصبي أحمد الخطيب وعمره اثنتا عشرة سنة. كان الولد يلهو بلعبة كالبندقية. فالوالد أهدى أعضاء ابنه الميتم أولاد أعدائه وأنقذ بذلك حياتهم. إنّ الفلم الوثائقيّ "قلب جنين" للمؤلّف الألماني مرقس فترّ والإسرائيليّ ليور غلر عرض عام 2008 هذه القصة المؤثرة، وهو مثال لتعزيز السماح في الأفلام.

7. جامعة الأزهر المهمّة في القاهرة بمصر أطلقت قناة تلفزيونيّة جديدة، موجهة ضدّ تشويه الإسلام على يد الخطباء المتطرّفين، وعليها أن تصل إلى غير المسلمين.

8. "شارع البيلسان": هذه أقدم مجموعة أفلام شعبيّة في ألمانيا. ينتجها راديو ألمانيا الغربيّة في كولونيا. وهي تعالج بطريقة متكرّرة مواضيع تتعلّق بمعاداة الأجنبيّ. فالمنتج هانس غايسندر فر تمكّن بذلك أن يقوم بمساهمة مهمّة في احترام البشر ونقلها إلى قاعات السكن في بيوت الألمان.

9. في كانون الثاني (يناير) عام 2012 أذاعت شبكة الإرسال التركيّة TNT لأول مرّة في بلد إسلاميّ سلسلة عن المحرقة وعن آلام اليهود في ألمانيا النازيّة.

10. شبكتا الإرسال الألمانيّتان الكبيرتان PRO7 و RTL تتصرّفان تصرّفًا مثاليًّا. فالأولى تذيع في يوم السماح الوطنيّ أفلامًا موضوعها تعدّد الثقافات. والثانية خصّصت جائزة سنويّة للشبان الذين ينشرون أفلامًا تخبر عن انسجام رفاق أجنبيّ في المدرسة. جائزة الإذاعة RTL تلقى مساندة من رئيس التحرير ووزير التأقلم. (www.rtlcommit.de).



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل السادس

شرائع السماح لأصحاب الأمر السياسيين

على السياسيين أن يدعموا بنشاط على جميع المستويات، المبادئ الأساسية لعالم متناغم يسود فيه التسامح والاحترام وفقاً لميثاق الأمم المتحدة. لا يجوز لهم أن ينتظروا حتى تنقلب التوتّرات إلى عنف. نحن بحاجة إلى سياسة واقية واسعة في سبيل السماح.

1. في ميزانية وزراء الشؤون الخارجية والتنمية والشؤون الداخلية ينبغي أن يتخذ بند "لتعزيز السماح والاحترام"، ولمشاريع في الداخل والخارج. ينبغي أن يبلغ في مجمله قاعدة تبلغ على الأقلّ واحداً بالمئة من مصاريف سياسة الدفاع والشؤون الخارجية والشؤون الداخلية. فإنّه بدون مال كاف لا يمكن أن يحتلّ الموضوع مكانه ويُدخّر كما جرى في السبعينات من القرن العشرين بالنسبة إلى حماية البيئة. فالمخططات لتعزيز السلام الداخلي والخارجي يجب أن تضمّ عن أول التصميم السماح والاحترام والتصالح كجزء مهمّ من العناصر اللينة في سياسة السلام. وبالنسبة إلى سياسة الشؤون الخارجية والدفاع، نحن بحاجة إلى استراتيجية نَصرة مزدوجة باسم "عالم رقم 0/3 تضمّ القوة والمصالحة.

2. في البلدان التي فيها أقلية كبيرة يجدر أن يُعيّن وزير خاصّ لحوار الثقافات وتعزيز السماح. فيمكنه أن يحقق عدداً كبيراً من الترتيبات. وتُجمّع لديه الأعمال الخاصة المتفرقة. فيجلس على طاولة الوزارة ويكون موقع الحوار للحكومة ومجلس النواب وممثلي الأقلّيات. وينبغي أن يكون تحت تصرّفه عددٌ كافٍ من المساعدين، وميزانيات كافية لمشاريع عديدة. تعيين وزير خاصّ يعطي الموضوع وزناً في مجال العمل السياسي. وإنشاء وزارة مثل هذه يشبه تعيين موفدين لشؤون نزع السلاح، وتعيين وزارة لوقاية البيئة في السنوات السبعين والثمانين من القرن الماضي. منذ ذلك الوقت تمكّن الموضوعان السياسيّان أن يكتسبا مزيداً من الأهمية في مجال السياسة وفي الرأي العام.

3. كلّ بلد ينبغي له أن يصوغ برنامج عمل وطني في سبيل السماح. برنامجاً يضيف شكلاً على القضايا والمعاملات العديدة، ويعيّن ما يجب عمله خلال السنوات الأربع المقبلة.

4. على الحكومات أن تسلّم مجالس النواب الوطنيّة كلّ سنة محضراً عن وضع السّماحة. فيذكر المشاكل وأشكال التقدّم في تعايش الأديان المختلفة والأقليات الإثنيّة. مثل هذا المحضر له فوائد ثلاث: تُضطرّ الإدارة إلى عرض نشاطاتها بشكل مقتضب وفحص مفاعيلها. وتكون القضية مرّة بالسنة موضوع المناقشة. ويتمّ إطلاع وسائل الإعلام والرأي العام على القضايا وأشكال التقدّم، وذلك بشكل منفتح.

عندما تحتدم في بلاد مشادّات كبيرة بين فئات شعبيّة أو أديان، فينبغي إلى ذلك لمنظّمات دوليّة كالأمم المتّحدة، أو منظّمة الأمان والتعاون في أوربا (OSZE)، أو المجلس الأوربي، وأيضاً لإتهام اللائحة لمنظّمات غير حكوميّة، أن تدلي بتقديرها للأمر لدى وزير السّماحة. بهذا يمكن الحصول على أكبر شفافيّة ومصداقيّة

5. في يوم احتفال وطنيّ مخصّص للسّماحة ينبغي أن يحصل المواطنون على إمكان زيارة معابد ومؤسّسات ثقافيّة أخرى. فعلى المخاتير أن ينظّموا حفلات محليّة ويدعو ممثلين عن أديان أخرى وعن الأقليات إلى الاشتراك في طاولة مستديرة وفي عشاء تعزيز السّماحة.

6. رئيس الدولة وممثّلو الحكومة عليهم أن يبدوا التقدير لمساهمة الأقليات في سبيل الدولة. في أيلول 2011 دعا على شكل المثال رئيس الدولة الألمانيّ آنذاك كريستيان فولف عشرين أجنبيّاً إلى قصر بلفو وقدم لهم شخصياً وثيقة هويّتهم الألمانيّة.

7. تستطيع الحكومات أن تبرم معاهدات مع ممثلي الجماعات الدينيّة أو الأقليات، معاهدات مشاركة تنظّم مفصلاً القضايا التي هي موضوع الاهتمام. في عام 2012 عقدت مثلاً المدينة الألمانيّة هامبورج معاهدة مثل هذه مع الجماعات الإسلاميّة.

8. يمكن في المدارس ضمّ الأفكار حول أخلاقيّات عالميّة إلى برنامج التعليم كجزء منه.

وقائع مثاليّة

1. نلسون مانديلا بطل السّماحة في القرن الحادي والعشرين. "لم يولد أحد وفي قلبه بغض لعرق أو لدين. الناس يتلقّنون هذا في زمن تابع. عند ذلك يمكنهم أن يتعلّموا المحبّة أيضاً". هذا ما قاله الرئيس الأسود لأفريقيا الجنوبيّة ذات الثقافات العديدة. صمّدت جراح تنحية السود بفضل لجنة جديدة، "لجنة الحقيقة والمصالحة". كان هذا نموذجاً، ونُقِل في أثناء تلك المدة إلى أكثر من عشرين دولة أخرى كانت تعاني من المشادّات العنصريّة. كان هدف

التصريح حول "الوحدة الوطنيّة والتصالح" عام 1995، التعامل مع الماضي والمصالحة الوطنيّة. لم يحدث تناسي الشرّ، بل الصفح عنه. قام متطرّفون بيض وسود بتفصيل أفعالهم أمام اللجنة بقيادة رئيس الأساقفة دسموند توتو، وندموا بحضرة أهالي الضحايا على أفعالهم. فالجلسات التي نُشرت في التلفزيون والتي نظّمتها لجنة الحقيقة، كانت ساعة سامية للإحساس الإنسانيّ، ومجلة للمصالحة بين السود والبيض في جنوب أفريقيا. نلسون مانديلا ساند شخصياً المصالحة بين السود والبيض في جنوب أفريقيا، هو بطل السماحة الذي انتصب من رماد النظام التفرقيّ. وهو، الذي سُجن مدّة طويلة في جزيرة روبّن، انتُخب أوّل رئيس أسود لجنوب أفريقيا المتنوّعة الألوان. والمجاهد في سبيل الحرّيّة دعا دائماً حتّى مماته في الخامس من كانون الأوّل (ديسمبر) 2013 إلى التصالح الوطنيّ.

2. معاهدة تيرول الجنوبي بين إيطاليا والنمسا عام 1972 وهبت للأكثرية الألمانيّة البالغ عددها 60 بالمئة من بلد الجبال التابع لإيطاليا، الاستقلال الثقافيّ العريض، وذلك لأوّل مرّة. هذا أحد الأمثال الفُضلى لإخماد النزاعات الإثنيّة، كالتّي نخبرها اليوم مثلاً في ناغورني كراباخ في أذربيجان، أو في الصحراء الغربيّة، أو في تيبات في الجمهوريّة الشعبيّة الصينيّة.

3. تنشر المنظّمة الأوروبيّة المتعدّدة الأوطان كلّ سنة تقريراً عن "إجرام البغض" ضدّ جماعات إثنيّة وأديان في أوروبا. تجمع هذه الوقائع عن طريق منظومة دوليّة في الإعلام عن السماحة وعدم الإجحاف. (www.osce.org)

4. هناك أبنية ذات رموز رفيعة، مثل كنيسة السيّدة في دريسدن بألمانيا التي هُدمت أثناء الحرب العالميّة الثانية، أو مثل الجسر الشهير في موستار، أعيد بناؤها كعلامة للمصالحة.

5. في منهاتن السفلى في نيويورك يخطّط الإمام فيصل عبد الرؤوف إنشاء "بيت قرطبة" للحوار بين الأديان. فيكون علامة التعايش بين المسلمين والمسيحيّين واليهود في تلك المدينة العالميّة، ولذلك يستحقّ كلّ مساندة. بذلك يتمّ التوضيح بأنّ الذين يحيون حسب القرآن الحقيقيّ ليسوا هم المجرمين الذين ارتكبوا عمليّة الحادي عشر من أيلول عام 2001، بل المسلمين الذين يمارسون السلام.

6. عام 2008 فتح أكبر جامع في دوسبرج بألمانيا أبوابه، وساندد البناء أكثرية واسعة. وأوضح رئيس الوزراء آنذاك يورغن روتغرس، أننا بحاجة إلى عدد أكبر من الجوامع في مقاطعة شمالي الرين - فستفالن، ولكن ليس في الدار خلف البيوت، بل ظاهرة علناً. فمنارة

الجامع علّوها 23 مترًا. والبناء يستوعب 1200 من المؤمنين. وقد قدّمت المقاطعة نصف نفقات البناء، قيمتها 7 ملايين يورو.

7. بعد الجدل والمناقشات اتفق مجلس مدينة كولونيا في شهر آب (أغسطس) 2008 على أن يسمح ببناء جامع جديد، في مدينة الكاتدرائية. ومع أن فريق حزبه لم يوافق على ذلك، فإنّ رئيس البلدية فريتس شراما، وهو من حزب الاتحاد المسيحيين الديمقراطيين، وافق على البناء، ثمّ استقال بعد ذلك. والرعية الكاثوليكية للقديس تيودورس قامت بعلامة أخوة وجمعت مالا للمساهمة في بناء بيت الصلاة للمسلمين.

8. الحكومة الألمانية تكرم سنويًا "دعاة الديمقراطية والسماحة"، في إطار اتحاد أسسته في 23 أيار (مايو) 2000، "اتحاد في سبيل الديمقراطية والسماحة، ضدّ التطرف والعنف"، تابع لمركز الدولة من أجل التثقيف السياسي. نقاط الثقل هي المبادرات المحليّة والشبكات التي تصل إلى الشبيبة. (www.buendnis-toleranz.de)

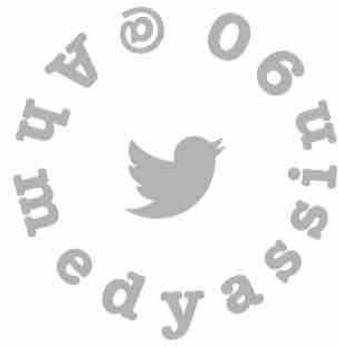
9. وفقًا لميثاق فيينا تحيي عاصمة الجمهورية النمساوية منذ نيسان (أبريل) 2012 النازحين إليها المنتميين إلى نظريّات مختلفة. فعرض 8500 مواطن في إطار 651 فريق عمل آراءهم. واشتركت 325 منظمة في نشاط مدينة فيينا. "لكي تقوم بيننا علاقات جيّدة، نحتاج إلى الاحترام. الاحترام يعني أن نتقبّل الآخرين كما هم، كما نريد نحن أن نلقى التقبّل والاحترام". الميثاق ينصح باستعمال بسيط لكلمتي "تفضّل" و"شكرًا" وبمعاملة متبادلة لطيفة. أشكال الحياة المتنوّعة هي زيادة غنى. ولكنها قد تكون ثقلاً كادًا، فتكون أفضل وسيلة ضدّ ذلك، قدرًا كافيًا من التنبّه والانفتاح.

10. إنّ كنيسة القديسة مريم الكاثوليكية السريانية الملائكية في الدوحة بإمارة قطر هي إحدى بنايات الكنائس الجديدة القليلة في العالم العربيّ. - وأمير البحرين يفكر في بناء كنيسة كاثوليكية للعمّال الفيليبين الضيوف في بلده، وهذا يرفضه الإسلاميون المتشدّدون.

11. القائد الهندي الطائر الشهرة هربكش سنغ (1913-1999) لم يكن فقط جنديًا شجاعًا وناجحًا، بل كان أيضًا شريف الأخلاق. بعد حرب سنة 1965 اضطرّت الهند إلى تسليم مقاطعات يسكنها باكستانيون، إلى الدولة المسلمة المتاخمة باكستان. عند ذلك أمر سنغ بأن يُعاد قبل ذلك تجهيز كلّ الجوامع المتضرّرة. وسلّمت إلى يد الأيّمة في حفلة رافقتها أدعية.

12. هناك طريقة سياسيّة جديدة للتحكيم وُضعت في شتوتغارت بألمانيا، يمكن أن تستعمل أيضًا لإحلال السلام عند قيام النزاعات الإثنيّة والدينيّة: في عام 2011 قام مشروع بناء جديد

لمحطة القطارات في شتوتغارت (شتوتغارت 2) تبلغ نفقاته 4,5 مليارات يورو، وهاج تناقش حاداً بين المؤيدين والمعارضين للمشروع. وهكذا حصل تعطيل للمشروع. فدعا السكرتير العام السابق لحزب الديمقراطيين المسيحيين، هاينز غايسلر المؤيدين والمعارضين إلى حوار دام أياماً أمام أجهزة التلفزيون والرأي العام. فتبادلت شركة سكة الحديد والمعارضون والمؤيدون مخططاتهم وحساباتهم عن الأموال اللازمة وبراهينهم مدّة حلقات نقاش عديدة. في حلقات نقاش سلمية وموضوعية حول طاولة مستديرة، وأخمدوا بذلك حدة النزاع. في النهاية قُدم نصّ التحكيم الذي عرض حلاً توافقياً. بعد ذلك أُجري استفتاء شعبي في مقاطعة بادن - فورتنبرج، انتهى بعد مناقشات دامت أشهراً إلى فوز مؤيدي المحطة الجديدة فوزاً واضحاً. كان ذلك طريقاً جديداً مثاليّاً يقود من المواجهة إلى المسالمة عن طريق نشر المعلومات.



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

الفصل السابع

شرائع السماح في حقل الرياضة البدنية

تستطيع الرياضة البدنية أن تقدّم مساهمة كبيرة في بنیان التفاهم والاحترام والسماحة، وتساعد على تحطيم الجليد ضدّ الأحكام المسبقة المتجمّدة بين الشعوب. "على الصعيد الشخصي المحض تنشأ عن طريق الهوايات الرياضية المشتركة أوّل اتصالات مهمّة في المجال البشريّ المشترك. فالحركة الأولمبية تريد بواسطة التسابق الرياضيّ أن تقود إلى جماعة أخلاق شاملة أولئك الذين يختلفون بالنسبة إلى منشئهم الأخلاقيّ ومواطنيتهم ودينهم وثقافتهم وقناعاتهم السياسيّة. فاللقاءات الرياضيّة تودّ أن تساهم في تنحية الأحكام المسبقة وتركيز الاحترام المتبادل". هذا ما قاله مانفرد ليّمّر، أستاذ تاريخ الرياضة البدنية في معهد الرياضة البدنية الألماني الشهير ببولونيا، إلى جانب الألعاب الأولمبية عام 2012 في لندن.

وقائع مثالية

1. تريد الحركة الأولمبية أن تساهم في إنشاء عالم أفضل يسود فيه السلام، وذلك بتربية الشبيبة على الرياضة البدنية بالاتّفاق مع القيم الأولمبية (الميثاق 1: 1). هي تجمع بين الرياضة والأخلاقيات. فالرياضة هي خدمة البشريّة ومساهمة في صنع السلام (2: 4). في كراسها بعنوان: ما هو التراث الأولمبي، تشرح الحركة ما يلي: "الروح الأولمبية تضمّ احترام القيم الأخلاقيّة وكرامة الإنسان، والتفاهم المتبادل، وروح الصداقة، والتضامن، واللعب الشريف، ورفض كلّ نوع من أنواع الإقصاء بسبب العرق أو الدين أو السياسة أو الجنس" (www.olympic.org).

2. في بطولة أوروبا لكرة القدم عام 2012 نشطت المنظمة الأوربيّة المتّحدة برنامجها الواسع حول احترام الاختلاف، بواسطة جُملة حملات اشترك فيها اتّحاد كرة القدم ضدّ العنصريّة في أوروبا (www.forenet.org). فنُشرت في ساحات اللعب يافطات حملت هذه المطالبة بالاحترام والسماحة إلى ملايين الأسر التي تلاحق النشرات التلفزيونيّة. فكان من مواضيع البرنامج أيضًا تدريب الشرطة والحراس في البلدين اللذين يستضيفان الألعاب: بولونيا وأوكرانيا، على التعرّف بطريقة أفضل على الهتافات والشعارات والتصرفات التي تدعم الإقصاء. وعلى ملاحقة فاعليها.

3. فريق كرة القدم في برشلونة بإسبانيا ساند عام 2008 المبادرة المدعوة "أصوات الشبيبة ضدّ العنصريّة"، وذلك بالتعاون مع اليونسكو والبرلمان الأوروبي والتحالف الأوروبي ضدّ العنصريّة. وضعوا معًا لائحة تضمّ عشر توصيات ضدّ العنصريّة وفي سبيل سماحة أكبر. صرّح رئيس فريق برشلونة خوان لابرتا: "إنّ كرة القدم وسيلة لمكافحة العنف والعنصريّة ولتعزيز الانضمام في مجتمعنا". في عام 2013 أطلق الفريق ذو الشبيبة الكبيرة حملته في سبيل السلام في إسرائيل وفلسطين. فالأبطال الكبار مع ليونل ميسي تدرّبوا في ملعب دورا في الضفّة الغربيّة مع أولاد فلسطينيّين، وفي ملعب بلوم فلد في يافا مع أولاد إسرائيليين. قال رئيسهم ساندر روزل إنهم يريدون أن يهدّوا بذلك لقاءات مشتركة في سبيل السلام.

4. هناك برامج وطنيّة ودوليّة مختلفة تساند الاحترام والسماحة بواسطة الرياضة البدنيّة، منها فريق "الرياضة في سبيل السلام" (www.sports-for-peace.org)، و"دعنا نبعد العنصريّة من كرة القدم"، ومنظمة كرة القدم في برامج مختلفة: برنامج الرجاء، أو الراح الواحد، أو المشروع الواحد.

5. مركز بيرس للسلام أسّس عام 2008 أوّل فريق لكرة القدم مشترك إسرائيلي-فلسطينيّ، وقد اشترك في مباراة الكأس الدوليّة، اثنا عشر لاعبًا هم من الضفّة الغربيّة، واثنا عشر من إسرائيل. وفي جلسات مشتركة يدور الحديث أيضًا حول القضايا والتوترات السياسيّة.

6. في بلفاست بإرلندا الشماليّة يلعب أولاد بروتستانتيون وكاثوليكيون في فرق مختلفة في مسابقة كرة السلة التي ينظّمها مشروع "لاعبو السلام الدُوليون". هنا ليس للانتماء الدينيّ أيّ دور (الرياضة في سبيل الخير: www.laureus.com).

7. بعد قتل ستّة ملايين يهوديّ على يد النازيين لم يكن أحد يتصوّر قطعًا في البدء كيف يستطيع بلد المجرمين أن يعاشر بلد الضحايا الجديد معاشرة صداقة. كانت إسرائيل حتّى عام 1967 قد وضعت تحديات في العلاقة مع ألمانيا. فالجليد حطّمه الرياضيون. فأوّل ألماني دُعي رسميًا لزيارة إسرائيل كان رئيس اتّحاد الرياضة الألمانيّ، الشاب فيلي دومه عام 1957. بعد فوز فريق الكرة الألمانيّ بقيادة زب هبرغر عام 1954 جاء لأوّل مرّة لاعبون إسرائيليّون للتمارين في مدرسة الرياضة الألمانيّة بكونونيا. كان من بينهم اللاعب الذي وُلد في ألمانيا عمانوئيل شافر، الذي عُيّن بعد ذلك عام 1968 ممرّنًا وطنيًا لفريق إسرائيل. وقامت بينه وبين معلّمه هِنْس فايسفايلر صداقة وطيدة. كلاهما جمعاً بين فرقة كرة القدم الألمانيّة والإسرائيليّة. - في سنة 1967 قامت بعثة إسرائيليّة تابعة لجمعية هابوئيل بزيارة ألمانيا. وفريق الشبيبة الوطنيّ الألمانيّ نصب في تحوّل سنة 1968 إلى 1969 مخيم تمرينه بقرب نتانيا. وفي سنة 1969 لعب لأوّل مرّة فريق ألمانيّ،

فريق بَقَاريا، على أرضٍ إسرائيليةٍ. وفي السنة عينها قامت أول منافسة بين البلدين في فريخن بجوار كولونيا. وفي سنة 1970 نقلت طائرة خاصة للجيش الألماني فريق بروسيا دُرموند مع بطلهم اللامع غونتر نِتسر إلى مباراة وديّة مع فريق إسرائيل الوطنيّ. الألمانيان أُوفي كليماشفسكي (عام 1971 عند فريق هابوئيل قرب حيفا)، ولوتار مَتْيوس (2009/2008 عند فريق مَكَّاي نَتانيا) درّبَا اللاعبين الإسرائيليّين. بهذا قدّمت كرة القدم مساهمةً ثمينةً لتحطيم الجليد بين البلدَين. على الصعيد المحليّ تقوم الرياضة البدنيّة بأكثر المبادرات في سبيل التفاهم. عن تحريض من قِبَل الرئيس الناشط أُوتو فريكة أسّست جمعيّة الفرسان في مدينتي عُسلار في منطقة هارتس قبل 30 سنة شراكة مع الجمعيّة الرياضيّة هابوئيل في مدينة رعاننا قرب تل أبيب بسكّانها البالغ عددهم 80 ألفًا. نشأت من ذلك عام 2006 معاهدة صداقة بين المدينتين في إسرائيل وفي ألمانيا.

8. مدربو لاعبي كرة القدم الألمانيون صاروا سفراء بلدهم كمدربين في كامرون (فِنْفريد شافر: 2004-2001)، وفي اليونان (أوتو ريهافل، 2010-2001)، وفي الصين وإيران (كلاوس شابز في الصين 1992-1995، وفي إيران: 2001-2000)، وفي اليابان (دِتمار كرامر).

9. إن اندماج لاعبين سود في الفرق العليا لدى مؤسّسات كرة القدم أطلق إشارات شديدة لقبولهم من جهة السكّان في كلّ أوروبا.

10. مؤسّسة الرجاء للشبّان الرياضيين في كيغالي أسّست عام 2002 دورة لكرة القدم عنوانها "أربعة بلدان في سبيل السلام"، اشتركت فيها فرق شبيبة من بروندي والكونغو ورواندا وأوغاندا. الأمر الخاصّ في تشكيلة الفرق هذه هو أنّ كلّ فريق يضمّ سبعة أشخاص، نصفهم شابّات ونصفهم شبّان، والمفروض أن لا يتّاح إلاّ للشابات أن يُصن المرّمى. زد على ذلك أن الألعاب تدور دون حكم، بحيث يحلّ الفرق المنازعات بالحوار.

11. أثناء مباريات الكأس العالميّة في فرنسا عام 1998 حصلت مواجهة بين فريق الولايات المتّحدة الأميركيّة وفريق إيران. منذ هبوط حكم الشاه وحجز رهائن من السفارة الأميركيّة كانت العلاقات بين البلدَين جليديّة، وكانت الولايات المتّحدة العدو الأكبر لدولة الرُساء الروحانيين. أمّا الفريقان فتبادلا التحيّة وأهدى كلّ منهما الفريق الآخر أزهارًا.

12. في مدّة هدنة سلام عيد الميلاد في خنادق الحرب العالميّة الأولى عام 1914 تلاقى جنود ألمان وبريطانيون ولعبوا معًا شوطًا بكرة القدم. وعندما انتهت الألعاب، عادت نوبة القتال.

13. سنة واحدة بعد انتخاب نلسون مانديلا أول رئيس أسود لجمهورية أفريقيا الجنوبية، ربح فريق البلد للراكبي المؤلّف من لاعبين بيض وسود سنة 1995 بطولة العالم. فصاروا بذلك مدعاةً هامّة للتصالح ورمزاً محموداً للشعب الملون.

14. الرياضة البدنية تستطيع أيضًا أن تمكّن من حصول تقارب سياسي، وتخفيف حدة العداوات، حين يكون الوقت مناسبًا. إن تبادل العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة الأمريكية والجمهورية الشعبية الصينية سبقته عام 1971 "دبلوماسية البنغ-بونج" الشهيرة. وتطوّرت هذه العلاقات عن طريق الصدفة. كان غلين كوان عضوًا في فريق الولايات المتحدة لكرة الطاولة، الذي سافر عام 1971 إلى اليابان للاشتراك في الدورة الدولية. هناك صعد إلى حافلة كانت تنقل الفريق الوطني الصيني. وفي مؤخر الحافلة كان جالسًا بطل العالم لثلاث مرّات زوانغ زيدونغ. هذا خاطب بواسطة مترجم اللاعب الأمريكي قائلاً: "ولو أنّ الحكومة الأمريكية لم تكن لطيفة تجاه الصين، إلّا أنّ الناس في أميركا لا يزالون أصدقاء الصينيين. وإنّي أودّ لأعبر عن هذه الصداقة أن أقدم لك هذه الهدية". فقدم كلوان صورة على حرير. وعندما انفتح باب الحافلة، شاهد الصحفيون والمصورون اللاعب الأمريكي يحمل في يده تلك الهدية في وسط اللاعبين الصينيين. فقدم بطريقة عفوية للتعبير عن شكره للصينيين قميصًا يحمل علامة السلام ومقولة المغننين البيتلز: "فلتكن". أخيرًا تحدّث مدير الفرقة الأمريكية إلى زميله الصيني. قال له إنّه سمع أنّ الصينيين قد وجّهوا الدعوة للاشتراك في ألعاب الصداقة، إلى بعض الشعوب، فلعلّهم يوجّهون الدعوة أيضًا إلى فريقه. بعض الصحف نشرت في اليوم التالي الصورة على الصفحة الأولى مع هذا العنوان: "هناك تقارب بين الولايات المتحدة والصين". قرأ ماوو رئيس الصين هذه القصة في بكين. كان يعتبر، مقابل ازدياد التوتر مع الاتحاد السوفياتي، أنّ التقرب من الولايات المتحدة مفيد، فأمر قائلاً: "ادعوا الفريق الأمريكي إلى الصين. فلقاء الفريقين أمر طبيعي جدًّا وهكذا أرادته القصة". فالفرقة التي تعدّ 15 لاعبًا هي أول فريق أمريكي زار الصين منذ عام 1949. فقام الأمريكيون بمبادرتين اثنتين على سبيل الصداقة، إحداهما في شانغهاي والثانية بحضور 18 ألف متفرّج في بكين. وإشارة إلى الاحترام وحسن الضيافة جعل اللاعبون الصينيون المتفوقون كلّ واحد من لاعبي كرة الطاولة الأمريكيين يربح شوطًا واحدًا. هكذا عومل الفريق بملاقة ممتازة. وعندما سأل رئيس الوزراء شو إن لاي في حفل استقبال المجموعة هل لديهم ما ينتقدونه عند مضيّفيهم، أجابه رئيس الاتحاد لكرة الطاولة الأمريكيّ غراهام ستينهوفن ببعض النشافة: "إنكم تقدّمون الكثير من الطعام". بعد أن عادت البعثة إلى وطنها، انطلقت محاولات التقرب الدبلوماسية. فمستشار الأمان الوطني هنري كيسنجر سافر إلى الصين. وبعد ذلك في عام 1972 لحقت الزيارة التاريخية لرئيس الولايات المتحدة ريتشارد نكسون، وتبادل العلاقات الدبلوماسية.

الفصل الثامن

شرائع السّماحة في الثقافة

الفنّ والموسيقى والمسرح والقيم الثقافيّة في ثقافات وبلدان مختلفة تقدّم منذ زمان بعيد مساهمة مهمّة لمزيد من السّماحة والاحترام تجاه أديان وأعراق وأقليات أخرى. هي تستخدم مجال حرّيّتها، وهي، منذ قرون عديدة السّباقة في سبيل التعايش.

وقائع مثاليّة

1. في عام 1999 أسّس مدير الموسيقى الإسرائيليّ دانيال بارنبويم مع العالم الفلسطينيّ إدوار سعيد مشغلاً للموسيقين الشباب من كِلا البلدين اسمه "اركسترا الديوان الغربيّ الشرقيّ". يلتقي كلّ صيف في إشبيلية بإسبانيا موسيقيّون إسرائيليّون وفلسطينيّون وإسبانيّون. فالاركسترا المختلط من الشبان قد قدّم عددًا كبيرًا من الحفلات الموسيقيّة الناجحة في قاعات كبيرة (-www.daniel.barenboim-stiftung.org).

2. في عام 2009 فتح معرض أبوابه لدى الأمم المتّحدة في جنيف، اسمه: "وطني في داخل نفسي، فنّ بلا حدود: المساهمة اليهوديّة للفنّ وللثقافة الأوربيّة". وعُرض فيه لوحات باهرة من شاغال وروتكو.

3. في عام 1996 أطلق الفنّان غونتر ديميج من كولونيا بألمانيا مشروعه "حجارة عثرة". فالآن تحيي 30 ألف حجر من البرونز مع إعلانات ذكرى ضحايا النازيّة في 650 جماعة ألمانيّة وفي هولندا وبلجيكا. توضع أمام الأبواب حيث عاش ضحايا النازيين قبل ترحيلهم وقتلهم. فيذكرهم الخالد بأسمائهم وسنة مولدهم ومكان وفاتهم، تُعاد إلى الضحايا شخصيّتهم التي سلبوها عندما كانوا مجرد أرقام في مجمّع الحصار (www.stolpersteine.eu).

4. المبادرة المدعوّة "الفنّ طريق إلى السلام" في متحف الفنون في تل أبيب تجمع أولادًا عربًا ويهودًا مع أهاليهم في المدينة لمعاطاة الرسم معًا. هذا منطلق أول صالح للحوار بين الثقافات في الأرض المقدّسة (www.tamuseum.com).

5. إنّ معرض التنوّع المتنقّل في برلين زاره في ثماني مدنٍ ألمانيّة أكثر من 35 ألف ولد مع والديهم، وبيّن في خيم لعب أوجه الخير في الاختلاف. وكانت "شرائع السماحة" جزءًا من هذه البادرة. (www.vielfalt-austellung.de). في "مركز فنون الأولاد" يصنع أولاد من كلّ الثقافات صورًا ويركّبون ألعابًا مع فنّانين في برلين (www.kinder-kuenste-zentrum.de).

6. في شهر أيار (مايو) عام 2012 نظّمت حكومة خيبر بختونخوا في مناطق العشائر الباكستانيّة المتنازع عليها حلقتين كبيرتين لدعم الثقافة والفنّ والأدب والسماحة. قال وزير الثقافة إفتيكار حُسين إنّ حكومته تريد بذلك أن تنصّي البغض والحسد وضيق العقل. فالثقافة تستطيع أن تعزّز التناغم والأخوة وقدراً من السماحة أكبر. فمنظمة وطنيّة يمكنها أن تعرّف الناس على عدم السماحة والفكر السلميّ بواسطة الفنّ والثقافة.

7. إنّ المطربة الكنديّة ألانيس موريسّات خصّصت حفلات غنائها في فلسطين وفي بيروت - لبنان وفي كوسوفو للتحريض على زيادة في السماحة.

8. خصّصت برلين مواضيع سنة 2013 لمعالجة "التعدّد المهذوم". في لافتات على عواميد دُكرت في المدينة كلّها معطيات حياة 200 شخص موهوب طُردوا من ألمانيا أو قُتلوا على يد النازيّين من السنوات 1933 إلى 1945. كان ذلك خسارة كبيرة من المواهب للبلد، وأشكال حياة مأساويّة لأقليات مضطهدة. من بينهم كان عبقرية العصر ألبرت أينشتاين. وكذلك زيغموند لوفه، مخترع التلفزيون اليهودي الحائز على التقدير الرفيع، الذي حاز عام 1930 في العاصمة الألمانيّة على الاعتراف الرسميّ باختراع وسيلة الإعلام الجديدة هذه، اضطرّ سنة 1938 إلى النزوح من برلين إلى الولايات المتّحدة. عاد بعد الحرب العالميّة الثانية إلى وطنه. وباستئناف تراثه كُنث أنا من عام 1996 إلى 1998 رئيسًا وشريكًا لشركة لوفه، وخطّطت أول تلفزيون في الأنترنت في ألمانيا باسم Xelos@media (www.loewe.de).

9. كتب جميلة جدًّا تقرّب لنا بواسطة قصص جيّدة وأشعار فكرة السماحة وحبّ الناس. أودّ أن أذكر من الكنز الكبير كتابين: الملحمة القديمة "ناتان الحكيم" بقلم غوتهولد إفرائيم لسينغ من عام 1779، التي تجري أحداثها في القدس بعد الحملة الصليبيّة الثالثة، ثمّ رواية

قصيرة للمؤلف باولو كويلو عن يهوديٍّ ومسيحيٍّ ومسلم وأفكارهم حول أسئلة البشريّة الكبرى قبل فتح القدس عام 1099، وعنوانها: كتابات من عكّا" (2013).

10. بناية متحف الجدار ببرلين في محطة شارلي للتفتيش وسّعت معرضها المستحقّ الزيارة والوحيد في العالم وأدخلت معلومات عن طرق الهرب العصبية التي سلكها مواطنو ألمانيا الشرقيّة المحصورين في سبيلهم إلى الحرية، ويعرض المنطلقات السلاميّة المختلفة لدى الأديان العالميّة والكفاح العالميّ غير العنيف في سبيل الحرية من غاندي إلى فاليسا. كلّ سنة يوزّع المتحف بإدارة ألكسندرا هلدبراندت لذكرى مؤسس هذا البيت جائزة دوليّة لتعزيز حقوق الإنسان، صورة منقوشة باسم رانير هلدبراندت.

في كانون الأوّل (ديسمبر) عام 2012 التقيتُ هناك يوكو أونو التي نالت جائزة السنة، وهي أرملة المغنّي جون لِنُون، التي منذ الستينات من القرن الماضي تعمل بنشاط والتزام سياسيٍّ كفنانة في حقل الأفكار. فالتكريم بيّن التشابك والانصهار المتزايد بين جميع الفرق السياسيّة والوطنية المختلفة في شوقهم إلى سلوك إنسانيٍّ شامل. يوكو أونو وجون لِنُون أصدرتا فيديو موسيقيّة مشتركة للأنشودة "تصوّر" عام 1971، وأبدعا إيقونة مؤثّرة، عُرضت في حفلة ختام الألعاب الأولمبية بلندن عام 2012 وقوبلت بالتصفيق الشديد.

فأنشودة جون لِنُون "تصوّر" صارت نشيد السلام والإنسانيّة والسماحة:

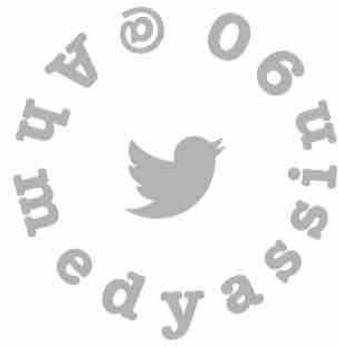
"تصوّر أنّ جميع الناس يعيشون حياتهم بسلام

لعلّك تقول إنّني حالم

لكنّي لستُ أنا الشخص الوحيد في ذلك

أمل أن تلتحق بنا يومًا،

فيمسي العالم واحدًا".



نصوير
أحمد ياسين
نوينر

@Ahmedyassin90

خاتمة

لا، ليس من الضروري أن ينخزنا ضميرٌ سيئ، عندما ننعَم برحائنا. بل ينبغي لنا أن نشعر
بمسؤوليتنا تجاه نفس وقلب قريتنا العالمية الصغيرة.

استيقظي أيتها الأكثرية الصامتة النائمة!

اعملوا بنشاط، أنتم الأشخاص الصالحون!

الدنيا لكم، ولكن فقط إن لم تتخلوا عنها للشر.

يمكننا وينبغي لنا، نعم ويجب علينا أن ننشر الخير، ورسالة تدعو إلى المزيد من الإنسانية
والعاطفة القلبية والمحبة والرحمة.

يجب علينا أن نعمل بنشاط ونعزز السماحة والاحترام تجاه الأديان والأقليات والأعراق
الأخرى، وذلك بإشارات وأفعال صغيرة كثيرة. هذا ندين به لأنفسنا ولأسرتنا والله.

بهذا نجلب لقرانا ومدننا قليلاً من ازدياد السلام، وللناس قليلاً من ازدياد السعادة، وأخيراً
لأنفسنا نحن. وذلك في عشرات السنين القليلة التي يجوز لنا أن نعيشها على الأرض.

كن إنسانياً! عامل كل شخص كما تريد أن تُعامل أنت بنفسك. عِش وفقاً لشرائع
السماحة!

لا تترك عالمك لدعاة البغض وللشر.

لا تنتظر - بل بادِر بالعمل ببساطة. في محيطك، خلّاقاً نشيطاً.

ضع حجراً صغيراً صالحاً كأول مساهمة في فسيفساء السبعة مليارات من البشر.

دعنا نخلق معاً عالماً جديداً متناغماً، عالماً للتعايش باحترام أكثر ومحبة للناس أكثر في
قريتنا العالمية. خصوصاً من أجل أولادنا ومستقبل لهم مليء بالخير.

أرجوك أن تزيد على هذه الوقائع المثالية، واكتب لنا عن أفكارك وتعايرك لشرائع

السماحة بعنوان info@codesoftolerance.com

كن أنت أيضاً مؤيداً للسماحة على الفيسبوك واليوتيوب والتويتر، وفي موقع

www.codesoftolerance.com

وعندما ينظر الله من السماء إلى أرضنا، يرى بسرور كبير أنّ خلائقه صاروا أناسًا لهم
قلب أكثر سماحة ورحمة.
انضمّ إلينا، فيضحي العالم واحدًا...

فهرس

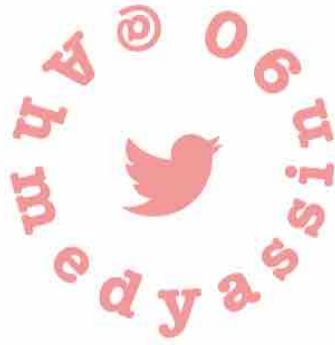
3	إهداء
5	مقدمة
9	تمهيد
23	القسم الأول: الثمار الذهبية للسماحة والاحترام في الأديان العالمية الكبرى
23	الفصل الأول: هل الإسلام بعيد عن السماحة؟
23	1. دعاة البغض والعنف
35	2. رسول الله. يتيم يبحث عن التناغم والاستنارة
35	1-2. الحقبة المكية
42	2-2. الحقبة المدينية
44	3-2. ودائع النبي
48	3. هل يحث القرآن على العنف؟
49	4. السماحة والاحترام في الإسلام
49	1-4. هدف النبي محمد: مجتمع متناغم يسود فيه السلام والحلم والإيمان الحقيقي
53	2-4. بشر بكلمة الله - لكن بدون عنف
55	3-4. السلام عليكم
55	4-4. الله هو إله جميع البشر
55	5-4. تفوق الرحمة في القرآن
61	6-4. على المسلم أن يكون متواضعًا وفاعل خير
63	7-4. احترام الضعفاء والفقراء والمكبوتين
65	8-4. احترام جميع الأجناس وكلّ البشر

67	9-4. التعامل المترقّق تجاه التصرف السيء
67	10-4. الحزم ضدّ الكابّتين والطغاة
68	11-4. معاقبة الكفّار في جهنّم
70	12-4. حرّية المعتقد الأساسيّة لأهل الكتب المقدّسة
75	1-13-4. الإسلام والنصارى
80	2-13-4. النبيّ محمّد صديق المسيحيّين وشريكهم
93	14-4. أهنّاك تسامح تجاه اليهود؟
102	15-4. معاهدات تسامح مع النصارى واليهود
120	5. التعليم حول الجهاد واستخدام العنف
126	6. فتح مكّة: مثال حقّ للمصالحة وللتفريق بين الدولة والدين
131	7. السماحة تربة ازدهار الإسلام في بغداد والأندلس
140	8. أبطال السماحة في العالم الإسلاميّ
147	9. مجموعة القطع الذهبية العشر حول السماحة في الإسلام
153	10. النبيّ محمّد في قوله: "وأنا خيركم لأهلي"
165	11. جحود الإيمان
170	12. تحريم الصور. المنازعة حول صور النبيّ، والفيلم المصوّر عن محمّد
172	13. أقضوا على تصرف المتطرفين
	الفصل الثاني: مسيرة ألفي سنة للوصول إلى التعليم الدينيّ المسيحيّ حول
179	السماحة
185	1. وصيّة محبة القريب
187	2. فرنسيس: مجدّد لبيق
188	3. بندكتس السادس عشر: يسوع وقدرة المحبة
190	4. يوحنا بولس الثاني: بابا بولونيّ قويّ يعزّز السماحة
	5. رئيس الأساقفة ألفونس نوّسل: في سبيل مصالحة حقيقيّة "بقلب
195	مفكّر وذهن محبّ"
199	6. شرائع التسامح المسيحيّة
203	7. ظلال الماضي الطويلة

204	1-7. ثلاثمائة سنة في اضطهاد المسيحيين
208	2-7. المسيحية في الحكم: عدم التسامح تجاه "الهراطقة"
	8. مؤيدو إعادة توجيه الفكر إلى محبة الله للبشر: مصلحون شجعان
212	للإيمان الحقيقي
217	9. احترام الإسلام
221	الفصل الثالث: الدين اليهودي والسماحة
228	1. البحث عن مؤيدي التصالح الشجعان في الأرض المقدسة
231	2. السماحة والاحترام في العقيدة اليهودية
237	الفصل الرابع: الهندوسية والسماحة الكبيرة
241	الفصل الخامس: البوذية والدالاي لاما اللين الجانب
245	القسم الثاني: ميثاق الأمم المتحدة وسنة السماحة
247	الفصل الأول: ميثاق الأمم المتحدة أساس نظام السماحة العالمي
253	الفصل الثاني: تصريح اليونسكو حول السماحة عام 1995
257	الفصل الثالث: مبادئ في سبيل قوانين إسلامية حديثة
263	القسم الثالث: النسبية الأخلاقية والمادية الضخمة
267	القسم الرابع: حدود السماحة

271	القسم الخامس: علم النفس والسماحة
275	القسم السادس: مبادئ لأخلاقيات عالميّة
291	القسم السابع: شرائع السماحة مع وقائع مثاليّة
295	الفصل الأول: شرائع السماحة لكل واحد منّا
299	الفصل الثاني: شرائع السماحة للوالدين
301	الفصل الثالث: شرائع السماحة للمريّين والمدارس
305	الفصل الرابع: شرائع السماحة للقادة الدينيّين
311	الفصل الخامس: شرائع السماحة لوسائل الإعلام والصحفيّين
317	الفصل السادس: شرائع السماحة لأصحاب الأمر السياسيّين
323	الفصل السابع: شرائع السماحة في حقل الرياضة البدنيّة
327	الفصل الثامن: شرائع السماحة في الثقافة
331	خاتمة
333	فهرس





نصوير

أحمد ياسين

نوينر

@Ahmedyassin90

هل فقد عالمنا عقله وضوابطه؟ كيف نستطيع أن نصدّ الإرهابيين الذي يحتكرون الحقيقة ويقتلون باسم الله ونحصر المتشدّدين؟ أين يفتح مجال للسماحة والاحترام؟ للمحبّة والسلام في قريتنا العالميّة؟ ما هي القواعد التي خلفها لنا حكماء وأنبياء الأديان السالفة منذ آلاف السنين في سبيلنا لكي نحيا معاً في قريتنا الشاملة بالمحبّة والاحترام؟ ما هي المبادئ والقواعد والأسس ومناهج السماحة والتصرّفات المثاليّة التي يمكنها أن تنشّط الاحترام تجاه الأديان الأخرى والأقليّات والشعوب الإثنيّة؟ بماذا تبشّر الديانات العالميّة بالنسبة إلى السماحة تجاه من يعتنق تفكيراً مختلفاً؟ بماذا يسعني أنا أن أساهم في سبيل عالم متناغم؟

أسئلة كثيرة يثيرها كتاب «قانون التسامح» ويسعى إلى التعرف أو حتى تلمس ملامح إجابات لها من واقع الحفر في تاريخ المعرفة البشرية، ومسارات الديانات الكبرى، ويتوقف كثيراً لدى محطات تاريخية للإسلام الذي مورس باسمه وتمسحاً بكتابه المقدس أبشع الجرائم الوحشية، من قتل وتدمير وحرق وإقصاء للآخر، وارتكاب فظائع في أنحاء متفرقة من العالم، في العراق وسوريا وأفغانستان، وغيرها من بقاع العالم التي شهدت عمليات إرهابية طيلة الفترة من 11 سبتمبر 2001 وحتى 2014.

عمل د. هوفمان مستشاراً للبرلمان الأوروبي لشئون الأمن والدفاع لعدة سنوات.

وكان باحث في مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية بجامعة جورج تاون وقد حصل د. هوفمان على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة بون بألمانيا، وكذلك عمل بالمحاماه. وكان د. هوفمان عضواً ممثلاً لألمانيا في اللجنة التنفيذية لحلف شمال الاطلنطي (الناتو).

وفي عام 1981 تم تكريم د. هوفمان في مسقط رأسه بمدينة جوزلر/ هارز بجائزة عن تقاريره الصحفية التي كتبها لحلف الناتو. وقد ألف د. هوفمان كتابان عن الاسلحة النووية الاول عام 1980 والثاني عام 1986.

احد اهم الانشطة التي اهتم بها د. هوفمان هي اعلاء ما يسميه "قانون التسامح" والاهتمام بتقديمه للعالم في صورة قواعد للأباء والطلاب والصحفيين رجال الدين والسياسين من خلال اعلاء قيمة احترام الآخر.

